نهاية الأرب

في

فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري

المتوفى ٧٣٣ هـ

الجزء الخامس والعشرون

تحقيق

الأستاذ عبد المجيد ترحيني

منشورات

محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب السابع
من القسم الخامس من الفن الخامس
في أخبار من نهض في طلب الخلافة من الطالبيين
في مدة الدولتين الأموية والعباسية

محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن عليّ
ابن أبي طالب وأخوه إبراهيم

ونحن نذكر سبب ظهورهما وما كان من أمرهما وما اتفق لأولاد الحسن رضي الله عنه بسبب ذلك، ثم نذكر ظهور محمد وما اتفق له، إلى أن قتل، وظهور إبراهيم بعده، وما كان من خبره وحروبه ومقتله، وما يتصل بذلك فنقول:

كان سبب ظهورهما أنّ محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي هذا، كان يدّعي أنّ أبا جعفر المنصور كان ممّن بايعه، لمّا تشاور بنو هاشم بمكة فيمن يعقدون له الخلافة، عند اضطراب أمر مروان بن محمد الحمار، فلما قامت الدولة العباسية وبويع السفاح، واتفق حج المنصور في سنة ست وثلاثين ومائة سأل عنهما، فقال له زياد بن عبيد الله الحارثي: ما يهمك من أمرهما؟ أنا آتيك بهما، وكان معه بمكة، فردّه المنصور إلى المدينة، فلما استخلف المنصور لم يكن همّه إلا أمر محمد، والمسألة عنه وما يريد، فدعا بني هاشم رجلاً رجلاً يسأل كل واحد سرّا عنه، فكلهم يقول قد علم أنّك عرفته بطلب هذا الأمر، فهو يخافك على نفسه، وهو لا يريد لك خلافًا، وما أشبه هذا الكلام، إلا الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب فإنه أخبره خبره، وقال: والله ما آمن وثوبه عليك، فإنه لا ينام عنك، فأيقظ بكلامه مَنْ لم ينم عنه، وزاده ذلك حرصًا على طلبه، وشدةً في طلبه، وكان موسى بن عبد الله بن حسن يقول بعد ذلك: اللهم اطلب حسن بن زيد بدمائنا.

ثم ألحّ المنصور على عبد الله بن حسن في إحضار ابنه محمد سنة حج، فقال عبد الله لسليمان بن علي بن عبد الله بن عبّاس: يا أخي بيننا من الصهر والرحم ما تعلم، فما ترى؟ فقال سليمان: والله لكأنّي أنظر إلى أخي عبد الله بن علي حين حال الستر بيننا وبينه، وهو يشير إلينا، إن هذا الذي فعلتم بي، فلو كان المنصور عافيًا عن أحد عفا عن عمّه، يشير إلى خبر المنصور لما حبس عمه عبد الله بن علي، فقبل عبد الله بن حسن رأي سليمان، وعلم أنه قد صدقه ولم يظهر ابنه.

ثم شرع المنصور في إعمال الفكرة، والتوصل إلى أن يطّلع على حقيقة خبر محمد بن عبد الله، وجعل عليه العيون والمراصد، وتوصل بكل طريق، حتى إنه اشترى رقيقًا من رقيق الأعراب، وأعطى الرجل منهم البعير، والرجل البعيرين، والرجل الذود[١]، وفرّقهم في طلب محمد في ظهر المدينة، فكان الرجل منهم يرد الماء كالمارّ وكالضالّ فيسألون عنه؛ وبعث المنصور عينًا وكتب معه كتابًا على ألسن الشيعة إلى محمد، يذكرون طاعتهم ومسارعتهم، وبعث معه بمال وألطاف[٢]، فقدم الرجل المدينة فدخل على عبد الله بن حسن، وسأله عن ابنه محمد فكتم خبره، فتردّد إليه الرجل وألحّ في المسألة فذكر له أنّه في جبل جهينة[٣]، وقال له: أمرر بعلي بن حسن، الرجل الصالح الذي يدعى الأغرّ، وهو بذي الأبر[٤]، فهو يرشدك إليه، فأتاه فأرشده، وكان للمنصور كاتبٌ على سرّه يتشيع، فكتب إلى عبد الله بن حسن يخبره بخبر ذلك العين[٥]، فلما قدم الكتاب ارتاع له، وبعث إلى محمد ابنه وإلى علي بن حسن يحذرهما الرجل، وأرسل بذلك أبا هَبَّار، فخرج أبو هَبَّار فنزل بعلي بن حسن وأخبره، ثم سار إلى محمد بن عبد الله في موضعه الذي هو به، فإذا هو جالس في كهف ومعه جماعة من أصحابه، وذلك العين معهم أعلاهم صوتًا وأشدّهم انبساطًا، فلما رأى أبا هَبَّار خافه، فقال أبو هبار لمحمد: إنّ لي حاجة، فقام معه فأخبره الخبر، قال: فما الرأي؟ قال: أرى إحدى ثلاث، قال: وما هي؟ قال: تدعني أقتل هذا الرجل، قال: ما أنا بمقارف دمًا إلا مكرهًا، قال: أثْقِلْه حديدًا، وتنقله معك

---

(١) الذود: القطيع من الإبل بين الثلاث إلى العشر.

(٢) ألطاف: جمع اللطف، وهي الهدية.

(٣) جهينة: قرية كبيرة من نواحي الموصل على دجلة، وهي أول منزل لمن يريد بغداد من الموصل... وجهينة: قلعة بطبرستان حصينة مكينة عالية في السحاب... (معجم البلدان).

(٤) الأبر: بضمتين: من مياه بني نمير، ويعرف بأبر بني الحجاج... (معجم ياقوت).

(٥) العين: الجاسوس.

حيث تنقَّلْت، قال: وهل بنا فراغ مع الخوف والإعجال؟ قال: تشدّه وتودعه عند بعض أهلك من جهينة، قال: هذه إذنْ، فرجعا فلم يريا الرجل، فقال محمد: أين الرجل؟ قالوا: قام بركوة[1] فيها ماء وتوارى، فطلبوه فلم يجدوه فكأنّ الأرض التأمت عليه، وسعى على قدميه حتى اتصل بالطريق، فمرّ به أعرابي معه حمولة إلى المدينة، فقال له: فرّغ هذه الغرارة[2] وأدخلنيها أكن عِدْلاً لصاحبتها، ولك كذا وكذا ففعل، وحمله حتى أقدمه المدينة، ثم قدم على المنصور فأخبره الخبر كلّه، ونسي اسم أبي هَبَّار وكنيته، فقال: وبر، فكتب أبو جعفر في طلب وبر المرّي، فحُمل إليه فسأله عن قصة محمد، فحلف أنّه لا يعرف من ذلك شيئًا، فأمر به فضرب سبعمائة سوط، وحبس حتى مات المنصور.

ثم أحضر المنصور عُقْبة بن سَلْم الأزْدِي، فقال له: إني أريدك لأمرٍ أنا به مَعْنِيٌّ، لم أزل أرتاد له رجلاً عسى أن تكونه، وإن كفيتنيه رفعتُك؟ فقال: أرجو أن أصدق ظنّ أمير المؤمنين فِيَّ، قال: فاخف شخصك واستر أمرك، وَأْتِني يوم كذا وكذا في وقت كذا، فأتاه في ذلك الوقت، فقال له: إنّ بني عمّنا قد أبوا إلا كيدًا لملكنا واغتيالاً له، ولهم شيعة بخراسان بقرية كذا، يكاتبونهم ويرسلون إليهم بصدقات أموالهم وألطاف من ألطاف بلادهم، فاخرج بكتبي وبمال وألطاف، حتى تأتيهم متنكرًا بكتاب تكتبه عن أهل هذه القرية، ثم تعلم حالهم فإن كانوا نزعوا[3] عن رأيهم فأَحْبِبْ والله بهم وأقرِبْ، وإن كانوا على رأيهم علمتُ ذلك وكنتُ على حذر، فاشخصْ حتى تلقى عبد الله بن حسن متخشعًا متقشفًا، فإن جبهك - وهو فاعل - فاصبر وعَاوِدْه، حتى يأنس بك وتلين لك ناحيته، فإذا ظهر لك ما قِبَله فعجِّلْ إليّ؛ فشخص عقبة حتى قدم على عبد الله بن حسن، فلقيه بالكتاب فأنكره ونهره، وقال: ما أعرف هؤلاء القوم، فلم يزل يتردد إليه حتى قبل كتابه وألطافه وأنس به، فسأله عقبة الجواب فقال: أمّا الكتاب فإنّي لا أكتب إلى أحد، ولكن أنت كتابي إليهم، فأقرهم السلام وأعلمهم أنّ ابنيّ خارجان لوقت كذا وكذا، فرجع عقبة إلى المنصور وأعلمه الخبر، فأنشأ المنصور الحجّ، وقال لعقبة: إذا لقيني بنو حسن فيهم عبد الله بن حسن، فأنا مكرمه ورافع مجلسه وداعٍ بالغداء، فإذا فرغنا من طعامنا فلحظتُك فامثلْ بين يديه قائمًا، فإنه سينصرف بصره عنك، فاستَدِرْ حتى تغمز ظهره بإبهام رجلك،

---

(١) الركوة: إناء صغير من جلد يشرب فيه الماء؛ أو هي الدلو الصغيرة.
(٢) الغرارة: وعاء من الخيش ونحوه يوضع فيه القمح ونحوه، وهو أكبر من الجوالق.
(٣) نزع عن الأمر: كفّ وانتهى.

حتى يملأ عينه منك ثم حسبك، وإياك أن يراك ما دام يأكل؛ وخرج المنصور إلى الحج، فلما لقيه بنو حسن أجلس عبد الله إلى جانبه، ثم دعا بالغداء فأصابوا منه ثم رفع، فأقبل المنصور على عبد الله بن حسن فقال له: قد علمتَ ما أعطيتني من العهود والمواثيق ألاَّ تبغيني سوءًا، ولا تكيد لي سلطانًا، قال: فأنا على ذلك يا أمير المؤمنين، فلحظ المنصورُ عُقْبَةَ بن سَلْم، فاستدار حتى وقف بين يدي عبد الله، فأعرض عنه، فاستدار حتى قام وراء ظهره فغمزه بأصبعه، فرفع رأسه فملأ عينه منه، فوثب حتى قعد بين يدي المنصور، وقال: أقلني يا أمير المؤمنين أقالك الله، قال: لا أقالني الله إن أقلتك، ثم أمر بحبسه.

وكان محمد قد قدم قبل ذلك البصرة فنزلها في بني راسب، يدعو إلى نفسه، وقيل نزل على عبد الله بن شيبان ـ أحد بني مُرَّة بن عُبَيْد، ثم خرج منها، فبلغ المنصور مقدمه البصرة، فسار إليها مجدًا، فلقيه عمرو بن عُبَيْد، فقال له: يا أبا عثمان، هل بالبصرة أحد نخافه على أمرنا؟ قال: لا، قال: فأقتصرُ على قولك وأنصرف؟ قال: نعم، وكان محمد قد سار عنها قبل مقدم المنصور، فرجع المنصور واشتد الخوف على محمد وإبراهيم ابني عبد الله، فخرجا حتى أتيا عَدَن، ثم صارا إلى السند ثم إلى الكوفة ثم إلى المدينة.

وكان المنصور حجّ سنة أربعين ومائة، فقسم أموالاً عظيمة في آل أبي طالب، فلم يظهر محمد وإبراهيم، فسأل أباهما عبد الله عنهما فقال: لا علم لي بهما، فتغالظا فأمَصَّه[١] المنصور، فقال امصص كذا وكذا من أمك!! فقال عبد الله: يا أبا جعفر بأي أمهاتي تمصّني!! أبفاطمة بنت رسول الله ﷺ؟! أم بفاطمة بنت الحسين بن علي؟! أم بأم إسحاق بنت طلحة؟! أم بخديجة بنت خُوَيلِد؟! قال لا بواحدة منهن، ولكن بالجرباء بنت قَسَامَة بن زهير، وهي امرأة من طيىء، فقال المُسَيَّب بن زُهَير: يا أمير المؤمنين دعني أضرب عنق ابن الفاعلة، فقام زياد بن عبيد الله فألقى عليه رداءه، وقال: هَبْه لي يا أمير المؤمنين، فأنا أستخرج لك ابنيه، فخلّصه.

وكان محمد وإبراهيم ابنا عبد الله قد تغيّبا حين حجّ المنصور سنة أربعين ومائة عن المدينة، وحجّا أيضًا، فاجتمعوا كلهم بمكة وأرادوا اغتيال المنصور، فقال لهم الأشتر[٢] عبد الله بن محمد: أنا أكفيكموه، فقال محمد: لا والله لا أقتله عيلة أبدًا حتى

(١) أمصّ فلانًا: قال له: يا مصّان؛ ويقال في الشتم للرجل: يا مصّان.

(٢) الأشتر: هو مالك بن الحارث بن عبد يغوث بن مسلمة بن ربيعة بن الحارث بن جذيمة... (الاشتقاق لابن دريد ص٤٠٤).

أدعوه، فنقض ما كانوا أجمعوا عليه، وكان قد دخل معهم قائد من قواد المنصور من أهل خراسان ـ اسمه خالد بن حسّان يدعى أبا العساكر ـ على ألف رجل، فنمي الخبر إلى المنصور فطُلِب القائد فلم يظفر به، وظفر بأصحابه فقتلهم، وأما القائد فإنه لحق بمحمد بن عبد الله فسيّره إلى خراسان، ومعه ابنه عبد الله بن محمد، ثم إن المنصور حثّ زياد بن عبيد الله على طلب محمد وإبراهيم، فضمن له ذلك ووعده به، فقدم محمد بن عبد الله المدينة قدمة، فبلغ ذلك زيادًا فتلطّف له وأعطاه الأمان، على أن يظهر وجهه للناس، فوعده محمد ذلك، فركب زياد مغلسًا[١] ووعد محمدًا سوق الظهر، وركب محمد فتصايح الناس: يا أهل المدينة، المهديَّ المهديّ، فقف هو وزياد فقال زياد: يا أيها الناس هذا محمد بن عبد الله بن حسن، ثم قال: إلحق بأي بلاد الله شئت، فتوارى محمد؛ وسمع المنصور الخبر فأرسل أبا الأزهر في جُمادى الآخرة سنة إحدى وأربعين ومائة إلى المدينة، وأمره: أن يستعمل على المدينة عبد العزيز بن المطّلب، وأن يقبض زيادًا وأصحابه ويسير بهم إليه، فقدم أبو الأزهر المدينة ففعل ما أمره، وأخذ زيادًا وأصحابه وسار بهم نحو المنصور، وخلّف زياد ببيت مال المدينة ثمانين ألف دينار، فسجنهم المنصور ثم مَنَّ عليهم بعد ذلك.

واستعمل المنصور على المدينة محمد بن خالد بن عبد الله القَسْري، وأمره بطلب محمد بن عبد الله وبسط يده بالنفقة في طلبه، فقدم المدينة في شهر رجب سنة إحدى وأربعين ومائة، فأخذ المال، ورفع في محاسبته أموالاً كثيرة أنفقها في طلب محمد، فاستبطأه المنصور واتهمه، فكتب إليه يأمره بكشف المدينة وأعراضها، فطاف ببيوت الناس فلم يجد محمدًا، فلما رأى المنصور ما قد أخرج من الأموال ولم يظفر بمحمد استشار أبا السُّعْلاء ـ رجلاً من قيس عيلان ـ في أمر محمد وأخيه، فقال: أرى أن تستعمل رجلاً من ولد الزبير أو طلحة فإنهم يطلبونهما بِذَحْلٍ[٢]، ويخرجونهما إليك، فقال: قاتلك الله، ما أجود ما رأيت!! والله ما خفي عليّ هذا، ولكنّي أعاهد الله ألاّ أنتقم من بني عمي وأهل بيتي بعدوّي وعدوّهم، ولكنّي أبعث عليهم صعيليكًا من العرب يفعل بهم ما قلت، فاستشار يَزيد بن أُسَيْد السُّلَمِي، وقال له: دلّني على فتى مقلّ من قيس أغنيه وأشرّفه، وأمكّنه من سيد اليمن ـ يعني ابن القسري ـ قال: نعم، رِبَاح بن عثمانِ بن حَيَّان المُريّ، فسيّره المنصور أميرًا على المدينة في شهر رمضان سنة أربع وأربعين ومائة؛ وقيل إنّ رياحًا

(١) المغلس: الذي يسير بغلس؛ والغلس: ظلمة آخر الليل إذا اختلطت بضوء الصباح.
(٢) الذحل: الثأر؛ أو هي العداوة والحقد.

ضمن للمنصور أن يُخرج محمدًا وإبراهيم ابني عبد الله، إنْ استعمله على المدينة، فاستعمله عليها، فسار حتى دخلها، فلما دخل دار مروان، وهي التي كان ينزلها الأمراء قال لحاجب كان له، يقال له أبو البَخْتَري[١]، هذه دار مروان؟ قال: نعم، قال: أما إنّها مِحْلال مِظْعان، ونحن أول من يظعن منها، فلما تفرّق الناس عنه قال لحاجبه أبي البختري: خذ بيدي فدخل على هذا الشيخ ـ يعني عبد الله بن الحسن ـ فدخلا عليه، فقال له رياح: أيها الشيخ، إن أمير المؤمنين ـ والله ـ ما استعملني لرحم قريبة، ولا ليدٍ سلفت إليه منّي، والله لا لَعِبْتَ بي كما لعبْتَ بزياد وابن القسري، والله لأزهقنَّ نفسك أو لتأتينّي بابنيك محمد وإبراهيم، فرفع عبد الله رأسه إليه وقال نعم، أما والله إنّك لأُزَيْرِق قيس المذبوح فيها كما تذبح الشاة، قال أبو البخْترِي: فانصرف ـ والله ـ رياح آخذًا بيدي أجدّ برديده[٢]، وإنّ رجليه لتخطّان الأرض ممّا كلمه، قال: فقلت له: إن هذا ما اطّلع على الغيب، قال: إيهًا ويلك، فوالله ما قال إلا ما سمع، فذبح كما تذبح الشاة، ثم إنه دعا القسري وسأله عن الأموال، فضربه وسجنه، وجدّ رياح في طلب محمد، فأخبر أنّه في شعب من شعاب رضوى[٣]، جبل جهينة، وهو في عمل ينبع، فأمر عامله بطلب محمد، فطلبه بالخيل والرجل، ففزع منه محمد فهرب راجلًا فأفلت، وله ابن صغير وُلد في خوفه ذلك، وهو مع جارية له، فسقط من الجبل فتقطع، فقال محمد:

مُنْخَرِق السربال يشكو الوَجَى	تنكبه أطرافُ مَرْوٍ حداد[٤]
شرّده الخوف فأزرى به	كذاك من يكره حرَّ الجلاد
قد كان في الموت له راحةٌ	والموتُ حتمٌ في رقاب العباد

قال: وبينا رياح يسير بالحرّة إذ لقي محمدًا، فعدل محمد إلى بئر هناك فجعل يستقي، فقال رياح: قاتله الله أعرابيًا ما أحسن ذراعه.

---

(١) هو أبو البختري وهب بن وهب بن وهب بن كثير بن عبد الله بن زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب، القرشي الأسدي المدني... كان فقيهًا أخباريًا ناسبًا جوادًا سريًا سخيًا يحب المديح ويثيب عليه العطاء الجزيل... (وفيات الأعيان ٦: ٣٧).

(٢) قد يراد بالرديد: الهياج الشديد.

(٣) رضوى: هو جبل بالمدينة، والنسبة إليه رضويّ، ورضوى: جبل عند ينبع لجهينة بينه وبين الحوراء.

(٤) الوجى: رقة القدم أو الحافر من كثرة المشي.

ذكر حبس أولاد الحسن

قد ذكرنا أن المنصور حبس عبد الله بن حسن، وقيل إن رياحًا هو الذي حبسهم، حُكي عن علي بن عبد الله بن محمد بن عمر بن علي أنه قال: حضرنا باب رياح في المقصورة، فقال الآذن: مَنْ كان ههنا من بني حسن فليدخل، فدخلوا من باب المقصورة، وخرجوا من باب مروان، ثم قال: مَنْ كان ههنا من بني حسن فليدخل، فدخلوا من باب المقصورة، ودخل الحدادون من باب مروان، فدعا بالقيود فقيّدهم وحبسهم، وكانوا: عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي، وحسن وإبراهيم ابني حسن، وحسن بن جعفر بن حسن بن حسن، وسليمان وعبد الله ابني داود بن حسن بن حسن، ومحمد وإسماعيل وإسحاق بني إبراهيم بن حسن بن حسن، وعباس بن حسن بن حسن، فلما حبسهم لم يكن فيهم علي بن حسن بن حسن بن علي العابد، فلما كان الغد بعد الصبح وإذا برجل قد أقبل متلففًا، فقال له رياح: مرحبًا بك ما حاجتك؟ قال: جئتك لتحبسني مع قومي، فإذا هو علي بن حسن بن حسن، فحبسه معهم.

وكان محمد قد أرسل ابنه عليًا إلى مصر يدعو إليه، فبلغ خبره عامل مصر، وقيل له إنّه على الوثوب بك، والقيام عليك بمن شايعه، فقبضه وأرسله إلى المنصور، فاعترف له وسمّى أصحاب أبيه، وكان فيمن سمّى عبد الرحمٰن بن أبي الموال وأبو جبير، فضربهما المنصور وحبسهما وحبس عليًا، فبقي محبوسًا إلى أن مات؛ وكتب المنصور إلى رياح أن يحبس معهم محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفّان المعروف بالديباج، وكان أخا عبد الله بن حسن بن حسن لأمه ـ أمهما جميعًا فاطمة بنت الحسين بن علي رضي الله عنهما؛ فأخذه معهم، وقيل إن المنصور حبس عبد الله بن حسن بن حسن بن علي وحده وترك باقي أولاد حسن، فترك حسن بن حسن بن حسن خضابه حتى نصّل[1] حزنًا على أخيه عبد الله، فكان المنصور يقول: ما فعلت الحادّة؟ ومرّ حسن بن حسن بن حسن على إبراهيم بن حسن وهو يعلف إبلًا فقال: أتعلف إبلك وعبد الله محبوس!! يا غلام ـ أطلق عُقُلَها ففعل، ثم صاح في أدبارها فلم يوجد منها بعير، فلما طال حبس عبد الله بن حسن قال عبد العزيز بن سعيد للمنصور: تُطمع في خروج محمد وإبراهيم وبنو حسن مخلّون؟! والله للواحد منهم أهيب في صدور الناس من الأسد، فكان ذلك سبب حبس الباقين في سنة أربع وأربعين.

(١) نصّل الخضاب: زال.

ذكر حملهم إلى العراق

قال المؤرخ: ولما حجّ المنصور في سنة أربع وأربعين ومائة أرسل محمد بن عمران بن إبراهيم بن محمد بن طلحة ومالك بن أنس إلى بني الحسن وهم في الحبس، يسألهم أن يدفعوا إليه محمدًا وإبراهيم ابني عبد الله، فدخلا عليهم وعبد الله قائم يصلّي فأبلغاهم الرسالة، فقال حسن بن حسن أخو عبد الله: هذا عمل ابني المشؤومة!! أما والله ما هذا عن رأينا ولا عن ملأٍ منّا ولا لنا فيه حيلة فقال له أخوه إبراهيم: علام تؤذي أخاك في ابنيه؟! وتؤذي ابن أخيك في أمه؟! ثم فرغ عبد الله من صلاته فأبلغاه الرسالة، فقال: والله، لا أرد عليكما حرفًا، إن أحبّ أن يأذن لي فألقاه فليفعل، فانطلق الرسولان إلى المنصور فأبلغاه قوله، فقال: أراد أن يسحرني لا والله لا ترى عينه عيني حتى يأتيني بابنيه، وكان عبد الله بن حسن لا يحدّث أحدًا قط إلا فتله[1] عن رأيه.

ثم سار المنصور لوجهه، فلما حجّ ورجع لم يدخل المدينة ومضى إلى الربذة[2]، فخرج إليه رياح إلى الربذة فردّه إلى المدينة، وأمره بإشخاص بني حسن إليه، ومعهم محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان أخو بني حسن لأمهم، فرجع رياح وأخذهم وسار بهم إلى الربذة، وجعلت القيود في أرجلهم وأعناقهم، وجعلهم في محامل بغير وطاء، ولما خرج بهم رياح من المدينة وقف جعفر بن محمد من خلف ستر يراهم ولا يرونه، وهو يبكي ودموعه تجري على لحيته وهو يدعو الله، ثم قال: والله، لا تحفظ لله حرمه بعد هؤلاء، ولما ساروا كان محمد وإبراهيم ابنا عبد الله يأتيان كهيئة الأعراب، فيسايران أباهما ويستأذنانه في الخروج، فيقول: لا تعجلا حتى يمكنكما ذلك وقال لهما إنْ منعكما أبو جعفر أن تعيشا كريمين، فلا يمنعكما أن تموتا كريمين، فلما وصلوا إلى الربذة أدخل محمد بن عبد الله العثماني على المنصور، وعليه قميص وإزار رقيق، فلما وقف بين يديه قال: إيهًا يا ديوث، قال محمد: سبحان الله!! والله لقد عرفتني بغير ذلك صغيرًا وكبيرًا، قال: فمِمَّنْ حملت ابنتك رقيّة؟ وكانت تحت إبراهيم بن عبد الله بن حسن، وقد أعطيتني الأيمان ألاّ تغشني، ولا تمالىء عليّ عدوًا، وأنت ترى ابنتك حاملاً وزوجها غائب!! فأنت بين أن تكون

(١) فتله عن رأيه: صرفه ولواه.

(٢) الربذة: بفتح أوله وثانيه، وذال معجمة مفتوحة أيضًا: من قرى المدينة على ثلاثة أيام قريبة من ذات عرق على طريق الحجاز إذا رحلت من فيد تريد مكة... (معجم البلدان).

حانثًا أو ديوثًا، وأيم الله إني لأهمّ برجمها، قال محمد: أما إيماني فهي عليّ؛ إنْ كنت دخلت لك في أمر غش علمتُه، وأما ما رميتَ به هذه الجارية فإنّ الله قد أكرمها بولادة رسول الله ﷺ إيّاها، ولكني ظننتُ حين ظهر حملها أنّ زوجها ألَمّ بها على حين غفلة منّا، فاغتاظ المنصور من كلامه، وأمر بشقّ ثيابه وإزاره فبدت عورته، ثم أمر به فضرب خمسين ومائة سوط، فبلغت منه كل مبلغ والمنصور يفتري عليه لا يكنّي، فأصاب سوط منها وجهه، فقال: ويحك!! اكفف عن وجهي، فإنّ له حرمة برسول الله ﷺ، فأغرى المنصور فقال للجلاد: الرأس الرأس، فضرب على رأسه نحوًا من ثلاثين سوطًا، وأصاب إحدى عينيه سوط فسالت، ثم أخرج وكأنه زنجي من الضرب، وكان من أحسن الناس، وكان يكنى الديباج لحسنه، فلما أخرج وثب إليه مولى له فقال: ألا أطرح ردائي عليك، قال: بلى جزيت خيرًا، والله لشقّ إزاري أشدّ عليّ من الضرب. وكان سبب أخذه أنّ رياحًا قال للمنصور: يا أمير المؤمنين، أمّا أهل خراسان فشيعتك، وأمّا أهل العراق فشيعة آل أبي طالب، وأما أهل الشام فوالله ما عَلِيٌّ عندهم إلا كافر، ولكن محمد بن عبد الله العثماني لو دعا أهل الشام ما تخلّف عنه منهم أحد، فوقعت في نفس المنصور فأمر به فأخذ معهم، وكان حسن الرأي فيه قبل ذلك.

ثم إنّ أبا عون كتب إلى المنصور أنّ أهل خراسان قد تقاعسوا عنّي، وطال عليهم أمر محمد بن عبد الله العثماني، فأمر المنصور به فقتل، وأرسل رأسه إلى خراسان، وأرسل معه من يحلف أنه رأس محمد بن عبد الله، وأنّ أمّه فاطمة بنت الحسين بن علي، فلما قتل قال أخوه عبد الله بن الحسن: إنا لله!! إن كنّا لنأمن به في سلطانهم، ثم قد قُتل بنا في سلطاننا. قال: ثم سار بهم المنصور من الربذة فمرّ بهم وهو على بغلة شقراء، فناداه عبد الله بن حسن: يا أبا جعفر، ما هكذا فعلنا بأسراكم يوم بدر، فأخسأه أبو جعفر وتفل عليه ومضى، فلما قدموا إلى الكوفة قال عبد الله لمن معه: ألا ترون في هذه القرية من يمنعنا من هذا الطاغية!! قال: فلقيه الحسن وعليّ ابنا حيّ مشتملين على سيفين، فقالا له: قد جئناك يا ابن رسول الله، فمرنا بالذي تريد، قال: قد قضيتما ما عليكما، ولن تغنيا في هؤلاء شيئًا فانصرفا، فانصرفا، ثم إن المنصور أودعهم بقصر ابن هبيرة شرقي الكوفة، وأحضر المنصور محمد بن إبراهيم بن حسن، وكان أحسن الناس صورة، فقال له: أنت الديباج الأصغر؟ قال: نعم، قال: لأقتلنّك قتلة لم أقتلها أحدًا، ثم أمر به فبنى عليه أسطوانة وهو حيّ، فمات فيها، وهو أول من مات منهم، ثم عبد الله بن حسن، ثم مات

علي بن حسن؛ وقيل إن المنصور أمر بهم فقتلوا، وقيل بل أمر بهم فسقوا السمّ، وقيل وضع المنصور على عبد الله مَنْ قال له: إنّ ابنه محمدًا قد خرج وقتل، فانصدع قلبه فمات والله أعلم، ولم ينج منهم إلا سليمان وعبد الله ابنا داود بن حسن بن حسن، وجعفر بن حسن، وبقيّتهم ماتوا في حبس المنصور.

ذكر ظهور محمد بن عبد الله ابن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب

كان ظهوره بالمدينة لليلتين بقيتا من جُمادى الآخرة سنة خمس وأربعين ومائة، وقيل بل كان في رابع عشر رمضان منها. وكان سبب خروجه أن المنصور لما حمل أهله إلى العراق، وسار من الربذة، ردّ رياحًا إلى المدينة أميرًا عليها، فألحّ في طلب محمد، وأرهقه الطلب يومًا فتدلّى في بئر في المدينة، يناول أصحابه الماء، وانغمس في الماء إلى حلقه، وكان بدنه لا يخفى لعظمه، وبلغ رياحًا خبره أنه بالمذاد[1]، فركب نحوه في جنده، فتنحّى محمد عن طريقه واختفى في دار الجُهَنيّة، فحيث لم يره رياح رجع إلى دار مروان، فلما اشتد الطلب على محمد خرج قبل وقته، وكان قد واعد أخاه إبراهيم أنّه يخرج لوقت عَيَّنه بالمدينة، ويخرج إبراهيم بالبصرة، وقيل بل خرج لميعاده مع أخيه، وإنما أخوه تأخّر لجدري لحقه.

وكان عبيد الله بن عمرو بن أبي ذؤيب وعبد الحميد بن جعفر يقولون لمحمد بن عبد الله: ما تنتظر بالخروج؟ فوالله ما على هذه الأمة انتقام منك، اخرج ولو لوحدك، فحرّكه ذلك للخروج أيضًا، وأتى رياحًا الخبر: أنّ محمدًا خارج الليلة، فأحضر محمد بن عمران بن إبراهيم بن محمد قاضي المدينة والعباس بن عبد الله بن الحارث بن العباس وغيرهما عنده، فصمت طويلاً ثم قال لهم: يا أهل المدينة، أمير المؤمنين يطلب محمدًا في شرق الأرض وغربها، وهو بين أظهركم، أقسم بالله: لئن خرج لأقتلنّكم أجمعين، وقال لمحمد بن عمران: أنت قاضي أمير المؤمنين فادع عشيرتك، فجمع بني زهرة فجاؤوا في جمع كبير، فأجلسهم بالباب، وأرسل فأخذ نفرًا من العلويين وغيرهم، فيهم: جعفر بن محمد بن علي بن الحسين، وحسين بن علي بن حسين بن علي، وحسن بن علي بن حسين بن علي، ورجال من قريش

---

(١) المذاد: بالفتح، وآخره دال مهملة، موضع بالمدينة حيث حفر الخندق النبيّ ﷺ.. وقيل: المذاد واد بين سلع وخندق المدينة... (معجم البلدان).

فيهم: إسماعيل بن أيوب بن سَلَمَة بن عبد الله بن الوليد بن المُغِيرة وابنه خالد، فبينا هم عنده إذ ظهر محمد فسمعوا التكبير، فقال ابن مُسْلم بن عُقْبَة المُرّي[١]: أطعني في هؤلاء واضرب أعناقهم، فقال له الحسين بن علي بن الحسين بن علي: والله، ما ذاك إليك، إنّا لَعلى السمع والطاعة، وأقبل محمد من المَذَاد في مائة وخمسين رجلاً في بني سَلَمَة تفاؤلاً بالسلامة، وقصد السجن فكسر بابه وأخرج مَنْ فيه، وممّن كان فيه محمد بن خالد بن عبد الله القسري وابن أخيه النَّذَيْر بن يزيد ورزام فأخرجهم، وجعل على الرجّالة خَوَّات بن بُكَيْر بن خَوَّات بن جُبَير، وأتى دار الإمارة وهو يقول لأصحابه: لا تقتلوا لا تقتلوا، فامتنع منهم رياح فدخلوا من باب المقصورة، وأخذوا رياحًا أسيرًا وأخاه عباسًا وابن مسلم بن عقبة المرّي، فحبسهم في دار الإمارة، ثم خرج إلى المسجد فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

أما بعد فإنّه قد كان من أمر هذه الطاغية ـ عدوّ الله أبي جعفر؛ ما لم يخف عليكم، من بنائه القبة الخضراء التي بناها معاندة لله في ملكه، وتصغيرًا للكعبة الحرام، وإنما أخذ الله فرعون حين قال: أنا ربكم الأعلى، وإنّ أحقّ الناس بالقيام في هذا الأمر أبناء المهاجرين والأنصار المواسين، اللهم إنّهم قد أحلُّوا حرامك وحرّموا حلالك، وأمّنوا مَنْ أخفت، وأخافوا مَنْ أمَّنت؛ اللهم فاحصهم عددًا، واقتلهم بددًا، ولا تغادر منهم أحدًا؛ أيها الناس: إنّي والله ما خرجت بين أظهركم، وأنتم عندي أهل قوّة ولا شدّة، ولكنّي اخترتكم لنفسي، والله ما جئتُ هذه وفي الأرض مصرٌ يُعبد الله فيه إلا أُخذ لي فيه البيعة.

وكان المنصور يكتب إلى محمد بن عبد الله على ألسن قواده، يدعونه إلى الظهور ويخبرونه أنهم معه، فكان محمد يقول هذا، ويقول: لو التقينا مال القوّاد كلهم إليّ، واستولى محمدٌ على المدينة، واستعمل عليها عثمان بن محمد بن خالد بن الزبير، وعلى قضائها عبد العزيز بن المطلب بن عبد الله المخزومي[٢]، وعلى بيت السلاح عبد العزيز الدَّرَاوَرْدِي، وعلى الشرط أبا القَلَمَّس عثمان بن عبيد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، وعلى ديوان العطاء عبد الله بن جعفر بن عبد الرحمٰن بن

---

(١) هو من قبائل مرة بن عوف؛ ووالده مسلم هو الذي اعترض أهل المدينة فقتلهم يوم الحرة في طاعة يزيد بن معاوية. . . (الاشتقاق).

(٢) نسبة إلى بني مخزوم، وبنو مخزوم: بطن من لؤي بن غالب، من قريش. منهم: خالد بن الوليد رضي الله عنه. . ومنهم: سعيد بن المسيب التابعي المشهور. . . (نهاية الأرب للقلقشندي).

المِسْوَر بن مَخْرمَة؛ وقيل كان على شرطته عبد الحميد بن جعفر فعزله، وأرسل محمد إلى محمد بن عبد العزيز: إن كنتُ لأظنّك ستنصرنا وتقوم معنا، فاعتذر إليه وقال افعل، ثم انسلّ منه وأتى مكة، ولم يتخلّف عن محمد أحد من وجوه الناس، إلا نفر منهم الضَحَّاك بن عثمان بن عبد الله بن حزام، وعبد الله بن المُنْذِر بن المغيرة بن عبد الله بن خالد، وأبو سَلَمة بن عبيد الله بن عبد الله بن عمر، وخُبَيْب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير.

وكان أهل المدينة قد استفتوا مالك بن أنس في الخروج مع محمد، وقالوا: إنّ في أعناقنا بيعة لأبي جعفر، فقال: إنما بايعتم مكرهين، وليس على مكره يمين، فأسرع الناس إلى محمد، ولزم مالكٌ بيته، وأرسل محمد إلى إسماعيل بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وكان شيخًا كبيرًا، فدعاه إلى بيعته فقال: يا ابن أخي، أنت والله مقتول فكيف أبايعك!! فارتدع الناس عنه قليلاً، وكان بنو معاوية بن عبد الله بن جعفر قد أسرعوا إلى محمد، فأتت حمّادة ابنة معاوية إلى إسماعيل بن عبد الله، وقالت له يا عم: إن إخوتي قد أسرعوا إلى ابن خالهم، وإنّك إنْ قلت هذه المقالة ثبّطتَ الناس عنهم، فيُقتل ابن خالي وإخوتي، فأبى إسماعيل إلا النهي عنه، فيقال إن حَمَّادة عَدَتْ عليه فقتلته، فأراد محمد الصلاة عليه فمنعه عبد الله بن إسماعيل، وقال: أتأمر بقتل أبي وتصلّي عليه!! فنحّاه الحرس وصلّى عليه محمد.

ولما ظهر محمد كان محمد بن خالد القَسْري في حبس رياح فأطلقه، قال محمد بن خالد: لما سمعت دعوة محمد التي دعا إليها على المنبر، قلت: هذه دعوة حق، والله لأبْلِيَنَّ الله فيها بلاءً حسنًا، فقلت: يا أمير المؤمنين، إنّك قد خرجت بهذا البلد، والله لو وقف على نقب من أنقابه أحد، مات أهله جوعًا وعطشًا، فانهض معي فإنما هي عشر حتى أضربه بمائة ألف سيف، فأبى عليّ، فبينما أنا عنده إذ قال: ما وجدنا من حرّ المتاع شيئًا أجود من شيء وجدناه عند ابن أبي فروة ختن أبي الخصيب، وكان انتهبه، قال: فقلت له: ألا أراك قد أبصرت حرّ المتاع، فكتبت إلى المنصور فأخبرته بقلة من معه، فأخذني محمد فحبسني حتى أطلقني عيسى بن موسى بعد قتله إياه. وكان رجل من آل أويس بن أبي سرح العامري ـ عامر بن لؤي ـ اسمه الحسين بن صخر بالمدين لمّا ظهر محمد، فسار من ساعته إلى المنصور فبلغه في تسعة أيام، فقدم ليلاً فقام على أبواب المدينة، فصاح حتى علموا به فأدخلوه، فقال له الربيع: ما حاجتك هذه الساعة وأمير المؤمنين نائم؟ قال: لا بدّ لي منه، فدخل الربيع على المنصور فأخبره خبره، وأنّه قد طلب مشافهته فأذن له، فدخل عليه فقال:

يا أمير المؤمنين، خرج محمد بن عبد الله بالمدينة، قال: قتلتُه والله؛ إنْ كنت صادقًا، قال: أخبرني مَن معه؟ فسمّى له من معه من وجوه أهل المدينة وأهل بيته، قال: أنت رأيته؟ قال: أنا رأيته وعاينته وكلمته على منبر رسول الله ﷺ جالسًا، فأدخله أبو جعفر بيتًا، فلما أصبح جاءه رسول لسعيد بن دينار ـ غلام عيسى بن موسى يلي أمواله بالمدينة، فأخبره بأمر محمد وتواترت عليه أخباره، فأخرج الأويسي فقال: لأوطئنّ الرجال عقبيك ولأغنينّك، وأمر له بتسعة آلاف درهم، لكل ليلة ألف درهم، وأشفق من محمد، فقال له الحارثي المنجّم: يا أمير المؤمنين، ما يجزعك منه؟! فوالله لو ملك الأرض ما لبث إلا تسعين يومًا، فأرسل المنصور إلى عمّه عبد الله بن علي وهو محبوس: إن هذا الرجل قد خرج فإن كان عندك رأي فأشر به علينا، وكان ذا رأي عندهم، فقال: إن المحبوس محبوس الرأي، فأرسل إليه المنصور: لو جاءني حتى يضرب بابي ما أخرجتك، وأنا خير لك منه، وهو ملك أهل بيتك، فأعاد إليه عبد الله: ارتحل الساعة حتى تأتي الكوفة، فاجثم على أكبادهم فإنّهم شيعة أهل هذا البيت وأنصارهم، ثم احْفُفْها بالمسالح[1]، فمن خرج منها إلى وجه من الوجوه، أو أتاها من وجه من الوجوه، فاضرب عنقه، وابعث إلى سَلْم بن قتيبة ينحدر إليك وكان بالريّ، واكتب إلى أهل الشام فمرهم: أن يحملوا إليك من أهل البأس والنجدة ما حمل البريد، فأحسِنْ جوائزهم ووجّههم مع سلم، ففعل. وقيل أرسل المنصور إلى عبد الله إخوته يستشيرونه في أمر محمد، وقال لهم: لا يعلم عبد الله أنّي أرسلتكم إليه، فلمّا دخلوا عليه قال: لأمرٍ ما جئتم، ما جاء بكم جميعًا وقد هجرتموني جميعًا؟! قالوا: استأذنّا أمير المؤمنين فأذن لنا، قال: ليس هذا بشيء، فما الخبر؟ قالوا: خرج محمد بن عبد الله، قال: فما ترون ابن سلامة صانعًا ـ يعني المنصور؟ قالوا: لا ندري والله، قال: إنّ البخل قد قتله، فمروه فليخرج الأموال، وليعط الأجناد، فإن غَلَب فما أسرع ما يعود إليه ماله، وإن غُلِب لم يقدم صاحبُه على دينار ولا درهم.

قال: ولمّا ورد الخبر على المنصور بخروج محمد، كان قد خطَّ مدينة بغداد بالقصب، فسار إلى الكوفة ومعه عبد الله بن الربيع بن عبيد الله بن عبد المدان، فقال له المنصور: إنّ محمدًا قد خرج بالمدينة، فقال عبد الله: هَلَك والله وأهْلَكَ، خرج في غير عدد ولا رجال. حَدثني سعيد بن عمر بن جعدة المخزومي قال: كنت مع

(١) المسالح: واحدتها المسلحة، وهي كل موضع مخافة يقف فيه الجند بالسلاح للمراقبة والمحافظة.

مروان يوم الزاب واقفًا فقال لي مروان: من هذا الذي يقاتلني؟ قلت: عبد الله بن علي بن عبد الله بن العباس، قال: وددت والله أنّ علي بن أبي طالب يقاتلني مكانه، إنّ عليًا وولده لاحظَ لهم في هذا الأمر، وهذا رجل من بني هاشم وابن عم رسول الله ﷺ، ومعه ريح الشام ونصر الشام، يا ابن جعدة: تدري ما حملني على أن عقدتُ لعبد الله وعبيد الله بعدي، وتركتُ عبد الملك وهو أكبر من عبيد الله، قال ابن جعدة: لا، قال: وجدتُ الذي يلي هذا الأمر عبد الله وعبيد الله، وكان عبيد الله أقرب إلى عبد الله من عبد الملك فعقدتُ له، فاستحلفه المنصور على صحة ذلك فحلف له فسُرّي عنه.

قال: ولما بلغ المنصور خبر ظهور محمد قال لأبي أيوب وعبد الملك: هل من رجل تعرفانه بالرأي نجمع رأيه إلى رأينا؟ قالا بالكوفة: بُدَيْل بن يحيى، وكان السفّاح يشاوره، فأرسل إليه، وقال له: إنّ محمدًا قد ظهر بالمدينة! قال: فاشْحِنْ الأهواز بالجنود، قال: إنّه إنما ظهر بالمدينة، قال: قد فهمت، وإنما الأهواز الباب الذي تؤتون منه، فلما ظهر إبراهيم بالبصرة قال له المنصور ذلك، قال: فعاجِلْه بالجنود واشغل الأهواز عليه، وشاور المنصور أيضًا جعفر بن حَنْظَلَة البَهْرَاني عند ظهور محمد قال: وَجِّهْ الجند إلى البصرة، قال: انصرف عنّي حتى أرسل إليك، فلما صار إبراهيم إلى البصرة أرسل إليه، فقال له ذلك فقال: إياها خفت، بادِرْهُ بالجنود، قال: وكيف خفت البصرة؟ قال: لأن محمدًا ظهر بالمدينة وليسوا أهل حرب، بحسبهم أن يقيموا شأن أنفسهم، وأهل الكوفة تحت قدمك، وأهل الشام أعداء آل أبي طالب، فلم يبق إلا البصرة.

ثم إن المنصور كتب إلى محمد بن عبد الله كتابًا ابتدأه بأن قال:

بسم الله الرحمٰن الرحيم ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٣٣]، ولك عهد الله وميثاقه وذمة رسول الله ﷺ أن أؤمّنك وجميع ولدك وإخوتك وأهل بيتك ومَنْ اتبعكم على دمائكم وأموالكم وأُسوِّغك ما أصبتَ من دم أو مال وأعطيك ألف ألف درهم، وما سألتَ من الحوائج وأنزلك من البلاد حيث شئت، وأن أطلق مَنْ في حبسي من أهل بيتك، وأن أؤمّن كل مَنْ جاءك وبايعك واتبعك أو دخل في شيء من أمرك، ثم لا أتبع أحدًا منهم بشيء كان منه أبدًا، فإنْ أردتَ أن تتوثّق لنفسك فوجِّهْ من أحببت يأخذ لك من الأمان والعهد والميثاق ما تتوثّق به والسلام.

فكتب إليه محمد: بسم الله الرحمٰن الرحيم ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ۝٦﴾ [القصص: ١ ـ ٦]، وأنا أعرض عليك من الأمان مثل ما عرضت عليّ، فإنّ الحق حقنا، وإنما ادّعيتم هذا الأمر لنا، وخرجتم له بشيعتنا، وحظيتم بفضلنا، فإن أبانا عليًا كان الوصي، وكان الإمام، فكيف ورثتم ولايته وولده أحياء، ثم قد علمتَ أنه لم يطلب الأمر أحد له مثل نسبنا وشرفنا وحالنا وشرف آبائنا، لسنا من أبناء اللعناء ولا الطرداء ولا الطلقاء، وليس يمُتُّ أحد من بني هاشم بمثل الذي نمُتُّ به من القرابة والسابقة والفضل ـ وإنّا بنو أم رسول الله ﷺ ـ فاطمة بنت عمرو في الجاهلية، وبنو بنت رسول الله ﷺ ـ فاطمة في الإسلام ـ دونكم إنَّ الله اختارنا واختار لنا، فوالدنا من النبيّين محمد ﷺ أفضلهم، ومن السّلف أوّلهم إسلامًا علي بن أبي طالب، ومن الأزواج أفضلهم خديجة الطاهرة، وأوّل من صلّى إلى القبلة، ومن البنات خيرهن فاطمة سيّدة نساء أهل الجنّة، ومن المولودين في الإسلام حسن وحسين سيّدا شباب أهل الجنة، وإن هاشمًا ولد عليًا مرتين، وإنَّ عبد المطلب ولد حسنًا مرّتين، وإنَّ رسول الله ﷺ ولدني مرّتين، من قِبَل حسنٍ وحسين، وإني أوسط بني هاشم نسبًا، وأصرحهم أمًا وأبًا، لم تعرّق[1] فيّ العجمة، ولم تنازع فيّ أمّهات الأولاد، فما زال يختار لي الآباء والأمّهات في الجاهلية والإسلام، حتى اختار لي في النار، فأنا ابن أرفع الناس درجة في الجنة، وأهونهم عذابًا في النار، فلك ذمّة الله عليّ، إن دخلتَ في طاعتي، وأجبت دعوتي، أن أؤمّنك على نفسك ومالك، وعلى كل حدث أحدثته، إلا حدًا من حدود الله أو حقًا لمسلم أو مُعَاهِد، فقد علمتَ ما يلزمني من ذلك، وأنا أولى بالأمر منك وأوفى بالعهد، لأنك أعطيتني من الأمان والعهد ما أعطيته رجالاً قبلي، فأي الأمانات تعطيني؟ أمان ابن هبيرة!! أم أمان عمّك عبد الله بن علي!! أم أمان أبي مسلم!!

فلما ورد كتابه على المنصور قال له أبو أيوب المُورَيَاني[2]: دعني أجبه عنه، قال: لا، إذا تقارعنا على الأحساب دعني وإياه، ثم كتب إليه المنصور:

---

(١) عرق في العجمة: كان له أصل فيها.

(٢) نسبة إلى موريان، وهي قرية من نواحي خوزستان. وأبو أيوب المورياني: هو سليمان بن أبي سليمان بن أبي مجالد، قتله المنصور. . . (معجم البلدان).

بسم الله الرحمٰن الرحيم أما بعد فقد بلغني كلامك، وقرأت كتابك فإذا جلّ فخرك بقرابة النساء، لتضلّ به الجفاة والغوغاء، ولم يجعل الله النساء كالعمومة والآباء، ولا كالعَصَبَة[1] والأولياء، لأن الله جعل العم أبًا، وبدأ به في كتابه على الوالدة الدنيا، ولو كان اختار الله لهن على قدر قرابتهنّ، لكانت آمنة أقربهنّ رحمًا، وأعظمهنّ حقًا، وأولى من يدخل الجنة غدًا، ولكن اختيار الله لخلقه على علمه فيما قضى فيهم واصطفائه لهم؛ وأمّا ما ذكرتَ من فاطمة أم أبي طالب وولادتها، فإن الله لم يرزق أحدًا من ولدها الإسلام، لا بنتًا ولا ابنًا، ولو أن رجلًا رزق الإسلام بالقرابة رُزِقه عبد الله، ولكان أولاهم بكل خير في الدنيا والآخرة، لكنَّ الأمر لله يختار لدينه من يشاء، قال الله عزّ وجل: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [القصص: ٥٦]، ولقد بعث الله محمدًا ﷺ وله عمومة أربعة، فأنزل الله عزّ وجل: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤]، فأنذرهم ودعاهم فأجاب اثنان أحدهما أبي، وأبى اثنان أحدهما أبوك، فقطع الله ولايتهما منه، فلَم يجعل بينه وبينهما إلاًّ[2] ولا ذمة ولا ميراثًا؛ وزعمت أنك ابن أخف أهل النار عذابًا، وابن خير الأشرار، وليس في الكفر بالله صغير، ولا في عذاب الله خفيف ولا يسير، وليس في الشر خيار، ولا ينبغي لمؤمن - يؤمن بالله - أن يفخر بالنار، وسترد فتعلم ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾ [الشعراء: ٢٢٧]؛ وأما أمر حسن وأن عبد المطلب ولده مرتين، وأن النبيّ ولدك مرتين، فخير الأوّلين والآخرين رسول الله ﷺ لم يلده هاشم إلا مرة، ولا عبد المطلب إلا مرة؛ وزعمت أنك أوسط بني هاشم نسبًا وأصرحهم أمًا وأبًا، وأنه لم تلدك العجم، ولم تعرّق فيك أمّهات الأولاد، فقد رأيتك فخرت على بني هاشم طرًا، فانظر ويحك أين أنت من الله غدًا!! فإنك قد تعدّيْت طورك، وفخرت على من هو خير منك - نفسًا وأبًا وأوّلاً وآخرًا - إبراهيم ابن رسول الله ﷺ، وما خيار بني أبيك خاصة وأهل الفضل منهم إلا بنو أمّهات الأولاد، ما ولد فيكم بعد وفاة رسول الله ﷺ أفضل من علي بن حسين، وهو لأم ولد ولهو خير من جدّك حسن بن حسن، وما كان فيكم بعده مثل محمد بن علي، وجدّته أم وَلد، ولهو خير من أبيك، ولا مثل ابنه جعفر وجدّته أم ولد، وهو خير منك؛ وأما قولك إنكم بنو رسول الله ﷺ فإن الله تعالى يقول في كتابه ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ. . .﴾ [الأحزاب: ٤٠]، ولكنكم بنو ابنته وإنها لقرابة قريبة، ولكنّها لا تجوّز الميراث ولا ترث الولاية، ولا تجوز لها الإمامة

(١) عصبة الرجل: بنوه وقرابته لأبيه. (٢) الإل: العهد.

فكيف يورّث بها، ولقد طلبها أبوك بكل وجه، فأخرج فاطمة رضي الله عنها نهارًا، ومرّضها سرًا ودفنها ليلاً، فأبى الناس إلا الشيخين، ولقد جاءت السنة التي لا اختلاف فيها بين المسلمين: أن الجد أبا الأم والخال والخالة لا يُوَرّثون؛ وأمّا ما فخرت به من عَلِيّ وسابقته، فقد حضرت رسول الله ﷺ الوفاة فأمر غيره بالصلاة، ثم أخذ الناس رجلاً بعد رجل فلم يأخذوه، وكان في الستّة فتركوه كلهم دفعًا له، ولم يروا له حقًا فيها؛ وأما عبد الرحمٰن فقدّم عليه عثمان، وقتل عثمان وهو له مُتَّهم، وقاتله طلحة والزبير، وأبى سَعْد بيعته وأغلق بابه دونه، ثم بايع معاوية بعده؛ ثم طلبها بكل وجه وقاتل عليها، وتَفرّق عنه أصحابه، وشكّ فيه شيعته قبل الحكومة، ثم حكم حكمين رضي بهما، وأعطاهما عهد الله وميثاقه، فاجتمعا على خلعه، ثم كان حسن فباعها من معاوية بخرق ودراهم، ولحق بالحجاز وأسلم شيعته بيد معاوية، ودفع الأمر إلى غير أهله، وأخذ مالاً من غير حلَه، فإن كان لكم فيها شيء فقد بعتموه وأخذتم ثمنه، ثم خرج عمك حسين على ابن مرجانة، فكان الناس معه عليه، حتى قتلوه وأتوا برأسه إليه؛ ثم خرجتم على بني أمية، فقتلوكم وصلبوكم على جذوع النخل، وأحرقوكم بالنيران ونفوكم من البلدان، حتى قتل يحيى بن زيد بخراسان، وقتلوا رجالكم وأسروا الصبية والنساء، وحملوكم بلا وطاء في المحامل، كالسبي المجلوب إلى الشام، حتى خرجنا عليهم وطلبنا بثأركم، وأدركنا بدمائكم وأورثناكم أرضهم وديارهم، وسَنَّيْنا سلفكم وفَضَّلْناه فاتخذتَ ذلك علينا حجة، وظننت أنَا إنما ذكرنا أباك وفضَلناه للتقدِمة منّا له، على حمزة والعباس وجعفر، وليس ذلك كما ظننت، ولكن خرج هؤلاء من الدنيا سالمين، متسلمًا منهم مجتمعًا عليهم بالفضل، وابتلي أبوك بالقتال والحرب، وكانت بنو أمية تلعنه كما تلعن الكفرة في الصلاة المكتوبة، فاحتججنا عليهم وذكرناهم فضله، وعنفناهم وظلّمناهم بما نالوا منه. ولقد علمتَ أن مكرمتنا في الجاهلية سقاية الحاج الأعظم وولاية زمزم، فصارت للعباس من بين إخوته، فنازعنا فيها أبوك فقضى لنا عليه عمر، فلم نزل نليها في الجاهلية والإسلام، ولقد قحط أهل المدينة، فلم يتوسل عمر إلى ربّه ولم يتقرّب إليه إلا بأبينا، حتى نعشهم الله وسقاهم الغيث، وأبوك حاضر لم يتوسل به، ولقد علمتَ أنه لم يبق أحد من بني عبد المطلب بعد النبي ﷺ غيره، فكانت وراثته من عمومته، ثم طلب هذا الأمر غير واحد من بني هاشم، فلم ينله إلا ولده، فالسقاية سقايته، وميراث النبي ﷺ له، والخلافة في ولده، فلم يبق شرف ولا فضل في جاهلية ولا إسلام - في دنيا ولا آخرة - إلا والعباس وارثه ومُوَرِّثه. أمّا ما ذكرت من بدر فإنّ الإسلام جاء، والعباس يمون أبا طالب وعياله، وينفق عليهم للأزمة التي أصَابته،

ولولا أن العبّاس أخرج إلى بدرٍ كارهًا لمات طالب وعقيل جوعًا، ولَلَحِسَا جفان عتبة وشيبة، ولكنه كان من المطعمين، فأذهب عنكم العار والسُّبة، وكفاكم النفقة والمؤونة، ثم فدا عقيلاً يوم بدر، فكيف تفخر علينا وقد علناكم في الكفر، وفديناكم وحزنا عليكم مكارم الآباء، وورثنا دونكم خاتم الأنبياء، وطلبنا بثأركم فأدركنا منه ما عجزتم عنه، ولم تدركوا لأنفسكم، والسلام عليكم ورحمة الله.

وكان محمد قد استعمل الحسن بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب على مكة، والقاسم بن إسحاق على اليمن، وموسى بن عبد الله على الشام، فأما الحسن والقاسم فسارا إلى مكة، فخرج إليها السريّ بن عبد الله، عامل المنصور على مكة، فلقيهما ببطن أذاخر[1] فهزماه، ودخل الحسن مكة وأقام بها يسيرًا، فأتاه كتاب محمد بن عبد الله يأمره بالمسير إليه فيمن معه، ويخبره بمسير عيسى بن موسى إليه ليحاربه، فسار إليه من مكة هو والقاسم، فبلغه بنواحي قُدَيْد[2] قَتْلُ محمد، فهرب هو وأصحابه وتفرّقوا، فلحق الحسن بإبراهيم فأقام عنده حتى قتل إبراهيم، واختفى القاسم بالمدينة حتى أخذت له ابنة عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن جعفر امرأة عيسى الأمان له ولإخوته معاوية وغيره، وأما موسى بن عبد الله فسار نحو الشام ومعه رزام مولى محمد بن خالد القسري، فانسلّ منه رزام بتيماء[3]، وسار إلى المنصور برسالة من مولاه محمد القسري، فظهر محمد بن عبد الله على ذلك فحبس محمد القسري، ووصل موسى إلى الشام فرأى منهم سوء ردّ عليه وغلظة، فكتب إلى محمد:

أخبرك أني لقيت الشام وأهله، فكان أحسنهم قولاً الذي قال: والله لقد مللنا البلاء، وضقنا حتى ما فينا لهذا الأمر موضع، ولا لنا به حاجة؛ ومنهم طائفة تحلف لئن أصبحنا من ليلتنا أو أمسينا من غدٍ ليرْفَعُنَّ أمرنا؛ فكتبت إليك، وقد غيّبت وجهي، وخفت على نفسي.

---

(١) أذاخر: بالفتح، والخاء المعجمة مكسورة؛ قال ابن إسحاق: لما وصل رسول الله ﷺ مكة، عام الفتح، دخل من أذاخر حتى نزل بأعلى مكة، وضربت هناك قبته... (معجم البلدان).

(٢) قديد: تصغير القد: اسم موضع قرب مكة، قال ابن الكلبي: لما رجع تبع من المدينة بعد حربه لأهلها نزل قديدًا فهبّت ريح قدّت خيم أصحابه فسمي قديدًا.

(٣) تيماء: بالفتح والمد: بليد في أطراف الشام، بين الشام ووادي القرى، على طريق حاج الشام ودمشق.

ثم رجع إلى المدينة، وقيل أتى البصرة، وأرسل صاحبًا له يشتري له طعامًا فاشتراه، وجاء به على حمّال أسود، فأدخله الدار التي سكنها وخرج، فلم يكن بأسرع من أن كبست الدار، وأُخذ موسى وابنه عبد الله وغلامه فحملوا إلى محمد بن سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس، فلما رأى موسى قال: لا قرّب الله قرابتكم، ولا حَيَّا وجوهكم، تركت البلاد كلها إلا بلدًا أنا فيه!! فإن وصلتُ أرحامكم أغضبت أمير المؤمنين، وإن أطعته قطعت أرحامكم، ثم أرسلهم إلى المنصور، فأمر بضرب موسى وابنه كل واحد خمسمائة سوط فلم يتأوّها، فقال المنصور: عذرت أهل الباطل في صبرهم، فما بال هؤلاء!! فقال موسى: أهل الحق أولى بالصبر، ثم أخرجهم وأمر بهم فسجنوا.

ذكر مسير عيسى بن موسى لقتال محمد بن عبد الله بن حسن وقتل محمد

قال: ثم إن المنصور أحضر ابن أخيه عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، وأمره بالمسير إلى المدينة لقتال محمد بن عبد الله بن حسن، فقال: شاوِرْ عمومتك يا أمير المؤمنين، قال: فأين قول ابن هرمة[1]: [من الطويل]

نـزور امـرأً لا يـمـخـض الـقـوم سـرّه ... ولا ينتجي الأدنين فيما يحاول[2]
إذا ما أتى شيئًا مضى كالذي أتى ... وإنْ قال إني فاعلٌ فهو فاعل

فقال المنصور: امض أيها الرجل - فوالله ما يراد غيري وغيرك، وما هو إلا أن تشخص أنت أو أشخص أنا، فسار وسيّر معه الجنود، وكان عيسى ولي عهد المنصور إذ ذاك؛ فقال المنصور حين سار عيسى: لا أبالي أيهما قتل صاحبه؛ وبعث معه محمد بن أبي العباس السفاح، وكثير بن حُصَين العبدي، وحُميد بن قحطبة، وهزار مرد وغيرهم، وقال له المنصور حين ودّعه: يا عيسى، إنّي أبعثك إلى ما بين هذين، وأشار إلى ما بين جنبيه، فإن ظفرت بالرجل فاغمد سيفك، وابذل الأمان، وإن تغيّب فضَمِّنْهم إياه فإنّهم يعرفون مذاهبه، ومن لقيك من آل أبي طالب، فاكتب إليّ باسمه،

---

(١) هو أبو إسحاق إبراهيم بن هرمة وهو من الخلج من قيس عيلان، وابن هرمة آخر الشعراء الذين يحتج بقولهم.. وهو من مخضرمي الدولتين، مدح الوليد بن يزيد ثم أبا جعفر المنصور، وكان مولعًا بالشراب... (شرح ديوان الحماسة للتبريزي ٢:٧٣).

(٢) مخض الرأي: قلّبه وتدبر عواقبه حتى ظهر وجهه.

ومن لم يلقك فاقبض ماله، وكان جعفر الصادق تغيّب عنه، فقبض ماله، فلما قدم المنصور المدينة قال له جعفر في معنى ماله، فقال: قبضه مهديّكم، فلما وصل عيسى إلى فَيْد[١] كتب إلى الناس في خرق الحرير، منهم عبد العزيز بن المطلب المخزومي، وعبيد الله بن محمد بن صفوان الجُمَحِي، وكتب إلى عبد الله بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب، يأمره بالخروج من المدينة فيمن أطاعه، فخرج هو وعمر بن محمد بن عمر، وأبو عقيل محمد بن عبد الله بن محمد بن عقيل فأتوا عيسى.

قال: ولما بلغ محمدًا قرب عيسى من المدينة، استشار أصحابه في الخروج من المدينة والمقام بها، فأشار بعضهم بالخروج عنها، وبعضهم بالمقام بها، لقول رسول الله ﷺ: رأيتُني في درع حصينة فأوّلتُها المدينة، فأقام ثم استشارهم في حفر خندق رسول الله ﷺ، فقال له جابر بن أنَس - رئيس سُلَيم - يا أمير المؤمنين: نحن أخوالك وجيرانك وفينا السلاح والكراع[٢]، فلا تخندق الخندق، فإن رسول الله ﷺ خندقه لمّا أعلمه الله به، وإن خندقته لم يحسن القتال رجالةً، ولم توجّه لنا الخيل بين الأزقة، وأن الذين نخندق دونهم هم الذين يحول الخندق دونهم؛ فقال له أحد بني شُجَاع: خندق رسول الله ﷺ فاقتد أنت به، وتريد أن تدع أثر رسول الله ﷺ لرأيك!! قال: إنه والله - يا ابن شُجاع - ما شيء أثقل عليك وعلى أصحابك من لقائهم، وما شيء أحبّ إلينا من مناجزتهم[٣]، فقال محمد: إنما اتّبعنا في الخندق أثر رسول الله ﷺ، فلا يردّني أحد عنه فلست بتاركه، فأمر به فحفر، وبدأ هو فحفر بنفسه الخندق، الذي حفره رسول الله ﷺ للأحزاب، وسار عيسى حتى نزل الأعوص[٤]، وكان محمد قد جمع الناس وأخذ عليهم الميثاق: ألا يخرج منهم أحد، ثم خطبهم فقال:

---

(١) فيد: بالفتح ثم السكون، ودال مهملة: بليدة في نصف طريق مكة من الكوفة عامرة إلى الآن يودع الحاج فيها أزوادهم وما يثقل من أمتعتهم عند أهلها، فإذا رجعوا أخذوا أزوادهم ووهبوا لمن أودعوها شيئًا من ذلك... (معجم البلدان).

(٢) الكراع: اسم يجمع الخيل والسلاح.

(٣) ناجزه الحرب: نازله وقاتله.

(٤) الأعوص: بفتح الواو، والصاد مهملة: موضع قرب المدينة.. والأعوص: واد في ديار باهلة لبني حصن منهم، ويقال الأعوصين... (معجم ياقوت).

إنّ عدوّ الله وعدوّكم قد نزل الأعوص، وإنّ أحق الناس بالقيام بهذا الأمر، لأبناء المهاجرين والأنصار، ألا وإنّا قد جمعناكم وأخذنا عليكم الميثاق، وعدوّكم في عدد كثير، والنصر من الله والأمر بيده، وأنّه قد بدا لي أن آذن لكم، فمن أحبّ منكم أن يقيم أقام، ومن أحبّ أن يظعن ظعن[1]؛ فخرج عالم كثير، وخرج ناس من أهل المدينة بذراريهم وأهليهم إلى الأعراض والجبال، وبقي محمد في شرذمة يسيرة، فأمر أبا القَلَمَّس بردّ من قدر عليه، فأعجزه كثير منهم فتركهم.

قال: وكان المنصور قد أرسل ابن الأصم مع عيسى بن موسى ينزله المنازل، فلما قدموا نزلوا على ميل من المدينة، فقال ابن الأصم: إن الخيل لا عمل لها مع الرجّالة، وإنّي أخاف إنْ كشفوكم كشفة أن يدخلوا عسكركم، فتأخروا إلى سقاية سليمان بن عبد الملك بالجُرْف وهو على أربعة أميال من المدينة، وقال: ولا يهرول الراجل أكثر من ميلين أو ثلاثة حتى تأخذه الخيل، وأرسل عيسى خمسمائة رجل إلى بطحاء ابن أزهر - على ستة أميال من المدينة - فأقاموا بها، وقال: أخاف أن ينهزم محمد فيأتي مكة، فيردّه هؤلاء، فكانوا بها حتى قتل محمد، وأرسل عيسى إلى محمد يخبره أن المنصور أمّنه وأهله، فأعاد الجواب: يا هذا، إنّ لك برسول الله ﷺ قرابة قريبة، وإني أدعوك إلى كتاب الله وسنّة نبيّه والعمل بطاعته، وأحذرك نقمته وعذابه، وإني والله ما أنا بمنصرف عن هذا الأمر حتى ألقى الله عليه، وإياك أن يقتلك من يدعوك إلى الله: فتكون شر قتيل، أو تقتله فيكون أعظم لوزرك. فلما بلغته الرسالة قال عيسى: ليس بيننا وبينه إلا القتال؛ وقال محمد للرسول: علام تقتلوني؟ وإنما أنا رجل فرّ من أن يقتل، قال: إن القوم يدعونك إلى الأمان، فإن أبيت إلا قتالهم قاتلوك، على ما قاتل عليه خير آبائك طلحة والزبير، على نكث بيعتهم وكيد ملكه.

قال: ونزل عيسى بالجرْف لاثنتي عشرة خلت من شهر رمضان سنة خمس وأربعين ومائة وذلك يوم السبت، فأقام السبت والأحد وغدا يوم الاثنين فوقف على سَلْع[2]، فنظر إلى المدينة ومن فيها، ونادى يا أهل المدينة: إنّ الله تعالى حرّم دماء بعضنا على بعض، فهلمُّوا إلى الأمان، فمن قام تحت رايتنا فهو آمن، ومن ألقى سلاحه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن خرج من المدينة فهو آمن،

---

(١) ظعن: سار وارتحل.

(٢) سلع: بفتح أوله، وسكون ثانيه: جبل بسوق المدينة، قال الأزهري: موضع بقرب المدينة. وسلع أيضًا: حصن بوادي موسى عليه السلام، بقرب بيت المقدس... (معجم البلدان).

خلّوا بيننا وبين صاحبنا فإمّا لنا وإمّا له. فشتموه فانصرف من يومه وعاد من الغد، وقد فرّق القوّاد من سائر جهات المدينة، وأخلى ناحية مسجد أبي الجرّاح وهو على بُطْحان، أخلى تلك الناحية لخروج من ينهزم، وبرز محمد في أصحابه ورايته مع عثمان بن محمد بن خالد بن الزبير، وكان شعاره: أحد أحد، فبرز أبو القَلَمَّس وهو من أصحاب محمد، فبرز إليه أخو أسد، فاقتتلوا طويلاً فقتله أبو القلمّس، وبرز إليه آخر فقتله، وقال حين ضربه: خذها وأنا ابن الفاروق، فقال رجل من أصحاب عيسى: قتلتَ خيرًا من ألف فاروق، وقاتل محمد يومئذ قتالاً عظيمًا، فقتل بيده سبعين رجلاً، وأمر عيسى حُمَيد بن قحطبة فتقدم في مائة كلهم راجل سواه، فزحفوا حتى بلغوا جدارًا دون الخندق، عليه ناس من أصحاب محمد، فهدم حُميد الحائط وانتهى إلى الخندق، ونصب عليه أبوابًا وعبر هو وأصحابه عليها، فجازوا الخندق وقاتلوا مَنْ وراءه أشد قتال من بكرة النهار إلى العصر، وأمر عيسى أصحابه فألقوا الحقائب وغيرها في الخندق، وجعل الأبواب عليها وجازت الخيل، فاقتتلوا قتالاً شديدًا، وانصرف محمد فاغتسل وتحنّط ثم رجع، فقال له عبد الله بن جعفر: بأبي أنت وأمّي، والله ما لك بما ترى طاقة أتيت الحسن بن معاوية بمكة فإنّ معه جلّ أصحابك!! فقال: لو خرجتُ لقُتل أهل المدينة، والله لا أرجع حتى أقتل أو أُقتل، وأنت منّي في سعة فاذهب حيث شئت، فمشى معه قليلاً ثم رجع عنه، وتفرّق عنه جل أصحابه، حتى بقي في ثلاثمائة رجل يزيدون قليلاً، فقال بعض أصحابه: نحن اليوم بعدة أهل بدر؛ وصلّى محمد الظهر والعصر، وكان معه عيسى بن خُضَير وهو يناشده: إلا ذهب إلى البصرة أو غيرها، ومحمد يقول: لا والله لا تُبتلون بي مرّتين، ولكن اذهب أنت حيث شئتَ، فقال ابن خضير: وأين المذهب عنك!؟ ثم مضى فأحرق الديوان، الذي فيه أسماء مَنْ بايعهم، وقتل رياح بن عثمان وأخاه عباس بن عثمان، وقتل ابن مُسْلِم بن عُقْبَة المُرسي، ومضى إلى محمد بن خالد القسري وهو محبوس ليقتله فعلم به، فردم الأبواب دونه فلم يقدر على قتله، وكان محمد بن عبد الله قد حبس محمد بن خالد بعدما أطلقه، ورجع عيسى بن خضير إلى محمد فقاتل بين يديه حتى قتل، وتقدّم حُميد بن قحطبة، وتقدّم محمد بن عبد الله فلما صار ببطن مسيل سَلْع عرقب فرسه، وعرقب بنو شجاع الجهنيون دوابّهم، ولم يبق أحد منهم إلا كسر جفن سيفه، فقال لهم محمد: قد بايعتموني ولست بارحًا حتى أُقتل، فمَنْ أحبّ أن ينصرف فقد أذنتُ له، واشتد القتال فهزموا أصحاب عيسى بن موسى مرّتين أو ثلاثًا، فقال يزيد بن معاوية بن عبد الله بن جعفر: ويل أمّه فتحًا، لو كان له رجال!! وصعد نفر من

أصحاب عيسى على جبل سَلْع، وانحدروا منه إلى المدينة، وأمرت أسماء بنت حسن بن عبد الله بن عبيد الله بن العباس بخمار أسود فرفع على منارة مسجد رسول الله ﷺ، فقال أصحاب محمد بن عبد الله: دُخِلت المدينة فهربوا، فقال يزيد: لكل قوم جبل يعصمهم، ولنا جبل لا نؤتى إلا منه!! ـ يعني سَلْعًا، وفتح بنو أبي عمرو الغفاريّون طريقًا في بني غفار لأصحاب عيسى، فدخلوا منه أيضًا وجاؤوا من وراء أصحاب محمد، ونادى محمد حُميدَ بن قَحطبة: أبرزْ إليّ فأنا محمد بن عبد الله، فقال حُميد: قد عرفتُك، وأنت الشريف ابن الشريف، الكريم ابن الكريم، والله، لا أبرز إليك وبين يديّ من هؤلاء الأغمار واحد، فإذا فرغت منهم فسأبرز إليك، وجعل حميد يدعو ابن خُضَير إلى الأمان، وابن خضير يحمل على الناس راجلاً، لا يصغي إلى أمانه وهو يأخذهم بين يديه، فضربه رجل من أصحاب عيسى على إليته فحلَّها، فرجع إلى أصحابه فشدّها بثوب، ثم عاد إلى القتال، فضربه إنسانٌ على عينه فغاص السيف، وسقط فابتدروه فقتلوه وأخذوا رأسه، وكأنه باذنجانة مفلقة من كثرة الجراح فيه، فلما قُتل تقدّم محمد فقاتل على جيفته، فجعل يهدّ[1] الناس هدًا، وكان أشبه الناس بقتال حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، ولم يزل محمد يقاتل حتى ضربه رجل دون شحمة أذنه اليمنى، فبرك لركبتيه وجعل يذبّ عن نفسه، ويقول: ويحكم ابن نبيّكم مجرّح مظلوم، فطعنه ابن قحطبة في صدره فصرعه، ثم نزل إليه فأخذ رأسه وأتى به عيسى، وهو لا يُعرف من كثرة الدماء؛ وقيل إن عيسى بن موسى اتّهم حُميد بن قحطبة وكان على الخيل، فقال له: ما أراك تُبالغ!! فقال له: اتتهمني!! فوالله لأضربنّ محمدًا حين أراه بالسيف أو أُقتل دونه، قال: فمرّ به وهو مقتول فضربه ليبرّ يمينه، وقيل بل رُمي بسهم وهو يقاتل، فوقف إلى جدار فتحاماه الناس، فلما وجد الموت تحامل على سيفه فكسره، وهو ذو الفقار، سيف علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقيل بل أعطاه رجلاً من التجار، كان معه وله عليه أربعمائة دينار، وقال خذه فإنك لا تلقى أحدًا من آل أبي طالب إلا أخذه وأعطاك حقّك، فلم يزل عنده حتى ولّي جعفر بن سليمان المدينة، فأُخبر به فأخذ السيف منه وأعطاه أربعمائة دينار، ولم يزل معه حتى أخذه منه المهدي، ثم صار إلى الهادي فجرّبه في كلب فانقطع السيف؛ وقيل بل بقي إلى أيام الرشيد، وكان يتقلّده وكان به ثماني عشرة فقارة.

---

(١) هدّ الشيء: كسره بشدة.

قال: ولما أُتي عيسى برأس محمد قال لأصحابه: ما تقولون فيه؟ فوقعوا فيه، فقال بعضهم: كذبتم ما لهذا قاتلناه، ولكنّه خالف أمير المؤمنين، وشقّ عصا المسلمين، وإن كان لصوّامًا قوّامًا فسكتوا. وأرسل عيسى بن موسى الرأس إلى المنصور مع محمد بن أبي الكرام بن عبد الله بن علي بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وبالبشارة مع القاسم بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وأرسل معه رؤوس بني شجاع[١]، فأمر المنصور برأس محمد فطيف به في الكوفة وسيّره إلى الآفاق. قال: ولمّا رأى المنصور رؤوس بني شجاع قال: هكذا فليكن الناس! طلبتُ محمدًا فاشتمل عليه هؤلاء، ثم نقلوه وانتقلوا معه، ثم قاتلوا معه حتى قُتلوا. وكان مقتل محمد وأصحابه يوم الاثنين بعد العصر لأربع عشرة خلت من شهر رمضان خمس وأربعين ومائة.

قال: وكان المنصور قد بلغه أن عيسى بن موسى قد هزم، فقال: كلا، فأين لعب صبياننا بها على المنابر ومشورة النساء؟ ما أنى لذلك بعد. ثم بلغه أنّ محمدًا هرب، فقال: كلاّ، إنّا أهل بيت لا نفرّ، فجاءته بعد ذلك الرؤوس. قال: ولما وصل رأس محمد إلى المنصور كان الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب عنده، فلما رأى الرأس عظم عليه وتجلّد خوفًا من المنصور، فالتفت المنصور إليه وقال: أهو هو؟ قال: نعم، ولوددتُ أن الله تعالى قاده إلى طاعتك، ولم تكن فعلت به كذا، قال: وأنا وإلاّ فأم موسى طالق، ولكنه أراد قتلنا فكانت نفسنا أكرم علينا من نفسه.

قال: وأرسل عيسى بن موسى ألوية فنُصبت في مواضع بالمدينة، ونادى مُناديه: من دخل تحت لواءٍ منها فهو آمن؛ وأخذ أصحاب محمد فصلبهم ما بين ثنية الوداع إلى دار عمر بن عبد العزيز صفّين، ووكل بجثة ابن خضير من يحفظها، فاحتمله قوم من الليل فواروه سرًا، وبقي الآخرون ثلاثًا، ثم أمر بهم عيسى فألقوا في مقابر اليهود، ثم ألقوا بعد ذلك في خندق ذباب، فأرسلت زينب بنت عبد الله، أخت محمد ـ وابنته فاطمة إلى عيسى: إنّكم قد قتلتموه وقضيتم حاجتكم منه، فلو أذنتم لنا في دفنه!! فأذن لهما فدفن بالبقيع[٢]. قال: وقطع المنصور الميرة عن المدينة في البحر، ثم أذن فيها المهدي.

---

(١) بنو شجاع: بطن من بني صخر، من جذام، من القحطانية. مساكنهم مع قومهم بني صخر ببلاد الكرك من بلاد الشام... (نهاية الأرب للقلقشندي).

(٢) البقيع: مقبرة أهل المدينة، وهي داخل المدينة.

قال: ورد الخبر بقتل محمد بن عبد الله على أخيه إبراهيم بالبصرة يوم العيد، وكان إبراهيم قد استولى على البصرة، فخرج فصلّى بالناس، ونعاه على المنبر وأظهر الجزع عليه.

قال: وكان محمد بن عبد الله بن حسن أسمر شديد السمرة، سمينًا شجاعًا كثير الصوم والصلاة شديد القوّة رحمه الله تعالى. قال: وسئل جعفر الصادق عن أمر محمد فقال: فتنة يقتل فيها محمد، ويقتل أخوه لأبيه وأمّه بالعراق، وحوافر فرسه في ماء. قال: وقال محمد بن عبد الله لعبد الله بن عامر السُّلمِي: تغشانا سحابة فإن أمطرتنا ظفرنا، وإن تجاوزتنا إليهم فنظر إلى دمي عند أحجار الزيت، قال: فوالله لقد أطلّتنا سحابة فلم تمطرنا، وتجاوزتنا إلى عيسى وأصحابه فظفروا، وقتلوا محمدًا ورأيت دمه عند أحجار الزيت، وكان محمد يلقّب المهدي رحمه الله.

ذكر تسمية المشهورين ممن كان مع محمد بن عبد الله بن حسن

كان معه من بني هاشم أخوه موسى بن عبد الله بن حسن، وحسين وعلي ابنا زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب؛ ولمّا بلغ المنصور أن ابني زيد أعانا محمدًا عليه قال: عجبًا لهما!! قد خرجا عليّ وقد قتلنا قاتل أبيهما كما قتله، وصلبناه كما صلبه، وأحرقناه كما أحرقه؛ وكان معه حمزة بن عبد الله بن محمد بن علي بن الحسين، وعلي وزيد ابنا الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وكان أبوهما مع المنصور، والحسن ويزيد وصالح بنو معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، والقاسم بن إسحاق بن عبد الله بن جعفر، والمُرَجَّى علي بن جعفر بن إسحاق بن علي بن عبد الله بن جعفر، وكان أبوه مع المنصور؛ وكان معه من غيرهم:

محمد بن عبد الله بن عمرو بن سعيد بن العاص، ومحمد بن عجلان، وعبد الله بن عمر بن حفص بن عاصم أخذ أسيرًا، فأُتي به المنصور فقال له: أنت الخارج علي؟ قال: لم أجد إلا ذلك أو لكفر بما أنزل الله على محمد، وكان معه أبو بكر بن عبد الله بن محمد بن أبي سَبْرَة، وعبد الواحد بن أبي عَوْن ـ مولى الأزد، وعبد الله بن جعفر بن عبد الرحمٰن بن المِسْوَر بن مَخْرَمة، وعبد العزيز بن محمد

الدَّراوَرْدي[1]، وعبد الحميد بن جعفر، وعبد الله بن عطاء بن يعقوب، مولى بني سباع، وإبراهيم وإسحاق وربيعة وجعفر وعبد الله وعطاء ويعقوب وعثمان وعبد العزيز بنو عبد الله بن عطاء، وعيسى بن خُضَير وعثمان بن خُضير، وعثمان بن محمد بن خالد بن الزبير هرب بعد مقتل محمد، فأتى البصرة فأخذ منها وأُتي به المنصور، فقال له: هيه يا عثمان، أنت الخارج عليّ مع محمد!! قال: بايعته أنا وأنت بمكة، فوفيت ببيعتي وغدرت ببيعتك، قال: يا ابن اللخناء، قال: ذاك من قامت عنه الإماء يعني المنصور، فأمر به فقُتل، وكان مع محمد عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، وأُخذ أسيرًا فأطلقه المنصور: وعبد العزيز بن إبراهيم بن عبد الله بن مطيع؛ وعلي بن المطّلب بن عبد الله بن حَنْطَب؛ وإبراهيم بن جعفر بن مصعب بن الزبير؛ وهشام بن عُمارة بن الوليد بن عدي بن الخِيار، وعبد الله بن يزيد بن هرمز وغيرهم.

ذكر ظهور إبراهيم بن عبد الله بن حسن ابن الحسن بن علي بن أبي طالب أخي محمد

كان ظهوره بالبصرة في أول شهر رمضان سنة خمس وأربعين ومائة، وكان قبل ظهوره قد طلب أشد الطلب، فحكت جارية له أنّهم لم تقرّهم أرض خمس سنين، مرة بفارس، ومرة بكرمان[2]، ومرة بالجبل، ومرة بالحجاز، ومرة باليمن، ومرة بالشام، ثم إنّه قدم الموصل وقدمها المنصور في طلبه، فحكى إبراهيم عن نفسه قال: اضطرّني الطلب بالموصل حتى جلست على مائدة المنصور، ثم خرجت وقد كفّ الطلب، وكان قوم من أهل العسكر يتشيّعون، فكتبوا إلى إبراهيم يسألونه القدوم عليهم ليثبوا بالمنصور فقدم عسكر أبي جعفر وهو ببغداد وقد خطّها، وكانت له مرآة ينظر فيها، فيرى عدوّه من صديقه، فنظر فيها فقال: يا مُسَيَّب قد رأيت إبراهيم في عسكري، وما في الأرض أعدى لي منه، فانظر أيّ رجل يكون؟ ثم إنّ المنصور أمر

---

(١) هو عبد العزيز بن محمد بن عبيد بن أبي عبيد من أهل المدينة الدراوردي فأصله درابجرد فاستثقلوه فقلبوه إلى هذا، كما قال أبو سعد. وقيل: إنه نسب إلى أنداريه.. وقد يكون نسبة إلى دراورد: قرية بخراسان... (معجم البلدان).

(٢) كرمان: بالفتح ثم السكون، وآخره نون: هي ولاية مشهورة وناحية كبيرة معمورة ذات بلاد وقرى ومدن واسعة بين فارس ومكران.

ببناء قنطرة الصراة العتيقة، فخرج إبراهيم ينظر إليها مع الناس، فوقعت عليه عين المنصور، فجلس إبراهيم وذهب في الناس، فأتى فاميًا فلجأ إليه فأصعده غرفة له، وجدّ المنصور في طلبه ووضع الرصد بكل مكان، فثبت إبراهيم مكانه، فقال له صاحبه سفيان بن حيّان العَمِيّ: قد نزل بنا ما ترى، ولا بد من المخاطرة، قال: فأنت وذاك، فأقبل سفيان إلى الربيع، فسأله الإذن على المنصور فأدخله إليه، فلمّا رآه شتمه فقال: يا أمير المؤمنين، أنا أهل لما تقول، غير أني أتيتك تائبًا ولك عندي كلّ ما تحبّ، وأنا آتيك بإبراهيم بن عبد الله، إنّي قد بلوتهم فلم أجد فيهم خيرًا، فاكتب لي جوازًا ولغلام معي، واحملني على البريد ووجِّهْ معي جندًا، فكتب له جوازًا ودفع إليه جندًا، وقال له: هذه ألف دينار فاستعن بها، قال: لا حاجة لي فيها، فأخذ منها ثلاثمائة دينار، وأقبل والجند معه فدخل البيت على إبراهيم، وعلى إبراهيم جبة صوف وقباء كأقبية الغلمان، فصاح به فوثب فجعل يأمره وينهاه، وسار على البريد، وقيل لم يركب البريد، وسار حتى قدم المدائن، فمنعه صاحب القنطرة بها، فدفع جوازه إليه، فلما جازها قال له الموكّل بالقنطرة: ما هذا غلام وإنه لإبراهيم بن عبد الله، اذهب راشدًا فأطلقهما، فركبوا سفينة حتى قدموا البصرة، فجعل يأتي بالجند الدار لها بابان، فيقعد البعض منهم على أحد البابَيْن، ويقول: لا تبرحوا حتى آتيكم، فيخرج من الباب الآخر ويتركهم، حتى فرّق الجند عن نفسه وبقي وحده، وبلغ الخبر سفيان بن معاوية أمير البصرة، فأرسل إلى الجند فجمعهم، وطلب العَمِيّ فأعجزه وكان إبراهيم قد قدم الأهواز قبل ذلك فاختفى عند الحسن بن حبيب، وكان محمد بن حُصَين يطلبه، فقال يومًا: إنّ أمير المؤمنين كتب إليّ يخبرني أنّ المنجّمين أخبروه: أنّ إبراهيم نازل بالأهواز، وهو في جزيرة بين نهرين، وقد طلبتُه في الجزيرة وليس هناك، وقد عزمتُ أن أطلبه غدًا بالمدينة، لعلّ أمير المؤمنين يعني بقوله - بين نهرين - بين دجيل[١] والمَسْرُقان[٢]، فرجع الحسن بن حبيب إلى إبراهيم فأخبره، وأخرجه إلى ظاهر البلد، ولم يطلبه محمد ذلك اليوم، فلما كان آخر النهار خرج الحسن إلى إبراهيم، فأدخله البلد وهما على حمارين وقت العشاء الآخرة، فلحقه أوائل خيل ابن

---

(١) دجيل: اسم نهر في موضعين، أحدهما مخرجه من أعلى بغداد بين تكريت وبنيها مقابل القادسية... ودجيل الآخر: نهر بالأهواز حفره أردشير بن بابك أحد ملوك الفرس... (معجم البلدان).

(٢) المسرقان: بالفتح ثم السكون، والراء مضمومة، وقاف، وآخره نون: هو نهر بخوزستان عليه عدة قرى وبلدان ونخل يسقي ذلك كله ومبدؤه من تستر.

الحصين، فنزل إبراهيم عن حماره كأنّه يبول، فسأل ابن الحُصَيْن الحسن بن حبيب عن مجيئه، فقال: جئت من عند بعض أهلي، فمضى وتركه، ورجع الحسن إلى إبراهيم فأركبه وأدخله إلى منزله، فقال له إبراهيم: والله لقد بُلْت دمًا، فأتيت الموضع فرأيته وقد بال دمًا، ثم إن إبراهيم قدم البصرة، قيل قدمها في سنة خمس وأربعين ومائة، بعد ظهور أخيه محمد بالمدينة، وقيل قدمها في سنة ثلاث وأربعين ومائة، وكان الذي أقدمه وتولى أمره ـ في قول بعضهم ـ يحيى بن زياد بن حيان النبطي، وأنزله في داره في بني ليث[١]، وقيل نزل في دار أبي فروة، ودعا الناس إلى بيعة أخيه، وكان أوّل من بايعه نُمَيْلة بن مُرَّة العَبْشمِي، وعَفْوُ الله ابن سفيان، وعبد الواحد بن زياد، وعمرو بن سَلمة الهُجَيْمِي، وعبد الله بن يحيى بن حُصَين الرَّقَاشِي، وندبوا الناس، فأجابهم المغيرة بن الفزع وأشباه له، وأجابه أيضًا عيسى بن يونس، ومُعَاذ بن مُعَاذ[٢]، وعَبَّاد بن العَوَّام، وإسحاق بن يوسف الأزرق، ومعاوية بن هشيم بن بشير، وجماعة كثيرة من الفقهاء وأهل العلم، حتى أحصى ديوانه أربعة آلاف، وشهر أمره فقالوا له: لو كنت تحوّلت إلى وسط البصرة، أتاك الناس وهم مستريحون، فتحوّل فنزل دار أبي مروان ـ مولى بني سُلَيم ـ في مقبرة بني يَشْكُر.

وكان سفيان بن معاوية ـ أمير البصرة ـ قد مالأ[٣] على أمره، ولما ظهر أخوه محمد كتب إليه يأمره بالظهور، فوجم لذلك واغتمّ، فجعل بعض أصحابه يسهّل عليه ذلك، وقال له: قد اجتمع لك عالم من الناس، فطابت نفسه، وكان المنصور بظاهر الكوفة في قلّة من العساكر، وقد أرسل ثلاثة من القوّاد إلى سفيان بن معاوية بالبصرة مددًا له، ليكونوا عونًا له على إبراهيم، إن ظهر، فلما أراد إبراهيم الظهور أرسل إلى سفيان فأعلمه، فجمع القوّاد عنده، وظهر إبراهيم أول شهر رمضان سنة خمس وأربعين ومائة، فغنم دوابّ أولئك الجند، وصلّى بالناس الصبح بالجامع، وقصد دار الإمارة وبها سفيان متحصنًا، فحضره فطلب سفيان منه الأمان، فأمّنه إبراهيم ودخل إلى الدار، ففرشوا له حصيرًا فهبّت الريح فقلبته قبل أن يجلس، فتطيّر الناس لذلك،

(١) بنو ليث: بطن من بكر، من كنانة. ومن بني ليث هذا: الصعب بن جثامة، الصحابي رضي الله عنه.

(٢) هو قاضي البصرة أبو المثنى معاذ بن معاذ العنبري، روى عن حميد الطويل وطبقته وكان أحد الحفاظ. قال يحيى القطان: ما بالبصرة ولا بالكوفة ولا بالحجاز أثبت من معاذ بن معاذ. . . (شذرات الذهب ١: ٣٤٥).

(٣) مالأه على الأمر: ساعده وعاونه.

فقال إبراهيم: إنّا لا نتطيّر وجلس عليه مقلوبًا، وحبس القوّاد وحبس أيضًا سفيان بن معاوية في القصر وقيّده بقيد خفيف، ليعلم المنصور أنه محبوس، وبلغ جعفرًا ومحمدًا، ابني سليمان بن علي ظهور إبراهيم، فأتيا في ستمائة رجل، فأرسل إليهما إبراهيم المضاء بن القاسم الجزري في خمسين رجلاً فهزمهما، ونادى منادي إبراهيم: لا يتبع منهزم ولا يذفف[١] على جريح، ومضى إبراهيم بنفسه إلى باب زينب بنت سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس؛ وإليها ينسب الزينبيون من العباسيين، فنادى بالأمان وألاّ يعرض لهم أحد، فصفت له البصرة ووجد في بيت مالها ألفي ألف درهم، فقوي بذلك وفرض لأصحابه لكل رجل خمسين درهمًا.

فلما استقرت له البصرة أرسل المغيرة إلى الأهواز، فبلغها في مائتي رجل، وكن فيها محمد بن الحُصَين عاملاً للمنصور، فخرج إليه في أربعة آلاف فالتقوا، فانهزم ابن الحصين ودخل المغيرة الأهواز؛ وقيل إنّما سيّر إبراهيم المغيرة إلى الأهواز بعد مسيره من البصرة إلى بَاخمْرَى، وسيّر إبراهيم إلى فارس عمرو بن شدّاد، فقدمها وبها إسماعيل وعبد الصمد ابنا علي بن عبد الله بن العباس، فبلغهما دنو عمرو ـ وهما باصطخر[٢] ـ فقصدا دارابجرد[٣] فتحصّنا بها، فصارت فارس في يد عمرو، وأرسل إبراهيم، هارون بن سعد العجليّ في سبعة عشر ألفًا إلى واسط، وبها هارون بن حُمَيد الإيَادِي من قبل المنصور ـ فملكها العجليّ، وأرسل المنصور لحربه عامر بن إسماعيل المسليّ في خمسة آلاف وقيل في عشرين ألفًا، وكانت بينهم وقعات ثم تهادنوا على ترك الحرب، حتى ينظروا ما يكون من إبراهيم والمنصور، فلما قتل إبراهيم هرب هارون بن سعد عنها، واختفى حتى مات.

قال: ولم يزل إبراهيم بالبصرة، يفرّق العمّال والجيوش حتى أتاه نعي أخيه محمد قبل الفطر بثلاثة أيام، فخرج بالناس يوم العيد وفيه الانكسار، فصلّى بهم وأخبرهم بقتل محمد، فازدادوا في قتال المنصور بصيرة، وأصبح من الغد فعسكر واستخلف على البصرة نُمَيْلَة، وخلف ابنه حسنًا معه.

---

(١) يقال: ذف على الجريح: إذا أجهز عليه.

(٢) إصطخر: بالكسر، وسكون الخاء المعجمة: هي مدينة وسطة وسعتها مقدار ميل، وهي من أقدم مدن فارس وأشهرها، وبها كان مسكن ملك فارس حتى تحول أردشير إلى أجور... (معجم البلدان).

(٣) في معجم البلدان لياقوت: دارابجرد: ولاية بفارس، ينسب إليها كثير من العلماء... ودارابجرد: قرية من كورة اصطخر، وبها معدن الزئبق. ودارابجرد أيضًا: موضع بنيسابور.

ذكر مسير إبراهيم ومقتله

قال: ثم عزم إبراهيم على المسير، فأشار عليه أصحابه البصريون أن يقيم ويرسل الجنود، فيكون، إذا انهزم لك جند أمددتهم بغيرهم، فخيف مكانك واتقاك عدوك، وجبيت الأموال وثبتت وطأتك، فقال من عنده من أهل الكوفة: إنّ بالكوفة أقوامًا لو رأوك ماتوا دونك، وإن لم يروك قعدت بهم أسباب شتى؛ فسار عن البصرة إلى الكوفة، وكان المنصور ـ لما بلغه ظهور إبراهيم ـ في قلة من العسكر فقال: والله ما أدري كيف أصنع!! ما في عسكري إلا ألفا رجل، فرّقتُ جندي!! فمع المهدي بالريّ[١] ثلاثون ألفًا، ومع محمد بن الأشعث بإفريقية أربعون ألفًا، والباقون مع عيسى بن موسى، والله، لئن سلمتُ من هذه لا يفارق عسكري ثلاثون ألفًا، ثم كتب إلى عيسى بن موسى يأمره بالعود مسرعًا، فأتاه الكتاب وقد أحرم بعُمْرة فتركها، وعاد وكتب إلى سلم بن قتيبة فقدم عليه من الريّ، فقال له المنصور: اعمد إلى إبراهيم ولا يروعنّك جمعه، فوالله ـ إنّهما جملا بني هاشم المقتولان، فثِقْ بما أقول، وضمّ إليه غيره من القوّاد. وكتب إلى المهدي يأمره بإنفاذ خُزيْمَة بن خازِم إلى الأهواز، فسيّره في أربعة آلاف فارس فوصلها، وقاتل المغيرة، فرجع المغيرة إلى البصرة، واستباح خزيمة الأهواز ثلاثًا، وتوالت على المنصور الفتوق: من البصرة والأهواز وفارس وواسط والمدائن والسواد، وإلى جانبه أهل الكوفة في مائة ألف مقاتل، ينتظرون به صيحة، فلما توالت الأخبار عليه بذلك أنشد: [من الكامل]

وجعلتُ نفسي للرماح دريَّةً إنّ الرئيس بمثل ذاك فعول[٢]

ثم إن المنصور رمى كل ناحية بحجرها، وبقي على مصلاّه خمسين يومًا، ينام عليه ويجلس عليه، وعليه جبة ملوّنة، قد اتسخ جيبها، ما غيّرها ولا هجر المصلّى، إلا أنه، إذا ظهر للناس لبس السواد، فإذا فارقهم رجع إلى هيئته، وأهديت إليه امرأتان من المدينة، إحداهما فاطمة بنت محمد بن عيسى بن طلحة بن عبيد الله والأخرى أمَة الكريم بنت عبد الله من ولد خالد بن أسيد، فلم ينظر إليهما، فقيل له: إنهما قد ساءت ظنونهما، فقال: ليست هذه أيام نساء، ولا سبيل إليهما حتى أنظر: أرأس إبراهيم لي أم رأسي له؟ قال الحجّاج بن قتيبة: لما تتابعت الفتوق على

(١) الريّ: بفتح أوله وتشديد ثانيه: هي مدينة مشهورة من أمهات البلاد وأعلام المدن كثيرة الفواكه والخيرات، وهي محط الحاج على طريق السابلة وقصبة بلاد الجبال... (معجم ياقوت).

(٢) الدرية: ما يتعلم عليه الطعن.

المنصور، دخلتُ مسلّمًا عليه وقد أتاه خبر البصرة والأهواز وفارس، وعساكر إبراهيم قد عظمت، وبالكوفة مائة ألف سيف بإزاء عسكره، تنتظر صيحة واحدة فيثبون به؛ فرأيته أحوذيًا[١] مشمرًا قد قام إلى ما نزل به من النوائب يعركها، فقام بها ولم تقعد به نفسه، وإنّه لكما قال الأوّل[٢]: [من الرجز]

نفس عصامٍ سوَّدَتْ عصاما ... وعلَّمته الكرَّ والإقداما

* وصيَّرته ملكًا هماما *

ثم وجّه المنصور إلى إبراهيم، عيسى بن موسى في خمسة عشر ألفًا، وعلى مقدّمته حُميد بن قحطبة في ثلاثة آلاف، وقال له ـ لمّا ودّعه ـ: إنّ هؤلاء الخبثاء ـ يعني المنجّمين ـ يزعمون أنّك إذا لاقيت إبراهيم، تجول أصحابك جولة حين تلقاه، ثم يرجعون إليك وتكون العاقبة لك. قال: ولمّا سار إبراهيم عن البصرة مشى ليلة في عسكره سرًا، فسمع أصوات الطنابير، ثم فعل ذلك ليلة أخرى فسمعها أيضًا، فقال: ما أطمع في نصر عسكر فيه مثل هذا، وسمع وهو ينشد في طريقه أبيات القطاميّ[٣]: [من الوافر]

أمورٌ لو تدبّرها حليمٌ ... إذًا لَنَهَى وهَيَّبَ ما استطاعا

ومعصيةُ الشفيق عليك مِمَّا ... يَزيدك مَرَّةً منه استماعا

وخيرُ الأمرِ ما اسْتَقْبَلْت منه ... وليس بأنْ تَتَبَّعَهُ اتباعا

ولكنَّ الأدِيمَ إذَا تَفَرَّى ... بِلىً وتَعَيُّبًا غلب الصَّنَاعا

فعلموا أنّه نادم على مسيره، وكان ديوانه قد أحصى مائة ألف، وقيل كان معه في طريقه عشرة آلاف، وقيل له في طريقه ليأخذ غير الوجه الذي فيه عيسى بن موسى ويقصد الكوفة، فإن المنصور لا يقوم له وينضاف أهل الكوفة إليه، ولا يبقى للمنصور مرجع دون حُلْوان[٤]، فلم يفعل، وقيل له ليبيّت عيسى بن موسى، فقال: أكره البيات إلا بعد الإنذار، وقال له بعض أهل الكوفة: ائذن لي بالمسير إلى الكوفة،

(١) الأحوذي: الذي ينزل وحده ولا يخالط القوم.

(٢) هو النابغة الذبياني.

(٣) القطامي: هو عمير بن شييم من بني تغلب وكان حسن التشبيب رقيقه... وكان يمدح زفر بن الحارث الكلابي وأسماء بن خارجة الفزاري... (الشعر والشعراء).

(٤) حلوان: بالضم ثم السكون: وحلوان في عدة مواضع: حلوان العراق، وهي في آخر حدود السواد مما يلي الجبال من بغداد.

أدعو الناس سرّا ثم أجهر، فإذا سمع المنصور الهيعة[(١)] بأرجاء الكوفة، لم يردّ وجهه شيء دون حُلْوان، فاستشار إبراهيم بشير الرحّال، فقال: لو وثقنا بالذي تقول لكان رأيًا، ولكنَّا لا نأمن أن تجيئك منهم طائفة، فيرسل إليهم المنصور الخيل، فيأخذ البريء والصغير والمرأة، فيكون ذلك تعرُّضًا للمآثم، فقال الكوفي: كأنّكم خرجتم لقتال المنصور وأنتم تتوقون قتل الضعيف والصغير والمرأة، وقد كان رسول الله ﷺ يبعث سراياه، فيقاتل ويكون نحو هذا، فقال بشير: أولئك كفار وهؤلاء مسلمون، فاتَّبع إبراهيم رأيه وسار حتى نزل باخمْرَا[(٢)]، وهي من الكوفة على ستة عشر فرسخًا، مقابل عيسى بن موسى، فأرسل إليه سَلْم بن قُتَيْبَة يقول: إنّك قد أصحرت[(٣)]، ومثلك أنفس به عن الموت، فخنْدِق على نفسك حتى لا تؤتى إلا من وجه واحد، فإن أنت لم تفعل فقد أعرى أبو جعفر عسكره، فتخفف في طائفة حتى تأتيه فتأخذ بقفاه، فدعا إبراهيم أصحابه وعرض عليهم ذلك، فقالوا: نخندق على أنفسنا ونحن ظاهرون عليهم؟! لا والله لا نفعل؛ قال: فنأتي أبا جعفر، قالوا: ولِمَ وهو في أيدينا، متى أردناه؟! فقال إبراهيم للرسول: أتسمع، فارجع راشدًا.

ثم إنّهم تصافوْا، فصَفّ إبراهيم أصحابه صفًا واحدًا، فأشار عليه بعض أصحابه بأن يجعلهم كراديس[(٤)]، فإذا انهزم كردوس ثبت كردوس، فإنّ الصَفّ إذا انهزم بعضه تداعى سائره، فقال الباقون: لا نصفّ إلا صفّ أهل الإسلام، يعني قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤﴾ [الصف: ٤]، ثم التقوا واقتتلوا قتالاً شديدًا، فانهزم حُميد بن قحطبة وانهزم الناس معه، فعرض لهم عيسى يناشدهم الله والطاعة، فلا يلوون عليه، وأقبل حُميد منهزمًا فقال له عيسى: الله الله والطاعة، فقال لا طاعة في الهزيمة، ومرّ الناس فلم يبق مع عيسى إلا نفر يسير، فقيل له: لو تنحّيت عن مكانك حتى يثوب إليك الناس، فتكرّ بهم؟ فقال: لا أزول عن مكاني هذا أبدًا حتى أقتل أو يفتح الله على يدي، والله لا ينظر أهل بيتي إلى وجهي أبدًا وقد انهزمت عن عدوّهم، وجعل يقول لمن يمرّ به: اقرأوا أهل بيتي السلام، وقولوا لهم لم أجد فداءً أفديكم به أعزّ من نفسي، وقد بذلتها دونكم، فبينما هم كذلك لا يلوي أحد على أحد إذ أتى جعفر ومحمد ابنا سليمان بن علي من ظهور أصحاب إبراهيم، ولا يشعر باقي أصحابه الذين يتّبعون المنهزمين، حتى نظر بعضهم

---

(١) الهيعة: كل ما أفزعك من صوت أو فاحشة تشاع.

(٢) باخمرا: موضع بين الكوفة وواسط وهو إلى الكوفة أقرب.

(٣) أصحرت: برزت إلى الصحراء لا يواريها شيء.

(٤) الكراديس: واحدتها الكردوسة، وهي طائفة عظيمة من الخيل والجيش.

فرأى القتال من ورائهم، فعطفوا نحوه ورجع أصحاب المنصور يتبعونهم، فكانت الهزيمة على أصحاب إبراهيم، فلولا جعفر ومحمد لتمّت الهزيمة، وكان من صنع الله للمنصور أن أصحابه لقيهم نهر في طريقهم، فلم يقدروا على الوثوب ولم يجدوا مخاضة فعادوا بأجمعهم، وكان أصحاب إبراهيم قد مخروا الماء ليكون قتالهم من وجه واحد، فلما انهزموا منعهم الماء من الفرار، وثبت إبراهيم في نفر من أصحابه يبلغون ستمائة، وقيل أربعمائة، فقاتلهم حُميد وجعل يرسل بالرؤوس إلى عيسى، وجاء إبراهيم سهم عائر[١] فوقع في حلقه فنحره، فتنحّى عن موقفه وقال: أنزلوني، فأنزلوه عن مركبه وهو يقول: وكان أمر الله قدرًا مقدورًا، أردنا أمرًا وأراد الله غيره، واجتمع عليه أصحابه وخاصته يحمونه ويقاتلون دونه، فقال حُميد بن قحطبة لأصحابه: شدّوا على تلك الجماعة حتى تزيلوهم عن موضعهم، وتعلموا ما اجتمعوا عليه، فشدّوا عليهم فقاتلوهم أشد القتال، حتى أفرجوهم عن إبراهيم وخلصوا إليه وحزّوا رأسه، فأتوا به عيسى بن موسى، فأراه ابن أبي الكرام الجعفريّ، فقال: نعم هو رأسه، فنزل عيسى إلى الأرض فسجد، وبعث برأسه إلى المنصور، وكان مقتله يوم الاثنين لخمس ليال بقين من ذي القعدة سنة خمس وأربعين ومائة، وكان عمره ثمانيًا وأربعين سنة، ومكث منذ خرج إلى أن قتل ثلاثة أشهر إلا خمسة أيام.

وقيل كان سبب انهزام أصحاب إبراهيم، أنهم لما هزموا أصحاب المنصور وتبعوهم نادى منادي إبراهيم: ألاَ تتبعوا مدبرًا فرجعوا، فلما رآهم أصحاب المنصور راجعين ظَنوهم منهزمين، فعطفوا في آثارهم وكانت الهزيمة. قال: وبلغ المنصور الخبر بهزيمة أصحابه أولاً، فعزم على إتيان الريّ، فأتاه نَوْبَخْت المنجّم فقال: يا أمير المؤمنين، الظفر لك، وسيُقتل إبراهيم فلم يقبل منه، فبينما هو كذلك إذ أتاه الخبر بقتل إبراهيم، فتمثل: [من الطويل]

فألقتْ عصاها واستقرّ بها النَّوَى ... كما قرّ عينًا بالإياب المسافرُ

فأقطع المنصور نوبخت ألفي جريب[٢] بنهر جَوْبَر[٣]، وحمل رأس إبراهيم إلى المنصور، فوضع بين يديه فلما رآه بكى، حتى جرت دموعه على خد إبراهيم، ثم قال: أما والله إن كنت لهذا كارهًا، ولكنك ابتُليت بي وابتُليتُ بك، ثم جلس مجلسًا

(١) السهم العائر: الذي لا يدرى من رمي به.
(٢) الجريب: مكيال قدر أربعة أقفزة.
(٣) جوبر: بالراء: قرية بالغوطة من دمشق، وقيل نهر بها.. وقد نسب إليها جماعة من المحدثين وافرة... (معجم البلدان).

عامًا وأُذن للناس، فكان الداخل يدخل فيتناول إبراهيم، ويسيء القول فيه ويذكر فيه القبيح، التماسًا لرضا المنصور، والمنصور ممسك متغيّر لونه، حتى دخل جعفر بن حَنْظلة البَهْرَاني، فوقف فسلّم ثم قال: عظّم الله أجرك يا أمير المؤمنين في ابن عمّك، وغفر له ما فرط فيه من حقك، فاستقرّ لون المنصور وأقبل عليه، وقال: مرحبً أبا خالد ههنا، فعلم الناس أن ذلك يرضيه، فقالوا مثل قوله. قيل ولما وضع الرأس بين يدي المنصور بصق في وجهه رجل من الحرس، فأمر به المنصور فضرب بالعمد، فهشمت أنفه ووجهه، وضرب حتى خمد وأمر به فجروا برجله فألقوه خارج الباب.

قال: وممّا رثي به محمد بن عبد الله وأخوه إبراهيم قول عبد الله بن مصعب بن ثابت: [من الكامل]

يا صاحبيَّ دعا الملامة واعلما ... أن لستُ في هذا بألوم منكما
وقفا بقبر ابن النبيّ فسلّما ... لا بأس أن تقفا به فتسلّما
قبرٌ تضمّن خير أهل زمانه ... حسبًا وطيب سجيةٍ وتكرّما
رجلٌ نفى بالعدل جور بلاده ... وعفا عظيمات الأمور وأنعما[1]
لم يجتنب قصد السبيل ولم يجر ... عنه ولم يفتح بفاحشة فما
لو أعظم الحدثان شيئًا قبله ... بعد النبيّ به لكنت المعْظما
أو كان أمتع بالسلامة قبله ... أحدًا لكان قُصَارُه أن يسلما
ضحّوا بإبراهيم خير ضحيّةٍ ... فتصرّمَتْ أيامه وتصرّما[2]
بطلًا يخوض بنفسه غمراتها ... لا طائشًا رعشًا ولا مستسلما
حتى مضت فيه السيوف وربما ... كانت حُتُوفُهُم السيوف وربّما
أضحى بنو حسن أُبيح حريمهم ... فينا وأصبح نهبهم متقسَّما
ونساؤهم في دورهنّ نوائحٌ ... سجع الحمام إذا الحمام ترنّما
يتوسّلون بقتلهم ويرونه ... شرَفًا لهم عند الإمام ومغنما
والله لو شهد النبيّ محمدٌ ... صَلّى الإله على النبيّ وسلّما
إشراع أمّتِه الأسنّة لابنه ... حتى تقطر من ظباتهم دما[3]
حقًا لأيقن أنهم قد ضيّعوا ... تلك القرابة واستحلّوا المحرما

(١) عفا عظيمات الأمور: أزالها ومحاها من النفوس والديار.
(٢) تصرم فلان: تجلد؛ وتصرمت الأيام: ذهبت وانقضت.
(٣) الظبات: جمع الظبَة: وهو حد السيف والسنان والخنجر وما أشبهها.

هذا ما كان من أخبار محمد بن عبد الله بن حسن وأخيه إبراهيم رحمهما الله تعالى، ثم لم يتحرك بعدهم أحد من الطالبيين إلى أن ظهر الحسين بن علي بن الحسن.

ذكر ظهور الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن ابن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو المقتول بفخ

كان ظهوره بالمدينة في ذي القعدة سنة تسع وستين ومائة في خلافة الهادي موسى، وسبب ذلك أن الهادي استعمل على المدينة عمر بن عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فلما وليها أخذ أبا الزفت الحسن بن محمد بن عبد الله بن الحسن، ومسلم بن جُنْدُب[1] الشاعر الهُذَلي، وعمر بن سلام مولى آل عمر، على شراب لهم، فأمر بهم فضربوا جميعًا، وجُعل في أعناقهم حبال وطيف بهم في المدينة، فجاء الحسين بن علي إلى العُمَرِي، وقال له: قد ضربتَهم ولم يكن لك أن تضربهم! لأنّ أهل العراق لا يرون به بأسًا، فلِمَ تطوف بهم؟ فأمر بهم فردّوا وحبسهم؛ ثم إن الحسين بن علي هذا ويحيى بن عبد الله بن الحسن كفلاَ الحسن بن محمد فأخرجه العُمَري من الحبس، وكان قد ضمن بعض آل أبي طالب بعضًا،وكانوا يعرضون، فغاب الحسن بن محمد عن العرض يومين، فأحضر العُمَري الحسين بن علي ويحيى بن عبد الله وسألهم عنه وأغلظ لهما، فحلف له يحيى أنّه لا ينام حتى يأتيه به، أو يدقّ عليه باب داره حتى يعلم أنه جاءه به، فلمّا خرجا قال له الحسين: سبحان الله! ما دعاك إلى هذا؟ ومن أين تجد حسنًا؟ حلفتَ له بشيء لا تقدر عليه، فقال: والله لا نمتُ حتى أضرب عليه باب داره بالسيف، فقال له الحسين: إنْ هذا ينقض ما كان بيننا وبين أصحابنا من الميعاد، وكانوا قد تواعدوا على أن يظهروا بمنى أو بمكة في الموسم، فقال يحيى: قد كان ذلك فانطلقا، وعملا في ذلك من ليلتهم، وخرجوا آخر الليل، وجاء يحيى حتى ضرب على العُمَري باب داره فلم يجده، وجاؤوا فاقتحموا المسجد بعد الصبح، فلما صلّى الحسين الصبح أتاه الناس فبايعوه: على كتاب الله وسنّة نبيّه ﷺ، للمرتضى من آل محمد، وجاء خالد البربري في مائتين من الجند، وجاء العمري ووزير ابن إسحاق الأزرق ومحمد بن واقد الشَّرَوي ومعهم ناس كثير، فدنا خالد منهم فقام إليه يحيى وإدريس ابنا عبد الله بن

(١) لم نجد في «شرح أشعار الهذليين» لأبي سعيد السكري غير إياس بن جندب، وأبو جندب.

حسن، فضربه يحيى على أنفه فقطعه، ودار له إدريس من خلفه فضربه فصرعه ثم قتلاه، وانهزم أصحابه ودخل العمري في المسوّدة، فحمل عليهم أصحاب الحسين فهزموهم من المسجد، وانتهبوا بيت المال وكان فيه بضعة عشر ألف دينار، وقيل سبعون ألفًا، وتفرّق الناس وأغلق أهل المدينة أبوابهم، فلما كان الغد اجتمع عليهم شيعة بني العباس فقاتلوهم، وفشت الجراحات في الفريقين، واقتتلوا إلى الظهر ثم افترقوا،ثم إن مباركًا التركي أتى شيعة بني العباس من الغد ـ وكان قدم حاجًّا ـ فقاتل معهم فاقتتلوا أشد قتال إلى منتصف النهار، ثم تفرّقوا ورجع أصحاب الحسين إلى المسجد، وواعد مبارك الناس الرواح إلى القتال، فلمّا غفلوا عنه ركب رواحله وانطلق، وراح الناس فلم يجدوه، فقاتلوا شيئًا من قتال إلى المغرب ثم تفرّقوا، وقيل إن مباركًا أرسل إلى الحسين يقول له: والله لئن أسقط من السماء فيتخطفني الطير أيسر عليّ من أن تشوكك شوكة، أو تُقطع من رأسك شعرة، ولكن لا بدّ من الإعذار، فبيّتني فإني منهزم عنك، فوجّه إليه حسين أو خرج إليه في نفر، فلما دنوا من عسكره صاحوا وكبّروا، فانهزم هو وأصحابه، وأقام الحسين وأصحابه أيامًا يتجهّزون، فكان مقامهم بالمدينة أحد عشر يومًا، ثم خرجوا لست بقين من ذي القعدة، فلما خرجوا عاد الناس إلى المسجد، فوجدوا فيه الطعام الذي كانوا يأكلون وآثارهم، فدعوا عليهم.

ولما فارق الحسين المدينة قال: يا أهل المدينة، لا خلف الله عليكم بخير، فقالوا: بل أنت، لا خلف الله عليك بخير، ولا ردّك إلينا، وكان أصحابه يُحْدِثون في المسجد، فغسله أهل المدينة. قال: ولما أتى الحسين مكة فنودي: أيما عبدٍ أتانا فهو حرّ، فأتاه العبيد، فانتهى الخبر إلى الهادي؛ وكان قد حجّ تلك السنة رجال من أهل بيته، منهم سليمان بن المنصور، ومحمد بن سليمان بن علي، والعباس بن محمد بن علي، وموسى وإسماعيل ابنا عيسى بن موسى، فكتب الهادي إلى محمد بن سليمان بتوليته على الحرب، وكان قد سار من البصرة بجماعة وسلاح لخوف الطريق، فاجتمعوا بذي طوًى[1]، وكانوا قد أحرموا بعُمرة، فلما قدموا مكة طافوا وسعوا وحلّوا من العمرة، وعسكروا بذي طوى وانضمّ إليهم من حجّ من شيعتهم ومواليهم وقوّادهم، والتقوا واقتتلوا يوم التروية[2]، فانهزم أصحاب الحسين، وقُتل منهم وجرح، وانصرف محمد بن سليمان ومن معه إلى مكة، ولا يعلمون حال الحسين، فلما بلغوا ذا طوى لحقهم رجل من أهل خراسان يقول: البشرى، البشرى؛ هذا رأس

---

(١) ذو طوى: بالضم: موضع عند مكة. (٢) يوم التروية: الثامن من ذي الحجة.

الحسين فأخرجه وبجبهته ضربة طولاً، وعلى قفاه ضربة أخرى، وكانوا قد نادوا الأمان، فجاء الحسن بن محمد بن عبد الله أبو الزفت فوقف خلف محمد بن سليمان والعباس بن محمد، فأخذه موسى بن عيسى وعبد الله بن العباس فقتلاه، فغضب محمد بن سليمان غضبًا شديدًا، وأخذ رؤوس القتلى فكانت مائة رأس ونيّفًا، وفيها رأس سليمان بن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي، وأُخذت أخت الحسين فتُركت عند زينب بنت سليمان، واختلط المنهزمون بالحاج، وأُتي الهادي بستة أسرى، فقتل بعضهم واستبقى بعضهم، وغضب على موسى بن عيسى كيف قتل الحسن بن محمد، وقبض أمواله فلم تزل بيده حتى مات، وغضب على مبارك التركي، وأخذ ماله وجعله سائس الدوابّ، فبقي كذلك حتى مات الهادي، وأفلت من المنهزمين إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي، فأتى مصر وعلى بريدها واضح، مولى صالح بن المنصور، وكان شيعيًا فحمله على البريد إلى أرض المغرب، فوقع بأرض طَنْجَة[1] بمدينة وَلِيلَة، فاستجاب له من بها من البربر، فضرب الهادي عنق واضح وصلبه، وقيل إن الرشيد هو الذي قتله، وأن الرشيد دسّ إلى إدريس الشمّاخ اليماميَ، مولى المهدي، فأتاه وأظهر أنه من شيعتهم وعظّمه وآثره على نفسه، فمال إليه إدريس وأنزله عنده، ثم إن إدريس شكا إليه مرضًا في أسنانه، فوصف له دواءً وجعل فيه سمًّا، وأمره أن يستنّ[2] به عند طلوع الفجر فأخذه منه، وهرب الشمّاخ ثم استعمل إدريس الدواء فمات منه، فولّى الرشيد الشمّاخ بريد مصر. قال: ولما مات إدريس بن عبد الله خلف مكانه ابنه إدريس بن إدريس، وأعقب بها وملكوها، ونازعوا بني أميّة في إمارة الأندلس، وقد تقدم ذكر ذلك في أخبار الأندلس فلا فائدة في إعادته. قال: وحملت الرؤُوس إلى الهادي، فلمّا وُضع رأس الحسين بين يديه قال: كأنّكم قد جئتم برأس طاغوت من الطواغيت!! إن أقلَ ما أجزيكم أن أحرمكم جوائزكم، فلم يعطهم شيئًا.

قال: وكان الحسين شجاعًا كريمًا، قدم على المهدي فأعطاه أربعين ألف دينار، ففرّقها في الناس ببغداد والكوفة، وخرج من الكوفة لا يملك ما يلبسه، إلا وبرًا ليس تحته قميص، وهذا غاية في الجود ونهاية في الكرم والإيثار، رحمه الله تعالى وغفر له.

---

(١) طنجة: بلد على ساحل بحر المغرب مقابل الجزيرة الخضراء وهو من البر الأعظم وبلاد البربر... (معجم البلدان).

(٢) استنّ: استاك.

ذكر ظهور يحيى بن عبد الله بن الحسن ابن الحسن بن علي بن أبي طالب

كان ظهوره في خلافة الرشيد بن المهدي في سنة ست وسبعين ومائة ببلاد الديلم[١]، واشتدت شوكته وكثرت جموعه، وأتاه الناس من الأمصار، فاغتمّ الرشيد لذلك، فندب إليه الفضل بن يحيى بن خالد البرمكي في خمسين ألفًا، وولاّه جرجان وطبرستان والريّ وغيرها وحمل معه الأموال، فكاتب يحيى بن عبد الله ولطف به وحذّرَه، وأشار عليه وبسط أمله، ونزل الفضل بالطالقان[٢]، بمكان يقال له أشَب، ووالى كتبه إلى يحيى، وكاتب صاحب الديلم وبذل له ألْف ألف درهم، على أن يسهّل له خروج يحيى بن عبد الله، فأجاب يحيى إلى الصلح على أن يكتب له الرشيد أمانًا بخطّه، يشهد عليه فيه القضاة والفقهاء وجلة بني هاشم ومشايخهم؛ منهم عبد الصمد بن علي، فأجابه الرشيد إلى ذلك، وسرّ به وعظمت منزلة الفضل عنده، وسيّر الأمان مع هدايا وتحف، فقدم يحيى مع الفضل بغداد، فلقيه الرشيد بكل ما أحبّ وأمر له بمال كثير، ثم حبسه الرشيد بعد ذلك فمات في حبسه؛ وكان الرشيد قد عرض كتاب أمان يحيى على محمد بن الحسن الفقيه وعلى أبي البختري القاضي، فقال محمد: الأمان صحيح، فحاجّه الرشيد، فقال محمد: وما يصنع بالأمان؟ لو كان محاربًا ثم ولّى كان آمنًا، وقال أبو البختري: هذا أمان منتقض من وجه كذا، فمزقه الرشيد، وقد ذكرنا خبر يحيى في حبسه فيما تقدّم من كتابنا هذا، عند ذكرنا لأخبار القبض على البرامكة في أيام الرشيد، وأن الرشيد كان قد حبسه عند جعفر، فأطلقه جعفر بغير أمر الرشيد، وقيل بل أخبره بوفاته، ثم نقله إلى خراسان وأودعه عند أميرها علي بن عيسى بن ماهان، وأوصاه به أن يكون عنده موسعًا عليه واستكتمه أمره، فكتب عليّ بذلك إلى الرشيد، فكان ذلك سبب زوال نعمة البرامكة، وقد تقدّم ذكر هذه القصّة هناك مبسوطة، ولا فائدة في تكرار ذلك وإعادته، فلنذكر خلافه من أخبار من ظهر من الطالبيين.

---

(١) الديلم: جيل سموا بأرضهم في قول بعض أهل الأثر ويسمى باسم لأب طم... (معجم ياقوت).

(٢) الطالقان: بلدتان إحداهما بخراسان بين مرو الروذ وبلخ.. والأخرى بلدة وكورة بين قزوين وأبهر وبها عدة قرى يقع عليها هذا الاسم... (معجم البلدان).

ذكر ظهور محمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم ابن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو المعروف بابن طباطبا

كان ظهوره بالكوفة لعشر خلون من جُمادى الآخرة سنة تسع وتسعين ومائة، في خلافة عبد الله المأمون بن الرشيد هارون، وخرج يدعو إلى الرضا من آل محمد ﷺ، والعمل بكتاب الله عزّ وجلّ وسنة رسوله ﷺ، وكان القيّم بأمره في الحرب أبو السرايا[1] السري بن منصور، وهو من ولد هانيء بن قبيصة بن هانيء بن مسعود الشيباني، فلما اشتد أمر محمد أراد أن يستقل بالأمر دون أبي السرايا، فسقاه أبو السرايا سمًّا فمات، في مستهلّ شهر رجب من السنة المذكورة، وقد ذكرنا خبره مبيّنًا في أخبار المأمون بن الرشيد. ولما مات محمد بن إبراهيم نصب أبو السرايا مكانه غلامًا أمرد يقال له:

محمد بن محمد بن زيد بن علي بن الحسين بن علي

وصار الحكم لأبي السرايا، واستعمل العمّال على البصرة والأهواز وفارس ومكة واليمن، وانتشر الطالبيون في البلاد وقوي أمرهم، إلى أن قتل أبو السرايا وذلك في المحرم سنة مائتين، فاستعيدت البلاد من الطالبيين على ما قدّمناه في أخبار أبي السرايا في خلافة المأمون.

ذكر ظهور إبراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد ابن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب وما كان من أمره

كان ظهوره بمكة في سنة مائتين في خلافة المأمون، وكان أبو السرايا قد ولاّه اليمن، فأتاه الخبر بمقتل أبي السرايا وهو بمكة، فسار إلى اليمن وبها إسحاق بن موسى بن عيسى عاملاً للمأمون، فلمّا بلغه قرب إبراهيم من صنعاء سار نحو مكة، واستولى إبراهيم على اليمن، وكان يسمى الجزّار لكثرة من قتل باليمن، وسبى وأخذ

---

(١) هو أبو السرايا السري بن منصور أحد بني ربيعة بن ذهل بن شيبان، كان قد خالف السلطان ونابذه، وعاث في نواحي السواد.. من غلمانه: أبو الشوك، وسيار، وهرماس.. وكان علويّ الرأي ذا مذهب في التشيع... (مقاتل الطالبيين ص٥٢١).

الأموال، ولم يتمّ أمره ولا أمر غيره ممّن كان أبو السرايا استعملهم، وقد ذكرنا خبر الحسين بن الحسن الأفطس ومحمد بن جعفر وما كان من أمرهما بمكة في أخبار المأمون، ولا فائدة في إعادته، وقد ذكرنا أيضًا خبر محمد بن القاسم بن عمر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب وخروجه بالطالقان، وما كان من أمره في أخبار المعتصم بالله بن الرشيد في سنة تسع عشرة ومائتين.

ذكر ظهور يحيى بن عمر بن يحيى بن حسين ابن زيد بن علي بن الحسين بن علي ابن أبي طالب وهو المكنّى بأبي الحسين

وكان ظهوره بالكوفة في سنة خمسين ومائتين في خلافة المستعين بالله، وسبب ظهوره أنه نالته ضائقة، ولزمه دين ضاق به ذرعًا، فلقي عمر بن فرج وهو يتولى أمر الطالبيين، فكلّمه في صلته فأغلظ له عمر، وحبسه فلم يزل محبوسًا حتى كفله أهله، فأطلق وسار إلى بغداد، فأقام بها سنة ثم رجع إلى سامرّا[١]، فلقي وصيفًا فكلّمه في رزق يجريه له، فأغلظ له وصيف وقال: لأي شيء يُجرى على مثلك؟ فانصرف إلى الكوفة وبها أيوب بن الحسن بن موسى بن جعفر بن سليمان الهاشمي، عامل محمد بن عبد الله بن طاهر، فجمع أبو الحسين جمعًا كثيرًا كثيرًا من الأعراب وأهل الكوفة، وأتى الفَلُّوجَة[٢] فكتب صاحب البريد بخبره إلى محمد بن عبد الله، فكتب محمد بن عبد الله إلى أيوب وعبد الله بن محمود السرخسي[٣]، عامله على معاون السواد، يأمرهما بالاجتماع على حرب يحيى. قال: ومضى يحيى بن عمر إلى بيت مال الكوفة فأخذ ما كان فيه، وهو ألفَا دينار وسبعون ألف درهم، وأظهر أمره بالكوفة وفتح السجون وأخرج من فيها، وأخرج العمّال عن الكوفة، فلقيه عبد الله بن محمود السرخسي فيمن معه، فضربه يحيى على وجهه ضربة أثخنه[٤] بها، فانهزم عبد الله،

---

(١) سامراء: مدينة كانت بين بغداد وتكريت على شرقي دجلة.. قال أبو سعد: سامراء بلد على دجلة فوق بغداد بثلاثين فرسخًا... (معجم البلدان).

(٢) الفلوجة: بالفتح ثم التشديد، وواو ساكنة، وجيم: قريتان كبيرتان من سواد بغداد والكوفة قرب عين التمر.

(٣) نسبة إلى سرخس، وهي مدينة قديمة من نواحي خراسان كبيرة واسعة وهي بين نيسابور ومرو في وسط الطريق.

(٤) أثخنه بها: غلبه.

وأخذ أصحاب يحيى ما كان معهم من الدوابّ والمال، وخرج يحيى إلى سواد الكوفة، وتبعه جماعة من الزيدية[١] وغيرهم إلى ظهر واسط، وأقام بالبستان فكثر جمعه، فوجّه محمد بن عبد الله إلى محاربته الحسين بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسين بن مصعب في جمع من أهل النجدة والقوّة، فسار إليه ونزل في مقابلته ولم يقدم عليه، وسار يحيى والحسين في أثره حتى نزل الكوفة، ولقيه عبد الرحمٰن بن الخطاب المعروف بوجه الفَلْس قبل دخولها، فقاتله فانهزم عبد الرحمٰن إلى ناحية شاهى[٢] فوافاه الحسين بها، واجتمعت الزيدية إلى يحيى بن عمر، ودعا بالكوفة إلى الرضا من آل محمد ﷺ، واجتمع الناس إليه، وتولاه العامّة من أهل بغداد، ولا يُعلم أنّهم تولوا أحدًا من أهل بيته سواه، وبايعه جماعة من أهل الكوفة ممّن له تدبير وبصيرة في تشيعهم، ودخل فيهم أخلاط لا ديانة لهم، وأقام الحسين بشاهى فأراح واستراح، واتصلت به الأمداد، ويحيى بالكوفة يعدّ الرجال ويصلح السلاح، فأشار عليه جماعة من الزيدية ممّن لا علم لهم بالحرب بمعاجلَة الحسين بن إسماعيل، وألحُّوا عليه فزحف إليه في ليلة الاثنين لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر رجب من السنة، ومعهم الهيضم العجلي وغيره، ورجاله من أهل الكوفة ليس لهم علم بالحرب ولا شجاعة، وأسْروا ليلتهم وصبّحوا حسينًا وهو مستريح، فثاروا بهم في الغلس، فركب أصحاب الحسين وحملوا عليهم فانهزموا، ووضعوا فيهم السيف وأسَروا منهم، فكان أوّل من أسر الهيضم العجلي، وانكشف العسكر عن يحيى وعليه جوشن[٣]، وقد تقطَر[٤] به فرسه، فوقف عليه ابن لخالد بن عمران يقال له خير، فلم يعرفه وظنّه من أهل خراسان لما رأى عليه الجوشن، فأمر رجلاً فنزل إليه وأخذ رأسه، فعرفه رجل وسيّر الرأس إلى محمد بن عبد الله بن طاهر، وادعى قتله غير واحد، فبعث محمد الرأس إلى المستعين، فنصب بسامرّا ثم حطّ وسيّر إلى بغداد لينصب بها، فلم يقدر محمد بن طاهر على ذلك لكثرة من اجتمع من الناس، فلم ينصبه وخاف أن يأخذوه، فجعله في صندوق في بيت السلاح، ووجّه الحسين بن إسماعيل رؤوس من قتل ومن أسر إلى بغداد فحبسوا بها، وكتب محمد بن عبد الله فيهم فأمر بتخليتهم ودفن الرؤوس.

---

(١) الزيدية: هم أتباع زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم... (الملل والنحل للشهرستاني ١: ١٥٤).

(٢) شاهى: موضع قرب القادسية.

(٣) الجوشن: الدرع.

(٤) تقطر به فرسه: ألقاه على أحد جانبيه.

قال: ولما ورد الخبر بقتل يحيى على محمد بن عبد الله جلس ليهنّأ بذلك، فدخل عليه داود بن الهيثم الجعفري فقال: أيها الأمير، إنك لتهنّأ بقتل رجل لو كان رسول الله ﷺ حيًا لعُزّى به، فما ردّ محمد عليه شيئًا، وأكثر الشعراء المراثي في يحيى، لما كان عليه من حسن السيرة والديانة، فمن ذلك قول بعضهم: [من الخفيف]

بكت الخيل شجوها بعد يحيى ... وبكاه المهنَّد المصقول
وبكته العراق شرقًا وغربًا ... وبكاه الكتّاب والتنزيل
والمصلّى والبيت والركن والحِجْـ ... ـر جميعًا له عليه عويل
كيف لم تسقط السماء علينا ... يوم قالوا أبو الحسين قتيل
وبنات النبي يندبن شجوًا ... موجعات دموعهن همول[1]
قطَعت وجهه سيوف الأعادي ... بأبي وجهه الوسيم الجميل
إنّ يحيى أبقى بقلبي غليلاً ... سوف يودي بالجسم ذاك الغليل
قتله مُذكر لقتل علي ... وحسين ويوم أوذي الرسول
صلوات الإله وقفا عليهم ... ما بكى موجَع وحنّ ثكول[2]

ذكر ظهور الحسين بن محمد

وفي سنة إحدى وخمسين ومائتين في زمن الخلف الذي وقع بين المستعين والمعتز، ظهر بالكوفة رجل من الطالبيين، اسمه الحسين بن محمد بن حمزة بن عبد الله بن حسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، واستخلف بها محمد بن جعفر العلوي، فوجّه إليه المستعين مُزَاحم بن خَاقَان، وكان العلويّ بسواد الكوفة في جماعة من بني أسد ومن الزيدية، وأجلى عنها عامل الخليفة، وهو أحمد بن نصر بن حمزة بن مالك الخزاعي إلى قصر ابن هبيرة، فاجتمع وهشام بن أبي دُلَف العِجْلي فسارا إلى الكوفة، فحمل أهل الكوفة العلوية على قتالهما ووعدوهم النصرة، فقاتلهم مُزاحِم وكان قد سيّر قائدًا مع جماعة، فأتى الكوفة من الجهة الأخرى، فأطبقوا عليهم فلم يفلت منهم أحد، ودخل الكوفة فرماه أهلها بالحجارة فأحرقها بالنار، وأحرق منها سبعة أسواق حتى خرجت النار إلى السبيع[3]، ثم هجم على الدار التي فيها العلوي، فهرب وأقام مزاحم بالكوفة.

(١) هملت العين: فاضت وسالت. (٢) الثكول: التي ثكلت ولدها: أي فقدته.
(٣) السبيع: بفتح أوله، وكسر ثانيه، ثم ياء، وآخره عين مهملة: هي المحلة التي كان يسكنها الحجاج بن يوسف، وهي مسماة بقبيلة السبيع رهط أبي إسحاق السبيعي... (معجم البلدان).

ذكر خبر إسماعيل بن يوسف بن إبراهيم ابن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي

كان ظهوره بمكة في سنة إحدى وخمسين ومائتين، ولما ظهر هرب عاملها، وانتهب إسماعيل داره ومنازل أصحاب السلطان، وقتل الجند وجماعة من أهل مكة، وأخذ ما في الكعبة وخزائنها من الذهب والفضة وغير ذلك، وأخذ كسوة الكعبة، وأخذ من الناس نحوًا من مائتي ألف دينار، وخرج منها بعد أن نهبها وأحرق بعضها في شهر ربيع الأوّل، بعد أن أقام بها خمسين يومًا، وصار إلى المدينة فتوارى عاملها، ثم رجع إلى مكة في شهر رجب، فحصرهم حتى غلت الأسعار، ولقي أهل مكة منه كل بلاء، ثم سار إلى جُدّة بعد مقامه سبعة وخمسين يومًا، فحبس عن الناس الطعام، وأخذ أموال التجار وأصحاب المراكب، ثم وافى عرفة وبها محمد بن عيسى الملقب كعب البقر، وعيسى بن محمد المخزومي كان المعتز قد وجّههما إليها، فقاتلهما إسماعيل، وقُتل من الحاج نحو ألف ومائة إنسان، وسلب الناس فهربوا إلى مكة، ولم يقفوا بعرفة ليلاً ولا نهارًا، ووقف إسماعيل وأصحابه، ثم رجع إلى جُدّة فجبى أموالها.

ذكر ظهور علي بن زيد العلوي بالكوفة وخروجه عنها

كان ظهوره في سنة ست وخمسين ومائتين واستولى على الكوفة، وأزال عنها نائب الخليفة المعتمد على الله واستقرّ بها، فسيّر إليه المعتمد الشاه بن ميكال في جيش كثيف، فالتقوا واقتتلوا فانهزمت جيوش المعتمد، وقتل جماعة منهم، فسيّر لمحاربته كنجور التركي، وأمره أن يدعوه إلى الطاعة ويبذل له الأمان، ففعل ذلك فطلب عليّ أمورًا لم يجبه كنجور إليها، فخرج عليّ عن الكوفة إلى القادسية فعسكر بها، ودخل كنجور الكوفة في ثالث شوال من السنة، ومضى علي بن زيد إلى خَفَّان[1]، ثم دخل البرّ إلى بلاد بني أسد وكان قد صاهرهم، فأقام هناك ثم فارقهم وصار إلى جهة، فبلغ كنجور خبره فسار إليه من الكوفة في سلخ ذي الحجة، فواقعه فانهزم عليّ وقتل نفر من أصحابه، ولم يزل عليّ بن زيد إلى سنة ستين فقتله صاحب الزنج. فلنذكر أخبار دولتهم بطبرستان.

(١) خفان: بفتح أوله، وتشديد ثانيه، وآخره نون: موضع قرب الكوفة يسلكه الحاج أحيانًا، وهو مأسدة. . . (معجم ياقوت).

ذكر أخبار الدولة العلوية بطبرستان
الداعي إلى الحق الحسن بن زيد

كان ظهور هذه الدولة في سنة خمسين ومائتين في خلافة المستعين بالله، وأول من ظهر منهم الداعي إلى الحق: الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، وكان سبب ظهوره أنَّ محمد بن عبد الله بن طاهر لما ظفر بيحيى بن عمر أقطعه المستعين بالله من صوافي السلطان بطبرستان، قطائع منها قطيعة بقرب ثغر الديلم، وهي كَلاَّر وسَالُوس؛ وكان بجوارها أرض يحتطب منها أهل تلك الناحية، وترعى فيها مواشيهم ليس لأحد عليها مِلْك، إنما هي موتان[1]، وهي ذات عيون وأشجار وكلأ، فوجّه محمد بن عبد الله نائبه لحيازة ما أُقطع، وهو جابر بن هارون النصراني، وكان عامل طبرستان يومئذ سليمان بن عبد الله بن طاهر، خليفة عن محمد بن طاهر، وكان الغالب على أمر سليمان، محمد بن أوْس البلخي، وقد فرّق محمد بن أوس هذا أولاده في مدن طبرستان، وهم أحداث سفهاء فتأذّى بهم الرعيّة، وشكوا سوء سيرتهم وسيرة أبيهم وسيرة سليمان، ثم دخل محمد بن أوس بلاد الديلم، وهم مسالمون لأهل طبرستان[2]، فسبى منهم وقتل، وساء ذلك أهل طبرستان، ولما قدم جابر بن هارون لحيازة ما أُقطع لمحمد بن عبد الله عَدَا على تلك الأرض المباحة، فحازها إلى كَلاَّر وسالوس، وكان في تلك الناحية أخوان لهما بأس ونجدة، مذكوران ببذل الطعام وشدة الطعان، يقال لأحدهما محمد والآخر جعفر ابنا رستم، فأنكرا ما فعل جابر من حيازة المَوَات، وكان مطاعين في تلك الناحية، فاستنهضا من أطاعهما لمنع جابر من حيازة ذلك الموات، فخافهما جابر وهرب منهما ولحق بسليمان بن عبد الله، وخاف محمد وجعفر ومن معهما من عامل طبرستان، فراسلوا من جاورهم من الديلم يذكرونهم العهد الذي بينهم ويعتذرون ممّا فعله محمد بن أوس بهم من السبي والقتل، واتفقوا على المعاونة على حرب سليمان بن عبد الله وغيره، ثم أرسل ابنا رستم إلى رجل من الطالبيين ـ اسمه محمد بن إبراهيم ـ كان بطبرستان، يدعونه إلى

---

(١) موتان: التي لم تزرع ولم تغمر ولا جرى عليها ملك لأحد.

(٢) طبرستان: هي بلدان واسعة كثيرة يشملها هذا الاسم، خرج من نواحيها من لا يحصى كثرة من أهل العلم والأدب والفقه... فمن أعيان بلدانها دهستان وجرجان واستراباذ وآمل... (معجم البلدان).

البيعة له فامتنع من ذلك، وقال: ولكنّي أدلّكم على رجل منّا، هو أقوم بهذا الأمر منّي، فدلّهم على الحسن بن زيد وهو إذ ذاك بالريّ، فوجّهوا إليه برسالة محمد بن إبراهيم يدعونه إلى طبرستان، فشخص إليها وقد اجتمعت كلمة الديلم وأهل كلار وسالوس على بيعته، فبايعوه وطردوا عمّال ابن أوس عنهم، فلحقوا بسليمان.

وانضم إلى الحسن بن زيد أيضًا أهل جبال طبرستان، فتقدم الحسن ومن معه نحو مدينة آمُل[1] طبرستان. وهي أقرب المدن إليهم. وأقبل ابن أوس من سارية لدفعهم عنها. والتقوا واقتتلوا قتالاً شديدًا. فتوجه الحسن بن زيد في جماعة إلى آمُل فدخلها، فلما سمع ابن أوس الخبر ـ وهو مشغول بحرب أصحاب الحسن ـ لم تكن له همّة إلا النجاة بنفسه، فهرب ولحق بسليمان إلى سارية[2]، واستولى الحسن على آمل، وكثر جمعه وأتاه كل طالب نهب وفتنة. فأقام بآمل أيامًا ثم سار نحو سارية لحرب سليمان بن عبد الله، فالتقوا خارج مدينة سارية، ونشبت الحرب بينهم، فسار بعض قوّاد الحسن نحو سارية فدخلها، فلما سمع سليمان الخبر انهزم هو ومن معه، وترك أهله وعياله وأثقاله بها، واستولى الحسن وأصحابه على جميع ذلك، وسيّر إليه أولاده وأهله في مركب إلى جرجان، وقيل إنّ سليمان إنما انهزم اختيارًا، لأن الطاهريّة كلها كانت تتشيع، فلما أقبل الحسن نحو طبرستان تأثم سليمان من قتاله لشدة تشيعه، وقال: [من البسيط]

نبّئت خيل ابن زيدٍ أقبلت حِينا	تريدنا لِتُحَسّينَا الأمرّينا
يا قوم إن كانت الأنباء صادقة	فالويل لي ولجمع الطاهريّينا
أما أنا فإذا اصطفّت كتائبهم	أكون من بينهم رأس المولّينا
والعذر عند رسول الله منبسط	إذا احتسبت دماء الفاطمّيينا

فلما التقوا انهزم سليمان، قال: ولما اجتمعت طبرستان للحسن بن زيد وجّه إلى الريّ جندًا مع رجل من أهله، يقال له الحسن بن زيد أيضًا، فملكها وطرد عامل الطاهرية عنها، واستخلف بها رجلاً من العلويين يقال له محمد بن جعفر، وانصرف عنها.

(١) آمل: بضم الميم واللام: اسم أكبر مدينة بطبرستان في السهل، لأن طبرستان سهل وجبل... (معجم البلدان).

(٢) سارية: بعد الألف راء ثم ياء مثناة من تحت مفتوحة: هي مدينة بطبرستان.. وبها منزل العامل في أيام الطاهرية.. وبين سارية والبحر ثلاثة فراسخ... (معجم البلدان).

قال: وورد خبر الحسن على المستعين بالله، ومُدبّر أمره يومئذ وصيف، وكاتبه أحمد بن صالح، فوجّه إسماعيل بن فراشة في جند إلى همذان، وأمره بالمقام بها ليمنع خيل الحسن بن زيد عنها، وما عدا همذان فأمره إلى محمد بن طاهر.

قال: ولما استقرّ محمد بن جعفر الطالبي بالريّ، ظهر منه أمور كرهها أهل الريّ، ووجّه محمد بن طاهر بن عبد الله بن طاهر قائدًا يقال له ابن مِيكَال، في جمع من الجند إلى الريّ، فالتقى هو ومحمد بن جعفر الطالبي خارج الريّ، فأسر محمد وانهزم جيشه، ودخل ابن ميكال إلى الريّ وأقام بها، فوجّه إليه الحسن بن زيد عسكرًا، مع قائد من قوّاده يقال له واجن، فالتقوا واقتتلوا فانهزم ابن ميكال واعتصم بالريّ، فاتبعه واجن وأصحابه حتى قتلوه، وصارت الريّ في يد أصحاب الحسن بن زيد.

ثم ظهر بالريّ في سنة خمسين ومائتين أيضًا

أحمد بن عيسى بن علي بن حسين (الصغير) بن علي بن حسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وإدريس بن موسى بن عبد الله بن موسى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، فصلّى أحمد بن عيسى بأهل الريّ صلاة العيد، ودعا إلى الرضا من آل محمد، فحاربه محمد بن علي بن طاهر، فانهزم ابن طاهر وصار إلى قزوين[١].

ثم مسك أحمد في سنة اثنتين وخمسين ومائتين، وسيّر إلى نيسابور، وكان الذي ظفر به عبد الله بن عزيز.

وفي سنة إحدى وخمسين ومائتين

رجع سليمان بن عبد الله بن طاهر إلى طبرستان بجمع كثير، ففارقها الحسن بن زيد ولحق بالديلم، ودخلها سليمان وقصد سارية، وأتاه أهل آمل وغيرهم، منيبين مظهرين الندم يسألون الصفح، فلقيهم بما أرادوا، ونهى أصحابه عن القتل والنهب، ثم فارقها سليمان وعاد الحسن بن زيد إليها، فسار مفلح إليه من قبل موسى بن بغا في سنة خمس وخمسين ومائتين، وحاربه فانهزم الحسن ولحق بالديلم، ودخل مفلح آمل وأحرق منازل الحسن، وسار إلى الديلم في طلبه، ثم كتب إلى موسى بن بغا بالقدوم عليه إلى الريّ، فسار إليه ثم سار إلى سامرّا.

(١) قزوين: بالفتح ثم السكون، وكسر الواو، وياء مثناة من تحت ساكنة، ونون: مدينة مشهورة بينها وبين الري سبعة وعشرون فرسخًا وإلى أبهر اثنا عشر فرسخًا... (معجم ياقوت).

ذكر ملك الحسن بن زيد جرجان

وفي سنة سبع وخمسين ومائتين قصد الحسن جُرْجان[١] واستولى عليها، وكان محمد بن عبد الله بن طاهر أمير خراسان ـ لما بلغه عزم الحسن على قصد جرجان ـ جهّز العساكر، وأخرج عليها الأموال الكثيرة، وسيّرها لحفظ جرجان، فلم يقوموا بحرب الحسن، وظفر بهم وملك البلد وقتل كثيرًا من العساكر، وغنم هو وأصحابه ما معهم، فضعف حينئذ محمد بن طاهر، وانتقض عليه كثير من الأعمال التي يجبى خراجها إليه، ولم يبقَ في يده إلا بعض خراسان، وأكثرها بيد المتغلبين كيعقوب بن الليث الصفّار وغيره.

وفيها فارق عبد العزيز بن أبي دُلَف الريّ من غير سبب يُعلم وأخلاها، فأرسل الحسنُ بن زيد القاسمَ بن علي بن القاسم العلوي، فغلب عليها فأساء السيرة في أهلها، وخلع أبواب المدينة ـ وكانت من حديد ـ وسيّرها إلى الحسن، وبقي كذلك نحو سنتين.

وفي سنة تسع وخمسين ومائتين

غلب الحسن بن زيد على قومس[٢]، ودخلها أصحابه، وفي سنة ستين ومائتين دخل يعقوب بن الليث الصفّار طبرستان، وانهزم الحسن إلى أرض الديلم على ما نذكره في أخبار الدولة الصفَّارية.

ذكر وفاة الحسن بن زيد وشيء من أخباره وسيرته

كانت وفاته يوم الاثنين لثلاث خلون من رجب سنة سبعين ومائتين، فكانت مدة ولايته تسع عشرة سنة وثمانية أشهر وستة أيام ـ وقيل ـ واثني عشر يومًا، وكان مهيبًا عظيم الخلق. حكى صاحب كنوز المطالب في بني أبي طالب عن الصولي: أن الحسن عطس يومًا عطسة، وكان رجل يؤذن في المنارة ففزع فسقط منها إلى الأرض فمات. قال: وكان أقوى البغال لا تحمله أكثر من فرسخين، وكان في آخر عمره

(١) جرجان: بالضم وآخره نون: مدينة مشهورة عظيمة بين طبرستان وخراسان.

(٢) قومس: بالضم ثم السكون، وكسر الميم، وسين مهملة: هي كورة كبيرة واسعة تشتمل على مدن وقرى ومزارع وهي في ذيل جبال طبرستان.. وقصبتها المشهورة دامغان... (معجم البلدان).

يشق بطنه ويخرج منه الشحم ثم يخاط. وكان جوادًا ممدوحًا، امتدحه رجل فأعطاه عشرة آلاف درهم، وفيه يقول محمد بن إبراهيم الجرجاني وقد افتصد: [من الخفيف]

إنّـمـا غـيّـب الـطـبـيـب شَـبـا ‏ ‏ ‏ ‏ المِبْضع عندي في مهجة الإسلام[1]

سـرّت الأرض حـيـن صُـبّ عـلـيـهـا ‏ ‏ ‏ ‏ دمُ خـيـر الـورى وأعـلـى الأنـام

وكان متواضعًا لله عزّ وجل. حكي عنه أنه مدحه شاعر فقال الله فرد وابن زيد فرد، فردّ فقال: بفيك الكثكث يا كذّاب!! لِمَ لا قلتَ: الله فرد وابن زيد عبد، ثم نزل عن مكانه وخرّ ساجدًا لله تعالى، وألصق خدّه بالتراب وحرم ذلك الشاعر. وكان عالمًا بالشعر والعربية.

فمدحه شاعر فقال: [من الرّمل]

لا تـقـل بـشـرى ولـكـن بُـشْـريـان ‏ ‏ ‏ ‏ غـرّة الـداعـي ويـوم الـمـهـرجـان[2]

فقال: كان الواجب أن تفتح الأبيات بغير لا، لأن الشاعر المجيد يتخيّر لأول القصيدة، ما يعجب السامع ويتبرّك به، ولو ابتدأت بالمصراع الثاني لكان أحسن، فقال الشاعر: ليس في الدنيا كلمة أجلّ من لا إله إلا الله وأوّلها لا، فقال له الحسن: أصبت، وأجازه. وأهدى إليه أبو العمر الطبري سهمين في بعض الأعياد عليهما مكتوب: [من الرجز]

أهـديـت لـلـداعـي إلـى الـحـقّ ‏ ‏ ‏ ‏ سـهـمـي فـتـوح الـغـرب والـشـرق

زُجّـاهـمـا الـنـصـر وريـشـاهـمـا ‏ ‏ ‏ ‏ ريـشـا جـنـاحـي طـائـر الـسـبـق[3]

أيّـد هـذا الـفـال بـالـصـدق ‏ ‏ ‏ ‏ هـمـا بـشـيـرا دعـوة الـحـق

فسرّه الفأل، وأعطاه عشرة آلاف درهم. وحكي عنه أنه غنّى عنده مُغنٍ بأبيات الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب، التي أوّلها: [من الرمل]

وأنـا الأخـضـر مـن يـعـرفـنـي ‏ ‏ ‏ ‏ أخـضـر الـجـلـدة من بـيـت الـعـرب

فلما وصل إلى قوله:

بـرسـول الله وابـنـي عـمّـه ‏ ‏ ‏ ‏ وبـعـبّـاس بـن عـبـد الـمـطّـلـب

(١) شبا المبضع أعلاه.
(٢) المهرجان: احتفال الاعتدال الخريفي، وهي كلمة فارسية مركبة من كلمتين: الأولى: مهر، ومن معانيها الشمس؛ والثانية: جان، ومن معانيها الحياة أو الروح.
(٣) الزج: نصل السهم.

غيّر البيت فقال: لا بعبّاس بن عبد المطّلب، فغضب الحسن وقال: يا ابن اللخناء، أتهجو بني عمّنا بين أيدينا، وتغيّر ما مُدحوا به؟! إن فعلتها مرة ثانية لأجعلنّها آخر غنائك.

وكان الحسن شاعرًا فمن شعره: [من السريع]

لم نُمْنعِ الدنيا لفضلٍ بها ... ولا لأنّا لم نكن أهلها

لكن لنعطى الفوز في جنّة ... ما إن رأى ذو بصر مثلها

هاجرها خير الورى جدّنا ... فكيف نرجو بعده وصلها

وله أشعار مستحسنة تركناها اختصارًا، وكان كاتبه سعيد بن محمد الطبري.

قال: ولما مات قام بالأمر بعده أخوه محمد بن زيد.

ذكر أخبار محمد بن زيد

لما مات الحسن كان أخوه هذا بجرجان، وكان في مرضه قد أمر صهره محمد بن إبراهيم العلوي ـ أن يكتب إلى أخيه محمد بن زيد ليسارع بالحضور، فينتصب في المملكة، فتباطأ، فلما توفي الحسن انتصب محمد بن إبراهيم مكانه، وتلقّب بالقائم بالحق، فبلغ الخبر محمد بن زيد فسار من جرجان، فلمّا قرب هرب محمد بن إبراهيم إلى سالوس[1]، فأنفذ في أثره سريّة فأدرك وقتل، ولبس محمد بن زيد القلنسوة وتلقّب بالداعي.

واستقامت له طبرستان وذلك في بقية رجب سنة سبعين ومائتين، ووصل إلى الري في جموع كثيرة، فلما كان في سنة اثنتين وسبعين ومائتين في جُمادى الأولى، سار اذكوتكين ـ صاحب الريّ ـ من قزوين إلى الريّ، ومعه أربعة آلاف فارس، وكان مع محمد بن زيد من الديلم والطبرية والخراسانية عالم كثير، فالتقوا واقتتلوا فانهزم عسكر محمد وتفرّقوا، وقتل منهم ستة آلاف وأسر ألفان، وغنم اذكوتكين من أموالهم وأثقالهم ودوابّهم ما لم ير مثله.

قال: وجلس اذكوتكين بالمصلّى، ليضرب أعناق الأسرى بين يديه، فمن عجيب ما اتفق أنّ ديلميًا قدّم ليضرب عنقه، فوثب على السيّاف واستلب السيف من يده، وعلاه به فقتله ومرّ هاربًا فلم يلحق، واذكوتكين ينظر إليه ويضحك؛ ودخل

---

(١) سالوس: هي في الإقليم الرابع، طولها خمس وسبعون درجة وخمس وأربعون دقيقة، وعرضها سبع وثلاثون درجة وخمسون دقيقة... (معجم ياقوت).

اذكوتكين الريّ وأقام بها، وأخذ من أهلها مائة ألف دينار، وفرّق عمّاله على أعمال الريّ.

وفي سنة خمس وسبعين ومائتين

استولى رافع بن هرثمة ـ أمير خراسان ـ على جرجان، وأزال عنها محمد بن زيد، فسار محمد إلى استراباذ[1] فحصره بها رافع نحو سنتين، فغلت الأسعار بحيث إنه عدم المأكل، وبيع وزن درهم ملح بدرهمين فضة، ففارقها محمد ليلاً في نفر يسير، فبعث رافع إليه عسكرًا فتحاربا، وسار محمد عن سارية وطبرستان في شهر ربيع الأول سنة سبع وسبعين.

ثم سار إلى الديلم فدخل رافع خلفه، فوصل إلى حدود قزوين، وعاد إلى الريّ وأقام إلى سنة تسع وسبعين، حتى توفي المعتمد على الله، ودام محمد إلى أن قتل، على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر مقتل محمد بن زيد وشيء من أخباره

كان مقتله سنة ثمان وثمانين ومائتين، وكان سبب قتله أنه اتّصل به أن إسماعيل بن أحمد الساماني ـ صاحب ما وراء النهر ـ أسر عمرو بن الليث الصفّار ـ أمير خراسان ـ فخرج من طبرستان ظنّا منه أن إسماعيل الساماني لا يتجاوز عمله ولا يقصد خراسان، وأنّه لا دافع له عن ملك خراسان، فلما انتهى إلى جرجان أرسل إليه إسماعيل ـ وقد استولى على خراسان ـ يقول له: ألاّ يتجاوز عمله، ولا يقصد خراسان وترك جرجان له، فأبى محمد ذلك، فندب إسماعيل محمد بن هارون، فكان محمد هذا يخلف رافع بن هرثمة أيام ولايته خراسان، فجمع محمد جمعًا كثيرًا من فارس وراجل، وسار نحو محمد بن زيد فالتقوا على باب جرجان، واقتتلوا قتالاً شديدًا فانهزم محمد بن هارون أولاً، ثم رجع وقد تفرّقت عساكر محمد بن زيد في الطلب، فلما رأوه قد رجع ولّوا هاربين، وقُتل منهم خلق كثير، وأصاب محمد بن زيد ضربات، وأسر ابنه زيد وغنم ابن هارون معسكره وما فيه، ثم مات محمد بن زيد بعد أيام من الجراحات التي أصابته، فدفن على باب جرجان.

---

(١) استراباذ: بالفتح ثم السكون، وفتح التاء المثناة من فوق، وراء، وألف، وباء موحدة، وألف، وذال معجمة: بلدة كبيرة. . من أعمال طبرستان بين سارية وجرجان. . . (معجم البلدان).

وقيل: كانت الوقعة التي جرح فيها يوم الجمعة لخمس ليال خلون من شوال سنة سبع وثمانين، ومات بعد ذلك بيوم، وكانت مدة قيامه ـ بعد وفاة أخيه ـ نحوًا من ثمانية عشر سنة.

وكان أديبًا شاعرًا فاضلاً حسن السيرة، قال أبو عمرو الاسترابادي: كنتُ أورد على محمد بن زيد أخبار العباسيين، فقلت له: إنّهم قد لقّبُوا أنفسهم، فإذا ذكرتهم عندك أسمّيهم أو ألقّبهم؟ فقال: الأمر موسع عليك، سمّهم ولقّبهم بأحسن ألقابهم وأسمائهم وأحبّها إليهم. قال: وحُمل ابنه زيد إلى إسماعيل بن أحمد الساماني ـ لمّا أُسر ـ فأكرمه، وكتب إليه المكتفي كتابًا في حمله إليه فدافع عنه، وهو القائل: [من الكامل]

ولقد تقول عصابةٌ ملعونةٌ غوغاء ما خلقت لغير جهنَّم
من لم يسبّ بني النبي محمدٍ ويرى قتالهم فليس بمسلم
عجبًا لأمّة جدّنا يجفوننا وتجيرنا منهم رجال الديلم

ولم يزل عند آل سامان مكرّمًا إلى أن مات في سنة أربع عشرة وثلاثمائة.

ولمّا مات محمد بن زيد وأسر ابنه زيد بن محمد، قام بالأمر ابن ابنه المهدي أبو محمد الحسن بن زيد بن محمد بن زيد، وخطب له ببلاد الديلم، وكانت له خطوب وحروب لم نرَ مَنْ دوّن فيها شيئًا فنورده، ولا وقفنا على تاريخ وفاته.

قالوا: ثم كانت بين الحَسَنيين والحُسَينيين حروب على الإمارة بطبرستان والديلم، إلى أن استقرت الإمارة في بني الحسين، وأول من قام منهم: الحسن بن علي الأُطرُوش.

ذكر أخبار الناصر للحق

هو الحسن بن علي بن الحسن بن علي بن عمر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ويعرف بالأطروش، كان استيلاؤه على طبرستان في سنة إحدى وثلاثمائة، وذلك أنه لما قتل محمد بن زيد استعمل إسماعيل بن أحمد الساماني محمد بن هارون على طبرستان، وأمره بقتل من وجد من العلويّة فهربوا في البلاد، وكان الحسن بن عليّ هذا شيخًا من شيوخ الزيدية، شديد الصحبة لمحمد بن زيد، وكان قد دخل خراسان سرًا ليدعو الناس إليه، فجرت عليه مكاره وحبس، ثم هرب من السجن وعاد إلى محمد بن زيد، وشهد معه الحرب الذي قتل فيها؛ وكان سبب صممه أنّه ضرب في حرب مع محمد بن زيد بسيف على رأسه فطرش.

فلما وقع عليه الطلب وعلى أمثاله هرب، ودخل إلى بلاد الديلم، وأقام عند ملكهم جستان بن وهسوزان بن المرزبان فأكرمه، وأنزله فأخذ في دعاء الديلم إلى الإسلام، فأسلم جمهورهم، وجعل يتنقّل على قراهم ويدعو، ثم دخل إلى بلاد الجيل[١]، ودعاهم فأسلم أكثرهم، ووقعت دعوته على حدّ النهر باسباذروذ[٢]، فاجتمع أهل دعوته عليه، وعاد من بلاد الجيل فيمن جمع، فلما دخل بلاد الديلم وجد جستان على خلاف ما فارقه عليه، لأنّه فارقه على أنّه معلم، يدعو الناس لا طالب مملكة، فمنعه جستان من الأعشار والصدقات، فوقع بينهما حرب كانت الهزيمة فيها على جستان، ثم ألجأه الأمر إلى مسالمة الناصر والدخول في طاعته.

وأقام الناصر في هرسم قاعدة مملكة الديلم، واتفق أنّ محمد بن هارون السرخسي ـ نائب إسماعيل بن أحمد على طبرستان ـ تخوّف منه، فهرب واستأمن إلى الحسن، وتسلّم طبرستان وجرجان محمد بن علي المعروف بصعلوك الساماني وكان في عسكر كثيف، واتصل السرخسي بالناصر في عسكر قوي فاستظهر به، واجتمعا على لقاء صعلوك، فاحتال عليهما صعلوك، حتى افترقا بحيلة غريبة، فلما افترقا مضى السرخسي إلى نواحي الريّ، ورجع الناصر إلى بلاد الديلم، ولم يتمّ له أمر، ثم أنفذ كرّة ثانية جيشًا مع كالي والحسن بن الفَيْرُزان، فهزمهما صعلوك وقتلا في الوقعة، ثم خرج الناصر بنفسه إلى سالوس، وسار إليه صعلوك ومعه اصفهبد شهريار من الخراسانية، فالتقوا وكان مع الناصر كما ذكر المكثّر عشرة آلاف رجل من الديلم والجيل، وأكثرهم رجّالة ليس معهم من الخيل والأسلحة إلا القليل، وعدّة الخراسانية نيّف وثلاثون ألف رجل على غاية القوّة والمنعة، فهزمهم الناصر وقتل منهم مقتلة عظيمة، وألجأهم إلى بحر طبرستان، فكان من غرق أمثال من قتل، قال الصابي[٣] في الكتاب التاجي: يقال إنّ المفقودين كانوا نيّفًا على عشرين ألفًا، وقال حمزة بن

---

(١) الجيل: قرية من أعمال بغداد تحت المدائن بعد زرارين.. والجيل: هم جيلان، وجيلان: اسم لبلاد كثيرة من وراء بلاد طبرستان... (معجم البلدان).

(٢) اسبيذروذ (كما في معجم ياقوت): معناه النهر الأبيض: وهو اسم نهر مشهور من نواحي أذربيجان مخرجه من عند بارسيس، ويصب في بحر جرجان.

(٣) هو إبراهيم بن هلال بن إبراهيم بن زهرون الصابىء، الحران (أبو إسحاق) أديب، عالم، غلبت عليه صناعة الكتابة والبلاغة والشعر وله يد طولى في علم الرياضة، وخصوصًا الهندسة والهيئة. ولد بحران وتوفي ببغداد سنة ٣٨٤هـ. من مؤلفاته: مصنف في المثلثات، ديوان شعر، ديوان رسائل، التاجي في أخبار الدولة الديلمية، وكتاب في أخبار أهل المهلبي... (معجم المؤلفين - كحالة ١: ١٢٤).

الحسن الأصفهاني: كانوا سبعة آلاف رجل، وكانت الوقعة في سنة ثلاثمائة، ودخل الناصر مدينة آمل في جُمادى الآخرة سنة إحدى وثلاثمائة.

ولما دخل طبرستان وملكها فوّض أمر الجيش إلى الحسن بن القاسم العلوي، فاستبدّ بالأمر واصطنع الرجال ووسّع عليهم في العطاء، وقبض على الناصر وحبسه، فاستكبر الديلم هذا الفعل، وحضروا إلى القاسم العلوي وطالبوه بإخراجه إليهم، ووثب إليه ليلى بن النعمان وأخوه ـ وهما من أكبر القوّاد ـ وقالا له: إن أفرجت عنه الساعة وإلا قتلناك، فأخرجه لهم وهرب إلى بلاد الجيل، فأطاعوه فتلقّب بالداعي، فتكلّم الناس عند الناصر في أن يردّه ويولّيه جيشه وعهده، وكان الناصر قد ولّى ليلى بن النعمان الجيش، فأجاب وعاد الحسن بن القاسم فوفّى له الناصر بذلك، وزوّجه بابنة ولده علي بن الناصر، واستمرت الحال على ذلك إلى أن توفِي الناصر، وكانت وفاته في شعبان سنة أربع وثلاثمائة، وله من العمر تسع وسبعون سنة، وكانت مدة مملكته المستقيمة الدائمة إلى حين وفاته ثلاث سنين وثلاثة أشهر وأيامًا.

وكان الحسن الناصر شاعرًا ظريفًا كثير المجون حسن النادرة، وهو الذي حرّر مذهب الزيدية وألّف فيه، وكان يقول: بزر القز ليس بمال، والديلم ليسوا بعسكر، أما البزر فلأنّه إذا أقبل الربيع صار بعوضًا، وأما الديلم فلسرعة تنقّلهم من عسكر إلى عسكر. وكان يقول لأصحابه: من قتل منكم مقبلاً فهو مؤمن، ومن قتل منكم مدبرًا فهو كافر، فإذا أتي بجريح جرح مقبلاً نثر عليه الكافور المسحوق، فيجد راحة ويسكن ألمه، وإذا أتي بجريح جرح مدبرًا نثر عليه ملحًا فيشتد أمره، فيقول: قد بان لكم أن المؤمن ينتفع بالدواء لإيمانه، والكافر لا ينتفع به لكفره.

وكان له من الأولاد أبو الحسن علي، وأبو القاسم جعفر، وأبو الحسين أحمد. ولما مات الحسن الناصر قام بالأمر بعده.

الحسن بن القاسم الداعي العلوي

وهو ولي العهد، ولبس القلنسوة، وكان أول ما بدأ به أن بعث أبا القاسم جعفر وأبا الحسين أحمد ـ ولدي الناصر ـ إلى جرجان لانتزاعها من أيدي الخراسانية، فلقيهما دونها إلياس بن محمد بن اليسع الصفدي ـ والي جيش خراسان ـ بموضع يقال له سيماله فلما اصطَف الجيشان برز بين الصفّين ودعا إلى المبارزة، فبرز إليه من جيش ولدي الناصر بويه بن فناخسره ـ جد عضد الدولة ـ فقتله وانفضّ جيش

الخراسانية، فبعث إليهما بعد ذلك الأمير نصر بن أحمد الساماني جيشًا عليه سيمجور الدواتي، فلقياه بحلايين[١] من سواد جرجان فهزماه، فوقف غير بعيد وتجمّعت الخراسانية كعادتهم في ذلك، فكرّ راجعًا إليهم فهزمهم أقبح هزيمة، وقتل الديلم أفظع قتل، وانهزموا وسلكوا مضايق ليأمنوا جولان الخيل، فوصلوا جرجان فتجمّع الديلم بها، وأخلوها قاصدين طبرستان وقد اتفق رأيهم على خلع الداعي، فخلعوه في الطريق وبايعوا أبا القاسم جعفر بن الناصر، وألبسوه القلنسوة، وقيل إن المبايَع أبو الحسين أحمد، وبالجملة فالأمير على الجيش أبو الحسين؛ ولما وصلا في جيوشهما إلى آمل لقيهما الداعي دونها، وخرج هاربًا إلى بلاد الجيل، وملكا طبرستان مُدَيْدَة، ثم كرّ راجعًا ـ وقد احتشد ـ فلقياه فهزمهما، فمضيا إلى بلاد الجيل واحتشدا، وعادا فحاربهما الداعي حربًا شديدًا ثم انهزم واستوليا على عسكره، وهرب وحيدًا متنكرًا يريد بلاد الجيل، واخترق بلاده الديلم بأسره بعضهم ثم منّ عليه وأطلقه، فانتهى إلى بلاد الجيل وأقام عندهم.

واتفقت وفاة أبي الحسين فجأة، وتلاه أخوه أبو القاسم بعده، فبقي أمر الديلم بطبرستا بغير مدبّر، فعقدوا الإمرة عليهم لليلى بن النعمان، فقام بأمرهم وهو يدعو للداعي إلى أن قتل بنيسابور[٢]، قتله حمّويه بن علي صاحب جيش نصر بن أحمد الساماني، فعقدوا بعده لعلي بن خورشيد فعاجلته المنيّة، فعزموا على الحسن بن كالي، فأشار عليهم بأخيه ماكان بن كالي، وهو أشجع أهل الديلم بالإنفاق، فلما ولّي عليهم اجتمع هو وأخوه على نصب أبي عليّ محمد بن أبي الحسين بن الناصر، فنصبوه فجرى على يده قتل الحسن بن كالي بسارية، وكان ماكان بآمل، ثم سقط بعد ذلك أبو علي في الميدان فهلك، ولمّا اتصل بماكان ما جرى على أخيه كاتب الداعي يستدعيه، فوافى في عسكر قوي واجتمع معه وملك طبرستان، ثم سار ومعه ماكان إلى جرجان فملكها، وأقام الداعي بجرجان، وكانت في نفسه حفائظ على الديلم لنصرتهم عليه أولاد الناصر، فعمل دعوة لهم جعل يستدعيهم واحدًا واحدًا فيقتله، ففطنوا لذلك وهربوا إلى خراسان، ودخلوا في طاعة نصر بن أحمد الساماني، وسوّدوا أعلامهم وقدّموا على أنفسهم أسفار بن شيرويه الجيلي، وبعث معهم نصر بن أحمد

(١) هذه الكلمة بالأصل دون نقط سوى النون (الحرف الأخير).
(٢) نيسابور: بفتح أوله: هي مدينة عظيمة ذات فضائل جسيمة معدن الفضلاء ومنبع العلماء... (معجم البلدان).

جيشًا كثيفًا، وساروا فدخلوا جرجان، وسار الداعي منها إلى طبرستان ثم إلى الريّ، واجتمع فيها بماكان وأمره أن يمضي إلى طبرستان لدفع أسفار عنها، فعلم أنّه لا طاقة له بذلك، فقال له: الرأي أن تمضي أنت فإنك الإمام، ولو قد رأتك الديلم لانفضّوا إليك، فاضطر الداعي إلى ذلك، وسار ووقعت الحرب بينه وبين الخراسانية، فانهزم جيشه وكان مرداويج بن زيار الجيلي يراصده، فأمكنته فرصة منه فرماه فأشواه، وولّى منهزمًا ودخل آمل واستتر بها، فتتبّع الديلم أثر دمه، وأظهره لهم أهل البلد، فبادروا إلى الدار التي دلُّوهم عليها وهجموها، فلما رآهم بادر إلى الصلاة فقتلوه، وكان مقتله يوم الثلاثاء لست بقين من شهر رمضان سنة ست عشرة وثلاثمائة في أيام المقتدر بالله، فكانت مدة مملكته ثنتي عشرة سنة وشهرًا وأيامًا، على ما فيها من الاختلاف عليه وقيام من ذكرنا.

ملك أسفار جرجان

ولما قتل الداعي ملك أسفار جرجان، وأبو موسى هارون بن بهرام طبرستان، والدعوة فيها لنصر بن أحمد الساماني، فأجمع رأيهما على نصب أبي جعفر محمد بن أحمد الناصر بآمل، فنصباه وألبساه القلنسوة، والدعوة لنصر لم تقطع، وبلغ نصرًا الخبر فأنكر على أسفار غاية الإنكار، وأمره بالقبض عليه والبعث به إليه، ففعل أسفار ذلك وبلغ مكان الخبر وهو بالري، فسار إلى طبرستان فهرب هارون منها إلى الديلم، وأظهر ماكان ما هو عليه من التشيّع، ونصب إسماعيل بن جعفر بن الناصر، فتوفي بعد مدّة ووقعت فترة لم يل فيها أحد من العلويين، ثم تخلّص بعد ذلك أبو الفضل جعفر بن محمد بن الحسين بن علي بن الحسن بن علي بن عمر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب من حبس نصر بن أحمد، وهو ممّن قبض عليه أسفار بن شيرويه مع أبي جعفر محمد بن الناصر، وسار إلى بلد الجيل وابتدأ في الدعاء لنفسه بها في سنة عشرين وثلاثمائة ونعت نفسه بالثائر في الله، وكان ذا حزم وتدبير، وساعدته الأقدار فخرج من بلد الجيل، قاصدًا طبرستان في سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة وبها الأستاذ أبو الفضل بن العميد[1]، وزير ركن الدولة بن بويه، وأبو

---

(١) هو أبو الفضل محمد بن العميد أبي عبد الله الحسين بن محمد الكاتب، المعروف بابن العميد، والعميد لقب والده، لقبوه بذلك على عادة أهل خراسان في إجرائه مجرى التعظيم، وكان فيه فضل وأدب وله ترسل... (وفيات الأعيان ٥:١٠٣).

الحسن علي بن كامة، من قبل ركن الدولة، فاستظهر عليهما وملك البلاد، وانصرفا إلى الريّ فأعاد ركن الدولة بن بويه أبا الحسن علي بن كامة في جيش، وكتب إلى الحسن بن الفيروزان ـ صاحب جرجان ـ يأمره بمعاونته ففعل، وسار إلى طبرستان في بقية سنة سبع وثلاثين، فرحل الثائر عنها وقصد الجيل، ثم خرج كرّة ثانية، واتفق مع وشمكير ولم يتم لهما أمر، ثم خرج ثالثة إلى طبرستان لاجئًا إلى ركن الدولة بن بويه فنصره، وأقام مدة بها، ثم عاد إلى بلاد الجيل وملك هرسم، ولم يخرج منها إلا في سنة خمسين وثلاثمائة، فإنه صار إلى نواحي أذربيجان زائرًا للمرزبان بن مسافر، وعاد فأقام بهرسم من بلاد الجيل إلى أن توفي بها، وكانت وفاته في سنة خمسين وثلاثمائة.

وملك بعده جماعة من العلويين بلاد الجيل، ولم يكن لأحد منهم دولة قائمة في بلد مشهور، فيعتني بأمرهم وتدوّن أخبارهم، وإنما كانوا بتلك الناحية شبه الأعيان والأكابر، لا كالملوك والخلفاء، ثم ظهر بعد ذلك أبو عبد الله محمد الحسني.

ذكر ظهور أبي عبد الله محمد بن الحسين الحسني المعروف بابن الداعي

قال ابن الأثير: كان ظهوره في سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة، وذلك أنه هرب من بغداد وسار نحو الديلم، فاجتمع عليه عشرة آلاف رجل، فهرب ابن الناصر العلوي من بين يديه، وتلقّب ابن الداعي بالمهدي لدين الله، وعظم شأنه وهزم قائدًا من قواد وشمكير.

ثم أظهر النسك والعبادة ولبس الصوف، وحارب ابن وشمكير فهزمه في سنة خمس وخمسين وثلاثمائة، وعزم على المسير إلى طبرستان وكتب إلى العراق كتابًا يدعوهم إلى الجهاد، هذا ما أورده ابن الأثير في خبره، ولم يذكر خبر وفاته، إلا أنه لم يتم له أمر، ولا ظهر لغيره من أهل هذا البيت بعد ذلك بهذه الناحية ذكر، ولا كانت لهم مملكة في جهة من الجهات، إلا ما نورده من أخبار العبيديين، الذين ملكوا المغرب والديار المصرية وغيرها، وانتسبوا إلى علي بن أبي طالب ونفاهم أكثر الناس ـ بل عامّتهم ـ عن هذا النسب الشريف، على ما نذكر ذلك إن شاء الله تعالى من أخبارهم.

الباب الثامن
من القسم الخامس من الفن الخامس
في أخبار صاحب الزنج والقرامطة والخوارج
ببلاد الموصل

وإنما أفردنا هؤلاء بباب، لأنّهم ممن شاع ذكرهم وعظم محلّهم وطار اسمهم، واستولوا على كثير من البلاد وهزموا الجيوش، وأهمّ الخلافةَ أمرهم، وطالت مدتهم ولم يكونوا في أيام خليفة واحد، فنذكرهم في حوادث دولته، وإنما هم في أيام جماعة من الخلفاء، فلو ذكرناهم في حوادث أيامهم لانقطعت أخبارهم، وعسر على المطالع معرفتها، فلذلك أفردناهم لتكون أخبارهم سياقة، لا تنقطع بغيرها من الأخبار.

ذكر أخبار صاحب الزنج
وابتداء أمره وسبب خروجه

كان خروجه في شوّال سنة خمس وخمسين ومائتين - في خلافة المهتدي بالله - بفُرات البصرة، وزعم أنّه علي بن محمد بن أحمد بن علي بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وجمع الزنج الذين كانوا يكسحون السباخ[1]، وعبر دجلة فنزل الديناري.

قال أبو جعفر الطبري: وكان اسمه علي بن محمد بن عبد الرحيم، ونسبه في عبد القيس، وأمّه ابنة علي بن رحيب بن محمد بن حكيم من أهل الكوفة، وهو أحد الخارجين على هشام بن عبد الملك، مع زيد بن علي بن الحسين، فلما قتل زيد هرب والتحق بالري، فجاء إلى قرية وَرْزَنين[2] فأقام بها، وجدّه عبد الرحيم رجل من عبد القيس، كان مولده بالطالقان وقدم العراق، واشترى جارية فأوكدها محمدًا أباه.

قال: وكان صاحب الزنج هذا في ابتداء أمره متصلاً بجماعة من حاشية المنتصر، منهم غانم الشطرنجي وسعيد الصغير، وكان معاشه منهم ومن أصحاب السلطان، وكان يمدحهم ويستميحهم بشعره، ثم إنّه شخص من سامرّا سنة تسع

---

(١) السباخ: جمع سبخة. وهي من الأرض: ما لم يحرث ولم يعمر لملوحته؛ أو هي السماد.
(٢) ورزنين: من أعيان قرى الريّ كالمدينة.

وأربعين ومائتين إلى البحرين، فادعى بها أنّه علي بن عبد الله بن محمد بن الفضل بن حسن بن عبيد الله بن عباس بن علي بن علي بن أبي طالب، ودعا الناس بهجَر[١] إلى طاعته، فاتبعه جماعة كثيرة من أهلها ومن غيرها، فجرى بين الطائفتين عصبيّة قتل فيها جماعة.

قال: وكان أهل البحرين قد أحلّوه محل نبي، وجبا الخراج ونفذ فيهم حكمه، وقاتلوا أصحاب السلطان بسببه، ثم تنكّر له منهم جماعة، فانتقل عنهم إلى الأحْسَاء، ونزل على قوم يقال لهم بنو الشمّاس من بني سعد بن تميم فأقام فيهم، وفي صحبته جماعة من البحرين، منهم يحيى بن محمد الأزرق البَحْراني، وسليمان بن جامع - وهو قائد جيشه وكان ينتقل في البادية فذكر عنه أنه قال: أوتيت في تلك الأيام آيات من آيات إمامتي، ظاهرة للناس، منها إني لُقِّنْتُ سورًا من القرآن فجرى بها لساني، في ساعة واحدة وحفظتها في دفعة واحدة، منها سبحان والكهف وصّ، ومنها أني فكرت في الموضع الذي أقصده حيث نِبتْ بي البلاد فأظلّتني غمامة، وخوطبت منها فقيل لي: اقصد البصرة، وقيل عنه إنه قال لأهل البادية إنّه يحيى بن عمر أبو الحسين، المقتول بالكوفة، فخدع أهلها فأتاه منهم جماعة كثيرة، فزحف بهم إلى الرَّدْم[٢] من البحرين، فكانت بينهم وقعة عظيمة، وكانت الهزيمة عليه وعلى أصحابه، قُتلوا قتلاً ذريعًا فتفرّقت الأعراب عنه، فسار ونزل البصرة في بني ضُبَيعة[٣]، فاتبعه منهم جماعة منهم علي بن أبان المهلبي، وكان قدومه البصرة في سنة أربع وخمسين ومائتين، وعاملها يوم ذاك محمد بن رجاء الحضاريّ.

فوافق قدومه فتنة أهل البصرة، بالبلالية والسعديّة، فطمع في إحدى الطائفتين أن تميل إليه، فأرسل إليهم يدعوهم فلم يجبه من أهل البلد أحد، وطلبه ابن رجاء فهرب، فأخذ جماعة ممن كانوا يميلون إليه وحبسهم، وكان ممّن حبس ابنه وابنته وزوجته وجارية له حاملاً منه، وسار يريد بغداد ومعه من أصحابه محمد بن سلم،

---

(١) هجر: بفتح أوله وثانيه: الهجر بلغة حمير والعرب العارية القرية، فمنها: هجر البحرين، وهجر نجران، وهجر جازان، وهجر حصنة من مخلاف مازن، وهجر: مدينة وهي قاعدة البحرين... (معجم البلدان).

(٢) الردم: بفتح أوله وسكون ثانيه: وهو ردم بني جمح بمكة لبني قراد الفهريين. والردم أيضًا: قرية لبني عامر بن الحارث العبقسيين بالبحرين، وهي كبيرة... (معجم ياقوت).

(٣) بنو ضبيعة: بطن من الأوس من القحطانية. وبنو ضبيعة أيضًا: بطن من بكر بن وائل من العدنانية. وبنو ضبيعة أيضًا: بطن من ربيعة بن نزار، من العدنانية... (نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب).

ويحيى بن محمد، وسليمان بن جامع، وبُرَيش القريعي، فلما صار بالبطيحة نذر به وبأصحابه، فدخل بغداد فأقام بها حولاً، فانتسب إلى محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد، فزعم بها أنه ظهر له آيات عرف بها ما في ضمائر أصحابه، وما يفعله كل واحد منهم، فاستمال جماعة من أهل بغداد منهم جعفر بن محمد الصُّوحاني، ومحمد بن القاسم، ومُشرق ورفيق غلاما يحيى بن عبد الرحمٰن، فسمّى مشرقًا حمزة وكنّاه أبا أحمد، وسمّى رفيقًا جعفرًا وكنّاه أبا الفضل، واتفق عزل محمد بن رجاء عن البصرة، فوثب رؤساء البلالية والسعدية فأخرجوا من كان في الحبس، فخلص أهله فيهم، فلما بلغه خلاص أهله رجع إلى البصرة، وكان رجوعه في شهر رمضان سنة خمس وخمسين ومائتين، ومعه علي بن أبان ويحيى بن محمد وسليمان ومشرق ورفيق، فوافوا البصرة فنزل بقصر القرشي على نهر يعرف بعمود ابن المنجّم، وأظهر أنّه وكيل لولد الواثق في بيع السباخ.

قال: وذكر ريحان، أحد غلمان الشورجيين وهو أوّل من صحبه منهم، قال: كنت موكَلاً بغلمان مولاي أنقل لهم الدقيق فأخذني أصحابه فصاروا بي إليه، وأمروني أن أسلّم عليه بالإمرة ففعلت، فسألني عن الموضع الذي جئت منه فأخبرته، وسألني عن أخبار البصرة فقلت لا علم لي، وسألني عن غلمان الشورجيين وعن أحوالهم وما يجري لهم فأعلمته، فدعاني إلى ما هو عليه فأجبتُه، فقال: اختَلْ فيمن قدرتَ عليه من الغلمان فأقبلْ بهم، ووعدني أن يقودني على من آتيه به، واستحلفني ألاّ أُعلم أحدًا بموضعه وأن أرجع إليه، وخلّى سبيلي وعُدت إليه من الغد، وقد أتاه جماعة من غلمان الدبّاسين، فكتب في حريرة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ...﴾ [التوبة: ١١١] الآية ورفعها علمًا، وما زال يدعو غلمان أهل البصرة وهم يقبلون إليه، للخلاص من الرق والتعب، حتى اجتمع عنده خلق كثير، فخطبهم ووعدهم أن يقوّدهم ويملّكهم، وحلف لهم الأيمان ألاّ يغدر بهم ولا يخذلهم، ولا يدع شيئًا من الإحسان إلا أتى به إليهم، فأتاه مواليهم وبذلوا له عن كل عبد خمسة دنانير، ليسلّم إليه عبده، فبطح أصحابهم وأمر كل عبد أن يضرب مولاه أو وكيل مولاه خمسمائة شطب[1]، ثم أطلقهم فمضوا نحو البصرة.

ثم ركب في سفن هناك فعبر دُجَيْلا إلى نهر ميمون[2]، فأقام هناك والسودان

---

(١) الشطبة من الشيء: القطعة تقطع طولاً. وقد يراد بها العصا.

(٢) ميمون: نهر من أعمال واسط قصبته الرصافة.

تجتمع إليه إلى يوم الفطر، فخطبهم وصلّى بهم وذكّرهم ما كانوا فيه من الشقاء وسوء الحال، وأنّ الله تعالى أنقذهم من ذلك، وأنّه يريد أن يرفع أقدارهم ويملكهم العبيد والأموال، فلما كان بعد يومين رأى أصحابه الحميريّ، فقاتلوه حتى أخرجوه من دجلة، فاستأمن إلى صاحب الزنج رجل يكنى بأبي صالح ويعرف بالقصير، في ثلاثمائة من الزنج، فلما كثروا جعل القوّاد منهم، وقال لهم: من أتى منكم برجل فهو مضموم إليه، وكان ابن أبي عون قد نقل من واسط إلى ولاية الأُبلَة[1] وكور دجلة، وسار قائد الزنج إلى المحمديّة، فلما نزلها وافاه أصحاب ابن أبي عون، فصاح الزنج: السلاح!! وقاموا وكان منهم فتح الحجّام، فقام وأخذ طبقًا كان بين يديه، فلقيه رجل من الشورجيين يقال له بُلْبُل، فلما رآه فتح حمل عليه وحذفه بالطبق الذي بيده، فرمى سلاحه وولّى هاربًا، وانهزم أصحابه وكانوا أربعة آلاف، وقُتل منهم جماعة ومات بعضهم عطشًا، وأسر منهم فضرب أعناقهم، ثم سار إلى القادسيّة فنهبها أصحابه بأمره، وما زال يتردّد إلى أنهار البصرة، فوجد بعض السودان دارًا لبعض بني هاشم فيها سلاح فانتهبوه، فصار معهم ما يقاتلون به.

فأتاه وهو بالسَّيب جماعة من أهل البصرة يقاتلونه، فوجّه يحيى بن محمد في خمسمائة رجل فلقوا البصريين، فانهزم البصريون منهم وأخذوا سلاحهم، ثم قاتل طائفة أخرى عند قرية تعرف بقرية اليهود فهزمهم أيضًا، وأثبت أصحابه في الصحراء، ثم أسرى إلى الجعفريّة فوضع في أهلها السيف، فقتل أكثرهم وأتى منهم بأسرى فأطلقهم، ولقي جيشًا كبيرًا للبصريين مع رُمَيْس وعقيل، فهزمهم وقتل منهم خلقًا كثيرًا، وكان معهم سفن فهبّت ريح فألقتها إلى الشط، فنزل الزنج وقتلوا من وجدوا فيها وغنموا ما فيها، وكان مع رُمَيْس سفن فركبها ونجا، فأنفذ صاحب الزنج فأخذها ونهب ما فيها، ثم نهب القرية المعروفة بالمهلبيّة وأحرقها، وعاث في الأرض وأفسد، ثم لقيه قائد من قواد الأتراك، يقال له أبو هلال في أربعة آلاف مقاتل، فاقتتلوا على نهر الريّان[2]، فحمل السودان عليهم حملة صادقة، فقتلوا صاحب علمه فانهزم أبو

(١) الأبلة: بضم أوله وثانيه وتشديد اللام وفتحها: بلد على شاطىء دجلة البصرة العظمى في زاوية الخليج الذي يدخل إلى مدينة البصرة، وهي أقدم من البصرة. . . (معجم البلدان).

(٢) الريان: بفتح أوله، وتشديد ثانيه، وآخره نون: وهو في مواضع كثيرة منها: الريان قرية من قرى نسا بلدة بخراسان قرب سرخس. . . والريان: اسم أطم من أطم المدينة؛ والريان: اسم جبل في بلاد بني عامر؛ والريان جبل في طريق البصرة إلى مكة. . والرياني أيضًا: موضع على ميلين من معدن بني سليم كان الرشيد ينزله إذا حج. . . (معجم البلدان).

هلال وأصحابه، وتبعهم السودان فقتلوا من أصحاب أبي هلال أكثر من ألف وخمسمائة رجل، وأخذوا منهم أسرى فأمر صاحب الزنج بقتلهم، ثم أتاه من أخبره أنّ الزينبي قد أعدّ له الجند والمتطوّعة والبلاليّة والسعديّة، وهم خلق كثير، وأنّهم قد أعدُّوا الحبال لتكتيف من يأخذونه من السودان، وأنّ المقدّم عليهم أبو منصور أحد موالي الهاشميين، فأرسل علي بن أبان في مائة أسود ليأتيه بخبرهم، فلقي طائفة منهم فهزمهم، وصار من معهم من العبيد إلى علي بن أبان، وأرسل طائفة أُخرى من أصحابه، إلى موضع فيه ألف وتسعمائة سفينة ومعها من يحفظها، فلما رأوا الزنج هربوا عنها، فأخذ الزنج السفن وأتوا صاحبهم بها، فلما أتوه جلس على نشز[1] من الأرض، وكان في السفن قوم حجّاج أرادوا أن يسلكوا طريق البصرة، فناظرهم فصدقوه في قوله، وقالوا له: لو كان معنا فضل نفقة لأقمنا معك فأطلقهم، وأرسل طليعة تأتيه بخبر ذلك العسكر فأتاه بخبرهم: أنهم قد أتوه بخلق كثير، فأمر محمد بن سلم وعلي بن أبان أن يعقدوا لهم بالنخيل، وقعد هو على جبل مشرف، فلم يلبث أن طلعت الأعلام والرجال، فأمر الزنج فكبّروا وحملوا عليهم، فحملت الخيول فتراجع الزنج حتى أتوا الجبل، ثم حملوا فثبتوا لهم، وقتل من الزنج فتح الحجّام، وصدق الزنج الحملة فأخذوهم بين أيديهم، وجرح محمد بن سلم، وحملوا عليهم فقتلوا منهم، وانهزم الناس وذهبوا كل مذهب، وتبعهم السودان إلى نهر بيان فوقعوا في الوحل، فقتلهم السودان وغرق كثير منهم، وأتى الخبر إلى الزنوج بأنّ لهم كمينًا، فساروا إليه فإذا الكمين في ألف من المغاربة، فقاتلوهم قتالاً شديدًا، ثم حمل السودان عليهم فقتلوهم أجمعين وأخذوا سلاحهم، ثم وجّه أصحابه فرأوا مائتي سفينة، فيها دقيق فأخذوه ومتاع فنهبوه، ونهب قرية المُعَلَّى بن أيوب، ثم سار فرأى مسلحة الزينبي فقاتلوه، فقاتلهم فقتلهم أجمعين، وكانوا مائتين، ثم سار فنهب قرية مُنْذَران، ورأى فيها جمعًا من الزنج ففرقهم على قوّاده، ثم سار فلقيه ستمائة فارس مع سليمان؛ ابن أخي الزينبي، ولم يقاتله فأرسل من ينهب، فأتوه بغنم وبقر فذبحوا وأكلوا، وفرّق أصحابه في انتهاب ما هناك.

ثم سار صاحب الزنج يريد البصرة، حتى إذا قابل النهر المعروف بالرياحي، أتاه قوم من السودان، فأعلموه أنّهم رأوا في الرياحي بارقة، فلم يلبث إلا يسيرًا حتى تنادى السودان: السلاح السلاح!! فأمر علي بن أبان بالعبور إليهم، فعبر في ثلاثمائة

(١) النشز: ما ارتفع وظهر من الأرض.

رجل، وقال له: إن احتجت إلى مدد فاستمدني، فلما مضى علي بن أبان صاح الزنج، السلاح السلاح!! لحركة رأوها في جهة أخرى، فوجّه محمد بن سلم بجمع فحاربهم من وقت الظهيرة إلى وقت العصر، ثم حمل الزنوج حملة صادقة فهزموهم، وقتلوا من أهل البصرة والأعراب زهاء خمسمائة، ورجعوا إلى صاحبهم، ثم أقبل علي بن أبان في أصحابه ـ وقد هزموا مَنْ بإزائهم وقتلوا منهم، ومعه رأس ابن أبي الليث البلالي القواريري من أعيان البلالية، ثم سار من الغد عن ذلك المكان، ونهى أصحابه عن دخول البصرة، فتسرّع بعضهم فلقيهم أهل البصرة في جمع عظيم، وانتهى الخبر إليه فوجّه محمد بن سلم وعلي بن أبان ومشرقًا وخلقًا كثيرًا، وجاء هو يسايرهم فلقوا البصريين، فأرسل إلى أصحابه ليتأخروا عن المكان الذي هم فيه، فتراجعوا فأكبّ عليهم أهل البصرة فانهزموا، وذلك عند العصر، ووقع الزنوج في نهر كبير، وقتل منهم جماعة وغرق جماعة وتفرّق الباقون، وتخلّف صاحبهم عنهم وبقي في نفر يسير فنجا، ثم لحقهم وهم متحيّرون لفقده، وسأل عن أصحابه فإذا ليس معه منهم إلا خمسمائة رجل، فأمر بالنفخ في البوق الذي يجتمعون إليه، فنفخ فيه فلم يأته أحد، وكان أهل البصرة قد انتهبوا السفن التي كانت للزنوج وبها متاعهم، فلما أصبح رأى أصحابه في ألف رجل، فأرسل محمد بن سلم إلى أهل البصرة يعظهم ويعلمهم: ما الذي دعاه إلى الخروج؟ فقتلوه، فلما كان يوم الاثنين لأربع عشرة خلت من ذي القعدة سنة خمس وخمسين ومائتين جمع أهل البصرة وحشدوا، لما رأوا من ظهورهم عليه، وانتدب لذلك رجل يعرف بحمّاد الساجيّ وكان من غزاة البحر، وله علم في ركوب السفن، فجمع المطوّعة ورماة الأهداف وأهل المسجد الجامع ومن خَفّ معه من البلاليّة والسعديّة وغيرهم، وشحن ثلاثة مراكب مقاتلة، ومضى جمهور الناس رجّالة، منهم من معه سلاح ومنهم نظّارة، فدخلت المراكب في المدّ والرجّالة على شاطىء النهر، فلما علم صاحب الزنج بذلك وجّه طائفة من أصحابه مع زريق الأصفهني كمينًا في شرقي النهر، وطائفة مع شبل وحُسين الحمّامي في غربيّه كمينًا، وأمر علي بن أبان أن يلقى أهل البصرة وأن يتستر هو ومَن معه ـ بتراسهم، ولا يقاتل حتى يظهر أصحابه، وتقدّم إلى الكمينَيْن ـ إذا جازوهم أهل البصرة ـ أن يخرجوا ويصيحوا بالناس، وبقي هو في نفر يسير من أصحابه، وقد هاله ما رأى من كثرة الجمع، فثار أصحابه إليهم وظهر الكمينان من جانبي النهر وراء السفن والرجّالة، فضربوا من ولّى من الرجّالة والنظّارة، فغرقت طائفة وقُتلت طائفة وهرب الباقون إلى الشط، فأدركهم السيف فمن ثبت قُتل، ومن ألقى نفسه في الماء غرق، فهلك أكثر ذلك الجمع فلم ينج إلا الشريد، وكثر المفقودون من أهل البصرة، وعلا العويل من

نسائهم، وهذا اليوم يسمّى يوم الشذا ـ وهو يوم أعظمه الناس، وكان فيمن قتل جماعة من بني هاشم وغيرهم في خلق كثير لا يحصى، وجمعت الرؤوس لصاحب الزنج، فأتاه جماعة من أولياء المقتولين فأعطاهم ما عرفوا، وجمع الرؤوس التي لم تطلب في جُرَيبيّة[1] وأطلقها، فوافت البصرة فجاء الناس وأخذا كل ما عرفوه منها، وقوي صاحب الزنج بعد هذا اليوم، وتمكّن الرعب في قلوب أهل البصرة وأمسكوا عن حربه، وكتب الناس إلى الخليفة بخبر ماكان، فوجّه إليهم جُعْلاَن التركي مددًا، وأمر بالأحوص الباهلي بالمسير إلى الأُبُلَّة واليًا، وأمدّه بقائد من الأتراك يقال له جُرَيح، وانصرف صاحب الزنج بأصحابه في آخر النهار إلى سبخة ـ وهي سبخة أبي قُرَّة ـ وبثّ أصحابه يمينًا وشمالاً للغارة والنهب.

ووصل جُعْلان إلى البصرة في سنة ست وخمسين ومائتين، ونزل بمكان بينه وبين صاحب الزنج فرسخ، وخندق عليه وعلى أصحابه وأقام ستة أشهر في خندقه، وجعل يوجّه الزينبيّ وبني هاشم ومن خَفّ لحرب الزنج، ثم سار جُعْلان للقائه فلم يكن بينهم إلا الرمي بالحجارة والسهام، ولا يجد جعلان إلى لقائه سبيلاً لضيق المكان عن مجال الخيل، وكان أكثر أصحاب جعلان خيّالة، فلما طال مقامه في خندقه أرسل صاحب الزنج أصحابه إلى مسالك الخندق، فبيّتوا جعلان وقتلوا من أصحابه جماعة، وخاف الباقون خوفًا شديدًا، وكان الزينبيّ قد جمع البلاليّة والسعديّة ووجّه بهم من مكانين، وقاتلوا صاحب الزنج فظفر بهم وقتل منهم مقتلة عظيمة، فترك جعلان خندقه وسار إلى البصرة، وظهر عجزه للسلطان فصرفه عن حرب الزنج، وأمر سعيد الحاجب بمحاربتهم، وتحوّل صاحب الزنج بعد ذلك من السبخة ـ التي كان فيها ـ ونزل بنهر أبي الخصيب[2]، وأخذ أربعة وعشرين مركبًا من مراكب البحر، وأخذ منها أموالاً عظيمة لا تحصى، وقتل من فيها وأنهبها أصحابه ثلاثة أيام، وأخذ لنفسه بعد ذلك من النهب.

ذكر دخول الزنج الأبله

وفي سنة ست وخمسين ومائتين دخل الزنج الأُبُلَّة، فقتلوا فيها خلقًا كثيرًا وأحرقوها، وكان سبب ذلك أنّ جُعْلان لما تنحّى عن خندقه إلى البصرة ألحّ صاحب

(١) الجريبيّة: وعاءٌ من جلدٍ أو غيره.

(٢) نهر أبي الخصيب: بالبصرة، كان مولى لأبي جعفر المنصور أقطعه إياه، واسم أبي الخصيب مرزوق.

الزنج بالغارات على الأبلَة، وجعلت سراياه تضرب إلى ناحية نهر مَعْقِل، ولم يزل يحارب إلى يوم الأربعاء لخمس بقين من شهر رجب فافتتحها، وقُتل بها الأحوص[١] وعبد الله بن حميد الطوسي وأضرمها نارًا، وكانت مبنيّة بالساج[٢] فأسرعت النار فيها، وقُتل من أهلها خلق كثير، وفرّق الأموال العظيمة، وكان ما أحرقت النار أكثر من الذي نهب.

قال: ولما اتصل خبر أهل الأبلَة بأهل عبّادان راسلوا صاحب الزنج في طلب الأمان، على أن يسلّموا إليه البلد، فأمّنهم وسلّموه إليه وأخذ ما فيه من الأموال والسلاح، ففرّقه في أصحابه.

ذكر أخذ الزنج الأهواز

قال: ولما فرغ صاحب الزنج من الأبلّة وعبّادان طمع في الأهواز، واستنهض أصحابه وسار إليها، فهرب من بها من الجند ومن أهلها ولم يبق إلا القليل، فدخلها وأخربها، وكان بها إبراهيم بن المدبّر يتولّى الخراج فأخذوه أسيرًا، بعد أن قاتل وجرح ونهب جميع ماله، وذلك لاثنتي عشرة ليلة مضت من رمضان من السنة، فخافه أهل البصرة وانتقل كثير من أهلها إلى البلدان.

وأما إبراهيم بن المدبّر فإنّ صاحب الزنج وكل به وحبسه في بيت يحيى بن محمد البَحْراني، فكان به إلى سنة سبع وخمسين ومائتين، فأرغب الموكَّلين به بمال فأطلقوه، فخرج هو وابن أخ له ورجل هاشمي.

ذكر انهزام الزنج من سعيد الحاجب وغلبة الزنج

وفي شهر رجب سنة سبع وخمسين ومائتين أوقع سعيد الحاجب بجماعة من الزنج، فهزمهم واستنقذ من معهم، وذلك في خلافة المعتمد على الله بن المتوكل، فكانت المرأة من نساء تلك الناحية تأخذ الزنجي فتأتي به عسكر سعيد فلا يمتنع عليها، ثم عبر سعيد إلى غرب دجلة فأوقع بصاحب الزنج عدّة وقعات، ثم عاد إلى معسكره بهَطْمة فأقام من ثاني رجب إلى آخر شعبان.

---

(١) هو الأحوص بن محمد بن عبد الله بن عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح... وكان الأحوص يرمى بالأبنة والزنى وشكي إلى عمر بن عبد العزيز فنفاه من المدينة إلى قرية من قرى اليمن على ساحل البحر... (طبقات الشعراء لابن قتيبة ٢٦٢).

(٢) الساج: ضرب من الشجر يعظم جدًا ويذهب طولاً وعرضًا، وله ورق كبير.

ثم أوقع صاحب الزنج بسعيد، وذلك أنه سيّر إلى سعيد جيشًا، فأوقعوا به ليلاً وأصابوا مقتلة من أصحاب سعيد، فقتلوا خلقًا كثيرًا وأحرقوا عسكره، فأمر بالمسير إلى باب الخليفة، وترك بُغْراج بالبصرة، فسار سعيد من البصرة وأقام بها بغراج يحمي أهلها، فردّ السلطان أمرها إلى منصور بن جعفر الخيّاط بعد سعيد، فجمع منصور الشذا[١] وسار نحو صاحب الزنج، فكمّن له صاحب الزنج كمينًا، فلما أقبل خرجوا عليه فقتلوا في أصحابه مقتلة عظيمة، وغرق منهم خلق كثير، فلم يقابله منصور بعد ذلك.

ذكر انهزام الزنج بالأهواز

قال: وفي سنة سبع وخمسين ومائتين أرسل صاحب الزنج جيشًا مع علي بن أبان ليقطع قنطرة أربك[٢]، فلقيهم إبراهيم بن سيما منصرفًا من فارس، فأوقع بهم وهزمهم وقتل منهم وجرح علي بن أبان، ثم سار إبراهيم قاصدًا نهر جُبَّى[٣]، وأمر كاتبه شاهين بن بسطام بالمسير على طريق آخر، ليوافيه بنهر جُبَّى بعد الوقعة، وكان علي بن أبان قد سار من الوقعة فنزل الخَيْزُرَانيّة، فأتاه رجل فأخبره بإقبال شاهين إليه، فسار نحوه فالتقيا وقت العصر بموضع بين جُبَّى ونهر موسى، فاقتتلوا قتالاً شديدًا، ثم صدمهم الزنج صدمة صادقة فهزموهم، وقتلوا شاهين وابن عم له وخلقًا كثيرًا، فلما فرغ الزنج منهم أتاهم الخبر بقرب إبراهيم بن سيما منهم، فسار عليّ نحوه فوافاه وقت العشاء الآخرة، فأوقع بإبراهيم وقعة شديدة قتل فيها جمعًا كثيرًا؛ قال علي بن أبان: وكان أصحابي قد تفرّقوا بعد الوقعة مع شاهين، ولم يشهد معي حرب إبراهيم غير خمسين رجلاً، ثم انصرف علي بن أبان إلى جُبَّى.

ذكر أخذ الزنج البصرة وتخريبها

قال: وفي شوال سنة سبع وخمسين ومائتين جمع صاحب الزنج أصحابه لدخول البصرة، وتخريبها لضعف أهلها وتفرّقهم، وكان منصور الخيّاط قد أمسك عن

---

(١) الشذاة: بقية القوة والشدة.

(٢) أربك: بالفتح ثم السكون، وباء موحدة، تضم وتفتح، وآخره كاف: بلد وناحية ذات قرى ومزارع، وعنده قنطرة مشهورة، فتحها المسلمون عام ١٧هـ... (معجم البلدان).

(٣) جبّى: بالضم ثم التشديد، والقصر: بلد أو كورة من عمل خوزستان، ومن الناس من جعل عبّادان من هذه الكورة، وهي في طرف من البصرة والأهواز... وجبّى أيضًا: من أعمال النهروان... وجبّى أيضًا: قرية قرب هيت... (معجم ياقوت).

حربه بعد تلك الوقعة التي ذكرناها، واقتصر على تخفير[(١)] القيروانات[(٢)] والسفن، فامتنع أهل البصرة فعظم ذلك على صاحب الزنج، فتقدّم إلى علي بن أبان بالمقام بالخيزرانيّة ليشغل منصورًا عن تسيير القيروانات، وكان عليّ بنواحي جُبّى والخيزرانيّة، ثم أمر محمد بن يزيد الدارمي ـ وهو أحد من صحبه بالبحرين ـ أن يخرج إلى الأعراب فيجمعهم، فخرج إليهم فأتاه منهم خلق كثير فأناخوا بالقَنْدَل[(٣)]، ووجّه إليهم سليمان بن موسى الشَّعْراني، وأمرهم بطرق البصرة والإيقاع بها ليتمرّن الأعراب على ذلك، ثم انهض عليّ بن أبان وضمّ إليه طائفة من الأعراب، وأمره بإتيان البصرة من ناحية بني سعد، وأمر يحيى بن محمد البَحْراني بإتيانها من ناحية نهر عدي[(٤)] وضمّ إليه سائر الأعراب، فكان أوّل من واقع أهل البصرة علي بن أبان، وبُغْرَاج يومئذ بالبصرة في جماعة من الجند، فأقام يقاتلهم يومين ومال الناس نحوه، وأقبل يحيى بن محمد فيمن معه نحو الجسر، فدخل علي بن أبان البصرة وقت صلاة الجمعة لثلاث عشرة ليلة بقيت من شوال، فأقام يقتل ويحرق يوم الجمعة وليلة السبت ويوم السبت، ثم عاد يحيى إلى البصرة يوم الأحد فتلقّاه بُغْراج في جمع، فردّوه يومه ذلك، ثم غاداهم يوم الاثنين فدخل وقد تفرق الجند، وانحاز بغراج ومن معه، ولقيه إبراهيم بن يحيى المُهَلّبي فاستأمنه لأهل البصرة فأمّنهم، فنادى منادي إبراهيم: من أراد الأمان فليحضر دار إبراهيم، فحضر أهل البصرة قاطبة حتى ملأوا الرحاب، فلما رأى اجتماعهم انتهز الفرصة لئلا يتفرقوا فغدر بهم، وأمر أصحابه بقتلهم فكان السيف يعمل فيهم وأصواتهم مرتفعة بالشهادة، فقتل ذلك الجمع كله ولم يسلم منهم إلا النادر، ثم انصرف يومه ذلك، ودخل عليّ بن أبان إلى الجامع فأحرقه، وأُحرقت البصرة من عدة مواضع، واتسع الحريق من الجبل إلى الجبل، وعظم الخطب وعمّها القتل والنهب والإحراق، وقتلوا كل من رأوه بها، فمن كان من أهل اليسار أخذوا ماله وقتلوه، ومن كان فقيرًا قتلوه لوقته، فبقوا كذلك عدة أيام، ثم أمر يحيى أن ينادي بالأمان ليظهروا فلم يظهر أحد، ثم انتهى الخبر إلى صاحب الزنج فصرف علي بن أبان عنها، وأقرّ يحيى عليها لموافقته هواه في كثرة القتل، وصرف عليًا

(١) التخفير: الحماية.

(٢) القيروان: معظم الكتيبة؛ أو القافلة؛ أو الجماعة من الخيل.

(٣) القندل: موضع بالبصرة.

(٤) نهر عديّ (عدي بن أرطأة): بالبصرة، كان نهر عديّ خورًا من نهر البصرة حتى فتقه عديّ بن أرطأة الفزاري من بثق نهر شيرين جارية أبرويز... (معجم البلدان).

لإبقائه على أهلها، فهرب الناس على وجوههم، وصرف صاحب الزنج جيشه عن البصرة.

قال: ولما أخرب البصرة انتمى إلى زيد لمصير جماعة من العلويين إليه، وترك الانتساب إلى عيسى بن زيد، وانتسب إلى يحيى بن زيد، قال القاسم بن الحسن النوفلي[١]: كذب، ابن يحيى لم يُعقب غير بنت ماتت وهي ترضع.

ذكر مسير المولد لحرب صاحب الزنج وانتصار صاحب الزنج

وفي ذي القعدة من السنة أمر المعتمد على الله المُوَلَّد بالمسير إلى البصرة لحرب الزنج، فسار فنزل الأبلّة فسيّر صاحب الزنج يحيى بن محمد لحربه، فسار إليه فقاتله عشرة أيام، ثم وطّن المولّد نفسه على المقام، فكتب صاحب الزنج إلى يحيى يأمره بتبييت[٢] المولّد، وسيّر إليه أبا الليث الأصفهاني فبيّته، ونهض المولّد فقاتله تلك الليلة ومن الغد إلى العصر، ثم انهزم عنه ودخل الزنج عسكره فغنموا ما فيه، واتبعه يحيى إلى الجَامِدَة[٣] فأوقع بأهلها، ونهب تلك القرى وسفك ما قدر عليه من الدماء، ثم رجع إلى نهر معقل.

ذكر الحرب بين منصور الخياط والزنج وقتل منصور

قال: وفي سنة ثمان وخمسين ومائتين قتل منصور بن جعفر الخياط، وسبب ذلك أن صاحب الزنج لما فرغ من أمر البصرة أمر علي بن أبان بالمسير إلى جُبَّى، لحرب منصور بن جعفر وهو يومئذ يلي الأهواز، فأقام بإزائه شهرًا وكان منصور في قلّة من الرجال، ثم وجّه صاحب الزنج جلّة أصحابه مع أبي الليث الأصفهاني، وأمره بطاعة علي بن أبان فلما صار إليه خالفه واستبدّ، وجاء منصور كما كان يجيء للحرب، فتقدّم إليه أبو الليث عن غير إذن عليّ، فظفر به منصور وقتل من الزنج خلقًا كثيرًا، وأفلت أبو الليث ورجع إلى صاحب الزنج، ثم إنّ علي بن أبان وجّه

---

(١) القاسم بن الحسن النوفلي: راوية، عاصر الشاعر بشار بن برد وروى عنه وعن معاصريه.
(٢) بيّت القوم: أوقع بهم ليلاً بغتة.
(٣) الجامدة: بكسر الميم: قرية كبيرة جامعة من أعمال واسط بينها وبين البصرة. . . (ياقوت).

طلائع يأتونه بخبر منصور، وأسرى إلى وال كان لمنصور على بعض الأعمال، فقتله وقتل أكثر أصحابه وغنم ما كان معهم ورجع، وبلغ الخبر منصور بن جعفر فأسرى إلى الخيزرانيّة، وخرج إليه علي بن أبان فتحاربوا إلى الظهر فانهزم منصور وتفرّق عنه أصحابه، وأدركته طائفة من الزنج فحمل عليهم، وقاتلهم حتى تكسّر رمحة وفني نشّابه، ثم حمل حصانه ليعبر النهر فوقع في النهر، وسبب وقوعه أن بعض الزنج رآه حين أراد أن يعبر النهر، فألقى نفسه في النهر قبل منصور وتلقّى الفرس حين وثب، فنكص[١] الفرس وسقط منصور في النهر فقتله الأسود وأخذ سلبه، وقُتل معه أخوه خلف بن جعفر وغيره من أصحابه.

ذكر مسير أبي أحمد الموفق لقتال الزنج وقتل مفلح

وفي سنة ثمان وخمسين ومائتين عقد المعتمد على الله لأخيه أبي أحمد الموفّق على ديار مضر وقنّسرين والعواصم، وخلع عليه وعلى مُفْلِح في شهر ربيع الآخر وسيّرهما لحرب الزنج بالبصرة، وركب المعتمد معه وشيّعه وسار نحو البصرة، ونازل صاحب الزنج، وكان سبب إرساله ما فعله الزنج بالبصرة، فأكبر الناس ذلك وتجهّزوا إليه وساروا في عدة وعُدة كاملة، وصحبه من سوقة بغداد خلق كثير، وكان عليّ بن أبان بجُبَّى، وسار يحيى بن محمد البحراني إلى نهر العباس ومعه أكثر الزنوج، وبقي صاحبهم في قلّة من الناس، وأصحابه يغادون البصرة ويراوحونها لثقل ما نالوه منها، فلما نزل عسكر الموفّق نهر معقل أجفل من فيه من الزنوج إلى صاحبهم مرعوبين، وأخبروه بعظم الجيش وأنّهم لم يرد عليهم مثله، فأحضر رئيسين من أصحابه فسألهما عن قائد الجيش فلم يعرفاه، فجزع لذلك ثم سيّر إلى علي بن أبان يأمره بالمسير إليه فيمن معه، فلما كان يوم الأربعاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت من جُمادى الأولى أتاه بعض قوّاده، فأخبره بمجيء العساكر وتقدّمهم، وأنّهم ليس في وجوههم من الزنوج من يردّهم، فكذّبه وسبّه وأمر فنودي في الزنوج بالخروج إلى الحرب فخرجوا، فرأوا مُفْلِحًا قد أتاه في عسكر فقاتلوه، فبينما مفلح يقاتلهم إذ أتاه سهم غرب[٢]، لا يعرف من رمي به، فأصابه فرجع وانهزم أصحابه، وقتل الزنج فيهم قتلاً ذريعًا، وحملوا الرؤوس إلى صاحب الزنج، واقتسم الزنج لحوم القتلى، وأتى بالأسرى فسألهم عن

---

(١) نكص الفرس: رجع إلى خلف.

(٢) السهم الغرب: الذي لا يدرى راميه.

قائد الجيش فأخبروه أنّه أبو أحمد، ومات مفلح من ذلك السهم ولم يلبث صاحب الزنج إلا يسيرًا حتى وافاه علي بن أبان، ثم رحل الموفّق إلى الأبلّة ليجمع ما فرّقته الهزيمة ثم صار إلى نهر أبي الأسد[١].

ذكر مقتل يحيى بن محمد البحراني

وفي سنة ثمان وخمسين ومائتين أيضًا أُسر يحيى بن محمد البَحْرَاني قائد صاحب الزنج، وكان سبب ذلك أنّه لما سافر نحو نهر العبّاس لقيه عسكر اصفجون، عامل الأهواز بعد منصور، فقاتلهم وكان أكثر منهم عددًا، فنال ذلك العسكر من الزنج بالنشاب وجرحوهم، فعبر يحيى النهر إليهم فانحازوا عنه، وغنم سفنًا كانت مع العسكر فيها الميرة، وساروا بها إلى عسكر صاحب الزنج، على غير الوجه الذي فيه علي بن أبان لتحاسدٍ كان بينه وبين يحيى، ووجّه يحيى طلائعه إلى دجلة فلقيهم جيش أبي أحمد الموفَّق، سائرين إلى نهر أبي الأسد، فرجعوا إلى عليّ فأخبروه بمجيء الجيش، فرجع من الطريق الذي كان سلكه وسلك طريق نهر العبّاس، وعلى فم النهر مراكب تحميه من عسكر الخليفة، فلما رآهم يحيى راعه ذلك، وخاف أصحابه فنزلوا السفن وعبروا النهر، وبقي يحيى ومعه بضعة عشر رجلًا، فقاتلهم هو وذلك النفر اليسير فرموهم بالسهام، فجرح ثلاث جراحات فلما جرح تفرّق أصحابه عنه، فرجع حتى دخل بعض السفن وهو مثخن بالجراح، وأخذ أصحاب السلطان الغنائم وأخذوا السفن، وعبروا إلى سفن كانت للزنج فأحرقوها، وتفرّق الزنج عن يحيى في بقيّة نهارهم، فلما رأى تفرّقهم ركب سميريّة[٢] وأخذ معه طبيبًا لأجل الجراح، وسار فيها فرأى الملاحون سميريّات السلطان فخافوا فألقوا يحيى ومن معه. فمشى وهو مثقل وقام الطبيب الذي معه فأتى أصحاب السلطان، فأخبرهم خبره فأخذوه وحملوه إلى أبي أحمد، فحمله أبو أحمد إلى سامرّا فقطعت يداه ورجلاه ثم قُتل، فجزع صاحب الزنج عليه جزعًا شديدًا وقال لهم لما قتل يحيى: اشتدّ جزعي عليه فخوطبت أنّ قتله كان خيرًا لك، إنّه كان شرها.

---

(١) نهر أبي الأسد: كنية رجل: أحد شعوب دجلة بين المذار ومطارة في طريق البصرة يصب هناك في دجلة العظمى ومأخذه أيضًا من دجلة قرب نهر دقلة. وأبو الأسد أحد قواد المنصور... (ياقوت).

(٢) السميرية: ضرب من السفن.

ذكر عود أبي أحمد الموفق إلى سامرا واستخلافه محمد المولد على حرب الزنج

وفي هذه السنة أيضًا انحاز أبو أحمد الموفق إلى واسط، ثم منها إلى سامرّا، وكان سبب ذلك أنه لما صار إلى نهر أبي الأسد كثرت الأمراض في أصحابه وكثر فهيم الموت، فرجع إلى باذَوَرْد[1] فأقام هناك، وأمر بإعطاء الجند أرزاقهم وإصلاح الآلات والسميريّات وشحنها بالقوّاد، وعاد إلى عسكر صاحب الزنج، وأمر جماعة من قوّاده بقصد مواضع سمّاها من نهر أبي الخصيب وغيره، وبقي معه جماعة، فمال أكثر الخلق، حتى التقى الناس ونشبت الحرب، إلى نهر أبي الخصيب، وبقي أبو أحمد في قلّة من أصحابه، فلم يزل عن موضعه خوفًا أن يطمع الزنج فيه، ولما رأى الزنج قلّة من معه طمعوا فيه وكثروا عليه، واشتدت الحرب عنده وكثر القتل والجراح، وأحرق أصحاب أبي أحمد منازل الزنوج، واستنقذوا من النساء جمعًا كثيرًا، ثم ألقى الزنج جدّهم نحوه، فلما رأى أبو أحمد ذلك علم أنّ الحزم في المحاجزة، فأمر أصحابه بالرجوع إلى سفنهم على مهل وتؤدة، واقتطع الزنج طائفة من أصحابه فقاتلوهم، فقتلوا من الزنج خلقًا كثيرًا ثم قتلوا بأجمعهم، وحملت رؤوسهم إلى قائد الزنج، وهي مائة رأس وعشرة أرؤوس، فزاد ذلك في عتوّ صاحب الزنج، فعبّى أبو أحمد أصحابه للرجوع إلى الزنج، فوقعت نار في أطراف عسكره في يوم ريح عاصف، فاحترق كثير منه فرحل إلى واسط، فلما نزل إلى واسط تفرّق عنه عامّة أصحابه، فسار منها إلى سامرّا، واستخلف على واسط لحرب الزنج محمد المولَّد، ثم عاد الموفّق بعد ذلك لحرب الزنج، على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر دخول الزنج الأهواز ومسير موسى بن بغا لحربهم

قال: وفي سنة تسع وخمسين ومائتين في شهر رجب دخل الزنج الأهواز، وذلك أنّ صاحبهم أنفذ علي بن أبان وضمّ إليه الجيش، الذي كان مع يحيى البحراني وسليمان بن موسى الشعراني، وسيّره إلى الأهواز، وكان المتولي عليها بعد منصور بن جعفر رجلاً يقال له اصغجون، فبلغه خبر الزنج فخرج إليهم، والتقى العسكران

(١) باذورد: اسم مدينة كانت قرب واسط بينها وبين البصرة، وإلى هذه الغاية يسمون دجلة البصرة العظمى باذورد تسمية بهذا الموضع . . . (ياقوت).

بدَسْت[١] مِيسَان، فانهزم اصغجون وغرق وقتل وأُسر خلق كثير من أصحابه، وكان ممّن أُسر الحسن بن هرثمة والحسن بن جعفر، وحملت الرؤوس والأعلام والأسرى إلى صاحب الزنج، فأمر بحبس الأسرى، ودخل الزنج الأهواز فأقاموا يفسدون فيها ويعبثون، إلى أن قدم موسى بن بغا.

قال: ولما كان في ذي القعدة أمر المعتمد على الله موسى بن بُغا بالمسير إلى حرب صاحب الزنج، فسيّر إلى الأهواز عبد الرحمٰن بن مُفْلِح، وإلى البصرة إسحاق بن كنداجيق، وإلى بَاذَوَرْد إبراهيم بن سيما، وأمرهم بمحاربة صاحب الزنج، فسار عبد الرحمٰن إلى محاربة علي بن أبان فتواقعا، فانهزم عبد الرحمٰن ثم استعدّ وعاد إلى عليّ، فأوقع به وقعة عظيمة قتل فيها من الزنج قتلاً ذريعًا، وأسر خلقًا كثيرًا، وانهزم علي بن أبان، ثم أراد ردّ الزنج فلم يرجعوا من الخوف الذي دخلهم من عبد الرحمٰن، فلما رأى ذلك أذن لهم بالانصراف، فانصرفوا إلى مدينة صاحبهم، ووافى عبد الرحمٰن حصن مهدي[٢] ليعسكر به، فسيّر إليه صاحب الزنج عليّ بن أبان فواقعه فلم يقدر عليه، ومضى يريد الموضع المعروف بادركه، وكان إبراهيم بن سيما بالبَاذَوَرْد، فواقعه علي بن أبان فهزمه عليّ، ثم واقعه ثانية فهزمه إبراهيم، فمضى عليّ بالليل حتى انتهى إلى نهر يحيى، وانتهى خبره إلى عبد الرحمٰن فوجّه إليه طَاشْتُمرُ في جمع من الموالي، فلم يصل إليه لامتناعه بالآجام والقصب والحلافي، فأضرمه عليه نارًا فخرجوا هاربين، فأسر منهم أسرى وانصرف أصحاب عبد الرحمٰن بالأسرى والظفر، ثم سار عبد الرحمٰن نحو علي بن أبان بمكان نزل فيه، فكتب إلى صاحب الزنج يستمده فأمدّه بثلاث عشرة شذاة، ووافاه عبد الرحمٰن فتواقعا يومهما، فلما كان الليل انتخب عليّ من أصحابه جماعة ممّن يثق بهم، وسار وترك عسكره وأتى عبد الرحمٰن من ورائه فبيّته، فنال منه شيئًا يسيرًا وانحاز عبد الرحمٰن، فأخذ عليّ منهم أربع شذوات وأتى عبد الرحمٰن دولاب[٣] فأقام به، وسار طاشتَمر إلى عليّ فوافاه وقاتله، فانهزم عليّ إلى نهر السّدره، وكتب طاشْتِمُر يستمد عبد الرحمٰن ويخبره بانهزام عليّ، فأتاه عبد الرحمٰن وواقع عليًا بنهر السِّدرة وقعة عظيمة، فانهزم عليّ إلى صاحب الزنج، وعسكر عبد الرحمٰن ببيان فكان هو وإبراهيم بن سيما يتناوبان المسير

(١) الدشت: (في معجم البلدان لياقوت): قرية من قرى أصبهان.

(٢) حصن مهدي: بلد من نواحي خوزستان.

(٣) دولاب: بفتح أوله ورخره باء موحدة: هو في عدة مواضع منها: دولاب مبارك في شرقي بغداد... ودولاب: من قرى الريّ... ودولاب أيضًا: قرية بينها وبين الأهواز أربعة فراسخ.

إلى عسكر الزنج فيوقعان به، وإسحاق بن كنداجيق بالبصرة، وقد قطع الميرة عن الزنج، فكان صاحبهم يجمعهم يوم محاربة عبد الرحمٰن وإبراهيم، فإذا انقضت الحرب سيّر طائفة منهم إلى البصرة لقتال إسحاق، فأقاموا كذلك بضعة عشر شهرًا، إلى أن انصرف موسى بن بُغا عن حرب الزنج، ووليها مسرور البلخي على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

وفي سنة إحدى وستين ومائتين ولّي أبو الساج الأهواز وسُيّر عبد الرحمٰن إلى فارس، وأمر أبو الساج بمحاربة الزنج فندب صهره لمحاربتهم، فلقيه عليّ بن أبان بناحية دولاب، فقتل عبد الرحمٰن وانحاز أبو الساج إلى ناحية عسكر مُكْرَم، ودخل الزنج الأهواز فقتلوا أهلها وسبوا وأحرقوا، ثم انصرف أبو الساج عما كان وليه من الأهواز وحرب الزنج، ووليها إبراهيم بن سيما فلم يزل بها حتى انصرف عنها مع موسى بن بغا.

ذكر انتداب أبي أحمد الموفق لحرب الزنج وما شغله عن ذلك واستعماله مسرورًا البلخي على حربهم وما كان في خلال ذلك من أخبارهم

وفي سنة إحدى وستين ومائتين ولى المعتمد على الله أخاه أبا أحمد العهد بعد ابنه جعفر، ولقّبه الناصر لدين الله الموفّق، وولاّه من الأعمال ما قدّمنا ذكره في أخباره الدولة العباسية، وولّى موسى بن بغا إفريقية على ما قدمناه، وأمر المعتمد على الله أخاه الموفّق بحرب الزنج، فولّى الموفّق الأهواز والبصرة وكور دجلة ـ وذلك من جملة ما هو مضاف إلى ولايته ـ مسرورًا البلخي، وسيّره على مقدمته في ذي الحجة من السنة وعزم على المسير بعده، فحدث من أمر يعقوب بن الليث الصفّار ما منعه عن المسير على ما نذكر ذلك إن شاء الله تعالى في أخبار الدولة الصفارية، ثم رجع مسرور البلخي لقتال يعقوب، فخلت البلاد من العساكر السلطانية، فبثّ صاحب الزنج سراياه في تلك البلاد تنهب وتحرق وتخرّب، وذلك في سنة اثنتين وستين ومائتين، وأتته الأخبار بخلوّ البطيحة من جند السلطان، فأمر سليمان بن جامع وجماعة من أصحابه بالمسير إلى الحوانيت، وأمر سليمان بن موسى بالمصير إلى القادسية، وقدم أبّا التركي في ثلاثين شذاة يريد عسكر الزنج فنهب وأحرق، فكتب صاحب الزنج إلى سليمان بن موسى يأمره بمنعه من العبور، فأخذ سليمان عليه الطريق، فقاتلهم شهرًا حتى تخلّص، وانحاز إلى سليمان بن جامع من مذكوري البلاليّة وأنجادهم جمع كثير

في خمسين ومائة سميرية، وكان مسرور البلخي قد وجّه قبل مسيره عن واسط جماعة من أصحابه في شذاة إلى سليمان، فأشار الباهليون على سليمان أن يتحصّن في عَقْر ما وراء طهيثا والأدغال التي فيها، وكرهوا خروجه عنهم لموافقته في فعله وخافوا السلطان، فسار فنزل إليه بقربة مروان بالجانب الشرقي من نهر طهيثا، وجمع إليه رؤساء الباهليين، وكتب إلى صاحب الزنج يعلمه بما صنع، فكتب إليه يصوّب رأيه ويأمره بإنفاذ ما عنده من ميرة ونِعَم، فأنفذ ذلك إليه.

وورد الخبر على سليمان أنّ أغَرْتميش وخُشَيْشًا قد أقبلا في الخيل والرجال والسميريات والشذاة يريدون حربه، فجزع جزعًا شديدًا، فلما أشرفوا عليه ورآهم أخذ جمعًا من أصحابه، وسار راجلًا واستدبر أغرتميش، وجدّ أغرتميش في المسير إلى عسكر سليمان، وكان سليمان قد أمر الذي استخلفه في جيشه ألاّ يظهر منهم أحد لأصحاب أغرتميش، وأن يخفوا أنفسهم ما قدروا إلى أن يسمعوا أصوات طبولهم، فإذا سمعوها خرجوا عليه، وأقبل أغرتميش إليهم فجزع أصحاب سليمان جزعًا شديدًا فتفرّقوا، ونهضت شرذمة منهم فواقعوهم وشغلوهم عن دخول العسكر، وجاء سليمان من خلفهم وضرب طبوله، وألقوا أنفسهم في الماء للعبور إليهم، فانهزم أصحاب أغرتميش وظهر من كان من السودان بطهيثا، ووضعوا السيوف فيهم فقتل خُشَيْش وانهزم أغرتميش، وتبعه الزنوج إلى عسكره فنالوا حاجتهم منه، وأخذوا شذاوات فيها مال وغيره، فعاد أغرتميش إليهم فانتزعها من أيديهم، وعاد سليمان وقد ظفر وغنم، وكتب إلى صاحب الزنج بالخبر وسيّر إليه رأس خُشَيْش، فسيّره إلى عليّ بن أبان وهو بنواحي الأهواز، وسيّر سليمان سريّة فظفروا بإحدى عشرة شذاة وقتلوا أصحابها.

ثم كانت للزنج وقعة عظيمة انهزموا فيها في سنة اثنتين وستين أيضًا.

وكانت هذه الوقعة مع أحمد بن لَيْثَوَيه، وكان سببها أن مسرورًا البلخي وجّه أحمد بن ليثويه إلى كور الأهواز، فنزل السوس[1] وكان يعقوب الصفّار ـ المستولي على خراسان ـ قد قلّد محمد بن عبيد الله بْن هزار مرد الكردي كور الأهواز، فكاتب محمد قائد الزنج يطمعه في الميل إليه، وأوهمه أنّه يتولى له كور الأهواز، وكان

(١) السوس: بضم أوله، وسكون ثانيه، وسين مهملة أخرى: بالمغرب كورة مدينتها طنجة، وهناك السوس الأقصى: كورة أخرى مدينتها طرفلة... والسوس أيضًا: بلدة بما وراء النهر... (معجم البلدان).

محمد يكاتبه قديمًا، وعزم على مداراة الصفَّار وقائد الزنج، حتى يستقيم له الأمر فيها، فكاتبه صاحب الزنج يجيبه إلى ما سأل، على أن يكون علي بن أبان المتولّي للبلاد، ومحمد بن عبيد الله يخلفه عليها، فقبل محمد ذلك، فوجّه إليه علي بن أبان جيشًا وأمدّهم محمد بن عبيد الله، فساروا نحو السوس فمنعهم أحمد بن ليثويه ومن معه من جند الخليفة عنها، وقاتلهم فقتل خلقًا كثيرًا وأسر جماعة، وسار أحمد حتى جُنْدَيْ سَابور، وسار علي بن أبان من الأهواز منجدًا محمد بن عبيد الله على أحمد بن ليثَوَيْه، فلقيه محمد في جيش كثير من الأكراد والصعاليك، ودخل محمد تُسْتَر[1]، فانتهى إلى أحمد بن ليثويه الخبر بتضافرهما على قتاله، فخرج عن جُنْدَيْ سَابور إلى السوس، وكان محمد قد وعد عليَّ بن أبان أن يخطب لصاحبه قائد الزنج يوم الجمعة على منبر تُستر، فلما كان يوم الجمعة خطب للمعتمد على الله وللصفّار، فلما علم علي بن أبان ذلك انصرف إلى الأهواز، وهدم قنطرة كانت هناك لئلا تلحقه الخيل، وانتهى أصحاب عليّ إلى عَسْكر مُكْرَم فنهبوها، وكانت داخلة في سلم صاحب الزنج فغدروا بها، وساروا إلى الأهواز، فلما علم أحمد ذلك أقبل إلى تستر، فأوقع بمحمد بن عبيد الله ومن معه، فانهزم محمد ودخل أحمد تُستر، وأتت الأخبار علي بن أبان أن أحمد على قصده، فسار إلى لقائه ومحاربته فالتقيا واقتتل العسكران، فاستأمن جماعة من الأعراب، الذين كانوا مع عليّ بن أبان ـ إلى أحمد بن ليثويه، فانهزم باقي أصحاب عليّ وثبت معه جماعة يسيرة، فاشتد القتال وترجّل علي بن أبان وباشر القتال راجلاً، فعرفه بعض أصحاب أحمد فأنذر به، فلما عرفوه انصرف هاربًا، وأتاه بعض أصحابه بسميريّة فركب فيها ونجا مجروحًا، وقتل من أصحابه جماعة كثيرة، وعاد إلى الأهواز ولم يُقم بها، ومضى إلى عسكر صاحبه يداوي جراحه، واستخلف على عسكره بالأهواز، فلما برئت جراحه عاد إلى الأهواز، ووجّه أخاه الخليل بن أبان في سنة ثلاث وستين ومائتين في جيش كثيف إلى أحمد بن ليثويه، وكان أحمد بعسكر مُكْرَم فكمّن لهم أحمد وخرج إلى قتالهم، فالتقى الجمعان واقتتلوا أشد قتال، وخرج الكمين على الزنج فانهزموا وتفرّقوا وقتلوا، ووصل المنهزمون إلى علي بن أبان، فوجّه عليّ مسلحة إلى المَسْرقان، فوجّه إليهم أحمد بن ليثويه ثلاثين فارسًا من أعيان أصحابه فقتلهم الزنج جميعهم.

---

(١) تستر: بالضم ثم السكون، وفتح التاء الأخرى، وراء: أعظم مدينة بخوزستان... (معجم ياقوت).

ذكر دخول الزنج واسط
وما تقدم ذلك من الحروب والوقائع

كان دخول الزنج واسط[١] في سنة أربع وستين ومائتين، وذلك أن سليمان بن جامع لما سار إلى البطائح في سنة اثنتين وستين ـ وكان بينه وبين أغَرتِمِيش ما ذكرناه ـ كتب إلى صاحبه يستأذنه في المسير إليه ليحدث به عهدًا، فأذن له في ذلك، فأشار عليه الجبّائي أن يتطرق إلى عسكر تكين البخاريّ، وهو ببَرْدُود[٢]، فقبل قوله وسار إلى تكين، فلما كان على فرسخ منه قال له الجبّائي: الرأي أن تقيم أنت هاهنا، وأمضي أنا في السميريّات فأجرّ القوم إليك فيأتونك وقد تعبوا، فتنال منهم حاجتك، ففعل سليمان ذلك وجعل بعض أصحابه كمينًا، ومضى الجبّائي إلى تكين فقاتله ساعة، ثم تطارد لهم فتبعوه، فأرسل إلى سليمان يعلمه ذلك، وقال لأصحابه ـ وهو بين يدي أصحاب تكين شبه المنهزم ليسمع أصحاب تكين قوله ـ غرّرتموني وأهلكتموني!! وكنت نهيتكم عن الدخول هاهنا فأبيتم ولا أرانا ننجو منه!! فطمع أصحاب تكين وجدُّوا في طلبه، وجعلوا ينادون «بلبل في قفص»، فما زالوا كذلك حتى جاوزوا موضع الكمين وقاربوا عسكر سليمان، وقد كمّن أيضًا خلف جدر هناك، فخرج سليمان إليهم فقاتلهم، وخرج الكمين من خلفهم، وعطف الجبّائي على من في النهر، فاشتد القتال، فانهزم أصحاب تكين من الوجوه كلها، وركبهم الزنج فقتلوهم وسلبوهم أكثر من ثلاثة فراسخ، وعادوا عنهم، فلما كان الليل عاد الزنج إليهم وهم في معسكرهم فكبسوهم، فقاتلهم تكين وأصحابه فانكشف سليمان، ثم عبّى أصحابه وأمر طائفة أن تأتيه من جهة ذكرها لهم، وطائفة من الماء، وأتى هو في الباقين، وقصدوا تكين من جهاته كلها، فعلم يقف من أصحابه أحد، وانهزموا وتركوا عسكرهم فغنم الزنج ما فيه، وعادوا بالغنيمة.

واستخلف سليمانُ الجبّائي على عسكره، وسار إلى صاحبه وذلك في سنة ثلاث وستين، فلما سار سليمان إلى صاحب الزنج خرج الجبّائي بالعسكر إلى مازَرْوَان[٣]

---

(١) واسط: في عدة مواضع: واسط الحجاج: وهي متوسطة بين البصرة والكوفة.. وواسط نجد.. وواسط الحجاز.. وواسط الجزيرة.. وواسط اليمامة... (معجم ياقوت).

(٢) البرود: بالفتح ثم الضم، وسكون الواو، ودال مهملة: فيما بين ملل وبين طرف جبل جهينة.. والبرود أيضًا بطرف حرة النار أودية يقال لهن البوارد.. والبرود: واد فيه بئر بطرف حرة ليلى... (معجم البلدان).

(٣) ماروان: (كما في معجم ياقوت) بفتح الراء والواو، وآخره نون: موضع بفارس.

لطلب الميرة، فاعترضه جُعْلان فقاتله، فانهزم الجبّائي وأخذت سفنه، وأتته الأخبار أنّ منجور ومحمد بن علي بن حبيب اليشكري قد بلغا الحجَّاجِيَّة، فكتب إلى صاحبه بذلك، فسيّر إليه سليمان فوصل إلى طهيثا مجدًا، وأظهر أنّه يريد قصد جُعْلان، وقدم الجبّائي وأمره أن يأتي جُعْلان ويقف بحيث يراه ولا يقاتله، ثم سار سليمان نحو محمد بن علي بن حبيب مجدًّا فأوقع به وقعة عظيمة، وغنم غنائم كثيرة، وقتل أخًا لمحمد بن علي ورجع، وذلك في شهر رجب سنة ثلاث وستين أيضًا.

ثم سار في شعبان إلى قرية حسّان[١]، وبها قائد يقال له جيش بن خمارتكين فأوقع به، فهزمه ونهب القرية وأحرقها وعاد، ثم سار في شعبان أيضًا إلى مواضع فنهبها وعاد، ثم سار في رمضان وأظهر أنّه يريد جُعْلان بمازَرْوَان، فبلغت الأخبار جُعلان فضبط عسكره، فتركه سليمان وعدل إلى أبًا فأوقع به وهو غارٌ، وغنم منه ست شذاوات، ثم أرسل الجبّائي في جماعة لينهب، فصادفهم جعْلان فأخذ سفنهم وغنم منهم، فأتاه سليمان في البرّ فهزمه واستنقذ سفنهم، وغنم شيئًا آخر وعاد، ثم سار سليمان إلى الرصافة في ذي القعدة فأوقع بمطر بن جامع وهو بها، وغنم غنائم كثيرة وأحرق الرصافة واستباحها، وحمل أعلامًا وانحدر إلى مدينة صاحب الزنج، وأقام ليعيّد هناك بمنزله، فسار مطر إلى الحجّاجيّة فأوقع بأهلها وأسر جماعة، وكان بها قاض لسليمان فأسره مطر وحمله إلى واسط، وصار مطر إلى قريب طهيثا ورجع، فكتب الجبّائي إلى سليمان بذلك، فسار نحوه فوافاه لليلتين بقيتا من ذي الحجة سنة ثلاث وستين.

ثم صرف جعلان ووافاه أحمد بن ليثويه فأقام بالشَدِيديَّة، ومضى سليمان إلى تكين في خمس شذاوات، وذلك في سنة أربع وستين، فواقعه تكين بالشديديّة، وكان أحمد بن ليثويه حينئذ قد سار إلى الكوفة، فظهر تكين على سليمان وأخذ الشذاوات بما فيها، وكان فيها صناديد سليمان وقوّاده فقتلهم، ثم إنّ أحمد عاد إلى الشديدية وضبط تلك الأعمال، حتى وافاه محمد المولَّد وقد ولاّه الموفّق مدينة واسط، فكتب سليمان إلى صاحبه يستمده، فأمدّه بالخليل بن أبان في زهاء ألف وخمسمائة فارس، فلما أتاه المدد قصد إلى محاربة محمد المولَّد، فأوقع به وهرب المولّد، ودخل سليمان مدينة واسط فقتل فيها خلقًا كثيرًا ونهب وأحرق، وكان بها كنجور البخاري،

(١) حسّان: بالفتح وتشديد السين، قرية حسان: بين دير العاقول وواسط، ويقال لها قرنا أم حسان أيضًا.

فقاتله يومه إلى العصر ثم قتل، وانصرف سليمان عن واسط إلى جُنْبُلاءَ[١] ليعيث ويخرّب، فأقام هناك تسعين ليلة.

ذكر وقائع كانت بين الزنج وبين أحمد بن ليثويه وتكين البخاري وأغرتميش في سنة خمس وسنة ست وستين ومائتين

وفي سنة خمس وستين كانت وقعة بين أحمد بن ليثويه وبين سليمان بن جامع والزنج بناحية جُنبلاء، وسبب ذلك أن سليمان كتب إلى صاحب الزنج، يخبره بحال نهر يسمّى الزهيري ويسأله أن يأذن في عمله، ويقول إنّه متى أنفذه تهيّأ له حمل ما في جنبلاء وسواد الكوفة، فأنفذ إليه زكرويه لذلك، وأمره بمساعدته والنفقة على عمل النهر، فمضى سليمان فيمن معه وأقام بالشريطيّة نحوًا من شهر، وشرعوا في عمل النهر، وكان أصحاب سليمان في أثناء ذلك يتطرّقون إلى ما حولهم، فواقعه أحمد بن ليثويه، وهو عامل الموفّق بجنبلاء، فقتل من الزنوج نيّفًا وأربعين قائدًا، ومن عامّتهم ما لا يحصى كثرة وأحرق سفنهم، فمضى سليمان مهزومًا إلى طهيثا.

وفيها سار جماعة من الزنوج في ثلاثين سميريّة إلى جَبُّل[٢]، فأخذوا أربع سفن فيها طعام وانصرفوا. وفيها دخل الزنج النُّعْمَانِيَّة فأحرقوها وسبوا، وصاروا إلى جَرْجَرايَا[٣] ودخل أهل السودان بغداد.

وفيها استعمل الموفّق مسرورًا البلخي على كور الأهواز، فولّى مسرور ذلك تكين البخاريّ، فسار تكين إليها، وكان علي بن أبان والزنج قد أحاطوا بتُسْتَر، فخاف أهلها وعزموا على تسليمها إليهم، فوافاهم تكين وهم على تلك الحال، فواقع علي بن أبان حال وصوله، فانهزم عليّ والزنج وقتل كثير منهم وتفرقوا، ونزل تكين تستر. قال: وهذه الوقعة تعرف بوقعة كودَك وهي مشهورة.

---

(١) جنبلاء: بضمتين، وثانيه ساكن، وهو محدود: كورة وبليد، وهو منزل بين واسط والكوفة منه إلى قناطر بني دارا إلى واسط.

(٢) جبّل: بفتح الجيم، وتشديد الباء وضمها، ولام: بليدة بين النعمانية وواسط في الجانب الشرقي.

(٣) جرجرايا: بفتح الجيم، وسكون الراء الأولى: بلد من أعمال النهروان الأسفل بين واسط وبغداد من الجانب الشرقي.

قال: ثم إن عليًا قدم عليه جماعة من قوّاد الزنج، فأمرهم بالمقام بقنطرة فارس، فهرب منهم غلام رومي إلى تكين وأخبره بمقامهم بالقنطرة، وتشاغلهم بالنبيذ وتفرّقهم في جمع الطعام، فسار تكين إليهم ليلاً فأوقع بهم، وقتل من قوّادهم جماعة وانهزم الباقون، وسار تكين إلى علي بن أبان فلم يقف له عليّ وانهزم، وأسر غلام له يعرف بجعفرويه ورجع عليّ إلى الأهواز ورجع تكين إلى تستر، وكتب عليّ إلى تكين يسأله الكفّ عن قتل غلامه فحبسه، ثم تراسل عليّ وتكين وتهادنا، فبلغ الخبر مسرورًا بميل تكين إلى الزنج، فسار حتى وافى تكين وقبض عليه وحبسه حتى مات، وتفرّق أصحاب تكين: ففرقة صارت إلى الزنج، وفرقة صارت إلى محمد بن عبيد الله الكردي، فبلغ ذلك مسرورًا فأمّنهم، فجاءه الباقون منهم. قال: وبعض ما ذكرناه كان في سنة ست وستين ومائتين.

وفي سنة ست وستين ولّي أغرتميش ما كان يتولاه تكين البخاري من أعمال الأهواز، فدخل تُستر ومعه أبًا ومطر بن جامع، فقتل مطر جعفرويه ـ غلام عليّ بن أبان ـ وجماعة معه كانوا مأسورين، وساروا إلى عسكر مكرم، وأتاهم الزنج هناك مع علي بن أبان فاقتتلوا، فلما رأوا كثرة الزنج قطعوا الجسر وتحاجزوا، ورجع عليّ إلى الأهواز وأقام أخوه الخليل بالمَسْرُقان[1] في جماعة كثيرة من الزنج، وسار أغرتميش ومن معه نحو الخليل، ليعبروا إليه من قنطرة أرْبُك، فكتب إلى أخيه عليّ فوافاه في النهر، وخاف أصحابه الذين خلّفهم بالأهواز فارتحلوا إلى نهر السِّدْرَة، وتحارب عليّ وأغرتميش يومه، ثم انصرف عليّ إلى الأهواز فلم يجد أصحابه، فرجّه من يردّهم من نهر السدرة، فعسر عليهم ذلك فتبعهم وأقام معهم ورجع أغرتميش، فنزل عسكر مكرم واستعد لقتالهم، وبلغ ذلك أغرتميش ومن معه من عسكر الخليفة، فساروا إليه فكمّن لهم عليّ، وقدّم الخليل إلى قتالهم فاقتتلوا، فكان أوّل النهار لأصحاب الخليفة، ثم خرج عليهم الكمين فانهزموا وأسر مطر بن جامع وعدّة من القوّاد، فقتله عليّ بغلامه جعفرويه وعاد إلى الأهواز، وأرسل رؤوس القتلى إلى صاحب الزنج، وكان عليّ وأغرتميش بعد ذلك في حروبهم على السواء، وصرف صاحب الزنج أكثر جنوده إلى عليّ بن أبان، فلما رأى ذلك أغرتميش وادعه، وجعل عليّ يغير على النواحي، فأغار على قرية بيروذ ونهبها، ووجّه الغنائم إلى صاحبه.

---

(١) مسرقان: بالفتح ثم السكون، والراء مضمومة، وقاف، وآخره نون: هو نهر بخوزستان عليه عدة قرى وبلدان ونخل يسقي ذلك كله ومبدؤه من تستر.

ذكر دخول الزنج رامهرمز

وفي سنة ست وستين ومائتين دخل عليّ والزنج رَامَهُرْمُز[١]، وسبب ذلك أن محمد بن عبيد الله كان يخاف عليّ بن أبان، لما في نفس عليّ منه لما ذكرناه، فكتب إلى انكلاي ابن صاحب الزنج، وسأله أن يسأل أباه ليرفع يد عليّ عنه ويكون إلى نفسه، فزاد ذلك غيظ عليّ منه، وكتب إلى صاحب الزنج بالإيقاع بمحمد، ويجعل ذلك الطريق إلى مطالبته بالخراج، فأذن له فكتب إلى محمد يطلب منه حمل الخراج، فمطله ودافعه فسار إليه عليّ وهو برامهرمز، فهرب محمد عنها ودخلها عليّ والزنج فاستباحها، ولحق محمد بأقصى معاقله، وانصرف عليّ غانمًا، وخاف محمد فكتب إليه يطلب المسالمة، فأجابه إلى ذلك على مال يؤديه إليه، فحمل إليه مائتي ألف درهم فأنفذها إلى صاحب الزنج، وأمسك عن محمد بن عبيد الله وأعماله.

وفيها كانت وقعة للزنج انهزموا فيها، وكان سببها أن محمد بن عبيد الله كتب إلى عليّ بن أبان بعد الصلح يسأله المعونة على طائفة من الأكراد، على أن يجعل له ولأصحابه غنائمهم، فكتب عليّ إلى صاحبه يستأذنه، فكتب إليه أن: وجِّهْ إليه جيشًا وأقم أنت، ولا تنفذْ حتى تستوثق منه بالرهن، ولا تأمنْ غدره والطلب بثأره، فكتب عليّ إلى محمد يطلب منه اليمين والرهائن، فبذل له اليمين ومطله بالرهائن، فلحرص عليّ على الغنائم أنفذ إليه جيشًا، فسيّر محمد معهم طائفة من أصحابه إلى الأكراد، فخرج إليهم الأكراد فقاتلوهم ونشبت الحرب، فتخلى أصحاب محمد عن الزنج فانهزموا، وقتلت الأكراد منهم خلقًا كثيرًا، وكان محمد قد أعدّ لهم من يتعرض لهم إذا انهزموا، فأوقعوا بهم وسلبوهم وأخذوا دوابّهم، ورجعوا بأسوأ حال، فكتب عليّ إلى صاحب الزنج يعرّفه فقال: ضيّعت أمري في ترك الرهائن، وكتب إلى محمد يتهدّده فخاف محمد، وكتب يخضع ويذل وردّ بعض الدواب، وقال: إنني كبست من كانت عندهم، وخلّصت هذه منهم، فأظهر صاحب الزنج الغضب عليه، فأرسل محمد إلى بهبوذ ومحمد بن يحيى الكرمانيّ، وكان أقرب الناس إلى عليّ، فضمن لهما مالاً إن أصلحا له عليًا وصاحبه ففعلا ذلك، وأجابهما صاحب الزنج بالرضا عن محمد، على أن يخطب له على منابر بلاده، فأعلما محمدًا ذلك فأجابهما إلى جميع ما طلبا، وجعل يراوغ في الدعاء له على المنابر، ثم إنّ عليًا استعدّ لمَتُّوث[٢] وسار

---

(١) رامهرمز: ومعنى رام بالفارسية المراد والمقصود، وهرمز أحد الأكاسرة: هي مدينة مشهورة بنواحي خوزستان.

(٢) متوث: بالفتح ثم التشديد، والضم، وسكون الواو، وآخره ثاء مثلثة: قلعة حصينة بين الأهواز وواسط.

إليها فلم يظفر بها، فرجع وعمل السلاليم والآلات التي يصعد بها إلى السور، واستعدّ لقصدها فعرف ذلك مسرور البلخي، وهو يومئذ بكور الأهواز، فلما سار عليّ إليها سار إليه مسرور، فوافاه قبل المغرب وهو نازل عليها، فلما عاين الزنج أوائل خيل مسرور انهزموا أقبح هزيمة، وتركوا ما كانوا أعدّوه وقُتل منهم خلق كثير، وانصرف عليّ مهزومًا، فلم يلبث إلا يسيرًا حتى أتته الأخبار بإقبال الموفّق، ولم يكن لعليّ بعدها وقعة، حتى فتحت سوق الخميس وطهيثا على الموفّق؛ على ما نذكره إن شاء الله، فكتب إليه صاحبه يأمره بالعود إليه ويستحثه حثًا شديدًا.

ذكر مسير أبي العباس بن الموفق وهو المعتضد بالله إلى حرب الزنج وانتزاعه عامة ما كان بيد سليمان ابن جامع والزنج من أعمال دجلة

كان مسيره لذلك في سنة ست وستين ومائتين، وسبب ذلك أن الزنج لما دخلوا واسط وفعلوا بها ما فعلوا ـ واتصل ذلك بالموفّق ـ أمر ابنه أبا البعاس بتعجيل المسير بين يديه، إليهم، فسار في شهر ربيع الآخر وشيّعه أبوه، وسيّر معه عشرة آلاف من الرجّالة والخيّالة في العدّة الكاملة، وأخذ معه الشذاوات والسميريّات والمعابر للرجّالة، فسار حتى وافى دير العاقول[1]، وكان على مقدمته في الشذاوات نُصير المعروف بأبي حمزة، فكتب نصير إليه يخبره أنّ سليمان بن جامع قد وافى خيله ورجله وشذاوات وسميريّات ـ والجبّائي على مقدمته، حتى نزل الجزيرة فحصر بردودا، وأنّ سليمان بن موسى الشعرانيّ قد وافى الصلح، ووجّه طلائعه ليعرف أخبارهم، فعادوا وأعلموه موافاة الزنج وجيشهم، وأن أوّلهم بالصلح وآخرهم ببستان موسى بن بغا أسفل واسط.

قال: وكان سبب جمع الزنج وحشدهم أنهم قالوا: إن العباس فتى حدث غرّ بالحرب، والرأي لنا أن نرميه بحدّنا كلّه، ونجتهد في أول مرّة نلقاه فلعلّ ذلك يروعه فينصرف عنّا، فجمعوا وحشدوا، فلما علم أبو العباس قربهم عدل عن سنن الطريق واعترض في مسيره، ولقي أصحابه أوائل الزنج فتطاردوا له حتى طمعوا فيهم وتبعوهم، وجعلوا يقولون: اطلبوا أميرًا للحرب فإنّ أميركم قد اشتغل بالصيد، فلما

---

(١) دير العاقول: بين مدائن كسرى والنعمانية، بينه وبين بغداد خمسة عشر فرسخًا على شاطىء دجلة كان، أما الآن فبينه وبين دجلة مقدار ميل، وكان عنده بلد عامر وأسواق أيام كون النهروان عامرًا. . . (معجم البلدان لياقوت).

قربوا منه خرج عليهم فيمن معه، وصاح بنُصير إلى أين يتأخر عن هذه الأكلب، فرجع نصير، وركب أبو العباس سميريّة وحفّ به أصحابه من جميع الجهات، فانهزمت الزنج وكثر القتل فيهم، وتبعوهم إلى أن وصلوا قرية عبد الله، وهي على ستة فراسخ من الموضع الذي لقوهم به وأخذوا منهم خمس شذاوات وعدّة سميريّات، وأُسر جماعة واستأمن جماعة، فكان هذا أول الفتح.

فسار سليمان بن جامع إلى نهر الأمير، وسار سليمان الشعرانيّ إلى سوق الخميس، وانحدر أبو العباس فأقام بالعُمْر، وهو على فرسخ من واسط، وأصلح شذاواته وأخذ يراوح القوم القتال ويعاديهم، ثم إن سليمان استعدّ وحشد وجعل أصحابه في ثلاثة أوجه، وقالوا إنّه حدث غرّ يغرّر بنفسه وكمّنوا كمينًا، فبلغ الخبر أبا العبّاس فحذر، وأقبلوا وقد كمّنوا الكمناء ليغتر باتّباعهم فيخرج الكمين عليه، فمنع أبو العبّاس أصحابه من اتّباعهم، فلما علموا أنّ كيدهم لم يتمّ خرج سليمان في الشذاوات والسميريّات، فأمر أبو العبّاس نصيرًا أن يبرز إليهم، وركب هو في شذاة من شذاواته سماها الغزال، ومعه جماعة من خاصّته، وأمر الخيّالة بالمسير بإزائه على شاطىء النهر إلى أن ينقطع، فيعبروا دوابّهم، ونشبت الحرب بين الفريقين فوقعت الهزيمة على الزنج، وغنم أبو العبّاس منهم أربع عشرة شذاة، وأفلت سليمان والجبّائي بعد أن أشفيا على الهلاك، وبلغوا طهيثا وأسلموا ما كان معهم، ورجع أبو العباس إلى معسكره، وأقام الزنج عشرين يومًا لا يظهر منهم أحد، وجعلوا على طريق الخيل آبارًا وجعلوا فيها سفافيد[1] حديد، وجعلوا على رؤوسها البواري[2] والتراب ليسقط فيها المجتازون، فسقط فيها رجل ففطنوا لها فتركوا ذلك الطريق. واستمد سليمان صاحب الزنج فأمدّه بأربعين سميريّة بآلاتها ومقاتليها، فعادوا للتعرض للحرب فلم يثبتوا لأبي العبّاس، ثم سيّر إليهم عدة سميريّات فأخذها الزنج، فبلغه الخبر وهو يتغدّى فركب في سميريّة ولم ينتظر أصحابه وتبعه منهم من خفّ فأدرك الزنج، فانهزموا وألقوا أنفسهم في الماء، فاستنقذ سميريّاته ومن كان فيها، وأخذ منهم إحدى وثلاثين سميريّة ورمي أبو العبّاس يومئذ عن قوس حتى دميت إبهامه، فلما رجع أمر لمن معه بالخلع، وأمر بإصلاح السميريّات المأخوذة من الزنج.

---

(١) السفافيد: واحدتها السفود، وهو عود من حديث ينظم فيه اللحم ليشوى.
(٢) البواري: جمع الباريّ: (فارسي معرب)، الحصير.

ثم إنّ أبا العبّاس رأى أن يتوغّل مازروان حتى يصير إلى الحجّاجيّة ونهر الأمير، ويعرف ما هناك، فقدّم نصيرًا في أوّل السميريّات وركب أبو العبّاس في سميريّة ومعه محمد بن شُعيب، ودخل مازروان وهو يظن أنّ نصيرًا أمامه، فلم يقف له على خبر، وكان قد سار على غير طريق أبي العباس، وخرج من مع أبي العبّاس من الملاّحين إلى غنم رأوها ليأخذوها، فبقي هو ومحمد بن شعيب فأتاهما جمع من الزنج من جانبي النهر، فقاتلهم أبو العباس بالنشّاب، ووافاه زِيرَك في باقي الشذاوات، فسلم أبو العبّاس وعاد إلى عسكره، ورجع نصير، وجمع سليمان بن جامع أصحابه وتحصّن بطهيثا، وتحصّن الشعرانيّ وأصحابه بسوق الخميس، وجعلوا يحملون الغلات إليها، واجتمع بالصينيّة[1] جمع كثير، فوجّه أبو العباس جماعة من قوّاده على الخيل إلى ناحية الصينيّة، وأمرهم بالمسير في البرّ وإذا عرض لهم نهر عبروه، وركب هو في الشذاوات والسميريّات، فلما أبصرت الزنج الخيل خافوا ولجأوا إلى الماء والسفن، فلم يلبثوا أن وافتهم الشذاوات مع أبي العبّاس، فلم يجدوا ملجأ فاستسلموا، فقُتل منهم فريق وأسر فريق، وألقى فريق أنفسهم في الماء، وأخذ أصحاب أبي العبّاس سفنهم وهي مملوءة أرزًا، وأخذ الصينيّة وأزاح الزنج عنها، فانحازوا إلى طهيثا وسوق الخميس، ورجع أبو العباس إلى عسكره وقد فتح الصينيّة.

وبلغه أنّ جيشًا عظيمًا للزنج مع ثابت بن أبي دُلَف ولؤلؤ، فسار إليهم وأوقع بهم وقعة عظيمة وقت السحر، فقتل منهم خلقًا كثيرًا منهم لؤلؤ، وأسر ثابتًا فمنّ عليه وجعله مع بعض قوّاده، واستنقذ خلقًا كثيرًا من النساء، فأمر بردّهنّ إلى أهلهنّ، وأخذ كلّ ما كان الزنج جمعوه، وأمر أصحابه أن يتجهزوا للمسير إلى سوق الخميس، وأمر نصيرًا بتعبئة أصحابه للمسير، فقال له: إن نهر سوق الخميس ضيّق، فأقمْ أنت ونسير نحن، فأبى عليه، فقال له محمد بن شعيب: إن كنت لا بدّ فاعلاً فلا تكثر الشذاوات ولا الرجال فإنّ النهر ضيّق، فسار نصير بين يديه إلى فم برمساور، فوقف أبو العبّاس وتقدّمه نصير في خمس عشرة شذاة، في نهر يؤدي إلى مدينة الشعراني، التي سمّاها المَنِيعة في سوق الخميس، فلما غاب عنه نصير خرج جماعة كثيرة في البرّ على أبي العبّاس، فمنعوه من الوصول إلى المدينة، وقاتلوه قتالاً شديدًا من أوّل النهار إلى الظهر، وخفي عليه خبر نصير، وجعل الزنج يقولون: قد قتلنا نصيرًا، فاغتمّ أبو العبّاس لذلك وأمر محمدًا يتعرّف خبره، فسار فرآه عند سكر الزنج، وقد أحرقه

(١) الصينية: هي بليدة تحت واسط؛ ينسب إليها قوم من أهل العلم، منهم: الحسن بن محمد بن ماهان الصيني.

وأضرم النار في مدينتهم، وهو يقاتلهم قتالاً شديدًا، فعاد إلى أبي العبّاس فأخبره فسُرّ بذلك، وأسر نصير من الزنج جماعة كثيرة، ورجع حتى وافى أبا العبّاس، ووقف أبو العبّاس فقاتلهم فرجعوا عنه، وكمّن بعض شذاواته وأمر أن تظهر واحدة منها، فطمعوا فيها وأدركوها فعلقوا بسكّانها، فخرجت عليهم السفن الكمائن وفيها أبو العبّاس، فانهزم الزنج وغنم أبو العبّاس منهم ست سميريّات، وانهزموا لا يلوون على شيء من الخوف، ورجع أبو العبّاس إلى عسكره سالمًا، وخلع على الملاّحين وأحسن إليهم.

ذكر مسير الموفق لقتال الزنج وفتح المنيعة

قال: وفي سنة سبع وستين ومائتين أيضًا سار الموفّق عن بغداد إلى واسط لحرب الزنج، وجمع وحشد الفرسان والرجّالة واستكثر من العدّة، وسدّ الجهات التي يخاف منها لئلا يبقى له ما يشغل قلبه وكان صاحب الزنج قد أرسل إلى عليّ بن أبان المهلبيّ، يأمره أن يجتمع مع سليمان بن جامع على حرب أبي العبّاس بن الموفّق، فخاف الموفّق وَهُنا يتطرق إلى ابنه أبي العبّاس، فسار عن بغداد في صفر سنة سبع وستين فوصل إلى واسط في شهر ربيع الأوّل، فلقيه ابنه فأخبره بحال جنده وقوّاده فخلع عليه وعليهم، ورجع أبو العبّاس إلى معسكره بالعُمْر، ثم نزل الموفّق على نهر بسنداد[1] بإزاء قرية عبد الله، وأمر ابنه فنزل شرقيّ دجلة بإزاء فوّهة بردودا، وولاّه مقدّمته وأعطى الجيش أرزاقهم، وأمر ابنه أن يسير بما معه من الآلات الحربية إلى فوّهة برمساور، فرحل في نخبة أصحابه، ورحل الموفّق بعده فنزل فوّهة برمساور، فأقام يومين ثم وصل إلى المدينة التي سماها صاحب الزنج ـ المنيعة ـ من سوق الخميس يوم الثلاثاء لثمان خلون من شهر ربيع الآخر سنة سبع وستين، وسلك بالسفن في برمساور وسارت الخيل شرقيّة حتى حاذوا براطق، الذي يوصل إلى المنيعة، وأمر أن تعبر الخيل لتصير من الجانبين، وأمر ابنه أبا العبّاس بالتقدّم بالشذاوات بعامة الجيش، ففعل فلقيه الزنج فحاربوه حربًا شديدة، ووافاهم أبو أحمد الموفّق والخيل من جانبي النهر، فلما رأوا ذلك انهزموا وتفرّقوا، وعلا أصحاب أبي العبّاس السور ووضعوا السيوف في من لقيهم، ودخلوا المنيعة فقتلوا بها خلقًا كثيرًا، وأسروا عالمًا عظيمًا، وغنموا ما كان فيها، وهرب الشعراني ومن معه وتبعه أصحاب الموفّق إلى البطائح، فغرق منهم خلق كثير ولجأ الباقون إلى الآجام، ورجع الموفّق

---

(١) سنداد: بكسر أوله، وسكون ثانيه، وتكرير الدال: نهر فيما بين الحيرة إلى الأبلة، وكان عليه قصر تحج العرب إليه، وهو القصر الذي ذكره الأسود بن يعفر. . . (معجم البلدان).

إلى معسكره من يومه، وقد استنقذ من المسلمات زهاء خمسة آلاف امرأة، سوى من ظفر به من الزنجيّات، وأمر بحفظ النساء وحملهنّ إلى واسط ليُدفعن إلى أهلهنّ، ثمّ بكّر إلى المدينة وأمر الناس بأخذ ما فيها فأخذ جميعه، وأمر بهدم سورها وطمّ خندقها وإحراق ما بقي فيها من السفن، وأخذوا من الطعام والشعير والأرز شيئًا كثيرًا، فأمر ببيع ذلك وصرفه إلى الجند.

قال: ولما انهزم سليمان لحق بالمَذار، وكتب إلى صاحب الزنج بذلك، فورد الكتاب عليه ـ وهو يتحدّث ـ فانحلّ بطنه فقام إلى الخلاء دفعات، وكتب إلى سليمان بن جامع يحذّره مثل الذي نزل بالشّعرانيّ ويأمره بالتيقّظ. قال: وأقام الموفّق ببر مساور يومين يتعرّف أخبار الشّعرانيّ وسليمان بن جامع، فأتاه من أخبره أن سليمان بن جامع بالحَوَانيت، فسار حتى وافى الصِينيّة، وأمر ابنه أبا العبّاس بالتقدّم بالشذاوات والسميريّات إلى الحوانيت، فسَار أبو العبّاس إليها فلم ير سليمان بها، ورأى هناك جمعًا من الزنج مع قائدَيْن لهم، خَلَفهم سليمان بن جامع هناك لحفظ غلاّت كثيرة لهم فيها، فحاربهم أبو العبّاس إلى أن حجز بينهم الليل، واستأمن إلى أبي العبّاس رجل، فسأله عن سليمان بن جامع فأخبره أنّه مقيم بطهيثا بمدينته التي سماها المنصورة، فعاد أبو العبّاس إلى أبيه بالخبر، فأمره بالمسير إليه فسار حتى نزل بَرْدُودا، فأقام بها لإصلاح ما يحتاج إليه، واستكثر من الآلات التي يسدّ بها الأنهار ويصلح بها الطرق للخيل، وخلّف ببردودا بُغْراج التركي.

ذكر استيلاء أبي أحمد الموفق على طهيثا

قال: ولما فرغ الموفّق من الذي يحتاج إليه سار عن بَرْدُودا إلى طهيثا لعشر بقين من شهر ربيع الآخر سنة سبع وستين ومائتين، وكان مسيره على الظهر في خيله، وحُدِّرت السفن والآلات فنزل بقرية الجوزيّة وعقد جسرا، ثم غدا فعبر خيله عليه ثم عبر بعد ذلك، فسار حتى نزل معسكرًا على ميلين من طهيثا فأقام بها يومين، ومطرت السماء مطرًا شديدًا فشغل عن القتال، ثم ركب لينظر موضعًا للحرب، فانتهى إلى قريب من سور مدينة سليمان بطهيثا ـ وهي التي سمّاها المنصورة ـ فتلقّاه خلق كثير وخرج عليه كمناء من مواضع شتى، واشتدت الحرب وترجّل جماعة من الفرسان، وقاتلوا حتى خرجوا عن المضيق الذي كانوا فيه، وأسر من غلمان الموفّق جماعة، ورمى أبو العبّاس بن الموفّق أحمد بن مهدي الجبّائي بسهم خالط دماغه فسقط، وحُمل إلى صاحب الزنج فلم يلبث أن مات بحضرته، فصلّى عليه وعظمتَ لديه

المصيبة بموته، وكان أعظم أصحابه غناءً، وانصرف الموفّق إلى معسكره وقت المغرب، وأمر أصحابه بالتحارُس ليلتهم والتأهُّبِ للحرب، فلما أصبحوا ـ وذلك في يوم السبت لثلاث بقين من شهر ربيع الآخر ـ عبّى الموفّق أصحابه وجعلهم كتائب يتلو بعضها بعضًا فرسانًا ورجّالة، وأمر بالشذاوات والسميريّات أن يُسار بها إلى النهر، الذي يشقّ مدينة سليمان، وهو النهر المعروف بنهر المُنْذِر، ورتّب أصحابه في المواضع التي يخاف منها، ثم نزل فصلّى أربع ركعات وابتهل إلى الله عزّ وجلّ في النصر ثم لبس سلاحه، وأمر ابنه أبا العبّاس أن يتقدّم إلى السور، فتقدم إليه فرأى خندقًا فأحجم الناس عنه، فحرّضهم قوّادهم وترجّلوا معهم فاقتحموه وعبروه، وانتهوا إلى الزنج وهم على سورهم، فلمّا رأى الزنج تسرّعهم إليهم ولّوا منهزمين، واتبعهم أصحاب أبي العبّاس فدخلوا المدينة، وكان الزنج قد حصّنوها بخمسة خنادق، وجعلوا أمام كل خندق سورًا، فجعلوا يقفون عند كل سور وخندق فيكشفهم أصحاب أبي العباس، ودخلت الشذاوات والسميريّات المدينة من النهر، فجعلت تغرق كل ما مرّت لهم به من سميريّة وشذاة، وقتلوا من بجانبي النهر وأسروا، حتى أجلوهم عن المدينة وعمّا اتصل بها، وكان مقدار العمارة بها برسخًا، وحوى الموفّق ذلك كلّه، وأفلت سليمان بن جامع ونفر من أصحابه، وكثر القتل فيهم والأسر، واستنقذ أبو أحمد من نساء أهل واسط والكوفة والقرى وصبيانهم أكثر من عشرة آلاف، فأمر بحملهم إلى واسط ودفعهم إلى أهليهم، وأخذ ما كان فيها من الذخائر والأموال، وأمر بصرف ذلك إلى الأجناد، وأسر عدّة من نساء سليمان وأولاده، وتخلص من كان أُخذ من أصحاب الموفّق، ولجأ جمع كثير إلى الآجام فأمر أصحابه بطلبهم، وأقام سبعة عشر يومًا، وهدم سور المدينة وطمّ خنادقها، وجعل لكل من أتاه برجل منهم جُعْلاً[1]، فكان إذا أُتي بالواحد منهم عفا عنه وضمّه إلى قوّاده وغلمانه، لما كان دبّره من استمالتهم، وأرسل في طلب سليمان بن جامع حتى بلغوا دجلة العوراء فلم يظفروا به، وأمر زِيرَك بالمقام بطهيثا ليتراجع أهل تلك الناحية إليها.

ذكر مسير الموفق إلى الأهواز وإجلاء الزنج عنها

قال: ولما فرغ أبو أحمد الموفّق من المنصورة رحل نحو الأهواز لإصلاحها وإجلاء الزنج عنها، فأمر ابنه أبا العبّاس أن يتقدّمه، وأمر بإصلاح الطرق للجيوش، واستخلف على من ترك من عسكره بواسط ابنه هارون، ولحقه زِيرك فأخبره بعود أهل

(١) الجعل: ما جعل على العمل من أجر أو رشوة.

طهيثا إليها وأمّن الناس، فأمره الموفّق بالانحدار في الشذا والسميريّات مع نصير، ليتتبّع المنهزمين ويوقع بهم وبمن ظفروا به من الزنج، حتى ينتهي إلى مدينة صاحب الزنج بنهر أبي الخصيب، فسارا وارتحل الموفّق في مستهل جُمادى الآخرة من واسط حتى أتى السوس، وأمر مسرورًا بالقدوم عليه، وهو عامله هناك فأتاه، وكان صاحب الزنج ـ لما بلغه ما عمل الموفّق بسليمان بن جامع ـ خاف أن يأتيه، وهو على حال تفرّق أصحابه عنه، فكتب إلى عليّ بن أبان بالقدوم عليه، وكان بالأهواز في ثلاثين ألفًا، فترك جميع ما كان عنده من طعام ودوابّ وأغنام وغير ذلك، واستخلف عليه محمد بن يحيى الكَرْنبَائِيّ، فلَم يُقم ولا تبع عليًا، وكتب صاحب الزنج أيضًا إلى بهبوذ بن عبد الوهاب، وهو بالفَنْدَم[1] والبَاسِيَان وما اتصل بهما، يأمره بالقدوم عليه، فترك ما كان عنده من الذخائر وسار نحوه، فحوى ذلك جميعه الموفّق وقوي به على حرب صاحب الزنج.

قال: ولما سار علي بن أبان عن الأهواز تخلف بها جمع من أصحابه زهاء ألف رجل، فأرسلوا إلى الموفّق يطلبون الأمان فأمّنهم، فقدموا عليه فأجرى عليهم الأرزاق، ثم رحل عن السوس إلى جُنْدَيْسَابور وتُسْتَر وجبا الأموال، ووجّه إلى محمد بن عُبيد الله الكردي ـ وكان خائفًا منه ـ فأمّنه وعفا عنه وطلب منه الأموال والعساكر، فحضر عنده فأحسن إليه، ثم رحل إلى عسكر مُكْرَم ووافى الأهواز، ثم رحل عنها إلى نهر المُبَارك من فرات البصرة، وكتب إلى ابنه هارون أن يوافيه بجميع الجيش إلى نهر المبارك، فلقيه هناك في منتصف شهر رجب، وكان زِيرَك ونصير ـ لما خلَفهما الموفّق ليتتبّعا الزنج ـ انحدرا حتى وافيا الأُبُلّة، فاستأمن إليهما رجل أخبرهما: أن صاحب الزنج قد أرسل إليهما عددًا كثيرًا في الشذا والسميريّات إلى دجلة، ليمنع عنها من يريدها، وأنهم يريدون عسكر نصير ـ وكان عسكره بنهر المرأة[2]، فرجع نصير من الأبلّة إلى عسكره لما بلغه ذلك، وسار زيرك من طريق آخر، لأنه قدّر أن الزنج تأتي عسكر نصير من ذلك الوجه، فكان كذلك فلقيهم في طريقه فظفر بهم وانهزموا منه، وكانوا قد جعلوا كمينًا فدلّ زيرك عليه، فتوغّل حتى أتاه، فقتل من الكمناء جماعة وأسر جماعة، وكان ممّن ظفر به مقدّم الزنج، وهو أبو عيسى محمد بن

(١) الفندم: موضع بالأهواز، يقول ياقوت: لا أدري ما هو، من كتاب نصر.

(٢) نهر المرأة: بالبصرة، حفره أردشير الأصغر؛ واسم المرأة طماهيج؛ كانت طماهيج هي التي صالحت خالد بن الوليد، عند نزول البصرة، من رأس الفهرج إلى نهر المرأة، على عشرة آلاف درهم. . . (معجم البلدان لياقوت).

إبراهيم البصري، وهو من أكابر قوادهم، وأخذ منهم ما يزيد على ثلاثين سميرية، فجزع لذلك جميع الزنج، فاستأمن إلى نصير منهم زهاء ألفي رجل، فكتب بذلك إلى الموفّق، فأمره بقبولهم والإقبال إليه بالنهر المبارك، فوافاه هنالك؛ وأمر الموفّق ابنه أبا العبّاس بالمسير إلى محاربة صاحب الزنج بنهر أبي الخصيب، فسار إليه فحاربه من بكرة النهار إلى الظهر، واستأمن إليه قائد من قوّاد الزنج ومعه جماعة، فكسر ذلك صاحب الزنج، وعاد أبو العبّاس بالظفر، وكتب الموفّق إلى صاحب الزنج يدعوه إلى التوبة والإنابة إلى الله تعالى مما ركب من سفك الدماء وانتهاك المحارم وخراب البلدان واستباحة الفروج والأموال وادعاء النبوّة والرسالة، ويبذل له الأمان، فوصل الكتاب إليه فقرأه ولم يكتب جوابه.

ذكر محاصرة مدينة صاحب الزنج وهي المدينة التي سمّاها المختارة

قال: ولما أنفذ الموفّق الكتاب إلى صاحب الزنج ولم يرد جوابه، عرض عسكره وأصلح آلاته ورتّب قوّاده، ثم سار هو وابنه أبو العبّاس في العشرين من شهر رجب سنة سبع وستين إلى مدينة صاحب الزنج، فلما أشرف عليها وتأمّلها ورأى حصانتها بالأسوار والخنادق ووعور الطريق إليها وما أعدّ من المجانيق والعرّادات والقسي وسائر الآلات على سورها مما لم ير مثله ممّن تقدّم من منازعي السلطان، ورأى من كثرة عدد المقاتلة ما استعظمه، فلما عاين الزنج أصحاب الموفّق ارتفعت أصواتهم حتى ارتجّت الأرض، فأمر الموفّق ابنه بالتقدّم إلى سور المدينة ورمى مَنْ عليه بالسهام، فتقدّم حتى ألصق شذاواته بقصر صاحب الزنج، فكثر الزنج وأصحابهم على أبي العبّاس، وتتابعت سهامهم وحجارة مجانيقهم ومقاليعهم، ورمى عوامّهم بالحجارة عن أيديهم، حتى ما يقع الطرف إلا على سهم أو حجر، وثبت أبو العبّاس، فرأى صاحب الزنج من ثباته وثبات أصحابه ما لا رأى مثله من أحد ممّن حاربهم، ثم أمرهم الموفّق بالرجوع ففعلوا، واستأمن إلى الموفّق مقاتلة من سمارتين فأمّنهم، وخلع على من فيها من المقاتلة والملاحين على أقدارهم ووصلهم، وأمر بإدنائهم إلى موضع يراهم فيه نظراؤهم، فكان ذلك من أنجع المكائد، فلما رأوهم الباقون رغبوا في الأمان وتنافسوا فيه وابتدروا إليه، فصار إلى الموفّق في ذلك اليوم عدد كثير من أصحاب السميريّات فعمّهم بالخلع والصلات، فلما رأى صاحب الزنج ذلك أمر بردّ أصحاب السميريّات إلى نهر أبي الخصيب، ووكل بفوّهة النهر من

يمنعهم من الخروج، وأمر بهبوذ ـ وهو من أشرّ قوّاده: أن يخرج في الشذاوات، فخرج فبرز إليه أبو العبّاس في شذاواته وقاتله، واشتدت الحرب فانهزم بهبوذ إلى فناء قصر صاحب الزنج، وأصابته طعنتان وجرح بالسهام، فولج نهر أبي الخصيب وقد أشفى على الموت، وقُتل ممّن كان معه قائد ذو بأس ـ يقال له عُميرة، وظفر أبو العبّاس بشذاة فقتل أهلها، ورجع هو ومن معه سالمين، واستأمن إلى أبي العباس أهل شذاة فأمّنهم وأحسن إليهم وخلع عليهم، ورجع الموفّق ومن معه إلى عسكره بالنهر المبارك، واستأمن إليه عند منصرفه خلق كثير، فأمّنهم وخلع عليهم ووصلهم وأثبت أسماءهم مع أبي العبّاس، وأقام في عسكره يومين ثم نقل عسكره لست ليال بقين من شهر رجب إلى نهر جَطّى[1] فنزله، وقام به إلى منتصف شعبان لم يقاتل.

ثم ركب في منتصف شعبان في الخيل والرَّجْل وأعدّ الشذاوات والسميريّات، وكان معه من الجند والمطَوعة زهاء خمسين ألفًا، وكان مع صاحب الزنج أكثر من ثلاثمائة ألف إنسان، كلهم ممّن يقاتل بسيف أو رمح أو مقلاع أو منجنيق، وأضعفهم رماة الحجارة من أيديهم وهم النظَارة، والنساء تشركهم في ذلك، فأقام أبو أحمد ذلك اليوم، ونودي بالأمان للناس كافّة إلا صاحب الزنج، وكُتب الأمان في رقاع ورميت في السهام، ووعد فيها الإحسان، فمالت قلوب أصحاب صاحب الزنج فاستأمن من ذلك اليوم خلق كثير، فخلع عليهم ووصلهم، ولم يكن ذلك اليوم حرب.

ثم رحل من نهر جَطّى من الغد فعسكر قرب مدينة صاحب الزنج، ورتّب قوّاده وأجناده وعيّن لكل طائفة موضعًا يحافظون عليه ويضبطونه، وكتب الموفّق إلى البلاد في عمل السميريّات والشذاوات والزواريق والإكثار منها، ليضبط بها الأنهار لتنقطع الميرة عن صاحب الزنج وأسّس في منزلته مدينة سمّاها الموفّقيّة، وكتب إلى عمّاله في النواحي بحمل الأموال والميرة في البر والبحر إلى مدينته، وأمرهم بإنفاذ من يصلح للإثبات في الديوان، وأقام ينتظر ذلك شهرًا، فوردت عليه المير متتابعة، وجهّز التجار صنوف التجارات إلى الموفّقيّة، واتخذت فيها الأسواق، ووردتها مراكب البحر، وبنى الموفّق بها المسجد الجامع وأمر الناس بالصلاة فيه، فجمعت هذه المدينة من المرافق وسيق إليها من صنوف الأشياء ما لم يكن في مصر من الأمصار القديمة، وحُملت الأموال وأُدرّت الأرزاق.

---

(١) نهر جطّى: بفتح الجيم وتشديد الطاء، والقصر: نهر بالبصرة عليه قرى ونخل كثير، وهو من نواحي شرقي دجلة.

قال: وعبرت طائفة من الزنج فنهبوا أطراف عسكر نصير وأوقعوا به، فأمر الموفّق نصيرًا بجمع عسكره وضبطهم، وأمر الموفّق ابنه أبا العبّاس بالمسير إلى طائفة من الزنج كانوا خارج المدينة، فقاتلهم فقتل منهم خلقًا كثيرًا وغنم ما كان معهم، فصار إليه طائفة منهم بالأمان، فخلع عليهم وأمّنهم ووصلهم، وأقام أبو أحمد يكايد صاحب الزنج، يبذل الأمان لمن صار إليه، ومحاصرة الباقين والتضييق عليهم، وكانت قافلة قد أتت من الأهواز فأسرى إليها بهبوذ في سميريات، فأخذها فعظم ذلك على الموفّق، وغرم لأهلها ما أخذ منهم، وأمر بترتيب الشذاوات على مخارج الأنهار، وقلّد ابنه أبا العبّاس الشذاوات وحفظ الأنهار بها من البحر إلى المكان الذي هم به. قال: وفي شهر رمضان من السنة عبرت طائفة من الزنج يريدون الإيقاع بنصير، فردّهم الله خائبين، وظفروا بصَنْدَل الزنجي، وكان يكشف رؤوس المسلمات ويقلبهن تقليب الإماء، فلما أتي به أمر الموفّق أن يرمى بالسهام ثم قتله، واستأمن إلى الموفّق من الزنج خلق كثير، فبلغت عدة من استأمن إليه إلى آخر شهر رمضان خمسين ألفًا؛ وفي شوّال انتخب صاحب الزنج من عسكره خمسة آلاف من الشجعان والقوّاد، وأمر علي بن أبان المهلبيّ بالعبور لكبس عسكر الموفّق، وكان فيهم أكثر من مائتي قائد، فعبرا ليلاً واختفوا في آخر النخل، وأمرهم: أنّه إذا ظهر أصحابهم وقاتلوا الموفّق من بين يديه ظهروا وحملوا على عسكره، وهم غارون مشاغيل بحرب مَنْ أمامهم، فاستأمن منهم إنسان من الملاّحين فأخبر الموفّق، فسيّر ابنه أبا العبّاس لقتالهم وضبط الطرق التي يسلكونها، فقاتلوا قتالاً شديدًا، وأسر أكثرهم، وغرق منهم خلق كثير، وقُتل بعضهم ونجا بعضهم، فأمر أبو العبّاس أن تحمل الأسرى والرؤوس في السميريات، ويعبر بهم على مدينة صاحب الزنج، ففعلوا ذلك، وبلغ الموفّق أنّ صاحب الزنج قال لأصحابه: إن الأسرى والرؤوس من المستأمنة، فأمر بإلقاء الرؤوس إليهم في منجنيق، فلما رأوها عرفوها فأظهروا الجزع والبكاء، وظهر لهم كذب صاحبهم.

وفيها أمر صاحب الزنج باتخاذ شذاوات فعملت له، فكانت خمسين شذاة فقسمها بين ثلاثة من قوّاده، وأمرهم بالتعرض لعسكر الموفّق، وكانت شذاوات الموفّق يومئذ قليلة، لأنّه لم يصل إليه ما أمر بعمله، والتي كانت عنده منها فرّقها على أفواه الأنهار، ليقطع الميرة عن صاحب الزنج، فخافهم أصحاب الموفّق فورد عليهم الشذاوات التي كان الموفّق أمر بعملها، فسيّر ابنه أبا العباس يوردها خوفًا عليها من الزنج، فلما أقبل بها رآها الزنج فعارضوها بشذاواتهم، فقصد غلام لأبي العبّاس

منعهم وقاتلهم، فانكشفوا بين يديه وتبعهم حتى أدخلهم نهر أبي الخصيب، وانقطع عن أصحابه فعطفوا عليه فأخذوه ومن معه بعد حرب شديدة، فقتلوا وسلمت الشذاوات التي مع أبي العبّاس، وأصلحها ورتّب فيها من يقاتل، ثم أقبلت شذاوات صاحب الزنج على عادتها، فخرج إليهم أبو العبّاس في أصحابه، فقاتلهم فهزمهم وظفر منهم بعدّة شذاوات، فقتل منهم من ظفر به فيها، فمنع صاحب الزنج أصحابه من الخروج عن فناء قصره، وقطع أبو العبّاس الميرة عن الزنج فاشتد جزع الزنج، وطلب جماعة من وجوه أصحاب صاحب الزنج الأمان فأمّنوا؛ وكان منهم محمد بن الحارث العَمّي، وكان إليه ضبط السور مما يلي عسكر الموفق، فخرج ليلاً فأمّنه الموفّق ووصله بصلات كثيرة له ولمن خرج معه، وحمله على عدّة دواب بآلاتها وحليتها، وأراد إخراج زوجته فلم يقدر، وأخذها صاحب الزنج فباعها؛ ومنهم أحمد البرذعي، وكان من أشجع رجال صاحب الزنج، فخلع عليه وعلى غيره ممّن أتاه ووصلهم بصلات كثيرة. قال: ولما انقطعت الميرة والمواد عن صاحب الزنج أمر شِبْلاً وأبا الندا وهما رؤساء قوّاده ـ وكان يثق بهم ـ بالخروج إلى البطيحة في عشرة آلاف من ثلاثة وجوه للغارة وقطع الميرة عن الموفّق، فسيّر الموفّق إليهم زيرك في جمع من أصحابه، فلقيهم بنهر ابن عمر فرأى كثرتهم فراعه ذلك، ثم استخار الله تعالى في قتالهم فحمل عليهم وقاتلهم، فقذف الله تعالى الرعب في قلوبهم فانهزموا، فوضع فيهم السيف وقتل منهم مقتلة عظيمة، وغرق منهم مثل ذلك وأسر خلقًا كثيرًا، وأخذ من سفنهم ما أمكنه أخذه، وغرق منها ما غرق، وكان ما أخذه من سفنهم نحو أربعمائة سفينة، وأقبل بالأسرى والرؤوس إلى مدينة الموفّق.

ذكر عبور الموفق إلى مدينة صاحب الزنج وخروجه عنها وعوده إليها

قال: وفي ذي الحجّة سنة سبع وستين أيضًا عبر الموفّق مدينة صاحب الزنج لست بقين من الشهر، وكان سبب ذلك أنّ جماعة من قوّاد صاحب الزنج، لما رأوا ما حلّ بهم من البلاء، من قتل من يظهر منهم، وشدّة الحصار على من لزم المدينة، وحال من خرج بالأمان، جعلوا يهربون من كل وجه ويخرجون إلى الموفّق، فلما رأى ذلك صاحب الزنج جعل على الطريق التي يمكنهم الهرب منها من يحفظها، فأرسل جماعة من القوّاد إلى الموفّق يطلبون الأمان، وأن يوجّه لمحاربة صاحبهم جيشًا ليجدوا طريقًا إلى المصير إليه، فأمر ابنه أبا العبّاس بالمسير إلى النهر الغربي

ـ وبه عليّ بن أبان ـ ففعل، واشتدت الحرب فاستظهر أبو العباس على الزنج، فأمّدهم صاحبهم بسليمان بن جامع في جمع، واتصلت الحرب من أوّل النهار إلى العصر، وكان الظفر لأبي العبّاس وصار إليه القوم الذين كانوا طلبوا الأمان منه، واجتاز أبو العبّاس بمدينة صاحب الزنج عند نهر الأتراك، فرأى قلّة الزنج هناك، فطمع فيهم فقصدهم وقد انصرف أكثر أصحابه إلى الموفقيّة، فدخل البلد بمن بقي معه، وندب صاحب الزنج أصحابه لحربهم، فلما رأى أبو العباس اجتماعهم وقلّة أصحابه رجع، وأرسل إلى أبيه الموفّق يستمدّه فأتاه من خفّ من الغلمان وظهروا على الزنج وهزموهم، وكان سليمان بن جامع لما رأى ظهور أبي العبّاس سار في النهر مصعدًا في جمع كثير فأتى أصحاب أبي العبّاس من خلفهم وهم يحاربون من بإزائهم، وخفقت طبوله فانكشف أصحاب أبي العبّاس، ورجع عليهم من كان انهزم عنهم من الزنج، فأصيب جماعة من غلمان الموفّق، وأخذ الزنج عدة أعلام وحامى أبو العبّاس عن أصحابه فسلم أكثرهم ثم انصرف وطمع الزنج بهذه الوقعة وشدّت قلوبهم، فأجمع الموفّق على العبور إلى مدينتهم بجميع جيوشه، وأمر الناس بالتأهّب وجمع المعابر والسفن وفرّقها عليهم، ودخل يوم الأربعاء لست بقين من الشهر، وفرّق أصحابه على المدينة ليضطر صاحبها إلى تفرقة أصحابه، وقصد الموفّق إلى ركن من أركان المدينة وهو أحصن ما فيها، وقد أنزله صاحب الزنج ابنه انكلاي وسليمان بن جامع وعليّ بن أبان، وعليه من المجانيق وآلات القتال ما لا يحدّ، فلما التقى الجمعان أمر الموفّق غلمانه بالدنوّ منه، وبينهم وبين ذلك السور نهر الأتراك، وهو نهر عريض كثير الماء فأحجموا عنه، فصاح بهم الموفّق وحرّضهم على العبور، فعبروا سباحة والزنج ترميهم بالمجانيق والمقاليع والحجارة والسهام، فصبروا حتى جاوزوا النهر وانتهوا إلى السور، ولم يكن معهم من الفعلة من كان أعدّ لهدم السور، فتولّى الغلمان تشعيث السور بما كان معهم من السلاح، وسهّل الله تعالى ذلك وكان معهم بعض السلاليم، فصعدوا على ذلك إلى السور، ونصبوا علمًا من أعلام الموفّق، فانهزم الزنج عنه وسلّموه بعد قتال شديد، وقُتل من الفريقين خلق كثير، ولما علا أصحاب الموفّق السور أحرقوا ما كان عليه من مجانيق وآلات وغير ذلك، وكان أبو العبّاس قصد ناحية أخرى، فمضى علي بن أبان لقتاله فهزمه أبو العبّاس وقتل جمعًا كثيرًا من أصحابه، ولحق أصحاب أبي العبّاس بالسور فثلموا فيه ثلمة، ودخلوه فلقيهم سليمان بن جامع فقاتلهم حتى ردّهم إلى مواضعهم، ثم إن الفعلة وافوا السور فهدموه في عدة مواضع، وعملوا على الخندق جسرًا فعبر الناس عليه من ناحية الموفّق، فانهزم الزنج عن سور ثان كانوا قد اعتمصوا به، وجعل أصحاب الموفّق يقتلونهم

حتى انتهوا إلى نهر ابن سمعان، وقد صارت دار ابن سمعان في أيدي أصحاب الموفّق فأحرقوها، وقاتلهم الزنج هناك ثم انهزموا حتى بلغوا ميدان صاحبهم، فرجع في جمع من أصحابه فانهزم أصحابه عنه، وقرب منه بعض رجّالة الموفّق، فضرب وجه فرسه بترسه وذلك مع مغيب الشمس، فأمر الموفّق الناس بالرجوع فرجعوا، ومعهم من رؤوس أصحابه شيء كثير، وقد استأمن إلى أبي العباس أوّل النهار نفر من قوّاد صاحب الزنج، فتوقف عليهم حتى حملهم في السفن.

وأظلم الليل وهبّت ريح عاصف وقوي الجزر، فلصق أكثر السفن بالطين، فخرج جماعة من الزنج فنالوا من أصحابه، وقتلوا منهم نفرًا، وكان بهبوذ بإزاء مسرور البلخي فأوقع بأصحاب مسرور، وقتل منهم وأسر جماعة، فكسر ذلك من نشاط أصحاب الموفّق، وكان بعض أصحاب صاحب الزنج قد انهزم على وجهه نحو نهر الأمير[1] وعبّادان، وهرب جماعة من الأعراب إلى البصرة، فأرسلوا يطلبون الأمان فأمّنهم الموفّق، وخلع عليهم وأجرى عليهم الأرزاق، وكان ممّن رغب في الأمان من قوّاده رَيْحان بن صالح المغربي ـ وكان من رؤساء أصحابه، فأرسل يطلب الأمان وأن يرسل جماعة إلى مكان ذكره ليخرج إليهم، ففعل الموفّق فصار إليه فخلع عليه وأحسن إليه ووصله، ثم ضمّه إلى أبي العبّاس، ثم استأمن بعده جماعة من أصحابه، وكان خروج ريحان إليه لليلة بقيت من ذي الحجّة من هذه السنة.

وفي سنة ثمان وستين ومائتين في المحرّم خرج إلى الموفق من قوّاد صاحب الزنج جعفر بن إبراهيم المعروف بالسجّان، وكان من ثقات أصحابه فارتاع لذلك، وخلع عليه الموفق وأحسن إليه، وحمله في سميرية إلى إزاء قصر صاحبه، وأخبرهم أنّهم في غرور وأعلمهم بما وقف عليه من كذب الخبيث وفجوره، فاستأمن في ذلك اليوم خلق كثير من قوّاد الزنج وغيرهم، فأحسن إليهم الموفّق وتتابع الناس في طلب الأمان، ثم أقام الموفّق لا يحارب ليريح أصحابه إلى شهر ربيع الآخر من السنة.

فلما انتصف الشهر قصد الموفّق مدينة الزنج، وفرّق قوّاده على جهاتها، وجعل مع كل طائفة منهم من النقّابين جماعة لهدم السور، وتقدّم إلى جميعهم ألا يزيدوا على هدم السور ولا يدخلوا المدينة، وتقدّم إلى الرماة أن يحموا بالسهام من يهدم

---

(١) نهر الأمير: بواسط.. ونهر الأمير أيضًا: بالبصرة حفره المنصور ثم وهبه لابنه جعفر، فكان يقال نهر أمير المؤمنين ثم نهر الأمير.

السور وينقبه، فتقدموا إلى المدينة من سائر جهاتها، ووصلوا إلى السور وثلموه في مواضع كثيرة، ودخل أصحاب الموفّق المدينة من تلك الثلم، وجاء أصحاب صاحب الزنج فقاتلوهم فهزمهم أصحاب الموفّق، وتبعوهم حتى أوغلوا في طلبهم، واختلفت بهم طرق المدينة، فبلغوا أبعد من الموضع الذي وصلوا إليه في المرّة الأولى وأحرقوا وأسروا، وتراجع الزنج عليهم وخرج الكمناء من مواضع يعرفونها ويجهلها أصحاب الموفّق، فتحيّروا ودافعوا عن أنفسهم وتراجعوا نحو دجلة، بعد أن قتل منهم جماعة وأخذ الزنج أسلابهم، ورجع الموفّق إلى مدينته وأمر بجمع أصحابه، ولامهم على مخالفته في دخولهم وإفساد رأيه وتدبيره، وأمر بإحصاء مَنْ فُقد من أصحابه، وأقر ما كان لهم من الرزق على أولادهم وأهليهم، فحسن موقع ذلك عندهم، وزاد في صحة نيّاتهم وصدق عزائمهم.

ذكر إيقاع أبي العباس بن الموفق بالأعراب وانقطاع الميرة عن الزنج ومقتل بهبوذ بن عبد الوهاب

وفي سنة ثمان وستين ومائتين أوقع أبو العبّاس أحمد بن الموفّق، وهو المعتضد بالله بقوم من الأعراب، كانوا يحملون الميرة إلى الزنج فقتل منهم جماعة وأسر الباقين وغنم ما كان معهم، وأرسل إلى البصرة من أقام بها لأجل قطع الميرة، وسيّر الموفّق رشيقًا مولى أبي العبّاس، فأوقع بقوم من بني تميم كانوا يجلبون الميرة إلى صاحب الزنج، فقتل أكثرهم وأسر جماعة منهم، فحمل الأسرى والرؤوس إلى الموفقيّة، فأمر بهم الموفّق فوقفوا بإزاء عسكر الزنج، وكان فيهم رجل يسفر بين صاحب الزنج والأعراب، فقطعت يده ورجله وألقي في عسكر الزنج، وأمر بضرب أعناق الأسرى فانقطعت الميرة بذلك عن صاحب الزنج، فأضرّ بهم الحصار وأضعف أبدانهم، فكان يسأل الأسير والمستأمن عن عهده بالخبز فيقول: عهدي به منذ زمان طويل، فلما وصلوا إلى هذه الحال رأى الموفّق أن يتابع عليهم الحرب، ليزيدهم ضرًا وجهدًا، فكثر المستأمنون في هذا الوقت، وخرج كثير من أصحاب الخبيث فتفرّقوا في القرى والأنهار البعيدة في طلب القوت، فبلغ ذلك الموفّق فأمر جماعة من قوّاد غلمانه بقصد تلك المواضع، ويدعون من بها إليه فمن أبى قتلوه، فقتلوا منهم خلقًا كثيرًا وأتاه كثير منهم، فلما كثر المستأمنون عند الموفّق عرضهم، فمن كان ذا قوّة وجَلَد أحسن إليه وخلطه بغلمانه، ومن كان منهم ضعيفًا أو شيخًا أو جريحًا قد أزمنته[1] الجراحة كساه

---

(١) زمن: مرض مرضًا يدوم زمانًا طويلاً.

وأعطاه دراهم، وأمر به أن يُحمل إلى عسكر صاحب الزنج، فيذكر ما رأى من الإحسان، فتهيّأ له بذلك ما أراد من استمالة أصحاب الخبيث، وجعل الموفّق وابنه أبو العبّاس يلازمان قتال صاحب الزنج ـ تارة هذا وتارة هذا ـ وجرح أبو العبّاس ثم بريء، وكان من جملة من قتل من أعيان قوّاد صاحب الزنج بهبوذ بن عبد الوهاب، وكان كثير الخروج في السميريّات، وكان ينصب عليها أعلامًا تشبه أعلام الموفّق، فإذا رأى من يستضعفه أخذه، فأخذ من ذلك مالاً جزيلاً، فواقعه في بعض خرجاته أبو العباس، فأفلت بعد أن أشفى على الهلاك، ثم خرج مرّة أخرى فرأى سميريّة، فيها بعض أصحاب أبي العباس فقصدها طامعًا في أخذها، فحاربه أهلها فطعنه غلام من غلمان أبي العبّاس في بطنه، فسقط في الماء فأخذه أصحابه فحملوه إلى عسكر صاحبه، فمات قبل وصوله وكان قتله من أعظم الفتوح، وعظمت الفجيعة على صاحب الزنج وأصحابه، فاشتد جزعهم عليه، وأحسن الموفّق إلى ذلك الغلام فوصله وكساه وطوّقه وزاد في رزقه، وفعل بكل من كان معه في تلك السميريّة نحو ذلك، ثم ظفر بالذوائبي وكان ممايلاً لصاحب الزنج.

وفي سنة تسع وستين ومائتين رُمي الموفّق بسهم في صدره، وكان سبب ذلك أنّ بهبوذ لما هلك طمع صاحب الزنج في أخذ أمواله، وكان قد صحّ عنده أن ملكه قد حوى مائتي ألف دينار وجواهر وفضّة، فطلب ذلك وأخذ أهله وأصحابه فضربهم، وهدم أبنيته طمعًا في المال فلم يجد شيئًا، فكان فعله مما أفسد قلوب أصحابه عليه، ودعاهم إلى الهرب منه، فأمر الموفّق بالنداء بالأمان في أصحاب بهبوذ، فسارعوا إليه فألحقهم في العطاء بمن تقدّم، ورأى الموفّق ما كان يتعذّر عليه من العبور إلى الزنج، في الأوقات التي تهب فيها الرياح لتحرّك الأمواج، فعزم على أن يوسّع لنفسه ولأصحابه موضعًا في الجانب الغربي، فأمر بقطع النخل وإصلاح المكان، وأن تعمل له الخنادق والسور ليأمن البيات، فعلم صاحب الزنج أنّ الموفّق إذا جاوره قرجب على من يريد اللحاق به المسافة، مع ما يدخل قلوب أصحابه من الخوف وانتقاض تدبيره عليه فاهتمّ بمنع الموفّق من ذلك وبذل الجهد فيه وقاتل أشد القتال، فاتفق أن الريح عصفت في بعض تلك الأيام وقائد من القواد هناك، فانتهز صاحب الزنج الفرصة في انفراد هذا القائد وانقطاع المدد عنه فسيّر إليه جميع أصحابه فقاتلوه فهزموه، وقتلوا كثيرًا من أصحابه ولم يجد الشذاوات التي لأصحاب الموفق سبيلاً إلى القرب منهم، خوفًا من الزنج أن تلقيها على الحجارة فتنكسر، فغلب الزنج عليهم وأكثروا القتل والأسر، ومن سلم منهم ألقى نفسه في الشذاوات وعبروا إلى الموفقيّة فعظم ذلك على الناس، ونظر الموفّق فرأى أنّ نزوله بالجانب الغربي لا يأمن معه

حيلة الزنج وصاحبهم وانتهاز فرصة لكثرة الأدغال وصعوبة المسالك، وأنّ الزنج أعرف بتلك المضائق وأجرأ عليها من أصحابه، فترك ذلك وجعل قصده إلى هدم سور صاحب الزنج وتوسعة الطرق والمسالك، فأمر بهدم السور من ناحية النهر المعروف بمنكى، وباشر الحرب بنفسه واشتد القتال، وكثر القتل والجراح من الجانبين ودام ذلك أيامًا عدّة، وكان أصحاب الموفّق لا يستطيعون الولوج لقنطرتين كانتا على نهر منكى، وكان الزنج يعبرون عليها وقت القتال، فيأتون أصحاب الموفّق من وراء ظهورهم فينالون منهم، فأعمل الحيلة في إزالتهما، فأمر أصحابه بقصدهما عند اشتغال الزنج وغفلتهم عن حراستهما، وأمرهم أن يعدّوا الفؤوس والمناشير وما يحتاجون إليه من الآلات، فقصدوا القنطرة الأُولى نصف النهار فأتاهم الزنج لمنعهم، فاقتتلوا فانهزم الزنج، وكان مقدّمهم أبا النداء فأصابه سهم في صدره فقتله، وقطع أصحاب الموفّق القنطرتين ورجعوا، وألحّ الموفّق على صاحب الزنج بالحرب، وهدم أصحابه من السور ما أمكنهم، ودخلوا المدينة وقاتلوا فيها، وانتهوا إلى دار ابن سمعان وسليمان بن جامع فهدموهما، ونهبوا ما فيهما، وانتهوا إلى سويقة لصاحب الزنج سمّاها الميمونة، فهُدمت وأُخربت وهدموا دار الجبّائي وانتهبوا ما كان فيها من الخزائن، وتقدّموا إلى الجامع ليهدموه فاشتد محاماة الزنج عنه، فلم يصل إليه أصحاب الموفّق، لأنّه كان قد خلص مع صاحب الزنج نخبة أصحابه وأرباب البصائر، فكان أحدهم إذا قتل أو جرح اجتذبه الذي إلى جنبه ووقف مكانه، فلما رأى الموفّق ذلك أمر أبا العبّاس بقصد الجامع من أحد أركانه بشجعان أصحابه، وأضاف إليهم الفعول للهدم ونصب السلاليم ففعل ذلك، وقاتل عليه أشد قتال فوصلوا إليه فهدموه، وأخذ منبره فأُتي به الموفّق، ثم عاد الموفّق لهدم السور فأكثر منه، وأخذ أصحابه دواوين صاحب الزنج وبعض خزانته، فظهر للموفّق أمارات الفتح، فإنهم لعلى ذلك إذ وصل سهم إلى الموفّق فأصابه في صدره رماه به رومي كان مع صاحب الزنج اسمه قرطاس وذلك لخمس بقين من جُمادى الأولى، فستر الموفّق ذلك وعاد إلى مدينته فبات، ثم عاود الحرب على ما به من ألم الجراح، ليشدّ بذلك قلوب أصحابه فزاد في علّته، وعظم أمرها حتى خليف عليه، واضطرب العسكر والرعيّة وخافوا وأشار عليه بعض أصحابه وثقاته بالعود إلى بغداد، ويخلف من يقوم مقامه فأبى ذلك، وخاف أن يستقيم من حال صاحب الزنج ما فسد، واحتجب عن الناس مدّة ثم برىء من علّته، وظهر لهم ونهض لحرب صاحب الزنج وكان ظهوره في شعبان من هذه السنة.

ذكر إحراق قصر صاحب الزنج وما يتصل بذلك من الحروب والوقائع

قال: ولما صحّ الموفّق من جراحه عاد إلى ما كان عليه من حرب صاحب الزنج، وكان قد أعاد بعض الثلم في السور، فأمر الموفّق بهدم ذلك وهدم ما يتصل به وركب في بعض العشايا[١]، وكان القتال متصلاً ذلك اليوم مما يلي نهر مُنْكي، والزنج مجتمعون فيه قد شغلوا أنفسهم بتلك الجهة، وظنوا أنّهم يؤتون إلا منها، فأتى الموفّق ومعه الفعلة وقرب من نهر مُنْكِي وقاتلهم، فلما اشتدت الحرب أمر الذين في الشذاوات بالمصير إلى أسفل نهر أبي الخصيب، وهو خال من المقاتلة والرجال، فتقدّم أصحاب الموفّق وأخرجوا الفعلة فهدموا السور من تلك الناحية، وصعد المقاتلة فقتلوا في النهر مقتلة عظيمة، وانتهوا إلى قصور من قصور صاحب الزنج فأحرقوها وانتهبوا ما فيها واستنقذوا عددًا كثيرًا من النساء اللاتي كنّ فيها، وغنموا منها، وانصرف الموفّق عند غروب الشمس بالظفر والسلامة، وبكّر إلى حربهم وهدم السور، فأسرع الهدم حتى اتصل بدار انكلاي، وهي متصلة بدار صاحب الزنج، فلما أعيت صاحب الزنج الحيل أشار عليه علي بن أبان بإجراء الماء على السباخ، وأن يحفر خنادق في مواضع عدة تمنعهم من دخول المدينة ففعل ذلك، فرأى الموفّق أن يجعل قصده طمّ الخنادق والأنهار والمواضع المُعَوَّرَة ففعل ذلك، وحامى الزنج عنه ودامت الحرب، ووصل إلى الفريقين من القتل والجراح أمر عظيم، وذلك لتقارب ما بين الفريقين، فلما رأى شدّة الأمر من هذه الناحية قصد إحراق دار صاحب الزنج والهجوم عليها من دجلة، فكان يعوقه عن ذلك كثرة ما أعدّ لها من المقاتلة والحماة عن داره، فكانت الشذاوات إذا قربت من قصره رُميت من فوق القصر بالسهام والحجارة والمجانيق والمقاليع، وأُذيب الرصاص وأُفرغ عليهم فتعذّر إحراقها لذلك، فأمر الموفّق أن يسقف الشذا بالأخشاب، ويعمل عليها الخيش وتطلى بالأدوية التي تمنع النار من إحراقها ففعل ذلك، ورتّب فيها أنجاد أصحابه وجمعًا من النفَاطين[٢].

واستأمن إلى الموفّق محمد بن سمعان كاتب صاحب الزنج، وكان أوثق أصحابه في نفسه، وكان سبب استئمانه أنّ صاحب الزنج أطلعه على أنّه عازم على الخلاص

---

(١) العشايا: جمع العشي: وهو الوقت من زوال الشمس إلى المغرب؛ أو من صلاة المغرب إلى العتمة.

(٢) النفاطين: جمع النفاط، وهو الذي يرمي بالنفط.

وحده بغير أهل ولا مال، فلما رأى ذلك من عزمه أرسل يطلب الأمان، فأمّنه الموفّق وأحسن إليه؛ وقيل كان سبب خروجه أنّه كان كارهًا لصحبة صاحب الزنج، مطّلعًا على كفره وسوء باطنه، ولم يمكنه التخلّص منه إلى الآن، ففارقه في عاشر شعبان.

فلمّا كان الغد بكّر الموفّق لمحاربة الزنج، وأمر أبا العبّاس بقصد دار محمد الكَرَنْبَائِي - وهي بإزاء دار صاحب الزنج - وإحراقها وما يليها من منازل قوّاد الزنج، يشغلهم بذلك عن حماية دار صاحبهم وأمر المرتّبين في الشذاوات المطليّة بقصد دار صاحب الزنج وإحراقها ففعلوا ذلك، وألصقوا شذاواتهم بسور قصره، وحاربوهم أشد حرب فنضحهم الزنج بالنيران فلم تعمل شيئًا، وأُحرق من القصر الرواشن(١) والأبنية الخارجة وعملت النار فيها، وسلم الذين كانوا في الشذا مما كان الزنج يرسلونه عليهم، وأمر الموفّق الذين في الشذا بالرجوع فرجعوا، فأخرج من كان فيها ورتّب غيرهم، وانتظر إقبال المدّ وعلوّه فلما أقبل عادت الشذا إلى قصره، وأحرقوا بيوتًا منه كانت تشرع على دجلة، واضطرمت النار فيها وقويت واتصلت، فأعجلت صاحب الزنج ومن كان معه عن التوقف على ما كان فيها من الأموال والذخائر وغير ذلك، فخرج هاربًا وتركه، وعلا غلمان الموفّق قصره مع أصحابهم فانتهبوا ما لم تأت النار عليه من الذهب والفضّة والحليّ وغير ذلك، واستنقذوا جماعة من النساء اللواتي كان صاحب الزنج يأنس بهن من اللواتي كان استرقهنّ، ودخلوا دوره ودور ابنه انكلاي فأحرقوها جميعًا، وفرح الناس بذلك وتحاربوا، هم وأصحاب صاحب الزنج على باب قصره، فكثر القتل في أصحابه والجراح والأسر، وفعل أبو العبّاس في دار الكرنبائي من النهب والهدم والإحراق مثل ذلك، وقطع أبو العبّاس يومئذ سلسلة عظيمة كان صاحب الزنج قطع بها نهر أبي الخصيب، لتمتنع الشذا من دخوله، فحازها أبو العباس وأخذها معه، وعاد الموفّق بالناس مع المغرب مظفَرًا، وأصيب صاحب الزنج في نفسه وماله، وجرح ابنه انكلاي في بطنه جرحًا أشفى منه على الهلاك.

ذكرُ غرقِ نصير صَاحبِ الشَّذَا

قال: وفي يوم الأحد لعشر بقين من شعبان غرق أبو حمزة نصير وهو صاحب الشذاوات، وكان سبب غرقه أن الموفّق بكّر إلى القتال وأمر نصيرًا بقصد قنطرة

---

(١) الروش: الرف؛ أو الكوة؛ أو الشرفة.

لصاحب الزنج، كان عملها في نهر أبي الخصيب دون الجسرين، اللذين كان اتخذهما على النهر، وفرّق أصحابه من الجهات، فعجّل نصير فدخل في أوّل المدّ في عدة من شذاواته، فحملها الماء فألصقها بالقنطرة، ودخلت عدّة من شذاوات الموفّق مع غلمانه، ولم يأمرهم بالدخول فضلّت شذاوات نصير ولم يبق للملاّحين فيها عمل، ورأى الزنج ذلك فاجتمعوا على جانبي النهر، وألقى الملاّحون أنفسهم في الماء خوفًا من الزنج، ودخل الزنج الشذاوات فقتلوا بعض المقاتلة، وغرق أكثرهم، وصابرهم نصير حتى خاف الأسر، فقذف بنفسه في الماء فغرق، وأقام الموفّق يومه ذلك يحاربهم وينهبهم ويحرق منازلهم، ولم يزل يومه مستعليًا عليهم، وكان سليمان بن جامع ذلك اليوم من أشد الناس قتالاً لأصحاب الموفّق، وثبت مكانه حتى خرج عليه كمين للموفّق فانهزم أصحابه، وجرح سليمان جراحة في ساقه، فسقط لوجهه في مكان كان به حريق وفيه بعض الجمر فاحترق بعض جسده، وحمله أصحابه بعد أن كاد يؤسر، وانصرف الموفّق سالمًا ظافرًا، وأصاب الموفّق مرض المفاصل فبقي به شعبان وشهر رمضان وأيامًا من شوّال، وأمسك عن حرب الزنج ثم برىء وتماثل، فأمر بإعداد آلة الحرب.

ذكرُ إحراقِ قَنْطَرةِ صَاحبِ الزّنْج

قال: ولما اشتغل الموفّق بعلّته أعاد صاحب الزنج القنطرة التي غرق عندها نصير، وزاد فيها وأحكمها ونصب دونها أدقال[1] ساج، وألبسها الحديد وسكر أمامها سكرًا من حجارة، ليضيق المدخل على الشذا وتحتدّ جرية الماء في النهر، فندب الموفّق أصحابه، وندب طائفة من شرقيّ نهر أبي الخصيب وطائفة من غربيّه، وأرسل النجّارين والفعلة لقطع القنطرة وما جعل أمامها، وأمر بسفن مملوءة قصبًا أن يُصبّ عليها النفط، وتدخل النهر ويلقى فيها النار لتحرق الجسر، وفرّق جنده على أصحاب صاحب الزنج، ليمنعوهم من معاونة من عند القنطرة، فسار الناس إلى ما أمرهم به، وذلك في عاشر شوّال، وتقدّمت الطائفتان إلى الجسر فلقيهما انكلاي ابن صاحب الزنج وعليّ بن أبان وسليمان بن جامع، واشتبكت الحرب ودامت وحامى أولئك عن القنطرة، لعلمهم بما عليهم في قطعها من الضرر، ودامت الحرب على القنطرة إلى العصر، ثم إنّ غلمان الموفّق أزالوا الزنج عن القنطرة، وقطعها النجّارون ونقضوها وما كان عمل من الأدقال الساج، وكان قطعها قد تعذّر عليهم فأدخلوا تلك السفن

(١) أدقال: جمع دقل، وهو خشبة طويلة تشد وسط السفينة عليها الشراع؛ والمراد هنا الألواح.

التي فيها القصب والنفط وأضرموها نارًا، فوافت القنطرة فأحرقتها فوصل النجّارون بذلك إلى ما أرادوا، وأمكن أصحاب الشذا دخولهم النهر فدخلوا، وقتلوا الزنج حتى أجلوهم عن مواقفهم إلى الجسر الأوّل الذي يتلو هذه القنطرة، وقُتل من الزنج كثير واستأمن كثير، ووصل أصحاب الموفّق إلى الجسر وقت المغرب، فكره الموفّق أن يدركهم الليل فأمرهم بالرجوع، وأثاب المحسن على قدر إحسانه ليزدادوا جدًا في حرب عدوّه، وأخرب من الغد برجين حجارة كانوا عملوهما، ليمنعوا الشذا من الخروج منه إذا دخلته، فلما أخربهما سهل له ما أراد من دخول النهر والخروج منه.

ذكر انتقال صاحب الزنج إلى الجانب الشرقي وإحراق سوقه

قال: لم أُحرقت دور صاحب الزنج وقصوره ومنازل أصحابه، كما قدّمنا ذكر ذلك ـ ونُهبت أموالهم انتقلوا إلى الجانب الشرقي من نهر أبي الخصيب، وجمع عياله حوله ونقل أسواقه، فضعف أمره بذلك ضعفًا شديدًا، ظهر للناس وامتنعوا من جلب الميرة إليه، فانقطعت عنه كل مادّة، وبلغ الرطل من خبز البُرّ[1] عشرة دراهم، فأكلوا الشعير وأصناف الحبوب، ثم لم يزل الأمر بهم إلى أن كان أحدهم يأكل صاحبه إذا انفرد به، والقوي يأكل الضعيف، ثم أكلوا أولادهم، ورأى الموفّق أن يخرب الجانب الشرقي كما أخرب الغربيّ، فأمر أصحابه بقصد دار الهمدانيّ ومعهم الفعلة، وكان هذا الموضع محصّنًا بجمع كثير، وعليه عرّادات ومنجنيقات وقسي، فاشتبكت الحرب وكثرت القتلى فانتصر أصحاب الموفّق عليهم وقتلوهم وهزموهم، وانتهوا إلى الدار فتعذر عليهم الصعود إليها لعلوّ سورها، فلم تبلغه السلاليم الطوال فرمى بعض غلمان الموفّق كلاليب معهم، فعلّقوها في أعلام صاحب الزنج وجذبوها فتساقطت الأعلام منكوسة، فلم تشك المقاتلة عن الدار في أنّ أصحاب الموفّق قد ملكوها، فانهزموا لا يلوي أحد منهم على صاحبه فأخذها أصحاب الموفّق وصعد النفّاطون فأحرقوها وما كان عليها من المجانيق والعرّادات، ونهبوا ما كان فيها من المتاع والأثاث، وأحرقوا ما كان حولها من الدور، واستنقذوا من كان فيها من النساء، وكنّ كثيرًا، فحملن إلى الموفقيّة وأمر الموفّق بالإحسان إليهن، واستأمن يومئذ من أصحاب صاحب الزنج وخاصّته الذين يلون خدمته جماعة كثيرة، فأمّنهم الموفّق وأحسن إليهم، ودلّ جماعةً

---

(١) البرّ: حب القمح.

من المستأمنة الموفّق على سوق عظيمة كانت لصاحب الزنج، متصلة بالجسر الأوّل تسمّى المباركة، وأعلموه أنّه إن أحرقها لم يبق لهم سوق غيرها، وخرج عنهم تجّارهم الذين بهم قواهم، فعزم الموفّق على إحراقها وأمر أصحابه بقصد السوق من جانبيها ففعلوا، وأقبلت الزنج إليهم فتحاربوا أشد حرب، واتصل أصحاب الموفّق إلى طرف من أطراف السوق وألقوا فيه النار فاحترق، واتصلت النار، وكان الناس يقتتلون والنار محيطة بهم، وسقطت على المقاتلة واحترق بعضهم، فكانت هذه حالهم إلى مغيب الشمس، ثم تحاجزوا[1] ورجع أصحاب الموفّق إلى عسكرهم، وانتقل تجّار السوق إلى أعلى المدينة، وكانوا قد نقلوا معظم أمتعتهم وأموالهم.

قال: ثم فعل صاحب الزنج بالجانب الشرقي من حفر الخنادق وتعوير[2] الطرق مثل ما كان فعل بالجانب الغربيّ بعد هذه الوقعة، واحتفر خندقًا عظيمًا حصّن به منازل أصحابه التي على النهر الغربيّ، فرأى الموفّق أن يخرب باقي السور إلى النهر الغربيّ، ففعل ذلك بعد حرب طويلة في مدة بعيدة، وكان بالجانب الغربيّ جمع من الزنج قد تحصّنوا بسور منيع، وهم أشجع أصحابه، فكانوا يحامون عنه وكانوا يخرجون على أصحاب الموفّق عند محاربتهم، فأمر الموفّق أن يقصد هذا الموضع ويخرب سوره ويخرج من فيه، وأمر ابنه أبا العبّاس والقوّاد بالتأهُّب لذلك، وتقدّم إليهم وأمر أن تقرب الشذاوات من السور، ونشبت الحرب ودامت إلى بعد الظهر، وهدم في السور مواضع وأحرق ما كان عليه من العرّادات، وتحاجز الفريقان وهما على السواء سوى هذا السور وإحراق عرّادات كانت عليه، ونال الفريقين من الجراح أمر عظيم، وعاد الموفّق فوصل الناس على قدر بلائهم، هكذا كان عمله في محاربته، وأقام الموفّق بعد هذه الوقعة أيامًا، ثم رأى معاودة هذا الموضع لما رأى من حصانته وشجاعة من فيه، وأنّه لا يقدر على ما يريد إلا بعد إزالته، فأعدّ الآلات ورتّب أصحابه وقصده، وقاتل مَنْ فيه وأدخلت الشذاوات النهر، واشتدت الحرب ودامت، وأمدّ صاحب الزنج بالمهلبيّ وسليمان بن جامع في جيشهما، فحملوا على أصحاب الموفّق حتى ألحقوهم بسفنهم وقتلوا منهم جماعة، فرجع الموفّق ولم يبلغ منهم ما أراد، وتبيّن له أنّه إذا قاتلهم من وجوه عدّة خفّت وطأتهم على من يقصد هذا الموضع، ففرّق أصحابه على جهات أصحاب الزنج، وصار هو في جهة النهر الغربي

---

(١) تحاجزوا: تزايلوا فانفصل بعضهم عن بعض.

(٢) عوّر الطرق: أي جعلها وعرة.

وقاتل من فيه وصدقهم أصحابه القتال فهزموهم، فولّوا وتركوا حصنهم في أيدي أصحاب الموفق، فهدموه وأسروا وقتلوا وخلّصوا من هذا الحصن خلقًا كثيرًا من النساء والصبيان، ورجع الموفق إلى عسكره بما أراد.

ذكر استيلاء الموفّق على مدينة صاحب الزنج الغربية

قال: لما هدم الموفّق سور دار صاحب الزنج أمر بإصلاح المسالك، ليتسع على المقاتلة[1] الطريق إلى الحرب، ثم رأى قلع الجسر الأوّل الذي على نهر أبي الخصيب، لما في ذلك من منع معاونة بعضهم بعضًا، وأمر بسفينة كبيرة أن تملأ قصبًا ويجعل فيه النفط، ويوضع في وسطها دَقل طويل يمنعها من مجاوزة الجسر إذا التصقت به، ثم أرسلها عند غفلة الزنج وقوة المدّ، فوافت الجسر وعلم بها الزنج فأتوها وطمّوها بالحجارة والتراب، ونزل بعضهم فخرقها فغرقت، وكان قد احترق من الجسر شيء يسير فأطفأه الزنج، فاهتم الموفّق بالجسر فندب أصحابه وأعدّ النفّاطين والفعلة والفؤوس، وأمرهم بقصده من غربيّ النهر وشرقيّه، وركب الموفّق في أصحابه وقصد فوّهة نهر أبي الخصيب، وذلك في منتصف شوّال سنة تسع وستين فسبق الطائفة التي في غرب النهر، فهزم الموكّلين على الجسر وهم سليمان بن جامع وانكلاي ابن صاحب الزنج وأحرقوه، وأتى بعد ذلك الطائفة الأخرى ففعلوا بالجانب الشرقي مثل ذلك، فأحرق الجسر وتجاوزه إلى جانب حظيرة كان يعمل فيها سميريّات صاحب الزنج وآلاته، فاحترق ذلك كله إلا شيئًا يسيرًا من الشذاوات والسميريّات كانت في النهر، وقصدوا سجنًا للزنج فقاتلهم الزنج ساعةً من النهار، ثم غلبهم أصحاب الموفّق عليه فأطلقوا من فيه، وأحرقوا ما مرّوا به إلى دار مُصْلح ـ وهو من قدماء أصحابه ـ فدخلوها فنهبوها وما فيها وسبوا نساءه وولده واستنقذوا خلقًا كثيرًا، وعاد الموفّق وأصحابه بالظفر والسلامة، وانحاز صاحب الزنج وأصحابه من هذا الجانب إلى الجانب الشرقي من نهر أبي الخصيب، واستولى الموفّق على الجانب الغربي غير طريق يسيرة على الجسر الثاني، فأصلحوا الطرق فزاد ذلك في رعب الزنج، فأجمع كثير من القوّاد ـ الذين كان صاحب الزنج يرى أنّهم لا يفارقونه ـ على طلب الأمان فطلبوه، فبُذل لهم فخرجوا أرسالاً[2] فأحسن الموفّق إليهم وألحقهم

---

(١) المقاتلة: الذين يصلحون للقتال أو يباشرونه.

(٢) خرجوا أرسالاً: أي رسلاً بعد رسل؛ والرسل: الجماعة من الناس؛ فالمراد: خرجوا جماعات بعضهم إثر بعض.

بأمثالهم، وأحب الموفّق أن يتمرّن أصحابه على سلوك النهر ليحرق الجسر الثاني فكان يأمرهم بإدخال الشذا فيه وإحراق ما على جانبه من المنازل، فهرب إليه في بعض الأيام قائد للزنج ومعه قاض كان لهم ففتّ ذلك في أعضادهم، ووكَل صاحب الزنج بالجسر الثاني من يحفظه وشحنه بالرجال، فأمر الموفّق بعض أصحابه فأحرق ما عند الجسر من سفن فزاد ذلك في احتياط صاحب الزنج وحراسته للجسر، لئلا يُحرق ويستولي الموفّق على الجانب الغربيّ، وكان قد تأخّر من أصحابه جمع في منازلهم المقاربة للجسر الثاني، وكان أصحاب الموفّق يأتونهم ويقفون على الطريق الخفيّة، فلما عرفوا ذلك عزموا على إحراق الجسر الثاني، فأمر الموفّق ابنه أبا العبّاس والقوّاد أن يتجهّزوا لذلك، وأن يأتوا من عدّة جهات ليوافوا الجسر، وأعدّ معهم الفؤوس والنفط والآلات ودخل هو في الشذا ومعه أنجاد[1] أصحابه، واشتبكت الحرب في الجانبين جميعًا واشتد القتال، وكان في الجانب الغربي بإزاء أبي العباس ومن معه انكلاي ابن صاحب الزنج وسليمان بن جامع، وفي الجانب الشرقي بإزاء راشد مولى الموفّق ومن معه صاحب الزنج والمهلبي في باقي الجيش، فدامت الحرب مقدار ثلاث ساعات ثم انهزم الزنج لا يلوون على شيء، وأُخذت السوق منهم، ووصل أصحاب الشذا النهر ودانوا من الجسر، وقاتلوا من يحميه بالسهام وأضرموه نارًا، وانهزم انكلاي وسليمان وقد أُثخنا بالجراح، فوافيا الجسر والنار فيه فحالت بينهما وبين العبور، فألقيا أنفسهما ومن معهما في النهر فغرق منهم خلق كثير، وأفلت انكلاي وسليمان بعد أن أشفيا على الهلاك، وقطع الجسر وأُحرق وتفرّق جيش الموفّق في جانبي المدينة، وأُحرق من الدور والقصور والأسواق شيئًا كثيرًا واستُنقذ من النساء والصبيان ما لا يُحصى ودخلوا الدار التي كان صاحب الزنج سكنها بعد إحراق قصره فنهبوا ما كان فيها وأحرقوها، وهرب هو واستنقذ في هذا اليوم نسوة من العلويّات، كنّ محبسات في موضع قريب من داره فأحسن الموفّق إليهن، وفتح سجنًا كان له وأخرج خلقًا كثيرًا ففكّ عنهم الحديد، وأخرج ذلك اليوم كلّ ما كان بنهر أبي الخصيب من شذا ومراكب بحرية وسفن كبار وصغار وحرّاقات[2] وغير ذلك من أصناف السفن إلى دجلة، وأباحها أصحابه بما فيها من السلب، وكانت قيمته عظيمة، وأرسل انكلاي ابنه يطلب الأمان، وسأل أشياء فأجابه الموفّق إليها، فعلم أبوه بذلك

---

(١) الأنجاد: جمع النجد، وهو الذي يمضي فيما لا يستطيعه سواه.

(٢) الحرّاقة: ضرب من السفن فيها مرامي نيران يرمى بها العدو في البحر؛ والحراقة: سفينة خفيفة المرّ؛ والحراقات: مواضع القلايين والفحامين.

فردّه عما عزم عليه، فعاد إلى الحرب ومباشرة القتال، ووجّه سليمان بن موسى الشعراني ـ وهو أحد رؤساء صاحب الزنج ـ يطلب الأمان، فلم يجبه الموفّق إلى ذلك لما تقدّم منه من سفك الدماء والفساد، ثم اتصل به أنّ جماعة من أصحاب صاحب الزنج قد استوحشوا لذلك فأجابه وأرسل الشذا إلى موضع ذكره فخرج هو وأخوه وأهله وجماعة من قوّاده، فأرسل صاحبهم من يمنعهم من ذلك فقاتلهم ووصل إلى الموفّق فزاد في الإحسان إليه وخلع عليه وعلى من معه، وأمر بإظهاره لأصحابه ليزدادوا ثقة، فلم يرجع من مكانه حتى استأمن جماعة من القوّاد، منهم شبْل بن سالم، فأجابه الموفّق وأرسل إليه شذاوات فركب فيها وعياله وولده وجماعة من قوّاده، فلقيهم قوم من الزنج فقاتلهم ونجا ووصل إلى الموفّق فأحسن إليه ووصله بصلة سنيّه، وهو من قدماء أصحاب الخبيث، فعظم ذلك عليه وعلى أوليائه لما رأوا من رغبة رؤسائهم في الأمان قال: ولما رأى الموفّق مناصحة شبل أمره أن يكفيه بعض الأمور، فسار ليلاً في جمع من الزنج لم يخالطهم غيرهم إلى عسكر الزنج، فأوقع بهم وأسر منهم وقتل وعاد فأحسن إليه الموفّق وإلى أصحابه، وصار الزنج بعد هذه الوقعة لا ينامون الليل ولا يزالون يتحارسون، وأقام الموفّق يُنفذ السرايا إليهم ويكيدهم ويحول بينهم وبين القوت، وأصحابه يتدرّبون في سلوك تلك المضايق التي في أرضه ويوسّعونها.

ذكر استيلاء الموفّق على مدينة صاحب الزنج الشرقية

قال: ولما علم الموفّق أن أصحابه قد تمرّنوا على سلوك تلك الأرض وعرفوها صمّم على العبور إلى محاربة صاحب الزنج من الجانب الشرقي من نهر أبي الخصيب، فجلس مجلسًا عامًا وأحضر قوّاد المستأمنة وفرسانهم فوقفوا بحيث يسمعون كلامه، ثم عرّفهم ما كانوا عليه من الضلالة والجهل وانتهاك المحارم ومعصية الله عزّ وجلّ، وأنّ ذلك قد أحلّ لهم دماءهم، وأنّه غفر لهم زلّتهم وأمّنهم ووصلهم، وأن ذلك يوجب عليهم حقّه وطاعته، وأنّهم لن يرضوا ربّهم وسلطانهم بأكثر من الجدّ في محاربة الخبيث، وأنّهم يخبرون مسالك ذلك العسكر ومضايق مدينته وأولى أن يجتهدوا في الولوج عليه والتوغُل في حصونه حتى يمكنهم الله منه، فإذا فعلوا ذلك فلهم الإحسان والمزيد، ومن قصّر منهم فقد أسقط منزلته، فارتفعت أصواتهم بالدعاء والاعتراف بإحسانه، وبما هم عليه من المناصحة والطاعة وأنهم يبذلون دماءهم في كل ما يقرّبهم منه، وسألوه أن يفردهم بناحية ليظهر من نكايتهم في العدو ما يعرف به إخلاصهم وطاعتهم، فأجابهم إلى ذلك وأثنى عليهم، وكتب في جمع السفن والمعابر

من دجلة والبطيحة[١] ونواحيها ليضيفها إلى عسكره، إذ كان ما عنده يقصر عن الجيش لكثرته، وأحصى ما في الشذا والسميريّات وأنواع السفن، فكانوا زهاء عشرة آلاف ملاَّح ممّن يجري عليه الرزق من بيت المال مشاهرة، سوى سفن أهل العسكر التي تحمل فيها الميرة ويركبها الناس في حوائجهم، وسوى ما لكل قائد من السميريات والحربيّات والزواريق، فلما تكاملت السفن تقدّم إلى ابنه أبي العباس وقوّاده بقصد المدينة الشرقية من جهاتها، فسيّر ابنه إلى ناحية دار المهلبيّ أسفل العسكر، وكان قد شحنها بالرجال والمقاتلة، وأمر جميع أصحابه بقصد دار صاحب الزنج وإحراقها، فإن عجزوا عنها اجتمعوا على دار المهلبيّ، وسار هو في الشذا وهي مائة وخمسون قطعة فيها أنجاد غلمانه، وانتخب من الفرسان والرجّالة عشرة آلاف وأمرهم أن يسيروا على جانبي النهر إذا سار، وأن يقفوا معه إذا وقف، وبكّر يوم الثلاثاء لثمان خلون من ذي القعدة سنة تسع وستين ومائتين، وكانوا قد تقدّموا إليهم يوم الاثنين وواقعوهم، وتقدّمت كلّ طائفة إلى الجهة التي أمرهم بها، فلقيهم الزنج واشتدت الحرب وكثر القتل والجراح في الفريقين، ثم نصر الله عزّ وجلّ أصحاب الموفّق بانهزام الزنج، وقتل منهم خلق كثير وأسر من أنجادهم وشجعانهم خلق كثير فأمر الموفّق بضرب أعناق الأسرى في المعركة، وقصد بجمعه الدار التي يسكنها صاحب الزنج، وكان قد لجأ إليها وجمع أبطال أصحابه للمدافعة عنها فلم يغنوا شيئًا فانهزموا عنها وأسلموها. ودخلها أصحاب الموفّق، وفيها بقايا ما كان سلم من مال صاحب الزنج وولده وأثاثه فنهب ذلك أجمع وأخذوا حرمه وأولاده وكانوا عشرين ما بين صبي وصبيّة، وهر بصاحب الزنج نحو دار المهلبي لا يلوي على أهل ولا مال، وأحرقت داره وأتى الموفّق بأهل صاحب الزنج وولده فسيّرهم إلى بغداد، وكان أصحاب أبي العبّاس قد قصدوا دار المهلبيّ، وقد لجأ إليها خلق كثير من المنهزمين فغلبوهم عليها واشتغلوا بنهبها وأخذوا ما فيها من حرم المسلمين وأولادهم وجعل من ظفر منهم بشيء حمله إلى سفينته، فلما رآهم الزنج كذلك رجعوا إليهم فقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وكان جماعة من غلمان الموفّق قد قصدوا دار صاحب الزنج، فتشاغلوا بحمل الغنائم إلى السفن أيضًا، فأطمع ذلك الزنج فيهم فكشفوهم واتبعوا آثارهم، وثبت جماعة من أبطال الموفّق فردّوا الزنج حتى تراجع الناس إلى مواقفهم، ودامت الحرب إلى العصر فأمر الموفّق غلمانه بصدق الحملة عليهم ففعلوا، فانهزم صاحب

---

(١) البطيحة: بالفتح ثم الكسر: هي أرض واسعة بين واسط والبصرة، وكانت قديمًا قرى متصلة وأرضًا عامرة. . . (معجم البلدان).

الزنج ومن معه وأخذتهم السيوف حتى انتهوا إلى داره أيضًا، فرأى الموفّق أن يصرف أصحابه فردّهم، وقد استنقذوا جمعًا من النساء المأسورات فحملن إلى الموفقيّة، وكان أبو العبّاس قد أرسل في ذلك اليوم قائدًا فأحرق بيادر كانت ذخيرة لصاحب الزنج وكان ذلك مما أضعفه وأضعف أصحابه. قال: ثم وصل إلى الموفّق كتاب لؤلؤ غلام أحمد بن طولون يستأذنه في القدوم عليه، فأمره بذلك وأخّر القتال إلى أن يحضر.

ذكر مقتل صاحب الزنج

قال: ولما ورد كتاب لؤلؤ على الموفّق يستأذنه في الحضور إليه أذن له، وأحبّ أن يؤخر القتال إلى أن يحضر فيشهده، وكان لؤلؤ قد خالف على مولاه أحمد بن طولون، وكان في يده حمص وقنّسرين وحلب وديار مضر من الجزيرة وصار إلى بالس[١] فنهبها، وكاتب الموفّق في المصير إليه واشترط شروطًا فأجابه الموفّق إليها، وكان بالرقة فسار إلى الموفّق فوصل إليه في ثالث شهر المحرّم سنة سبعين ومائتين في جيش عظيم، فأكرمه الموفّق وأنزله وخلع عليه وعلى أصحابه ووصلهم وأحسن إليهم، وأمر لهم بالأرزاق على قدر مراتبهم، وأضعف ما كان لهم.

ثم تقدّم إلى لؤلؤ بالتأهب لحرب الزنج، وكان صاحب الزنج، لمّا غُلب على نهر أبي الخصيب وقُطعت القناطر والجسور التي عليه، أحدث سكرًا[٢] في النهر من جانبيه، وجعل في وسط النهر بابًا ضيّقًا لتحتد جرية الماء فيه فيمتنع الشذا من دخوله في الجزر، ويتعذّر خروجها منه في المدّ، فرأى الموفّق أنّ حربة لا يتهيأ إلا بقلع هذا السكر، وحاول ذلك فاشتدت محاماة الزنج عليه، وجعلوا يزيدون كل يوم فيه، فشرع الموفّق في محاربتهم بفريق بعد فريق من أصحاب لؤلؤ، ليتمرّنوا على قتالهم ويقفوا على المسالك والطرق في مدينتهم، وأمر لؤلؤًا أن يحضر في جماعة من أصحابه للحرب على هذا السكر ففعل، فرأى الموفّق من شجاعتهم وإقدامهم ما سرّه، فأمر لؤلؤًا بصرفهم إشفاقًا عليهم ووصلهم وأحسن إليهم، وألحّ الموفّق على هذا السكر، فكان يحارب والفعلة يعملون في قلعه، واستأمن إليه جماعة، وكان قد بقي لصاحب الزنج وأصحابه أرضين بناحية النهر الغربي، لهم فيها مزارع وحصون وقنطرتان وبه جماعة يحفظونه، فسار إليهم أبو العباس وفرّق أصحابه من جهاتهم، وجعل كمناء،

(١) بالس: بلدة بالشام بين حلب والرقة، كانت على ضفة الفرات الغربية.
(٢) السّكر: ما يسد به النهر ونحوه.

ثم أوقع بهم فانهزموا فما قصدوا جهة إلا خرج عليهم من يقاتلهم فيها، فقُتلوا ولم يسلم منهم إلا الشريد، وأخذوا من أسلحتهم ما أثقلهم حمله، وقطع القنطرتين، ولم يزل الموفّق يقاتلهم على سكرهم حتى تهيّأ له فيه ما أحبّ وحرقه.

فلما فرغ منه عزم على لقاء صاحب الزنج، فأمر بإصلاح السفن والآلات للماء والطين، وتقدّم إلى ابنه أبي العبّاس أن يأتي الزنج من ناحية دار المهلبيّ، وفرّق العساكر من جميع جهاته، وأضاف المستأمنة إلى شِبْل، وأمر الناس ألاّ يزحفوا حتى يحرّك علمًا أسود كان نصبه على دار الكَرَنْبائي، وحتى ينفخ في بوق بعيد الصوت، وكان عبوره يوم الاثنين لثلاث بقين من المحرّم، فعجّل بعض الناس وزحف نحوهم، فلقيه الزنج فقتلوا منهم وردّوهم إلى مواقفهم، ولم يعلم سائر العسكر بذلك لكثرتهم وبُعْد المسافة فيما بين بعضهم وبعض، وأمر الموفّق بتحريك العلم الأسود والنفخ في البوق، فزحف الناس في البر والماء يتلو بعضهم بعضًا، فلقيهم الزنج وقد حشدوا واجترأوا بما تهيّأ لهم، فلقيهم الجيش بنيّات صادقة وبصائر نافذة، واشتد القتال وقتل من الفريقين جمع كثير، فانهزم أصحاب صاحب الزنج وتبعهم أصحاب الموفّق، فقتل منهم ما لا يحصى وغرق منهم مثل ذلك، وحوى الموفّق المدينة بأسرها، فغنم أصحابه ما فيها واستنقذوا من كان بقي من الأسارى من الرجال والنساء والصبيان، وظفروا بجميع عيال علي بن أبان المهلبيّ وبأخويه الخليل ومحمد وأولادهما، فسيّروا إلى الموفقيّة، ومضى صاحب الزنج في أصحابه ومعه ابنه انكلاي وسليمان بن جامع وقوّاد من الزنج وغيرهم هرابًا، عامدين إلى موضع كان قد أعدّه ملجأ إذا غُلب على مدينته، وذلك المكان على النهر المعروف بالسفياني[1]، وكان أصحاب الموفّق قد اشتغلوا بالنهب والإحراق، وتقدّم أصحاب الموفّق في الشذا نحو نهر السفياني، وانتهى الموفّق ومن معه إلى عسكر صاحب الزنج وهم منهزمون، واتبعهم لؤلؤ في أصحابه حتى عبروا النهر فاقتحم لؤلؤ النهر بفرسه واتبعه أصحابه حتى انتهى إلى النهر المعروف بالقريري[2] فوصل إليه لؤلؤ وأصحابه، فأوقعوا به وبمن معه فهزموهم حتى عبروا نهر المساوان ولؤلؤ في أثرهم، فاعتصموا بجبل وراءه، وانفرد لؤلؤ وأصحابه باتباعهم إلى هذا المكان إلى آخر النهار، فأمر الموفّق بالانصراف فعاد مشكورًا محمود الفعل، فحمله الموفّق معه وجدّد له البرّ والكرامة ورفع منزلته، ورجع الموفّق فلم ير أحدًا من أصحابه بمدينة الزنج، وكانوا قد انصرفوا إلى الموفقيّة بما حووا في سفنهم،

---

(١) قد يكون نسبة إلى سفيان وهي قرية من قرى هراة.

(٢) القريري: نسبة إلى قرير، وهو بلد بين نصيبين والرقة.

فرجع الموفّق إلى مدينته واستبشر الناس بالفتح، وغضب الموفّق على أصحابه لمخالفتهم أمره وتركهم الوقوف حيث أمرهم، فجمعهم ووبّخهم على ذلك وأغلظ لهم، فاعتذروا بما ظنّوه من انصرافه، وأنّهم لم يعلموا بمسيره ولو علموا ذلك لأسرعوا نحوه، ثم تعاقدوا وتحالفوا على ألاّ ينصرف منهم أحد إذا توجّهوا نحو صاحب الزنج حتى يظفروا، فإنْ أعياهم أقاموا حتى يحكم الله بينهم وبينه، وسألوا الموفّق أن يردّ السفن التي يعبرون فيها إلى صاحب الزنج، لينقطع الناس عن الرجوع فشكرهم وأثنى عليهم وأمرهم بالتأهّب. وأقام الموفّق بعد ذلك إلى يوم الجمعة يصلح ما يحتاج الناس إليه، وأمر الناس بالمسير إلى حرب الزنج بُكرة السبت، وطاف عليهم بنفسه يعرّف كل قائد مركزه والمكان الذي يقصده.

وغدا الموفّق يوم السبت لليلتين خلتا من صفر سنة سبعين وعبر الناس، وأمر بردّ السفن فردّت، وسار يقدمهم إلى المكان الذي قدّر أن يلقاهم فيه، وكان صاحب الزنج وأصحابه قد رجعوا إلى مدينتهم بعد انصراف الجيش عنهم، وأمّلوا أن تتطاول بهم الأيام وتندفع عنهم المناجزة، فوجد الموفّق المتسرّعين من غلمانه من الفرسان والرجّالة قد سبقوا الجيش، فأوقعوا بصاحب الزنج وأصحابه وهزموهم بها، وتفرّقوا لا يلوي بعضهم على بعض، وتبعهم أصحاب الموفّق يقتلون ويأسرون من لحقوا منهم، فانقطع صاحب الزنج في جماعة من حماة أصحابه منهم المهلبيّ، وفارقه ابنه انكلاي وسليمان بن جامع، فقصد كل فريق منهم جمعًا كثيفًا من الجيش، وكان أبو العبّاس قد تقدّم فلقي المنهزمين في الموضع المعروف بعسكر رَيْحان، فوضع أصحابه فيهم السلاح، ولقيهم طائفة أخرى فأوقعوا بهم وقتلوا منهم جماعة، وأسروا سليمان بن جامع فأتوا به الموفّق من غير عهد ولا عقد، فاستبشر الناس بأسره، وأُسر بعده إبراهيم بن جعفر الهمداني ـ وكان أحد أمراء جيوشه ـ فأمر الموفّق بالاستيثاق منهما، ثم إنّ الزنج الذين انفردوا مع صاحبهم حملوا على الناس حملة أزالوهم عن مواقفهم ففتروا، فجدّ الموفّق في طلبهم وأمعن، فتبعه أصحابه وانتهى إلى آخر نهر أبي الخصيب، فلقيه البشير بقتل صاحب الزنج، وأتاه بشير آخر ومعه كفّ ذكر أنّها كفّه، ثم أتاه غلام من أصحاب لؤلؤ يركض ومعه رأس صاحب الزنج، فعرض الموفّق الرأس على جماعة من المستأمنة فعرفوه، فخرّ لله ساجدًا وسجد معه الناس، وأمر برفع الرأس على قناة فعرفه الناس.

قال: ولما أُحيط بصاحب الزنج كان معه المهلبي وحده، فولّى عنه هاربًا وقصد نهر فألقى نفسه فيه، وكان انكلاي قد سار نحو الديناريّ ورجع الموفّق والرأس بين

يديه وسليمان بن جامع، فأتى مدينته وأتاه من الزنج عالم عظيم يطلبون الأمان فأمنهم، وانتهى إليه خبر انكلاي والمهلبيّ ومكانهما ومن معهما من مقدّمي الزنج، فبثّ أصحابه في طلبهم وأمرهم بالتضييق عليهم، فلما أيقنوا ألاّ ملجأ أعطوا بأيديهم فظفر بهم وبمن معهم وكانوا زهاء خمسة آلاف، فأمر بالاستيثاق من المهلبيّ وانكلاي، وكان ممّن هرب قرطاس الروميّ الذي رمى الموفّق بالسهم في صدره، فانتهى إلى رَامَهُرْمُز فعرفه رجل فدلّ عليه عامل البلد، فأخذه وسيّره إلى الموفّق فقتله ابنه أبو العبّاس، ثم استأمن دَرْمويَه الزنجي إلى أبي أحمد الموفّق، وكان درمويه هذا من أنجاد الزنج وأبطالهم، وكان صاحب الزنج قد وجّهه قبل هلاكه بمدّة إلى موضع كثير الأدغال والشجر والآجام متصل بالبطيحة، وكان هو ومن معه يقطعون الطريق هناك على السابلة في زواريق خفاف، فإذا طلبوا دخلوا الأنهار الضيّقة واعتصموا بالأدغال، وإذا تعذّر عليهم مسلك لضيقه حملوا سفنهم ولجأوا إلى الأمكنة الوسيعة، ويغيرون على قرى البطيحة ويقطعون الطريق، فظفروا بجماعة من عسكر الموفّق معهم نساء قد عادوا إلى منازلهم، فقتلوا الرجال وأخذوا النساء، فسألهنّ دَرْمويه عن الخبر فأخبرنه بقتل صاحب الزنج وأسر أصحابه وقوّاده، وأن كثيرًا منهم قد صار إلى الموفّق بالأمان فأحسن إليهم، فسقط في يده ولم يرَ لنفسه ملجأ إلا طلب الأمان والصفح عن جرمه، فأرسل إلى أبي أحمد الموفّق يطلب الأمان فأجابه إلى ذلك وأمّنه، فخرج هو ومن معه حتى وافى عسكر الموفّق فأحسن إليهم وأمّنهم، فلما اطمأن درمويه أظهر ما كان في يده من الأموال والأمتعة، وردّها إلى أربابها ردًا ظاهرًا فعلم بذلك حسن نيّته فزاد الموفّق في الإحسان إليه، وأمر أن يكتب إلى أمصار المسلمين بالنداء في أهل النواحي التي دخلها الزنج بالرجوع إلى أوطانهم، فسارع الناس إلى ذلك.

وأقام الموفّق بالمدينة الموفقيّة ليأمن الناس بمقامه، وولّى البصرة والأبلّة وكور دجلة رجلًا من قواده قد حمد مذهبه وعلم حسن سيرته يقال له العبّاس بن تَرْكس، وأمره بالمقام بالبصرة، وولى قضاء البصرة والأبلّة وكور دجلة محمد بن حمّاد، وقدم ابنه أبا العباس إلى بغداد ومعه رأس صاحب الزنج ليراه الناس، فبلغها لاثنتي عشرة ليلة بقيت من جُمادى الأولى من هذه السنة.

قال: وكان خروج صاحب الزنج يوم الأربعاء لأربع بقين من شهر رمضان سنة خمس وخمسين ومائتين، وقتل يوم السبت لليلتين خلتا من صفر سنة سبعين ومائتين، فكانت أيّامه أربع عشرة سنة وأربعة أشهر وستة أيّام.

انقضت أخبار صاحب الزنج فلنذكر أخبار القرامطة.

ذكر أخبار القرامطة وابتداء أمرهم وما كان من أخبارهم وما استولوا عليه من البلاد وغير ذلك من أخبارهم

والقرامطة منسوبون إلى قِرْمِط، وقد اختلف فيه: فمن الناس من يقول إنه حمدان بن الأشعث، وأنّه إنما سمّي قرمطًا لأنّه كان رجلاً قصيرًا قصير الرجلين متقارب الخطو فسمّي بذلك، وقيل قُرْمط: ثور كان لحمدان بن الأشعث هذا، وأنّه كان يحمل غَلات السواد على أثوار له بسواد الكوفة، والله تعالى أعلم.

قال ابن الأثير في تاريخه الكامل في حوادث سنة ثمان وسبعين ومائتين:

وفيها تحرّك بسواد الكوفة قوم يعرفون بالقرامطة، وكان ابتداء أمرهم: أن رجلاً يقال له حمدان يظهر الدين والزهد والتقشف، ويأكل من كسبه، وأقام على ذلك مدة، فكان إذا جالسه رجل ذاكره الدين وزهده في الدنيا، وأعلمه أن الصلاة المفروضة على الناس خمسون صلاة في كل يوم، حتى فشا ذلك بموضعه، ثم أعلمهم أنه يدعو إلى إمام من أهل بيت رسول الله ﷺ، فاستجاب له جمع كثير وكان يقعد إلى بقّال هناك، فجاء رجل إلى البقّال يطلب منه من يحفظ له ما صرم[1] من نخله، فدلّه عليه وقال لعلّه يجيب، فكلّموه في ذلك فاتفق معهم على أجرة معلومة، فكان يحفظ له ويصلّي أكثر نهاره، ويصوم ويأخذ عند إفطاره من البقّال رطل تمر، يفطر عليه ويجمع نواه ويعطيه للبقّال، فلما حمل التجار تمرهم جلسوا عند البقّال وحاسبوه وأعطوه أجرته، وحاسب هو البقّال على ما أخذ من التمر وحطّ ثمن النوى فضربوه، وقالوا: ألم يكفك أن تأكل تمرنا حتى تبيع نواه؟! فأوقفهم البقّال على الخبر فاعتذروا واستحلوا منه، وازداد بذلك عند أهل القرية، ودعا أهل تلك الناحية إلى مذهبه فأجابوه، وكان يأخذ من الرجل إذا أجابه دينارًا واحدًا، ويزعم أنّه للإمام، واتخذ منهم اثني عشر نقيبًا أمرهم أن يدعو الناس إلى مذهبه وقال: أنتم كحواري عيسى ابن مريم، فاشتغل أهل تلك الناحية عن أعمالهم، وكان للهَيْصَم في تلك الناحية ضياع، فرأى تقصير الأكارة[2] في عمارتها، فسأل عن ذلك فقيل له خبر الرجل فحبسه، وحلف ليقتلنّه لما اطّلع على مذهبه، وأغلق عليه الباب ليقتله في غد، وجعل المفتاح تحت رأسه، فسمع بعض جواريه خبره فرقّت له، فسرقت المفتاح وأخرجته وأعادت المفتاح إلى موضعه، فلما أصبح الهَيْصَم فتح الباب ليقتله فلم يجده، فشاع ذلك في الناس فافتتنوا

---

(١) يقال: صرم النخل: إذا جزّه.

(٢) الأكارة: الحرّاث والزرّاع.

به وقالوا رفع، ثم ظهر في ناحية أخرى، ولقي جماعة من أصحابه فسألوه عن قصّته فقال: لا يمكن أن ينالني أحد بسوء، فعظم في أعينهم ثم خاف على نفسه فخرج إلى ناحية الشام، فلم يوقف له على خبر، هذا ما حكاه عز الدين بن الأثير الجزري في تاريخه الكامل.

وحكى الشريف أبو الحسين محمد بن علي بن الحسين بن أحمد بن إسماعيل بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ـ وهو المعروف بأخي مُحْسِن ـ في كتاب ألّفه ذكر فيه عبيد الله الملقب بالمهدي، الذي استولى على بلاد المغرب واستولى بنوه من بعده على الديار المصرية والشام وغير ذلك، وذكر الشريف أصل عبيد الله هذا ونفاه عن النسب إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، واستدلّ على ذلك بأدلة يطول شرحها أجاد في تبيانها، وقال في أثناء ما حكاه أنّه لما صار الأمر إلى أحمد بن عبد الله بن ميمون بن ديصان بعد أبيه ـ وأحمد هذا هو جد عبيد الله الملقّب بالمهدي ـ بعث ـ وهو بسَلْمِيَة[1] ـ الحسين الأهوازي داعية إلى العراق، فلقي حمدان بن الأشعث قُرْمُطا بسواد الكوفة ومعه ثور ينقل عليه، فقال له الحسين الأهوازي: كيف الطريق إلى قس بهرام؟ فعرّفه حمدان أنّه قاصد إليه، وسأله الأهوازي عن قرية تعرف ببَانُبورَا[2] من قرى السواد، فذكر أنّها قريبة من قريته وكان حمدان هذا من قرية تعرف بالدُّور على نهر هد من رستاق مَهْرُوسَا من طَسُّوج فرات بادقلي، قال: فتماشيا ساعة، فقال له حمدان: إنّي أراك جئت من سفر بعيد، وأنت معي فاركب ثوري هذا، فقال له الحسين: لم أومر بذلك، فقال له حمدان: كأنّك تعمل بأمْر أمر لك؟ قال: نعم، قال: ومن يأمرك وينهاك؟ قال: مالكي ومالكك ومن له الدنيا والآخرة، قال: فبهت حمدان قرمط مفكرًا، وأقبل ينظر إليه ثم قال له: يا هذا ما يملك ما ذكرتَه إلا الله تعالى! قال: صدقت، والله يهب ملكه لمن يشاء، قال له حمدان: فما تريد في القرية التي سألتني عنها؟ قال: دفع إليّ جراب[3] فيه علم سِرّ من أسرار الله تعالى، وأمرتُ، أن أشفي هذه القرية وأُغني أهلها وأستنقذهم وأملّكهم أملاك أصحابهم.

---

(١) سلمية: بفتح أوله وثانيه، وسكون الميم، وياء: هي بليدة في ناحية البرية من أعمال حماة بينهما مسيرة يومين، وكانت تعد من أعمال حمص... (معجم البلدان).

(٢) بانبورا: بالراء: ناحية بالحيرة من أرض العراق.

(٣) الجراب: وعاء يحفظ فيه الزاد ونحوه.

وابتدأ يدعوه فقال له حمدان: يا هذا نشدتك الله إلا دفعت إليّ من هذا العلم الذي معك وأنقذتني ينقذك الله!! قال له: لا يجوز ذلك أو آخذ عليك عهدًا وميثاقًا أخذه الله تعالى على النبيّين والمرسلين وأُلقي عليك ما ينفعك، قال: فما زال حمدان يضرع إليه حتى جلسا في بعض الطريق وأخذ عليه العهد، ثم قال له: ما اسمك؟ قال: قرمط، ثم قال له قرمط: قم معي إلى منزلي حتى تجلس فيه، فإنّ لي إخوانًا أصير بهم إليك لتأخذ عليهم العهد للمهدي، فصار معه إلى منزله، فأخذ على الناس العهد هناك، وأقام في منزل حمدان وأعجبه أمره وعظَمه وكرّمه، وكان على غاية ما يكون من الخشوع، صائمًا نهاره قائمًا ليله، وكان المغبوط من أخذه إلى منزله ليلة، وكان ربما خاط لهم الثياب وتكسّب بذلك، وكانوا يتبرّكون به وبخياطته. قال: وأدرك التمر فاحتاج أبو عبد الله محمد بن عمر بن شهاب العَدَوي إلى عمل تمره، وكان من وجوه أهل الكوفة ومن أهل العلم والفضل والتوحيد، فوصف له هذا الرجل فنصبه لحفظ تمره والقيام في حظيرته، فأحسن حفظها واحتاط في أداء الأمانة، وظهر منه من التشديد في ذلك ما خرج به عن أحوال الناس في تساهلهم في كثير من الأمور، وذلك في سنة أربع وستين ومائتين، فاستحكمت ثقة الناس به، وثقته بحمدان قرمط وسكونه إليه، فأظهر له أمره وكشف له الغطاء.

قال: وكلّ ما كان هذا الداعية يفعله من الثقة والأمانة وإظهار الخشوع والنسك إنما كان حيلة ومكرًا وخديعة وغشًا، قال: فلما حضرت هذا الطاغية الوفاة جعل مقامه حمدان بن الأشعث قرمطا، فأخذ على أكثر أهل السواد وكان ذكيًا خبيثًا، قال: وكان ممّن أجابه من أصحابه الذين صار لهم ذكر ذَكْرُويَه بن مِهَرُويَه السلماني وجُلَنْدَى الرازي، وعِكْرَمة البَابِلي، وإسحاق السُّورَاني، وعُطَيْف النِّيلي وغيرهم، وبث دعاته في السواد يأخذون على الناس، وكان أكبر دعاته عَبْدَان متزوجًا أخت قرمط أو قرمط متزوجًا أخته، وكان عَبْدَان رجلاً ذكيًا خفيفًا فطنًا خبيثًا، خارجًا عن طبقة نظرائه من أهل السواد ذا فهم وخبث، فكان يعمل عند نفسه على حدّ قد نصب له، ولا يرى أنّه يجاوزه إلى غيره من خلع الإسلام، ولا يظهر غير التشيّع والعلم ويدعو إلى الإمام من آل رسول الله ﷺ، محمد بن إسماعيل بن جعفر، وكان أحد مَنْ تبع عبدان زكرويه بن مهرويه، وكان زكرويه شابًا فيه ذكاء وفطنة، وكان من قرية بسواد الكوفة يقال لها المنسانيّة تلاصق قرية الصَوَّان، وهاتان القريتان على نهر هد، نصبه عبدان على إقليم نهر هد وطسّوج السالحين وإقليم نهر يوسف داعية، ومن قبله جماعة دعاة متفرقون في عمله، يدور كل واحد منهم في عمله في كل شهر مرّة، وكلّ ذلك بسواد الكوفة،

ودخل في دعوته من العرب من بني ضُبَيعة بن عجل ـ وهم من ربيعة ـ رجلان، أحدهما يعرف برباح والآخر يعرف بعلي بن يعقوب القمر، فأنفذهما دعاة إلى العرب في أعمال الكوفة وسُورا[١] وبَرْبِسْما[٢] وبابل، ودخل في دعوته من العرب أيضًا رفاعة من بني يشكر، ثمّ من بكر بن وائل رجل يعرف بسند وآخر يعرف بهارون، فجعلهما دعاة نخيلة وما والاها في العرب خاصة إلى حدود واسط، فمال إليه هذان البطنان ودخلا في دعوته فلم يكد يختلف رفاعي ولا ضبعي، ولم يبق من البطون المتصلة بسواد الكوفة بطن إلا دخل في الدعوة منه ناس كثير أو قليل، من بني عَايش[٣] وذُهل[٤] وغيره وبني عنز[٥] وتيم الله وثُعَل وغيرهم، وفيهم نفر يسير من بني شيبان، فقوي قرمط بهم وزاد طمعه فأخذ في جمع أموالهم.

ذكر ما فرضه قرمط على من دخل في دعوته واستجاب له وكيف نقلهم في استئصال أموالهم من اليسير إلى الكثير حتى استقام له أمرهم

كان أول ما ابتدأ به أن فرض عليهم وامتحنهم بتأدية درهم واحد، وسمّى ذلك الفِطْرَة من كل رأس من الرجال والنساء والصبيان فسارعوا إلى ذلك، فتركهم مُدَيْدَة ثم فرض عليهم الهجْرة، وهو دينار على كل رأس أدرك الحِنْث[٦]، وتلا عليهم قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١٠٣﴾ [التوبة: ١٠٣]، وقال: هذا تأويل هذا، فدافعوا ذلك مبادرين به إليه، وتعاونوا عليه فمن كان فقيرًا أسعفوه، فتركهم مديدة ثم فرض عليهم البُلْغَة: وهي سبعة دنانير، وزعم أنّ ذلك هو البرهان بقوله تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن

---

(١) سورا: هي مدينة السريانيين، وهي قريبة من الوقف والحلة المزيدية.

(٢) بربسما: بكسر الباء الثانية، وسكون السين المهملة: طسوج من كورة الإستان الأوسط من غربي سواد بغداد.

(٣) هم بنو عايش بن مالك، منهم عبيد الله بن ظبان الفاتك... (الاشتقاق لابن دريد).

(٤) بنو ذهل: بطن من بكر بن وائل.. وبنو ذهل: بطن من طانجة من العدنانية.. وبنو ذهل: بطن من طيىء، من القحطانية... (نهاية الأرب للقلقشندي).

(٥) بنو عنز: بطن من الخزرج، من الأزد، من القحطانية، وهم: بنو عنز بن سالم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج... (نهاية الأرب للقلقشندي).

(٦) الحنث: الذنب؛ أو الشرك.

كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١]، وزعم أنّ ذلك بلاغ من يريد الإيمان والدخول في السابقين السابقين ﴿أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾﴾ [الواقعة: ١١]، وصنع لهم طعامًا طيبًا حلوًا لذيذًا وجعله على قدر البنادق، يطعم كلّ من أدّى إليه سبعة دنانير واحدة منها، وزعم أنّه طعام أهل الجنّة نزل إلى الإمام، واتخذ ذلك كالخواتيم ينقل إلى الداعي منها مائة بُلغة ويطالبه بسبعمائة دينار، فلما توطأ له هذا الأمر فرض عليهم أخماس ما يملكون وما يتكسبون، وتلا عليهم قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ . . .﴾ [الأنفال: ٤١] الآية، فقوّموا جميع ما يملكونه من ثوب وغيره وأدّوا خمسه إليه، حتى كانت المرأة تخرج خُمس ما تغزل، والرجل خُمس ما يكسب، فلما تمّ ذلك له واستقرّ فرض عليهم الأُلفة، وهو أن يجمعوا أموالهم في موضع واحد وأن يكونوا في ذلك أسوة واحدة، لا يفضل أحد منهم صاحبه وأخاه في ملك يملكه، وتلا عليهم قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وتلا عليهم قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٣]، وعرّفهم أنّه لا حاجة بهم إلى أموال تكون معهم، لأنّ الأرض بأسرها ستكون لهم دون غيرهم، وقال لهم: هذه محنتكم التي امتحنتم بها ليعلم كيف تعملون، وطالبهم بشراء السلاح وإعداده، وذلك كلّه في سنة ست وسبعين ومائتين.

وأقام الدعاة في كل قرية رجلًا مختارًا من ثقاتها، يُجمع عنده أموال أهل قريته من بقر وغنم وحلي ومتاع وغيره، فكان يكسو عاريهم وينفق عليهم ما يكفيهم، ولا يبقى فقيرًا بينهم ولا محتاجًا ضعيفًا، وأخذ كل رجل منهم بالانكماش في صناعته والتكسب بجهده، ليكون له الفضل في رتبته، وكانت المرأة تجمع إليه كسبها من مغزلها، والصبي أجر نطارته الطير، فلم يملك أحد منهم إلا سيفه وسلاحه، فلما استقام له ذلك كلّه وصبوا[1] إليه وعملوا به، أمر الدعاة أن يجمعوا النساء ليلة معروفة ويختلطن بالرجال، وقال: إنّ ذلك من صحة الودّ والأُلفة بينهم فربما بذل الرجل لأخيه امرأته متى أحبّ فلما تمكّن من أمورهم ووثق بطاعتهم وتبيّن مقدار عقولهم أخذ في تدريجهم إلى الضلالة، وأتاهم بحجج من مذهب الثنويّة فسلكوا معه في ذلك، حتى خلعهم من الشريعة ونقض عليهم ما كان يأمرهم به في مبدأ أمرهم من

(١) وصب على الأمر: واظب عليه.

الخشوع والورع والتقى، وأباح لهم الأموال والفروج والغنى عن الصوم والصلاة والفرائض، وأنّ ذلك كلّه موضوع عنهم وأن أموال المخالفين ودماءهم حلال لهم، وأنّ معرفة صاحب الحق الذي يدعو إليه يغني عن كل شيء، ولا يُخاف معه إثم ولا عذاب.

ذكر دعوة القرامطة وعهدهم الذي كانوا يأخذونه على من يغرونه، ويستميلونه إلى مذهبهم، وكيف ينقلونه من مرتبة إلى أخرى، حتى ينسلخ من الدين ويخلع ربقة الإسلام من عنقه

قال الشريف أبو الحسين محمد بن علي: أول الدعوة بعد عمل الداعي بالرزق وقوة إجابة المدعو من سائر الأُمم أن يُسلك به في السؤال عن المشكلات، مسلك الملحدين والشكاك، ويكثر السؤال عن تأويل الآيات ومعاني الأمور الشرعيات، وشيء من الطبائع ووجوه القول في الأمور التي تكثر فيها الشُّبَه، ولا يصل إليها إلا العالم المبرّز ومن جرى مجراه، فإن اتّفق له مجيب عارف ممارس جدل سلّم إليه الدّاعي وعظّمه وكرّمه وحشمه وصوّب قوله، وداخله بما يحب من علم شريعته التي يومي إليها، وكل ذلك ليقطع كلامه لئلا يتبيّن ما هو عليه من الحيلة والمكر، وما يدخل به على الناس من أمر الدعوة، وإن اتّفق مغرور مغفَل غليظ الحواسّ ألقى إليه ما يشغل به قلبه، مثل قوله: إن الدين لمكتوم وإنّ الأكثر له لمنكرون وبه جاهلون، ولو علمت هذه الأمّة ما خصّ الله به الأئمة من العلم لم تختلف، ويوهم من سمع كلامه أنّ عنده علومًا خفيّة لم تصل إليهم، فتطلع نفس المستمع إلى معرفة بيان ما قال، وربما وصل أمره مع من يجالسه ـ واحدًا كان أو جماعة ـ بشيء من معاني القرآن، وذكر شرائع الدين وتأويل الآيات وتنزيلها وكلام لا يشك المسلم العارف في حقيقته، ويوهم المستمعين منه أنّه قد ظفر بعلم، لو صادف له مستمعًا لكان ناجيًا منتفعًا، وقرّر عندهم أنّ الآفة التي نزلت بالأمة وحيّرت في الديانة وشتّتت الكلمة وأورثت الأهواء المضلّة ذهاب الناس عن أئمة نصبوا لهم، وأقيموا حافظين لشرائعهم يؤدونها على حقائقها، ويحفظون عليهم معانيها وبواطنها، وأنّهم لما عدلوا عنهم ونظروا من تلقاء عقولهم، واتباعهم لِمَا حَسُن في رأيهم وسمعوه من أسلافهم وغلاتهم ـ اتباع الملوك في طلب الدنيا ـ وحاملي الغنى ومسمعي الإثم وأجناد الظلمة وأعوان الفسقة الطالبين العاجلة، والمجتهدين في الرياسة على الضعفاء، ومنَ يكايد

رسول الله ﷺ في أمته وغيّر كتابه وبدّل سنّته، وقتل عِترته[١] وخالف دعوته وأفسد شريعته وسلك بالناس غير طريقته، وعاند الخلفاء من بعده، وخلط بين حقّه وباطل غيره فتحيّر وحيّر من قَبِل منه، وصار الناس إلى أنواع الضلالات به وبأتباعه، وقالوا لهم حينئذ ـ كالنصحاء الحكماء ـ: إنّ دين محمد لم يأت بالتحلّي ولا بالتمرّي، ولا بأمانيّ الرجال ولا شهوات الخلق، ولا بما خفّ على الألسنة وعرفته دهماء العامّة، وإنما الدين صعب مستصعب، أمر مستثقل وعلم خفي غامض، سيّره الله في حجبه وعظّم شأنه عن ابتذال الأشرار له، فهو سرّ الله عزّ وجلّ المكتوم وأمره المستور، الذي لا يطيق حمله ولا ينهض بأعبائه وثقله إلا مَلَكٌ مقرّب أو نبيٌّ مرسل، أو عبد مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان، في أمثال هذا الكلام، ويموّه على من لا يعلم بأنّهم لو أظهروا ما عندهم من العلم لأنكره من يسمعه، وتعجّب منه وكفّر أهله، وهذه مقدّمة يجعلونها في نفوس المخدوعين، ليواطئوهم على ألاّ ينكروا ما يسمعونه منهم ولا يدفعوه، فيجعلوا ذلك تأنيسًا وتأسيسًا لينخلع من الشرائع وترتيب أصولها والحرص على طلبها، وربما قالوا لهم شيئًا يموّهون به أن له تفسيرًا، وإنما هو تقليد في الديانة.

فمن مسائلهم: ما معنى رمي الجمار[٢]؟ والعدو بين الصفا والمروة؟ ولِمَ قضت الحائض الصيام ولم تقضِ الصلاة؟ وما بال الجنُب يغتسل من ماء دافق لشيء طاهر منه البشر، ولا يغتسل من البول النجس الكثير القذر، وما بال الله تعالى خلق الدنيا في ستة[٣] أيام؟ أعجز عن خلقها في ساعة واحدة؟ وما معنى الصراط المضروب في القرآن مثلاً؟ والكاتبين الحافظين[٤]؟ وما لنا لا نراهما؟ أيخاف ربنا أن نكابره ونجاحده فأذكى[٥] العيون وأقام علينا الشهود؟ وقيّد ذلك بالقرطاس والكتابة؟! وما تبديل الأرض غير الأرض[٦]؟ وما عذاب جهنّم؟ وكيف يصحّ تبديل جلدِ مذنب بجلد لم يذنب يعذب[٧]؟! وما معنى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾[٨]؟ وما إبليس؟ وما

(١) العترة: نسل الرجل ورهطه وعشيرته.
(٢) الجمار: جمع الجمرة، وهي الحصاة الصغيرة التي يرمى بها في منى.
(٣) هنا إشارة إلى سورة السجدة آية ٤.
(٤) إشارة إلى الآية ١٠ و١١ من سورة الانفطار.
(٥) أذكى العيون: أرسل الطلائع.
(٦) إشارة إلى الآية ٤٨ من سورة إبراهيم. (٧) إشارة إلى الآية ٥٦ من سورة النساء.
(٨) إشارة إلى الآية ١٧ من سورة الحاقة.

ذكرته الشياطين؟ وما وُصفوا به، ومقدار قدرهم؟ وما يأجوج ومأجوج؟ وهاروت وماروت؟ وما سبعة أبواب النار؟ وما ثمانية أبواب الجنّة؟ وما شجرة الزقّوم النابتة في الجحيم؟ وما دابّة الأرض؟ ورؤوس الشياطين؟ والشجرة الملعونة في القرآن؟ والتين والزيتون؟ وما الخُنّس؟ وما الكُنّس؟ وما معنى الم، والمص؟ وما معنى كهيعص؟ وما معنى حم عسق؟ وأمثال هذا من الكلام، ولمَ جعلت السماوات سبعًا والأرضون سبعًا؟ والمثاني من القرآن سبع آيات؟ ولم فجّرت العيون اثنتي عشرة عينًا؟ ولمَ جعلت الشهور اثني عشر شهرًا؟ وأمثال هذا من الكلام والأمور، ممّا يوهمون أنّ فيه معاني غامضة وعلومًا جليلة.

وقالوا للمغرورين: ما يعمل معكم الكتاب والسنّة ومعاني الفرائض اللازمة؟ وأين أرواحكم؟ وكيف صورها؟ وأين مستقرّها؟ وما أوّل أمرها؟ والإنسان ما هو؟ وما حقيقته؟ وما فرق بين حياته وحياة البهائم؟ وفرق ما بين حياة البهائم وحياة الحشرات؟ وما بانت به حياة الحشرات من حياة النبات؟ وما معنى قول رسول الله ﷺ: «خُلقت حوّاء من ضلع آدم»؟ وما معنى قول الفلاسفة: الإنسان هو العالم الصغير؟ ولمَ جعلت قامة الإنسان منتصبة دون الحيوان؟ ولمَ جعل في أربع أصابع من يديه ثلاثة شقوق وفي الإبهام شقّان؟ ولمَ جعل في وجهه سبعة ثقب وفي سائر بدنه ثقبان؟ ولمَ جعل في ظهره اثنتا عشرة عقدة وفي عنقه سبع؟ ولمَ جعل رأسه في صورة ميم ويداه حاءً وبطنه ميمًا ورجلاه دالاً حتى صار لذلك كتابًا مرسومًا يترجم عن محمد؟ ولمَ جُعلت أعداد عظامكم كذا وأعداد أسنانكم كذا؟ ولمَ صارت الرؤساء من أعضائكم بكذا وكذا، وسألوا عن التشريح والقول في العروق وفي الأعضاء ووجوه منافع الأعضاء، ويقولون لهم: ألا تفكّرون في حالكم وتعتبرون؟ وتعلمون أنّ الذي خلقكم حكيم غير مجازف، وأنّه فعل جميع ذلك بحكمة، وله في ذلك أغراض باطنة خفيّة، حتى جمع ما جمعه وفرّق ما فرّقه، وكيف الإعراض عن هذه الأمور، وأنتم تسمعون قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات: ٢١] وقوله: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [الذاريات: ٢٠] ويقول: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [إبراهيم: ٢٥] ويقول: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّۗ﴾ [فصلت: ٥٣] فأي شيء رآه الكفّار في أنفسهم وفي الآفاق فعرفوا أنّه الحق؟ وأي حق عرفه من جحد الديانة؟ أولا يدلّكم هذا على أنّ الله عزّ وجلّ أراد أن يدلّكم على بَواطن الأُمور الخفيّة وأمور في باطنه، ولو عرفتموه لزالت عنكم كل حيرة وشبهة، ووقعت لكم المعارف السنيّة، أو لا ترون أنّكم جهلتم

أنفسكم؟ التي من جهلها كان حريًا بأن لا يعلم غيرها، أوَليس الله تعالى يقول: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ۝٧٢﴾ [الإسراء: ٧٢]، وأمثال هذه الأمور مما يسألون عنه ويعرضون به من تأويل القرآن وتفسير ألفاظ كثيرة من ألفاظ السنن والأحكام، والجواب مَعَانٍ يفسّر بها وضع الشرائع السمعيات فيما رفع منها وما نصب، وكثير من أبواب التعديل والتجويز مما يأتي في المقالة الثانية إن شاء الله تعالى، فإن أوجب ذلك للمسؤول عنه شكًا وحيرة واضطرابًا وتعلّقت نفسه بالجواب عنه، وتشوّق إلى معرفته فسألهم عنه عاملوه بمثل ما يفعل به صاحب الفأل والزرّاق والقصّاص على العوامّ عند امتلاء صدورهم بما يفخرون به أولاً عندهم من أحوال قد عرفوها من أحوالهم، فهم إلى معرفتها أكثر الحاجة وعلقوا بمعرفتها أنفسهم، وعند بلوغ القصاص إلى ما يبلغون إليه يقطعون الحديث، لتعلّق قلوب المستمعين بما يكون بعده، وهذه صفة الدعاة وحالهم، يقدمون على الكلام والمسائل ثم يقطعون فتتعلق أنفس المغرورين، بما قد تأخّر من القول الذي قدّموا له مقدّمة، فإذا خاطبهم على علم معرفته تأويل البيان قالوا له: لا تعجل، فإنّ دين الله أجلّ وأكبر من أن يبذل لغير أهله، ويجعل عرضًا للّعب وما جانسه، ويقولون: قد جرت سنّة الله جلّ وعزّ في عباده عند شرع من نصبه من النبيّين أخذ الميثاق، كما قال تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ۝٧﴾ [الأحزاب: ٧] وقال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا ۝٢٣﴾ [الأحزاب: ٢٣] وقال جلّ ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ [المائدة: ١] وقال: ﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ۝٩١ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا﴾ [النحل: ٩١، ٩٢] وقال تعالى: ﴿لَقَدۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ...﴾ [المائدة: ٧٠] في أمثال هذا خبّر الله عزّ وجلّ فيه أنّه لم يملك حقّه إلا لمن أخذ عهده، فأعطنا صفقة يمينك بالتوكيد من أيمانك وعقودك، ألا تفشي لنا سرًا ولا تظاهر علينا أحدًا ولا تطلب لنا غيلة[1]، ولا تكلمنا إلا نصحًا ولا توالِ علينا عدوًا، في أمثال لهذا، وإنّما غرضهم في ذلك كلّه أمور: منهم أن يستدلّوا به بظاهر ما يعطيهم المخدوع من انقياده وطاعته، على باطن أمره من شكّه واضطرابه، وكيف موقع ذلك منه، ومنها التوثّق بالأمن من كشف أحوالهم وانتشار أمورهم، إلا بعد توطئه ما يريدونه حالاً فحالاً، ومنها أن يرسموه بالذل والطاعة لم والرضى منه بأن

(١) الغيلة: الاسم من الاغتيال.

يكون منقادًا، تابعًا لهم ومكبرًا، وإلا فإنَّ نكث الأيمان وقلة الاكتراث بها والفكر فيها والاعتداد بها، هو دينهم عند البلوغ إلى غايتهم التي يجرون إليها، وإنما يجعلون ذلك مانعًا لأهل هذه الطبقات، ما داموا مستشعرين للعمل بالديانات، فإن سمح المدعو بإعطاء عهده وتصاغر لهم بقوة اضطراب قلبه وشكّه قالوا له حينئذ: أعطنا جُعْلاً من مالك، وغرمًا نجعله مقدّمة أمام كشفنا لك الأمور وتعريفك إياها، وكان ذلك مما يستظهرون به عليه بالاستدلال به أيضًا على قوّة شكّه وتعلّق نفسه، وظهريًا لهم على الاستعانة على أمرهم وتمكينهم لدعوتهم، ثم رسموا في مبلغ ذلك رسمًا بحسب ما يراه الداعي في أمره صلاحًا، وإن امتنع عليهم المخدوع في رتبة العهد وإعطائه الداعي، أو في رتبة العزم وعطيّته أمسكوا عنه وزادوه أبدًا في شكّه وحيرته.

فهذا حال الدعوة الأولى ووصفها وما تدرّج به الدعاةُ المخدوعين.

ذكر صفة الدعوة الثانية

قال الشريف رحمه الله: فإذا قبل المخدوع الرتبة الأولى وحصل عليها اعتقد تهمة الأُمّة، فيما نقلته عمّن كان قبلها من علماء المسلمين، وقوى شكّه في ذلك ثم تقرّر في نفسه أن الله تعالى لم يرض في إقامة حقه وما شرعه لعباده إلا بأخذ ذلك عن أئمة نصبهم لهم وأقامهم لحفظ شرائعه على مراده، وسلكوا به في تقرير هذه الأمور عنده والدلالة على صواب قولهم، وجعلوا على قولهم وبرهانهم طريقًا يسلكون به مسلك أصحاب الإمامة، في تعاطي إتيانها من جهة السمع والعقل حتى يتأثر، ذلك عند مَنْ يأخذون عليه، ويقرّره في نفسه فيكون ذلك منزلة ثانية، ودعوة مرتَبة بعد الدعوة الأولى التي قدّمنا ذكرها.

ثم ينقلوه إلى الدعوة الثالثة.

ذكر صفة الدعوة الثالثة

قال: وأما الدعوة الثالث فهي أن يُقرّر الداعي عند المخدوع أنّ الذي ينبغي أن يعتقده في عدد الأئمة أنّهم سبعة، عظموا في أنفسهم وأعدادهم، ورُتّبوا سبعة كما رتبت جلائل الأمور، وأصول الترتيب كالنجوم السيّارة والسماوات والأرضين، ثم يُعدّد له ما في ذلك جارٍ على هذا العدد، ممّا سنذكره في المقامة الرابعة ونبيّنه ونذكر مذهبهم فيه إن شاء الله تعالى.

قال: ثم يقرّر عند المخدوعين أمر الأئمة وعددهم، فيقول: أوّل هؤلاء الأئمة علي بن أبي طالب ثم الحسن ثم الحسين ابناه، ثم علي بن الحسين زين العابدين، ثم محمد بن علي الجليل الرضي، ثم أبو عبد الله جعفر بن محمد الصادق، ثم السابع وهو عندهم القائم وصاحب الزمان الآخر. وقد كان منهم من يجعل القائم محمد بن إسماعيل بن جعفر، ولا يبتدىء بإسماعيل بن جعفر قبله، ومنهم من يجعل إسماعيل ثم القائم محمد بن إسماعيل، فمن فعل هذا خرج من أعداد السبعة، فإذا قرّر الداعي عند المخدوع: أن الأئمة سبعة، أسقط ستة لم يجعل لهم إمامة وهم: موسى بن جعفر، وعلي بن موسى، ومحمد بن علي، وعلي بن أحمد والحسن بن علي، ومحمد المنتظر، فإذا قبل منه المغرور ما يلقي إليه من هذا القول استقر عقله، وأخذ في صرفه عن طريق الإمامة، ويقع في أبي الحسن موسى بن جعفر ويثلبه[1] بما ليس فيه، ثم يقول له: إن الإماميّة الذين يقولون باثني عشر إمامًا ليس لهم حقيقة بما يعتقدونه يريد بهذا أن يسهّل عليه طريق المخالفة لأهل الإمامة، كما سهّل عليه التهمة لما عليه سائر الأُمة من الاعتقاد ـ كما تقدم في الدعوة الأُولى، يصدون عن طريق الإمامة في أبي الحسن، ويقال إنّ موسى بن جعفر يكنى أبا إبراهيم، يقولون: إنّا وجدنا صاحبنا محمد بن إسماعيل بن جعفر عنده علوم المستورات وبواطن المعلومات، وفقدنا ذلك عند كل أحد سواه، وربما أتوا بروايات في الطعن على أبي الحسن موسى بن جعفر ورموه بالعظائم، ويقولون: ليس له إمامة، وقد أجمعت الشيعة ـ التي إجماعها أولى بالاتباع والحجّة ـ أنّه لا يستحق الإمامة بعد مضي الحسين بن علي إلا في ولد الإمام، وقد اتفقنا وهم على صحّتها وترتيبها إلى جعفر بن محمد، ثم اختلفنا في أي أولاده أحق بها، فوجدنا عن صاحبنا علم التأويل وتفسير ظاهر الأُمور، وسرّ الله جلّ وعزّ في وجه تدبيره المكتوم، واتفاق دلالته في كلّ أمر يسأل عنه، في جميع المعلومات وتفسير المشكلات وبواطن الظاهر كلّه والتأويلات وتأويل التأويلات، فنحن الوارثون لذلك من بين طبقات الشيعة المعبّرين عنه أخذناه من جهته رويناه ممّن لا نجد من خالفنا، يمكنه أن يساوينا فيه ولا يتحقّق به ويدّعيه، فصحّ بذلك أن صاحبنا أولى بالإمامة من جميع ولد جعفر بن محمد، وربما قالوا: وجدنا فلانًا من ولد جعفر بن محمد من شأنه كذا، وفلانًا من قصّته كذا، في فروق لهم كاذبة بأقاويل لا تليق بهم، ثم يقولون: فلم يبق من سلم من الطعون المعروفة إلا صاحبنا، فوجب أن يكون هو صاحب الأمر دون كل أحد، وليس غرض هؤلاء

---

(١) ثلبه: عابه وتنقصه.

ـ أصحاب هذه الدعوة الخبيثة ـ أن يؤخروا موسى بن جعفر، ولا يقَدموا إسماعيل بن جعفر ولا ابنه محمد، وإنما جعلوا هذا كأداة الصانع التي لا يتم الصنعة إلا بها، فإذا انقاد لهم المغرور وسمع قولهم تيقّنوا أنهم قد تمكنوا من عقله، وسلكوا به أي مسلك أرادوه. فهذه الدعوة الثالثة.

ذكر صفة الدعوة الرابعة

قال الشريف: اعلم أنّ الدعوة الرابعة أن تقرّر عند المدعو بأن عدد الأنبياء الناسخين للشرائع المبدلين لها أصحاب الأدوار وتقليب الأحوال الناطقين على الأمور سبعة بعدد الأئمة سواء، كل واحد منهم له صاحب يأخذ عنه دعوته، ويحفظها على أُمّته، ويكون معه ظهريًا[1] في حياته وخليفة له من بعد وفاته، إلى أن يؤديها إلى آخر، يكون سبيله معه سبيله هو مع نبيّه الذي هو تابعه، ثم كذلك لكل مستخلف خليفة، إلى أن يمضي منهم على تلك الشريعة سبعة، ويسمّون هؤلاء السبعة الصامتين، لثباتهم على شريعة اقتفوا فيها أثر واحد هو أوّلهم، ويسمّون صاحب الأوّل سوسه، وربما عبّروا عنه بغير ذلك، ثم يزعمون أنّه لا بد عند انقضاء هؤلاء السبعة واستنفاد دورهم بشرعهم من استفتاح دور ثان، ينسخ به شرع من قبله، ويكون خلفاؤه بعده يجري أمرهم كأمر من كان قبلهم، ثم يأتي بعدهم ناسخ، ثم اتباع سبعة صمت أبدًا إلى أن يأتي السابع، فينسخ لجميع ما قبله، ويكون صاحب الزمان الأخير الناطق.

ثم يرتَبون هؤلاء بالتسمية لهم والأوصاف، فيقولون: أوّل هؤلاء النطقاء آدم، وصاحبه وسوسه شيث، ويقال بابه في موضع سوسه ويسمّون بعده تمام سبعة صمتوا على شريعة آدم، ثم نوح فإنّه ناطق ناسخ وسام سوسه، ثم تمام السبعة، ثم الثالث إبراهيم وسوسه إسماعيل، ثم تمام السبعة، ثم الرابع موسى وسوسه هارون، ثم مات هارون في حياته فصار سوسه يوشع بن نون، ثم تمام السبعة بعده، ثم الخامس المسيح عيسى ابن مريم أخذها عن يحيى، وهو أحد السبعة قبله، وهو أقامه ونصبه، ولهم في هذا ما سيأتي ذكره، وسوس المسيح شمعون الصفا، ثم تمام السبعة بعده، ثم السادس محمد بن عبد الله ﷺ، وسوسه علي بن أبي طالب رضي الله عنه ثمّ ستة ثم السابع قائم الزمان محمد بن إسماعيل بن جعفر، وهو المنتهى إليه علوم من قبله،

(١) جعله ظهريًا: أي نسيًا منسيًا.

والقائم بعلم بواطن الأمور وكشفها، وإليه تفسيرها، وإلى أمره أُجري ترتيب سائر من قبله، في أمور سيأتي ذكرها إن شاء الله تعالى.

فهذه درجة أخرى قرّرها الداعي عند المدعو نبوّة نبيّ بعد محمد ﷺ، وسهّل بها النقل عن شريعة، وأخرج بها المدعو إليهما عما هو معلوم عند كل سامع لدعوة رسول الله ﷺ من أنّ من دينه وما علم من مذهبه ونحلته أنّه خاتم الرسل وأنّه لا نبيّ بعده، وأنّ دولته مبقاة وشريعته مفترضة أبدًا، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فالعلم بذلك من ديانته وما عرف من مذهبه، وأنّ أمّته بلَغت عنه ذلك وفهمته، وأنّ من مفهوم شريعته أنّه لم يكن يجوز لأحد نبوّة غيره، في وقته ولا فيما بعده، فكانت هذه الدعوة أوّل ما أخرج الداعي بها المدعوّ عن شريعة رسول الله ﷺ وأدخله في جملة الكفّار المرتدّين عن شريعته، وهو مع هذا لا يعلم ما خرج منه ولا دخل فيه.

ذكر صفة الدعوة الخامسة

قال: اعلم أنه من يحصل على ما قدّمنا ذكره يحصل عليه، وقد مهد له بطريق تعظم الأعداد، ووُكد بذكر الطبائع في أبنية العالم، وأمور كثيرة سيأتي ذكرها في المقالة الثامنة، كلها مبيّنة، على مذاهب مدخولة وأمور فاسدة مرذولة، مذاهب كثير من الملحدين المتفلسفة، مع اطّراح ما نقلت الأمّة، والاستخفاف بحال الشريعة، والاعتقاد لتعظيم الشيعة، والانتظار لفسخ ما ورث عن النبوّة، وتوقّع أمور باطنة بخلاف ما ألف من علم الظاهر، وقلة احتفال بدلالة ظاهر القرآن وغيره من الكلام، على الأمور بحقائق اللغة العربية واقتفاء أثر العرب في أوضاع كلامهم، مع تمقيت[١] العرب ومع تحبيب دناءة العجم، ويوهم أن العرب للعجم أعداء وظالمون وأنّهم لملكهم مغتصبون، هذا يقال للمدعوّ إذا كان أعجميًا، فإن كان أعرابيًا خوطب في حال دعوته: بأنّ العجم غلبوا على دعوته وفازوا بمملكته، وأنّ له الاسم ولهم الدنيا، وأنّه أحقّ بذلك منهم وأولى، في أمور من هذا يطول وصفها بحسب ما يتخرّج[٢] للداعي فيها.

ثم يمكن عنده طرفًا من الهندسة في الأشكال، ويعرف أنّ طبائع الأعداد في النظام، لأمر يستخرج منه علوم الأئمة، والطريق إلى علم الإلّه والنبوّة، ويقرّر عنده أنّ مع كل إمام حججًا متفرقين في الأرض وأنّ عددهم في كل زمان اثنا عشر رجلًا،

---

(١) مقت فلانًا: أبغضه أشد البغض. (٢) تخرج: خرج.

كما أن عدد الأئمة سبعة، وأن دلالة ذلك ظاهرة وحجّته قاهرة، بأن تعلم بأنّ الله جلّ وعزّ لا يخلق الأمور مجازفة على غير معانٍ توجبها الحكمة، وإلا فلمَ خلف النجوم، التي فيها قوام العالم سبعة؟ وجعل السماوات والأرضين سبعة؟ وأمثال هذا وبالغوا، وكذلك الاثنا عشر حجّة، عدد البروج المعظّمة، وعدد الشهور المعروفة، وعدد النقباء من بني إسرائيل، ونقباء النبي ﷺ من الأنصار، وفي كَف الإنسان أربعة أصابع في كل إصْبَع ثلاثة شقوق تكون اثني عشر شقًا، وفي كل يد إبهام فيها شقّان بها قوام جميع كفّه، وسداد أصابعه ومفاصله، فالبدن كالأرض، والأصابع كالجزائر الأربع، والشقوق كالحجج فيها، والإبهام كالذي يقوم الأرض بعد ما فيها، والشقّان فيها الإمام وسوسه لا يفترقان، ولذلك صار في ظهر الإنسان اثنتا عشر خرزة كالحجج، وفي عنقه سبعة عالية كالأنبياء والأئمة، وكذلك حال السبعة الأنقاب[1] في وجه الإنسان العالية على بدنه، في أمثال لهذا كثيرة، يحصلون بها المدعوّ على الإنس بتمهيد طريق للخروج عن أحوال الأنبياء وشرائعهم والعدول عن ذلك إلى أمور الفلاسفة في ترتيب شبههم أبدًا، ما رأوا أنّ هناك بقيّة من دين.

ذكر صفة الدعوة السادسة

قال الشريف رحمه الله: اعلم أنّهم إذا مكّنوا ما وصفنا وأحكموه ووثقوا لمساكنة المدعوّ أخذوا في تفسير معاني الشرائع بغير ما يدين به أهلها وسهّلوا عليه العدول عنها، فرتّبوا له معاني الصلاة والزكاة والحجّ والإحرام والطهارة وسائر الفرائض، على أمور سيأتي وصفها في المقالة الثامنة، على أنّ ذلك يكون تفسيره على إحكام وتمهيد بغير مجازفة ولا استعجال، فيحصل أولاً على معنى: أنّ ذلك وضع دلالة على أمور نذكرها وننبّه عليها، فإذا قوي الانسلاخ من جملة الأمّة في نفسه، وسهل عليه طريق العدول عمّا هي عليه، لم يحتشم حينئذ أن يجعل ذلك موضوعًا على جهة الرموز، إلى فلسفة من الأنبياء والأئمة، وسياسة للعامّة للجياشة إلى منافعهم في ذلك، وفي شغل بعضهم عن البغي على بعض أو عن الفساد في الأرض، مع إظهار تعظيم الناصبين لذلك، وأنّهم أهل الحكمة فيما رتّبوه منه، وإذا تمكّن أيضًا في نفسه ما بدأنا بذكره ـ نقلوه إلى التمييز بين الأنبياء وبين أفلاطون وأرسطوطاليس وغيرهما، وحسّنوا عنده أشياء من حِكَمهم، وعادوا على ناصب هذه الشرائع بالاستخفاف والمذمّة والاستحقار والطعن واللائمة، فيأتي ذلك على قلوب قد فرغت له، وسهل عليها فلم تنكره، ورأته مما بدأت به في تأنيسها.

---

(١) الأنقاب: الخروق.

ذكر صفة الدعوة السابعة

قال رحمه الله: اعلم أنه متى أنس المدعو، بما ذكرناه كلّه أو بكثير منه، وقوى في نفس الداعي أنّه يصلح لما بعد هذا، إن كان الداعي بالغًا، وبأغراض الدعوة عالمًا، وإلى التبليغ بمن يدعوه إلى هذه الأمور قاصدًا ـ أتى بما نذكر؛ وأمّا إن كان الداعي مخدوعًا ومتَّخَذًا كالآلة ليتوصل به إلى التكسّب، ويُمهّد به الطريق ويرتّب، وهو غير بالغ إلى أعلى الرتبة في دعوة دون ذلك، فإنّه غافل لا يدري كيف قصّته، ولا يظنّ أنّ الأمر الذي يراد به إلا ما عرفه وبلغه، أو ما يجانسه ويقاربه، فإذا أراد الداعي أن يسلك بالمدعو فوق ما وصفنا قال له: قد صحّ لك أنّ صاحب الدلالة الناصب للشريعة لا يستغني بنفسه، ولا بدّ له من صاحب معه يعبّر عنه، ليكونا اثنين أحدهما هو الأصل والآخر عنه كان.

واعلم أنّ ذلك لم يحصل في العالم السفلي إلا وقد يحصل مثله في العالم العُلوي، فمذ بدء العالم اثنان هما أصل الترتيب وقوام النظام، أحدهما هو الأعلى والمفيد، والآخر هو الآخذ عنه المستفيد، وربما أنسوه في ذلك بأن يقولوا له: هذا هو الذي أراده الله بقوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢]، وكن هو الأكبر في الرتبة، وأما الثاني فهو القدر الذي قال (الله) فيه: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر: ٤٩]، وربما قالوا: هذا معنى ما تسمعه مما جاءت به الملّة، من أنّ أوّل ما خلق الله اللوح والقلم، وقال للقلم اكتب ما هو كائن، واللوح والقلم هما ما ذكرنا، وربما قالوا: هذا معنى قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤]، فسلك به في هذا الطريق العدول عن التوحيد، وأنّ الصانع اثنان، وإن كان عندهم صنع الأجسام على جهة المِثْل والنظام، لا على معنى الاختراع والإحداث، وسيأتي ذلك وبيانه، وإنّما قدّم هذا تمهيدًا له.

ذكر صفة الدعوة الثامنة

قال الشريف أبو الحسين رحمه الله تعالى: اعلم أنّهم إذا رتّبوا ما ذكرنا قرّروا عند المدعوّ أنّ أحد المدَبِريْن أسبق من الآخر في الوجود وأعلى منه في الرتبة، وأنّ الآخر مخلوق منه وكائن به، ولولاه لم يكن وأنّه كوّنه من نفسه، وأنّ السابق أنشأ الأعيان، والثاني صوّرها وركّبها، ثم ذكروا له منزلة السابق، وأنّ السابق كان عمّن كان منه، كما كان الثاني عن السابق، إلاّ أنّ الذي كان عنه السابق لا اسم له ولا

صفة ولا ينبغي لأحد أن يعبّر عنه ولا أن يعبده، فإذا بلغ هذه الرتبة سارعوا: إلا أنّ في الأسباب التي كان لها عندهم السابق عمّن كان منه ممّن لا اسم له ولا صفة، ما هو؟ وهل هو باختيار أم بغير اختيار؟ وكذلك الحال التي كان لها الثاني عن السابق اختلافًا، فذهب بعضهم إلى أنّ ذلك كان لفكرة عرضت لمن كان عنه السابق، فجاء منها السابق، ثم عرضت فكرة للسابق فجاء منها الثاني، على نحو ما يقوله بعض المجوس في توليدِ، اتفق واهرمن الذي هو الشيطان ـ عن القديم، وأنّ ذلك بفكرة وقعت رديّة ولدته؛ وربما قال بعضهم إنّ تلك الفكرة، لأنّ الذي لا صفة له فكّر: أقدر أخلق مثلي أم لا؟ وكان من ذلك أن تصوّر التالي، ثم فكّر التالي في ذلك فلم يأتِ بمثله، في أنحاء من هذه الأمور التي سيأتي وصفها، ممّا يخرج به قائلوه عن كل ديانة دان بها أحد من أهل الشرائع، التي ينعقد معها نبوّة وشريعة ولا يكون إلا مع دهريّة أو ثنويّة[١].

ثم رتّب هؤلاء أنّ التالي يدأب في أعمال منه، حتى يلحق بمنزلة السابق، وأنّ الناطق في الأرض يدأب في أعماله حتى يلحق بمنزلة التالي، فيقوم مقامه فيكون بمنزلته سواء، وأنّ السُّوس يدأب في أعماله حتى يصير بمنزلة الناطق سواء، وأنّ الداعي يدأب في أعماله حتى يبلغ منزلة السُّوس وحاله سواء، وأن هكذا ترجي أمور العالمين في أدواره وأكواره، في أمثال لهذا.

ثم قرّر عنده أنّ القول في معنى النبيّ الصادق الناطق ليس يجري على ما يقوله أهل الشرائع، من أنّه جاء بمعجزات ودلالات خارجة عن أحوال العادات، وأنّ معنى ذلك إنّما هو يأتي بأمور تنتظم بها السياسة ووجوه الحكمة، وترتّب بها الفلسفة، ومعانٍ تنبىء عن حقائق ابتداء السماوات والأرض، وبدأتها على حقائق الأمور إمّا برموز وإمّا بإفصاح، وتنظيم ذلك شريعة يقتفي عليها الناس، ورتّب له أمر القرآن، وما معنى كلام الله، بخلاف ما يدين به أهل الكتب، ورتّب له أمر القيامة وتقضّى أمر الدنيا وحصول الجزاء من الثواب والعقاب، على أمور ليست ممّا يعتقده الموحّدون في شيء، بل ذلك على معان أخر، من تقلّب الأمور وحدوث الأدوار عند انقضاء الكواكب وعوالم جماعتها، والقول في الكون والفساد على ترتيب الطبائع، على أمور كلها سيأتي شرحها إن شاء الله تعالى.

---

(١) الثنوية: هؤلاء هم أصحاب الاثنين، يزعمون أن النور والظلمة أزليان قديمان بخلاف المجوس، فإنهم قالوا بحدوث الظلام، وذكروا سبب حدوثه. . . (الملل والنحل للشهرستاني ١: ٢٤٤).

ذكر صفة الدعوة التاسعة

قال: اعلم أنّه إذا حصل المدعوّ على ما ذكرنا أحيل حينئذ على طلب الأمور وتحقيقها وحدودها والاستدلال عليها من طرق المتفلسفة وإدراكها من كتبهم، وجعلوا ما قدّموه سابقًا له على طرائقهم، واستنباط ما خفي عنهم وبنوه على علم الأربع طبائع، التي هي استقصّات وأصول الجواهر عندهم، وعلى ترتيب القول في الفلك والنجوم والنفس والعقل وأمثال ذلك فيما هو معروف، فيحصل الآن البالون إلى هذه الرتب على أحد هذه الوجوه، التي يعتقدها بعض أهل الإلحاد ممّن يدين بقدم أعيان الجواهر، ويصير ما قدم من ذكر الحدث والأصول رموزًا إلى معاني المبادىء، وتقلّب الجواهر وحدوث الأمور التي يكون لها على أحوال وأحكام، وعلى نحو تنزيل كثير منهم لحال العقل من حال النفس وحال الفلك من حال العقل، وحال الطبائع والأعراض من حال النفس والعقل، وحال المنقلب بالكون والفساد وما يكون من حال الهيولى[1] بتقلّب الأعراض المختلفة وترتيب العناصر، والقول في العلّة: هل تفارق المعلول أم لا؟ وإقرار بعضهم بصانع لم تزل معه العناصر والمبادىء أوّلاً، وما هي تلك الأمور وكيف حدودها، وما يصحّ من صفاتها والأسباب التي تعلم بها، فربّما صار البالغ في النظر في هذا إلى اعتقاد مذهب ماني[2] وابن ديصان، وربما صار إلى مذهب المجوس، وربما دان بما يحكى عن أرسطاطاليس، وربما صار إلى أمور تحكى عن أفلاطون، وربما اختار من تلك معاني مركبة من هذه الأمور، كما يجري كثير من هؤلاء المتحيّرين.

قال: وجميع ما وصفنا من التدريج بالمقدّمات إنما يحصل الانسلاخ من شرائع أهل الكتُب والنبوّة فقط، وجميعها يصلح أن تُجعل تمهيدًا ورموزًا إلى جميع هذه المذاهب التي ذكرناها، وتجتذب بألفاظها إليها بالتأويل بحسب ما يريد المعتقد، لما شاء منها ممّا سنبيّن ذلك إن شاء الله تعالى.

---

(١) الهيولى (عند القدماء): مادة ليس لها شكل ولا صورة معينة، قابلة للتشكيل والتصوير في شتى الصور، وهي التي صنع الله تعالى منها أجزاء العالم المادية.

(٢) ماني: هو ماني بن فاتك الحيكم الذي ظهر في زمان سابور بن أردشير، وقتله بهرام بن هرمز بن سابور، وذلك بعد عيسى ابن مريم عليه السلام، أحدث دينًا بين المجوسية والنصرانية... (الملل والنحل للشهرستاني ١: ٢٤٤).

قال: وأمّا سلخه من جميع ما تقدم عليه من أمر الإمامة والنبوّة فإنّه أوّلاً يجعل عنده منازل، جميعهم منقوصة غير منزلة محمد بن إسماعيل صاحب الدور الآخر، ويرتّب له أنّ جميعهم لا يأتي بوحي من الله عزّ وجلّ، ولا معجزة كما يقول الظاهرية، وإنما يختص بالصفا فيلقى في فهمه ما يريد الله، فيكون ذلك كلامًا، ثم يجسّده النبيّ ويظهره للخلق، وينظّم الشرائع بحسب المصالح في سياسات الناس ثم يؤمر بالعمل بذلك مدّة، ثم يترك إلى أن يؤمر بذلك، يستدعي بها الناس، لا لأنّها تجب على أهل المعرفة بأعراضها وأسبابها ثم يقال له بعد ذلك إنّما هي آصار[1] وأثقال حملها الكفار، وكذلك سائر المحرّمات، ثم يلقّن أنّ إبراهيم وموسى وعيسى، وهؤلاء أنبياء سياسات وشرائع، فأما أنبياء الحكمة فإنّ هؤلاء أخذوا عنهم كأفلاطون وأمثاله من الفلاسفة، فبنوا شرائعهم ليوصلوا بها العامّة إلى علومهم؛ ثم يقال له: انظر أيهما أحكم، فلان النبيّ أو فلان؟ ثم يلقّن أن في بعض أحكامهم اختلالاً وفسادًا، ثم يلقن البراءة منهم وسوء سيرتهم، وأنّهم قتلوا النفوس، وأمثال هذا. ويلقّن في محمد بن إسماعيل بن جعفر أنّه سيظهر، ثم يقال له بعد ذلك: إنما يظهر في العالم الروحاني إذا صرنا إليه، أما الآن فإنما ظهر أمره على ألسن أوليائه، ثم يلقّن أنّ الله أبغض العرب لما قتلت الحسين بن عليّ فنقل خلافة الأئمة عنهم كما نقل النبوّة عن بني إسرائيل لما قتلوا الأنبياء، ولا يقوم بخلافة الأئمة إلا أولاد كسرى، فيكون ذلك غاية ما يقدّموه في هذا الباب كلّه متى استوى لهم، فإنْ لم يتمّ له ذلك مع الدعوة تركه في أي منزلة نزلها، مستعيذًا بهذه الوجوه.

قال: ثم اعلم ـ رحمك الله ـ أنّ هذا الترتيب والتخريج والتنزيل إنّما كانت الدعاة عليه عند اجتماعها على مبتدأ الدعوة، والانعقاد على طلب الغوائل[2] للمسلمين، فيها اتفقوا على جملةٍ منها وأصولها، وفتحوا بالفكر طريقها، ومهّدوه على معنى ما ذكرناه، وتفرّقوا في البلدان، وتمهيدهم بحسب أفكارهم واجتهادهم في الحيلة على المستمع، وتميّزوا في ذلك وتمكّنوا منه في طول الأيّام، سيّما مذ قويت أحوال الجنّابي على ما نذكر ذلك إن شاء الله تعالى في أخباره.

قال: فقد بيّنا خبر هذه الدعوة وكيف جرى أمرها، وكيف يُسلك بالمخدوع كل مسلك، حتى يصير إلى التعطيل والإباحة، فهذا أصل هذه الدعوة الملعونة وما أُسّست

(١) الآصار: جمع الإصر، وهو الثقل، أو هو العهد المؤكد.
(٢) الغوائل: جمع الغائلة، وهي الفساد والشر؛ أو هي الداهية.

عليه قديمًا، ثم تغيّرت وتفرّعت منذ انتشرت ببلاد المغرب ومصر والشام، وجعلوا منها طرقًا وأبوابًا، فمنها علم القوت وعلم الكفاف وبلاغات مفصّلة، وبطل الترتيب الأول الذي وصفنا: من أنّ الدعوة كانت إلى محمد بن إسماعيل بن جعفر، فصار موضعه من يكون من ولد عبيد الله بن ميمون القدّاح، الذين ملكوا المغرب ومصر والشام، على ما نذكر ذلك إن شاء الله تعالى في أخبارهم، ولنصل هذا الفصل بذكر العهد الذي يحلفون به.

ذكر العهد الذي يؤخذ على المخدوعين في مبدأ الدعوة الخبيثة

قال الشريف: يقول الداعي لمن يأخذ عليه العهد: جعلتَ على نفسك عهد الله وميثاقه وذمته، وذمّة رسول الله ﷺ وأنبيائه وملائكته ورسله، وما أخذه على النبيّين من عهد وعقد وميثاق أنّك تستر جميع ما تسمعه وسمعته، وعلمته، وتعلمه، وعرفته وتعرفه من أمري وأمر المقيم بهذا البلد لصاحب الحق الإمام، الذي عرفت إقراري له: ونصحي لمن عقد ذمته، وأمور إخوانه وأصحابه وولده وأهل بيته المطيعين له على هذا الدين ومخالصته له، من الذكور والإناث والصغار والكبار، فلا يظهر من ذلك قليلًا ولا كثيرًا ولا بشيء يدل عليه، إلا ما أطْلقتُ لك أنّك تتكلم به، أو أطلقه صاحب الأمر المقيم بهذا البلد، فتعمل في ذلك بأمرنا ولا تتعدّاه ولا تزيد عليه، وليكن ما تعمل عليه قبل العهد بقولك وفعلك: أن تشهد أن لا إلّه إلا الله وحده لا شريك له، وتشهد أن محمدًا عبده ورسوله، وتشهد أنّ الجنّة حق وأنّ النار حق، وأنّ الموت حق وأنّ البعث حق وأنّ الساعة حق آتية لا ريب فيها، وأنّ الله يبعث مَنْ في القبور، وتقيم الصلاة لوقتها، وتؤتي الزكاة بحقّها، وتصوم شهر رمضان، وتحج البيت الحرام، وتجاهد في سبيل الله حق جهاده، على ما أمر الله به رسوله ﷺ، وتوالي أولياء الله وتعادي أعداء الله وتقول بفرائض الله وسننه وسنن نبيّه ﷺ وعلى آله الطاهرين، ظاهرًا وباطنًا وعلانيةً وسرًا وجهرًا، فإنّ ذلك يؤكد هذا العهد ولا يهدمه، ويثبته ولا يزيله، ويقرّبه ولا يباعده، ويشدّه ولا يضعفه، ويوجب ذلك ولا يبطله، ويوضحه ولا يعميه، كذلك هو في الظاهر والباطن، وسائر ما جاء به النبيون من ربهم صلوات الله عليهم أجمعين، على الشرائط المبينة في هذا العهد.

وجعلتَ على نفسك الوفاء بذلك ـ قل نعم، فيقول المغرور: نعم، ثم يقول له: والصيانة له بذلك وأداء الأمانة له على ألا تُظهر شيئًا أُخذ عليك في هذا العهد ـ

في حياتنا ولا بعد وفاتنا، ولا على غضب ولا على حال رضى، ولا على حال رغبة ولا رهبة، ولا على حال شدّة ولا على حال رخاء ولا على طمع، ولا على حال حرمان، تلقى الله على الستر لذلك والصيانة له ـ على الشرائط المبيّنة في هذا العهد.

وجعلتَ على نفسك عهد الله وميثاقه وذمّته وذمّة رسوله ﷺ وعلى آله أن تمنعني وجميع من أسمّيه معي لك وأثبته عندك، ممّا تمنع منه نفسك، وتنصح لنا ولوليك ـ وليّ الله ـ نصحًا ظاهرًا وباطنًا، فلا تخن الله ووليّه، ولا تخنّا ولاَ أحدًا من إخواننا وأوليائنا، ومن تعلم أنه منا بسبب، في أهل ولا مال ولا رأي ولا عهد ولا عقد تتأوّل عليه بما تبطله.

فإن فعلتَ شيئًا من ذلك ـ وأنت تعلم أنّك قد خالفته، وأنت على ذكر منه ـ فأنت بريء من الله خالق السموات والأرض، الذي سوّى خلقك وألّف تركيبك وأحسن إليك في دينك ودنياك وآخرتك، وتبرأ من رسله الأولين والآخرين وملائكته المقرّبين الكروبيين[١] والروحانيّين، والكلمات التامّات والسبع المثاني والقرآن العظيم، وتبرأ من التوراة والإنجيل والزبور والذكر الحكيم، ومن كل دين ارتضاه الله في مقدم الدار الآخرة، ومن كل عبد رضي الله عنه، وأنت خارج من حزب الله وحزب أوليائه، وخذلك الله خذلانًا بيّنًا، فعجّل لك بذلك النقمة والعقوبة والمصير إلى نار جهنّم، التي ليس فيها رحمة وأنت بريء من حول الله وقوّته، مُلتجأً إلى حول نفسك وقوّتها، وعليك لعنة الله التي لعن بها إبليس، فحرم عليه بها الجنّة وخلّده النار.

إن خالفت شيئًا من ذلك لقيت الله يوم تلقاه وهو عليك غضبان، ولله عليك أن تحجّ إلى بيته الحرام ثلاثين حجة نذرًا واجبًا، ماشيًا حافيًا، لا يقبل الله منك إلا الوفاء بذلك؛ وإن خالفت ذلك فكلّ ما تملكه في الوقت الذي تخالف فيه فهو صدقة على الفقراء والمساكين، الذين لا رحم بينك وبينهم، لا يأجرك الله عليه، ولا يدخل عليك بذلك منفعة، وكل مملوك لك ـ من ذكر أو أنثى ـ في ملكك وتستعبده إلى وقت وفاتك، إن خالفت شيئًا من ذلك، فهم أحرار لوجه الله عزّ وجلّ، وكل امرأة لك وتتزوّجها إلى وقت وفاتك ـ إن خالفت شيئًا من ذلك ـ فهن طوالق ثلاثًا بتّة، طلاق الحرج والسنّة لا مثنويّة لك فيها ولا اختبار ولا رجعة ولا مشيئة، وكلّ ما كان لك من أهل ومال وغيرهما فهو عليك حرام، وكل ظهار فهو لازم لك.

(١) الكروبيون: المقربون إلى الله من الملائكة، منهم جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، في رأي بعض المفسرين.

وأنا المستخلف لك لإمامك وحجّتك، وأنت الحالف لهما وإن نويت أو عقدت أو أضمرت خلاف ما أحملك عليه وأحلّفك به، فهذه اليمين من أوّلها إلى آخرها محدّدة عليك لازمة لك، لا يقبل الله منك إلا الوفاء بها، والقيام على ما عاهدت بيني وبينك، قل نعم، فيقول المخدوع: نعم.

فهذه اليمين التي يؤنس بها المخدوع من ذكر الصلاة والصيام والزكاة والحج وشرائع الإسلام، فما ينكر شيئًا مما يسمعه، وكل ذلك تأنيس ما يتوصل به إلى هذه الأمور، التي تقدّم ذكرها على التدريج.

قال الشريف رحمه الله تعالى: ووجدتُ في كتاب من كتبهم يعرف بكتاب السياسة ما يشرح به ذكر ما تقدم من أمر الدعوة، فيه وصايا الدعاة، وهذا مختصر منه يقول فيه:

من وجدته شيعيًا فاجعل التشيع عنده دينك، واجعل المدخل عليه من جهة ظلم الأُمّة لعلي وولده، وقتلهم الحسين وسَبْيهم البنات، والتبرُّؤ من تيم وعدي ومن بني أميّة وبني العبّاس، وما شاكل ذلك من الأعاجيب التي تسلك عقولهم، فمن كان بهذه الصورة أسرع إلى إجابتك بهذا الناموس، حتى يتمكّن ممّا يحتاج إليه؛ ومن وجدتَه صائبًا داخله بالأسابيع يقرب عليك جدًا، ومن وجدته مجوسيًا فقد اتفقتَ معه في الأصل من الدرجة الرابعة، من تعظيم النار والنور والشمس، واتل عليه أمر السابق فإنّه لهرمُس الذي يعرفونه بالنور المكنون من ظنّه الجيّد والظلمة المكنونة من وهمه الرديء، فإنّهم مع الصابئين[1] أقرب الأمم إلينا وأولاهم بنا، لولا يسير صحّفوه بجهلهم به؛ وإن ظفرت بيهودي فادخل عليه من جهة المسيح، يعني مسيح اليهود الدجّال وأنّه المهدي، وأنّ عند معرفته تكون الراحة من الأعمال وترك التكليفات، كما أمر بالراحة في يوم السبت، وتقرّب من قلوبهم بالطعن على النصارى والمسلمين الجهّال، وزعمهم أن عيسى لم يولد ولا أب له، وقرّر في نفوسهم أنّ يوسف النجّار أبوه، وأنّ مريم أُمّه، وأنّ يوسف كان ينال منها ما ينال الرجال من نسائهم وما يشاكل ذلك، فإنّهم لا يلبثون أن يتبعوك؛ وادخل على النصارى بالطعن على اليهود والمسلمين جميعًا، وبصحة عقدهم الصليب عندهم وعرّفهم تأويله، وأفسد عليهم ما قام لهم من جحد الفارقليط، وقرّر عندهم أنه جاء وأنك إليه تدعوهم، ومن وقع إليك

(١) الصابئون: قوم يعبدون الكواكب ويزعمون أنهم على ملة نوح، وقبلتهم مهب الشمال عند منتصف النهار. والصابئون أيضًا: من يتركون دينهم ويدينون بآخر.

من المنانية[1] فإنّه يحرّك الذي منه تغترف، فداخلهم بالممازجة من الباب السادس، وأظهر من الدرجة السادسة من حدود البلاغ، وامتزاج الظلمة بالنور إلى آخر ما في الباب من ذلك، فإنّك تملكهم به وتحيلهم، فإن أنست من بعضهم رشدًا كشفت له الغطاء. ومن وقع إليك من الفلاسفة فقد علمت أن على الفلاسفة العهدة، وإنّا قد اجتمعنا وهم على نواميس الأنبياء وعلى القول بقدم العالم، لولا ما يخالفنا بعضهم فيه من أنّ للعالم مدبّرًا لا يعرفونه، فإنّه وقع الاتفاق على أنه لا مدبّر للعالم فقد زالت الشبهة فيما بيننا وبينهم، وإن لك ثنوي فبَخٍ بَخٍ قد ظفرت، فالمدخل عليه بإبطال التوحيد، والقول بالسابق والتالي ووراثة أحدهما، على ما هو مرسوم في أوّل درجة البلاغ وثالثه، وإنْ وقع لك سُنِيّ فعظّم عنده أبا بكر وعمر واذكر فيهما فضائل، واثلب عليًا وولده واذكر لهم مساوىء، ولوّح له أنّ أبا بكر وعمر قد كان لهما في هذا الأمر ـ الذي تلقيه إليه ـ نسب، فإذا دخلت عليه بهذا المدخل درجته إلى ما تريد وملكته، واتخذ غليظ العهود ووكيد الأيمان وشديد المواثيق جُنّة لك وحصنًا، ولا تهجم على مستجيبيك بالأشياء التي تبهر عقولهم، حتى ترقّيهم إلى المراتب حالاً فحالاً، ودرّجهم درجة درجة، فواحد لا تزيده على التشيّع والأيمان لمحمد بن إسماعيل شيئًا، وأنّه حي لا تجاوز به هذا الحد، وأظهر لهم العفاف عن الدرهم والدينار وخفّف عليهم وطأتك، ومره بالصلاة السبعين، وحذّره الكذب والزنا واللواط وشرب الخمر، وعليك في أمره بالرفق والتؤدة والمداراة يكن لك عونًا على دهرك وعلى من يعاديك أو يتغيّر عليك من أصحابك وينافسك، فلا تخرجه عن عبادة إلهه، والتدبّر بشريعته، والقول بإمامة عليّ وبنيه إلى محمد بن إسماعيل بن جعفر، وأقم له دلائل الأسابيع فقط، ودقّه بالصلاة دقًا، فإنّك إن أومأت إلى كرائمه يومًا ـ فضلاً عن ماله ـ لم يمنعك، فإن أدركته الوفاة وصّى إليك بما خلف وورثّك إياه، ولم ير أنّ في العالم أوثق منك، وأخّر ترقّيه من ذلك إلى نسخ شريعة محمد، وأنّ السابع هو الخاتم للرسل، وأنّه ينطق كما ينطق كما نطقوا ويأتي بأمر جديد، وأنّ محمدًا صاحب الدور السادس، وأنّ عليًا لم يكن إمامًا، وحسّن القول فإنّ هذا باب كبير وعلم عظيم، مرجيّ الارتقاء إلى ما هو أكبر منه، ويعينك على زوال ما جاء من قبله من وجود النبوّات، على المنهاج الذي هو عليه، وقليل من ترقّيه من هذا الباب إلى معرفة أم القرآن ومؤلفه وسننه.

(١) المنانية: أتباع ماني ديانة فارسية.

وإياك أن تغتر بكثير ممّن يبلغ معك إلى هذه المنلزة فترقّيه إلى غيرها، إلا من بعد طول المؤانسة والمداوسة واستحكام الثقة، إنّ ذلك يكون عونًا لك عند بلاغه على تعطيل الكتب، التي يزعمون أنّها منزلة من عند الله، فيكون هذا نعم المقدّمة؛ وآخر ترقّيه من هذا إلى ما هو أعلى منه، فإنّ القائم قد مات، وأنّه يقوم روحانيًا، وأنّ الخلق يرجعون إليه بصور روحانيّة، وأنّه يفصل بين العباد بأمر الله عزّ وجلّ، يشتفي من الكافرين للمؤمنين بالصور الروحانيّة، فإن ذلك يكون عونًا لك عند بلاغه على إبطال المعاد، الذي يزعمونه والنشور من القبور؛ وآخر ترقَية من هذا إلى إبطال الملائكة في السماء والجنّ في الأرض، فإنّه قبل آدم بشر كثير، وتقيم على ذلك الدلائل المرسومة من كتب شيوخنا المتقدّمين، فإنّ ذلك مما يعينك في وقت بلاغه، على تسهيل التعطيل[1] لله، والإرسال بالملائكة إلى الأنبياء، والرجوع به إلى الحق، والقول بقدم العالم؛ وآخر ترقّيه إلى أوائل درج التوحيد، وتدخل عليه بما تضمّنه كتاب الدرس الشافي للنفس من أن لا إله لا صفة ولا موصوف، فإنّ ذلك ممّا يعينك على القول بالإلهية، تستحقّها عند البلاغ إلى ذلك، ومن رقّيته إلى هذه المنزلة فعرّفه حسب ما عرّفناك حقيقة من أمر الإمام، وأنّ إسماعيل ومحمدًا ابنه من أبوابه، وفي ذلك عون لك على إبطال إمامة ولد علي بن أبي طالب، عند البلوغ والرجوع إلى القول بالحق لأهله ثم لا تزال شيئًا فشيئًا في أبواب البلاغ السبعة، حتى تبلغ الغاية القصوى على تدريج، وكل باب يأتي يشهد للمتقدّم قبله، والمتقدّم يشهد للمتأخر.

واستعمل في أمرك الكتمان كما يوصي بني القوم خاصّته، فقال: استعينوا على أموركم بالكتمان، ولا تظهر أحدًا على شيء ممّا تُظهر عليه من هو فوقه بوجه ولا سبب، وعليك بإظهار التقشُّف للعامّة والوقار عندهم، وتجنَّبْ ما هو منكر عندهم، ولا تنبسط كل الانبساط لإخوانك البالغين كما فعل من كان قبلك فإنه أتى بالتشديد ثم حلّ الأمور، فإذا تدبّرت بهذا التدبير وسلكت طريقته فقد سلكت طريق الأنبياء وأخذت حدودهم، وعليك بعد ذلك بالاجتهاد في معالجة خفّة اليد، والأخذ بالأعين والحذق بالشعبذة، فلن يخلو من الحاجة إلى ذلك عند قوم ينسبونك بعمله إلى إقامة المعجزات، كما نسبوا قومًا تقدّموا؛ وعليك بمعرفة أحاديث الأوّلين وقصصهم وطرائقهم ومذاهبهم، لتكون بيّنة أمرك في الأقاويل على قدر ما يصلح لأهل زمانك، ترشد وتوفَق ويقدّم على الأيام أمرك، ويعلو ذكرك، ويكون الداخل في أمرك بعد

---

(١) المراد بالتعطيل: نفي الصفات، والمعطلة، هم المعتزلة.

وفاتك أكثر من الداخل معك في حياتك، فينفع لك ولمخلفيك من بعدك بك، وعلى يديك ويدي أمثالك من أهل النجابة والعقل دعوة الحق، وتملك لك ولعقبك وذريّتك ملكًا لا ينبغي لغيرك مثله.

فهذه وصيّتي لك مشتملة على جمل من النواميس الطارقة للأنبياء على قدر عقولهم.

قال الشريف رحمه الله تعالى: ووجدتُ في هذا الكتاب المعروف بكتاب السياسة أيضًا فصلاً فيه (ولشيخنا الجليل المقدس)، وهذا مختصر منه يوصي دعاته في أهل الأديان ـ وذلك لأمّة محمد خاصة: ـ

فابذل الآن سيفك فيهم إذا تمكنت منهم وصار لك حزب، وظهرْتَ بهذه الحيل التي قد وقفتك عليها، واستملت الناس بها فإنّهم أعداؤنا، وصفْ أموالهم واستفرد بناتهم وأولادهم، ولا تخفر[1] لهم ذمّة ولا تحفظ لهم قربة، ولا ترحم علويًا، فلو تمكن علوي كتمكّن غيره من الأنبياء للقينا منه جهدًا، وعبّر بما يدّعيه من حقوق جدّه على هؤلاء الحمير ما هو أكثر مما عبره جده، وإياك والإغضاء عمّن تجده من ولد عليّ، يعني اقتله إذا تمكّنت منه، وإيّاك والرخصة لأحد من أسنانك في الثقة بواحد منهم، تهتدي وتوفّق لا زلت بالعلم سعيدًا، وإلى الخير هاديًا ومهديًا، وعلى جميع الأحوال الحمد لإلهنا على ما منحنا، وصلواته على عباده المصطفين، يعني إلهه الذي أباحه اللذات وأعماه عن الهدى، وفتح له طرق الضلالة، وعباده الذين اصطفى دعاته الذين بهم يضلّون الناس.

هذا ما حكاه الشريف أبو الحسين من دعواتهم التسع، وعهدهم الذي يأخذونه ووصاياهم.

وحكى عز الدين بن الأثير الجزري رحمه الله تعالى في تاريخه الكامل ـ عند ذكره لأخبار القرامطة قال:

وكان فيما يحكى عن مذهبهم أنّهم جاؤوا بكتاب فيه ـ يقول الفَرَج بن عثمان ـ وهو من قرية يقال لها نصرانة، وهو داعية المسيح وهو عيسى، وهو الكلمة، وهو المهدي، وهو أحمد بن محمد ابن الحنفيّة، وهو جبريل، وذكر أنّ المسيح تصوّر له في جسم إنسان وقال: إنّك الداعية، وإنّك الحجّة، وإنّك الناقة، وإنّك الدابّة، وإنّك يحيى بن زكريا، وإنّك روح القدس، وعرّفه أن الصلاة أربع ركعات ـ ركعتان قبل

(١) خفر العهد: نقضه.

طلوع الشمس، وركعتان قبل غروبها، وأنّ الأذان في كل صلاة أن يقول: الله أكبر، أربع مرات أشهد أنّ لا إله إلا الله مرتين، أشهد أنّ آدم رسول الله، أشهد أنّ نوحًا رسول الله، أشهد أنّ إبراهيم رسول الله، أشهد أنّ موسى رسول الله، أشهد أنّ عيسى رسول الله، أشهد أنّ محمدًا رسول الله، أشهد أنّ أحمد بن محمد ابن الحنفيّة رسول الله، وأن يقرأ في كل ركعة الاستفتاح، وهو من المنزّل على أحمد بن محمد بن الحنفيّة، والقبلة إلى بيت المقدس، والجمعة يوم الاثنين لا يعمل فيه شيء، والسورة التي يقرأها:

الحمد لله بكلمته وتعالى باسمه، المنجد لأوليائه بأوليائه، قل إنّ الأهلّة[1] مواقيت للناس ظاهرها، ليعلم عدد السنين والحساب والشهور والأيام، وباطنها، أوليائي الذين عرفوا عبادي، سبيلي: اتّقوني يا أولي الألباب، وأنا الذي لا أُسأل عما أفعل، وأنا العليم الحكيم، وأنا الذي أبلو عبادي وأمتحن خلقي، فمن صبر على بلائي ومحنتي واختباري أدخلته في جنّتي وأخلدته في نعيمي، ومن زال عن أمري وكذّب رسلي أخلدته مهانًا في عذابي، وأتممت أجلي وأظهرت أمري على ألسنة رسلي، وأنا الذي لم يَعْلُ عليّ جبّار إلا وضعته، ولا عزيز إلا أذللته، وليس الذي أصرّ على أمره ودام على جهالته، وقال: لن نبرح عليه عاكفين وبه موقنين، أولئك هم الكافرون، ثم يركع ويقول في ركوعه: سبحان ربّي ورب العزّة، وتعالى عما يقول الظالمون يقولها مرّتين، فإذا سجد قال: الله أعلى مرّتين، الله أعظم مرّتين.

ومن شرائعه أن يصوم يومين في السنة، وهما المهرجان والنيروز[2]، وأنّ النبيذ حرام، والخمر حلال، ولا غسل من جنابة إلا الوضوء كوضوء الصلاة، وأنّ من حاربه واجبٌ قتله، ومن لم يحاربه ممّن خالفه أخذ منه الجزية، ولا يؤكل كلّ ذي ناب ولا ذي مخلب.

وقد أخذ هذا الفصل حقّه من الإطالة والإسهاب، فلنذكر مبدأ هذه الدعوة.

ذكر ابتداء دعوة القرامطة

قال الشريف أبو الحسين رحمه الله تعالى: كان مبدأ هذه الدعوة الخبيثة إلى محمد بن إسماعيل بن جعفر، وزعموا أنّه الإمام المهدي الذي يظهر في آخر الزمان

---

(١) الأهلة: واحدتها هلال.

(٢) النوروز أو النيروز: اليوم الجديد، وهو أول يوم من السنة الشمسية الإيرانية، ويوافق الحادي والعشرين من شهر مارس من السنة الميلادية.

ويقيم الحق وأنّ البيعة له، وأنّ الداعي إنما يأخذها على الناس له، وأنّ ما يجمع من الأموال مخزون له إلى أن يظهر، ولم تزل هذه الدعوة إلى محمد بن إسماعيل إلى أن هرب سعيد المسمّى بعبيد الله من سَلَمْيَة[١] إلى المغرب، وتلقّب بالمهدي فصار هو الإمام، وانتسب إلى أنّه من ولد إسماعيل بن جعفر، فنقلوا الدعوة إليه، وكان القول في المبدأ: أن محمد بن إسماعيل حيّ لم يمت، وأنّه يظهر في آخر الزمان وأنه مهديّ الأمّة.

قال: ولم يكن غرض هذا المحتال أن يرفع محمد بن إسماعيل، ولا يأخذ له بيعة، إنّما جعله بابًا يستغل به عقل من يدخل فيه ويتبيّن له أنّه قد تمكّن من خديعته وبلغ المراد منه، شيعيًا كان أو سنيًا. قال: ولما أظهر اللعين ما أظهر من هذه الأقوال كلها، بعد تعلقه بذكر الأئمة والرسل والحجّة والإمام، وأنّه المعوّل والقصد والمراد، وبه اتسقت هذه الأمور ولولا هو لهلك الحق وعدم الهدى والعلم، وظهر في كثير منهم الفجور، وبسط بعضُهم أيديهم بسفك الدماء، وقتل جماعة ممّن أظهر خلافًا لهم، فخافهم الناس جدًا واستوحشوا من ظهور السلاح بينهم، فأظهر موافقتهم كثير من مجاوريهم، مقاربةً لهم وجزعًا منهم.

ثم إنّ الدعاة اجتمعوا واتّفقوا على أن يجعلوا لهم موضعًا، يكون وطنًا ودار هجرة يهاجرون إليها ويجتمعون بها، فاختاروا من سواد الكوفة في طسّوج الفرات - من ضياع السلطان المعروفة بالقاسميّات، قرية تعرف بمهيماباذ، فنقلوا إليها صخرًا عظيمًا، وبنوا حولها سورًا منيعًا عرضه ثمانية أذرع، وجعلوا من ورائه خندقًا عظيمًا، وفرغوا من ذلك في أسرع وقت، وبنوا فيها البنيان العظيم، وانتقل إليها الرجال والنساء من كل مكان، وسمّيت دار الهجرة وذلك في سنة سبع وسبعين ومائتين.

فلم يبق بعد هذا أحد إلا خافهم، ولا بقي أحد يخافونه لقوّتهم وتمكّنهم في البلاد، وكان الذي أعانهم على ذلك تشاغل السلطان ببقيّة الخوارج وصاحب الزنج بالبصرة، وقصر يد السلطان وخراب العراق وركوب الأعراب واللصوص وتلف الرجال وفساد البلدان وقلّة رغبة من يلي الأعمال من ذوي الإصلاح والأمانة من العمّال وأصحاب الحروب، فتمكّن هؤلاء الدعاة ومن تبعهم بهذا السبب، وبسطوا أيديهم في البلاد وعلت كلمتهم، فغلبوا على ذلك سنين.

---

(١) سلمية: بفتح أوله وثانيه، وسكون الميم، وياء مثناة من تحت خفيفة: هي بليدة في ناحية البرية من أعمال حماة بينهما مسيرة يومين. . . (معجم البلدان).

ذكر انتفاض الدعوة عن حالتها الأولى ومقتل عبدان وما كان من أمر زكرويه بعده

قال الشريف: وكان قرمط يكاتب من بسَلَمْية من الطواغيت فلما توفي من كان في وقته وجلس ابنه من بعده كتب إلى حمدان قُرْمُط كتابًا، فلما ورد عليه الكتاب وقرأه أنكر ما فيه، وتبيّن فيه ومنه ألفاظًا قد تغيّرت، وشيئًا ليس هو على النظام الأوّل، فاستراب به وفطن أنّ حادثة حدثت، فأمر قرمط ابن مليح ـ وكان داعيًا من دعاته ـ أن يخرج فيتعرف الخبر، فامتنع عليه واعتذر، فأنفذ من أحضر عبدان الداعية من عمله، فلما حضر أنفذه ليتعرف ما حدث من هذا الأمر، ويكشف عن سبب تغيّره، فسار عبدان لذلك، فلما وصل عُرّف بموت الطاغية الذي كانوا يكاتبونه، فاجتمع بابنه وسأله عن الحجّة ومَنْ الإمام بعده، الذي يدعو إليه، فقال الابن: ومَنْ الإمام؟ قال عبدان: محمد بن إسماعيل بن جعفر صاحب الزمان الذي كان أبوك يدعو إليه، وكان حجّته، فأنكر ذلك عليه وقال: محمد بن إسماعيل لا أصل له، ولم يكن الإمام غير أبي وهو من ولد ميمون بن ديصان، وأنا أقوم مقامه، فعرف عبدان القصة واستقصى الخبر وعلم أنّ محمد بن إسماعيل ليس له في هذا الأمر حقيقة، وإنما هو شيء يحتالون به على الناس، وأنّه ليس من ولد عقيل بن أبي طالب، فرجع عبدان إلى قرمط فعرّفه الخبر، فأمره قرمط أن يجمع الدعاة ويعرّفهم صورة الأمر وما تبين منه، ويقطع الدعوة، ففعل عبدان ذلك وقطعت الدعوة من ديارهم، ولم يمكنهم قطعها من غير ديارهم، لأنها كانت قد امتدّت في سائر الأقطار وامتدّ شرها، وقطعت الدعاة مكاتبة أصحابهم الذين بسَلَمْيَة.

وكان رجل من أولاد القَدّاح قد نفذ إلى الطالقان يبث الدعاة، ونزل بقرمط وهو بسواد الكوفة عند عبوره إلى الطالقان، وكانت الدعاة يكاتبونه، فلما انقطعت المكاتبة عن جميع أولاد القدّاح قطعت عن هذا الذي بالطالقان، فطال انتظاره، فشخص عن الطالقان ليقصد قرمط، وكان قرمط قد سار إلى كَلْواذَى[1]، فلما وصل إلى كلواذى سأل عن قرمط، فعرف أنّه انتقل فلا يُدرى أين مضى وما عرف لقرمط بعد ذلك خبر، ولا عُلمت وفاته ولا ما اتفق له، فقصد ابن القدّاح سواد الكوفة، فنزل على عبدان، فعتب عليه وعلى جميع الدعاة في انقطاع كتبهم عنه، فعرّفه عبدان أنهم

(١) كلواذى: هو طسوج قرب مدينة السلام بغداد، وناحية الجانب الشرقي من بغداد من جانبها وناحية الجانب الغربي من نهر بوق، وهي الآن خراب... (معجم ياقوت).

قطعوا الدعوة وأنهم لا يعودون فيها وأن أباه كان قد غرّهم وادّعى نسبه من عقيل بن أبي طالب كذبًا ودعا إلى المهدي، فكنّا نعمل على ذلك، فلما تبينا أنّه لا أصل لذلك، وعرفنا أن أباك من ولد ميمون بن ديصان وأنّه صاحب الأمر، تُبْنا إلى الله تعالى مما تحمّلناه، وحسبنا ما كفرنا أبوك فتريد أن تردّنا كفارًا؟! انصرف عنا إلى موضعك.

قال: وكان عبدان قد تاب من هذه الدعوة حقيقة، فلما أيِس منه صار إلى زَكْرُويَه بن مهَرُويَه، فعرّفه خبر عبدان وما ردّ عليه، فلقيه زكرويه بكل ما يحب، وقدر أنّه ينصبه داعيًا مقام أبيه، فيستقيم له أخذ الأموال وجمع الرجال، وواطأه على ذلك، وقال له: إن هذا الأمر لا يتم مع عبدان، لأنه داعي البلد كلّه، والدعاة من قبله والناس من تحت يده، وأنه لا يجيبه إلا أهل دعوته خاصة. وشرعًا في إعمال الحيلة على قتل عبدان، واتفقا على ذلك، ثم وجّه زَكْرُويَه إلى رجل من بني تميم بن كليب وأخ له كانا من أهل دعوته، وأحضر جماعة من قراباته وثقاته فأظهرهم على ابن اللعين، وعرّفهم أنّه ابن الحجّة، وأن الحجّة توفي وأن ابنه هذا يقوم مقامه، فأجلّوه وأعظموه وقالوا له: مرنا بأمرك، فأمرهم بقتل عبدان، وعرّفهم أنه نافق وعصى وخرج عن الملّة، فساروا إليه من ليلتهم وبيّتوه[1] فقتلوه، وكان زكرويه هذا من تحت يد عبدان، وعبدان هو الذي أقامه داعية فلما شاع في الناس أنّ زكرويه قتل عبدان طلبه الدعاة والقرامطة ليقتلوه فاستتر، وخالفه القوم بأسرهم إلا أهل دعوته، وخاف على نفسه، ولم يتم له أمره الذي دبّره، فقال لابن اللعين: قد ترى ما حدث، ولا آمن عليك وعلى نفسي، فارجع إلى بلدك ودعني، فإني أرجو أن يتغيّر الأمر، فأتمكن من الناس وأدعوهم إليك، فإذا تمكنت من ذلك أرسلت إليك لتصير إليّ، فانصرف إلى الطالقان واستتر زكرويه وتنقّل في القرى، وذلك في سنة ست وثمانين ومائتين، والقرامطة تطلبه وأصحاب عبدان يرصدونه، وكان قد اتّخذ مطمورة تحت الأرض على بابها صخرة، فإذا دخل قوم إلى القرية في طلبة قامت امرأة في الدار التي هو فيها إلى تَنور ينقل، فوضعته بقرب الصخرة ثم أشعلت النار، وأرت أنها تريد أن تخبز، فيخفى أمره على من يطلبه، فمكث كذلك سنة ست وسنة سبع وثمانين ومائتين فلما رأى انحراف أهل السواد عنه إلا أهل دعوته وطال أمره، أنفذ ابنه الحسن في سنة ثمان وثمانين ومائتين إلى الشام، وكان من أمره ما نذكره إن شاء الله تعالى بعد ذكرنا لأخبار أبي سعيد الجنّابي.

---

(١) بيت القوم: أوقع بهم ليلًا بغتة.

ذكر أخبار أبي سعيد الجنابي وظهوره بالبحرين

هو أبو سعيد بن بهرام من أهل جنَّابة[١]، وأصله من الفرس وكان يعمل الفراء، وسبب دخوله في هذه الدعوة وظهوره، أنّه سافر إلى سواد الكوفة، فذكر أنه تزوّج بقرية من سواد الكوفة، إلى قوم يقال لهم بنو القصّار، وكانوا أصولاً في هذه الدعوة الخبيثة فأخذها عنهم، وقيل بل أخذ الدعوة عن نفسه، وقد قيل إنه تلقاها عن حمدان قُرْمُط، وسار داعية من قبله فنزل القَطِيف، وهي حينئذ مدينة عظيمة، فجلس بها يبيع الدقيق ولزم الوفاء والصدق، ودعا الناس، فكان أوّل من أجابه الحسين وعلي وحمدان بنو سنبر، وقوم ضعفاء ما بين قصّاب وحمّال وأمثال هؤلاء.

قال الشريف أبو الحسين: فلما دعا بتلك الناحية وقويت يده واستجاب له الناس وجد بناحيته داعيًا يقال له أبو زكريا الصمامي كان عبدان الداعي أنفذه قبل أبي سعيد إلى القطيف وما والاه، فلما تبيّن أمره أبو سعيد الجنَّابي عظم عليه أن يكون داع غيره، فقبض عليه وحبسه في بيت حتى مات هزلاً. قال: وقد ذكر أنّ هذا الداعي أخذ على بني سنبر قبل أبي سعيد، وكان في أنفسهم حقد عليه لقتله أبا زكريا.

وحكى ابن الأثير الجزري في تاريخه الكامل ابتداء أمر القرامطة بناحية البحرين:

أن رجلًا يعرف بيحيى بن المهدي قصد القطيف، ونزل على رجل يعرف بعلي بن المُعَلَّى بن حمدان، وكان متغاليًا في التشيّع، فأظهر له يحيى أنّه رسول المهدي، وذلك في سنة إحدى وثمانين ومائتين، وذكر أنه خرج إلى شيعته يدعوهم لأمره، وأنّ خروجه قد قرب، فجمع علي بن المُعَلَّى الشيعة من أهل القطيف، وأوقفهم على الكتاب الذي أحضره يحيى بن المهدي من المهدي إليهم، فأجابوه: إنهم خارجون معه إذا ظهر أمره، وأجابه سائر قرى البحرين بمثل ذلك، فكان فمين أجابه أبو سعيد الجَنَّابِي، ثم غاب يحيى بن المهدي مدة، ورجع بكتاب يزعم أنّه من المهدي إلى شيعته، فيه: قد عرّفني رسولي يحيى بن المهدي مسارعتكم إلى أمري، فليدفع إليه كل رجل منكم ستة دنانير وثلثي دينار، ففعلوا ذلك ثم غاب وعاد بكتاب، فيه ادفعوا إلى يحيى خمس أموالكم، فدفعوا إليه الخمس.

---

(١) جنابة: بالفتح ثم التشديد وألف، وباء موحدة: بلدة صغيرة من سواحل فارس... وقيل: جنابة ناحية بالبحرين بين مهروبان وسيراف ويرى ياقوت أن هذا غلط... (معجم البلدان).

قال: وحكي أن يحيى بن المهدي جاء إلى منزل أبي سعيد الجنّابي فأكل طعامًا، وخرج أبو سعيد من البيت وأمر امرأته أن تدخل إلى يحيى، وأن لا تمنعه إذا أرادها، فانتهى الخبر إلى الوالي فضرب يحيى وحلق رأسه ولحيته، وهرب أبو سعيد إلى جنّابة، وصار يحيى إلى بني كلاب وعقيل والحَرِيش[١]، فاجتمعوا معه ومع أبي سعيد فعظم أمر أبي سعيد، واشتدت وطأته وظهر أمره؛ قال: وكان ظهوره بالبحرين في سنة ست وثمانين ومائتين.

ذكر استيلاء أبي سعيد الجنابي على هجر وما كان من خلال ذلك من حروبه ووقائعه

قال الشريف أبو الحسين: كان من الاتفاق لأبي سعيد أن البلد الذي قصده بلد واسع كثير الناس، ولهم عادة بالحروب، ورجال شداد جهّال غُفل القلوب، بعيدون من علم شريعة الإسلام ومعرفة نبوّة أو حلال أو حرام، فظفر بدعوته في تلك الناحية، ولم يناوئه مناوىء، فقاتل بمن أطاعه من عصاه حتى اشتدت شوكته جدًا، وكان لا يظفر بقرية إلا قتل أهلها ونهبها، فهابه الناس وأجابه كثير منهم طلبًا للسلم، ورحل من البلد خلق كثير إلى نواحي مختلفة وبلدان شتى، خوفًا من شرّه، ولم يمتنع عليه إلا هَجَر[٢]، وهي مدينة البحرين ومنزل سلطانها والتجّار والوجوه، فنازلها شهورًا يقاتل أهلها، فلما طال عليه أمرها وكل بها جلّ أصحابه من أهل النجدة، ثم ارتفع فنزل الأحساء وبينها وبين هجر ميلان، فابتنى بها دارًا وجعلها منزلاً، وتقدّم في زراعة الأرض وعمارتها، وكان يركب في الأيام إلى هجر هو ومن يحاصرها، ويعقب من أصحابه في كل يوم قومًا، ثم دعا العرب فأجابه أوّل الناس، بنو الأضبط من كلاب[٣]، لأن عشيرتهم كانوا أصابوا فيهم دمًا، فساروا إليه بحرمهم وأموالهم فنزلوا

---

(١) الحريش: اسم معاوية بن كعب بن ربيعة بن عامر، بن صعصعة، بن معاوية، بن بكر بن هوازن.

(٢) هجر: بفتح أوله وثانيه: الهجر بلغة حمير والعرب العارية القرية، فمنها: هجر البحرين، وهجر نجران، وهجر جازان، وهجر حصنة من مخلاف مازن، وهجر: مدينة وهي قاعدة البحرين... (معجم البلدان لياقوت).

(٣) بنو كلاب: بطن من عامر بن صعصعة، وهم بنو كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة. منهم القتال الكلابي الشاعر المشهور... وكانت ديارهم حمى ضربة، وهي حمى كليب، وحمى الربذة، في جهات المدينة، وفدك، والعوالي، ثم انتقلوا بعد ذلك إلى الشام... (نهاية الأرب للقلقشندي ٤٠٧).

الأحساء، وأطمعوه في بني كلاب وسائر من يقرب منه من العرب، وطلبوا منه أن يضمّ إليهم رجالاً ففعل ذلك، فلقوا بهم عشيرتهم فاقتتلوا فهزمتهم القرامطة فأكثروا فيهم القتل، وأقبلوا بالحريم والأموال والأمتعة نحو الأحساء، فاضطر المغلوبين إلى أن دخلوا في طاعته وصاروا تحت أمره، ثم وجّه أبو سعيد بجيش آخر إلى بني عقيل فظفر بهم، فقصدوه ودخلوا في طاعته، فملك تلك الفلاة، وتجنّب قتاله كلّ أحد إلا بني ضبّة[1]، فإنها ناصبته الحرب، فلما اجتمع إليه من اجتمع من العرب وغيرهم خوّفهم ومنّاهم مُلك الأرض كلها، فاستجاب بعضهم إلى دعوته فردّ إليهم ما أخذ منهم من أهل وولد، وأجاب آخرون رغبة في دعوته، ولم يردّ على أحد إبلاً ولا عبدًا ولا أَمة وأنزل الجميع معه الأحساء، وأبى قوم دعوته فردّ عليهم حرمهم ومن لم يبلغ من أولادهم أربع سنين وشيئًا من الإبل يحملون عليه، وحبس ما سوى ذلك كله، وجمع الصبيان في دور وأقام عليهم قوّامًا، وأجرى عليهم ما يحتاجون إليه، ووسم جميعهم على الخدود لئلا يختلطوا بغيرهم، وعرّف عليهم عرفاء، وعلّم من صلح لركوب الخيل والطعان فنشأوا لا يعرفون غيره، وصارت دعوته طبعًا لهم، وقبض كل مال في البلد والثمار والحنطة والشعير، وأنفذ الرعاة في الإبل والغنم، وقومًا للنزول معها لحفظها والتنقُّل معها على نوب معروفة، وأجرى على أصحابه جرايات[2] فلم يكن يصل أحد إلى غير ما يطعمه، وهو لا يغفل مع ذلك عن هَجَر، فلما أضجروه وطال أمرهم وقد كان بلغ منهم الحصار كل غاية، وأكلوا السنانير والكلاب وكان حصارهم يزيد على عشرين شهرًا، ثم جمع أصحابه وحشد لهم وعمل الدبّابات، ومشى بها الرجال إلى السور، فاقتتلوا أشد قتال لم يقتتلا مثله قبل ذلك، ودام القتال عامّة النهار، وكلٌ منتصفٌ من الآخر، وكثرت بينهم القتلى، ثم رجع إلى الأحساء، ثم باكرهم فناوشوه فانصرف، فلما قرب من الأحساء أمر الرجّالة ومن جرح أن ينصرف، وعاود في خيل فدار حول هجر، وفكّر فيما يكيدهم به، وإذا لِهَجَر عين عظيمة كثيرة الماء، يخرج من نشز من الأرض غير بعيد منها، ثم يجتمع ماؤها في نهر ويستقيم حتى يمرّ بجانب هجر ملاصقًا، ثم ينزل إلى النخيل فيسقيها، فكانوا لا يفقدون الماء في حصارهم، فلما تبيّن له أمر العين انصرف إلى الأحساء، ثم غدا فأوقف على باب المدينة عسكرًا، ثم رجع إلى الأحساء وجمع الناس كلّهم وسار في

---

(١) بنو ضبة: هم بنو ضبة بن أد بن طانجة... وإليهم ينسب: الضبي، صاحب الأمثال... وهم قتلوا المتنبي الشاعر... (نهاية الأرب للقلقشندي).

(٢) الجرايات: جمع الجراية، وهي الجاري من الرواتب.

آخر الليل فورد العين بُكْرَة بالمعاول والرمل وأوقار[١] الثياب الخلقان ووبر وصوف وأمر قومًا بجمع الحجارة وآخرين ينفذون بها إلى العين، وأعدّ الرمل والحصى والتراب، فلما اجتمع أمر أن يطرح الوبر والصوف وأوقار الثياب في العين، وأن يطرح فوقها الرمل والحصى والتراب والحجارة ففعل ذلك، فقذفته العين ولم يغن ما فعلوه شيئًا، فانصرف إلى الأحساء هو ومن معه، وغدا في خيل فضرب في البرّ، وسأل عن منتهى العين فقيل له إنها تتصل بساحل البحر، وأنها تنخفض كلما نزلت، فردّ جميع من كان معه وانحدر على النهر نحوًا من ميلين ثم أمر بحفر نهر هناك، ثم أقبل هو وجَمعه يأتون في كل يوم، والعمّال يعملون حتى حفره إلى السباخ، ومضى الماء كله عنهم فصبّ في البحر، فلما تمّ له ذلك نزل على هجر وقد انقطع الماء عمّن بها، فأيقنوا بالهلاك فهرب بعضهم نحو البحر، فركبوه إلى جزيرة أدالى وسيراف[٢] وغيرهما، ودخل قوم منهم في دعوته، وخرجوا إليه فنقلهم إلى الأحساء، وبقيت طائفة لم يقدروا على الهرب ولم يدخلوا في دعوته، فقتلهم وأخذ ما في المدينة ثم أخربها، وصارت الأحساء مدينة البحرين.

ذكر الحرب بين القرامطة أصحاب أبي سعيد وأهل عمان

قال: ولما استولى على هجر وخرّبها أنفذ سريّة من أصحاب ستمائة فارس إلى عُمان، فوردت على غفلة فقتلوا ونهبوا وأسروا في عمل عمان وأنفذ أهل عُمان سريّة إليهم في ستمائة رجل من أهل النجدة فأدركوهم فجعلت القرامطة ما غنموه وراء ظهورهم، وأقبلوا نحو أهل عمان فاقتتلوا، حتى تكسّرت الرماح وتقطّعت السيوف وتعانقوا، وتكادموا[٣] وتراضخوا[٤] بالحجارة، فلم تغرب الشمس حتى تفانوا، فبقي من أهل عمان خمسة نفر لا حراك بهم، ومن القرامطة ستة نفر مجرَّحين إلا أنّهم أحسن حالاً من العُمَانيّة، فركب القرامطة ست رواحل وعادوا إلى أبي سعيد، فأخبروه الخبر واعتذروا إليه، فلم يقبل عذرهم وأمر بهم فقتلوا، وقال: هؤلاء خاسوا بعهدي

(١) الأوقار: واحدتها الوقر، وهو الحمل الثقيل.

(٢) سيراف: بكسرِ أوله، وآخره فاء: هي مدينة جليلة على ساحل بحر فارس كانت قديمًا فرضة للهند، وقيل: كانت قصبة كورة أردشير خرة من أعمال فارس... وبين سيراف والبصرة إذا طاب الهواء سبعة أيام... (معجم البلدان).

(٣) يكادم الفرسان: عض أحدهما صاحبه.

(٤) تراضخوا بالسهام أو بالحجارة: تراموا بها.

ولم يواسوا أصحابهم الذين قتلوا، فأنزلت بهم ما كانوا له أهلًا، وتطيّر بهلاك السريّة وأمسك عن أهل عمان.

ذكر الحرب بين القرامطة وعسكر المعتضد بالله وانتصار القرامطة

قال: ولما كان من أمر أبي سعيد الجنّابي ما كان، اتصلت أخباره بالمعتضد بالله، وكتب إليه أحمد بن محمد بن يحيى الواثقي - وهو إذ ذاك يتولى البصرة - يعلمه خبر أبي سعيد، وأنّه اتّصل به أنّه يريد الهجوم على البصرة، فأمره المعتضد بالله أن يعمل على البصرة سورًا فعمله، فكان مبلغ ما صرف عليه أربعة عشر ألف دينار، ثم كتب الواثقي إلى المعتضد يسأله المدد، فسيّر إليه ثلاثمائة رجل في سماريّات، وأنفذ المعتضد بالله العبّاس بن عمرو الغنوي في ألفي رجل، وأقطعه اليمامة والبحرين وأمره بمحاربة القرامطة - وكان يتولّى بلاد فارس - فسار إلى البصرة فوردها وذلك في سنة سبع وثمانين ومائتين، وخرج منها نحو هجر وبينهما بضع عشرة ليلة في فلاة مقفرة، وتبعه من مطوّعة[1] البصرة نحو من ثلاثمائة رجل من بني ضبة وغيرهم، وعرف أبو سعيد خبرهم فسار نحوهم وقدّم أمامه مقدّمة، فلما عاينهم العبّاس بن عمرو خلف سواده وسار إليهم فيمن خفّ من أهل العسكر وأدرك أبو سعيد مقدّمته في باقي أصحابه، فتناوشوا القتال فكانت بينهم حملات، ثم حجز الليل بينهم فانصرفوا على السواء فلما جاء الليل انصرفت مطوّعة البصرة ومن معهم من بني ضبّة، فكسر ذلك الجيش وفتّ في أعضادهم، وأصبح العباس بن عمرو فعبّى أصحابه للقتال والتقوا، فجعل بدرًا غلام أحمد بن عيسى ابن الشيخ في نحو مائة من أصحابه على ميمنة أبي سعيد، فأوغل فيهم فلم يرجع منهم أحد، وحمل أبو سعيد على العبّاس وأصحابه فانهزموا، وأسر العبّاس بن عمرو ومعه نحو من سبعمائة رجل من أصحابه، واحتوى القرامطة على عسكره، وقتل أبو سعيد من غد يومه جميع الأسرى ثم أحرقهم، وترك العبّاس بن عمرو ومضى المنهزمون فتاه كثير منهم في البرّ وتلف كثير منهم عطشًا، وورد قوم منهم البصرة فارتاع الناس لهم، حتى أخذوا في الانتقال عن البصرة فمنعهم الواثقي.

قال: ولما كان بعد الوقعة بأيام أحضر أبو سعيد الجنّابي العبّاس بن عمرو، وقال له: أتحب أن أطلقك؟ قال: نعم، قال: على أن تبلغ عني صاحبك ما أقول،

(١) المطوعة: جمع المطوع، وهو المتطوع للجهاد ونحوه.

قال: أفعل، قال: تقول الذي أنزل بجيشك ما أنزل بغيُك، هذا بلد كان خارجًا عن يدك غلبتُ عليه وأقمتُ به وكان فيّ من الفضل ما آخذ غيره، فما عرضتُ لما كان في يدك ولا هممتُ به، ولا أخَفْتُ لك سبيلاً، ولا نلتُ أحدًا من رعيّتك بسوء، فتوجيهك إلي الجيوش لأي سبب؟! اعلم أني لا أبرح عن هذا البلد ولا يوصل إليه وفيّ، وفي هذه العصابة التي معي روح، فاكفني نفسك ولا تتعرّضْ لما ليس لك فيه فائدة، ولا تصل إلى مرادك منه إلا ببلوغ القلوب الحناجر، وأطلقه وأرسل معه من يردّه إلى مأمنه، فأوردوه بعض السواحل فصادف مركبًا فركب فيه إلى الأُبلة، ووصل إلى بغداد في شهر رمضان من السنة. قال: وقد كان الناس يعظّمون أمر العباس ويكثرون ذكره ويسمّونه قائد الشهداء، فلما وصل إلى المعتضد بالله عاتبه على تركه الاستظهار والتحرّز وأنّبه، فاعتذر بهرب بني ضبّة ومن كان معهم من المطَوّعة وهرب أصحابه عنه، وأنّه لو أراد الهرب لأمكنه، فلم يبرح حتى رضي عنه وزال همّه، ثم سأله عن خبره فعرّفه جميعه، ووصف له أحوال القرامطة وما قاله أبو سعيد بعد أن استأذنه في ذلك فأذن له، فقال: صدق ما أخذ شيئًا كان في أيدينا، وأطرق مفكرًا ثم رفع رأسه، فقال: كذب عدوّ الله الكافر، المسلمون رعيّتي حيث كانوا من بلاد الله، والله لئن طال بي عُمْر لأشخصنَّ بنفسي إلى البصرة وجميع غلماني، ولأوجهنّ إليه جيشًا كثيفًا فإن هزمه وجّهت جيشًا، فإن هزمه خرجتُ في جميع قوّادي وجيشي إليه، حتى يحكم الله بيني وبينه، وشغله بعد ذلك أمر وصيف غلام ابن أبي السّاج وأحفزه، فخرج في طلبه وهو عليل، وذلك في شوّال من هذه السنة، فأخذه وعاد إلى بغداد فدامت علّته واستمرّ وجعه ومات.

قال القاسم بن عبيد الله: ما زال أمير المؤمنين المعتضد بالله يذكر أمر أبي سعيد في مرضه ويتلهّف، فقلت: ما هذا يا أمير المؤمنين؟ قال: حسرة في نفسي كنت أحب أن أبلغها قبل موتي، والله لقد كنت وضعت في نفسي أن أركب، ثم أخرج إلى باب البصرة متوجّهًا نحو البحرين، ثم لا ألقى أحدًا أطول من سيفي إلا ضربت عنقه، وإني أخاف أن يكون من هناك حوادث عظيمة.

قال: وأقبل أبو سعيد بعد إطلاق العبّاس على جمع الخيل وإعداد السلاح واتخاذ الإبل وإصلاح الرجال ونسج الدروع والمغافر ونظم الجواشن وضرب السيوف والأسنّة واتخاذ الروايا والمزاد والقرب وتعليم الصبيان الفروسية، وطرد الأعراب عن قربه وسدّ الوجوه التي يُتعرّف منها أمر بلده وأحواله بالرجال وإصلاح أراضي المزارع وأصول النخل وعمارته، وإصلاح مثل هذه الأمور وتفقدها، ونصب الأمناء على

ذلك، وإقامة العرفاء على الرجال، والاحتياط على ذلك كلّه، حتى بلغ من تفقّده واحتياطه أنّ الشاة كانت تذبح فيسلَم اللحم إلى العرفاء، ليفرّقوه على من يُرسم لهم، ويدفع الرأس والأكارع والبطن إلى العبيد والإماء، ويجزَ الصوف والشعر من الغنم ويفرّقه على من يغزله، ثم يُدفع إلى من ينسجه عبيًا وأكسية وغرائر[١] وجوالقات ويُفتل منه حبال، ويسلم الجلد إلى الدبّاغ، فإذا خرج من الدبّاغ سُلّم إلى خرّازي القرب والروايا والمزاد، وما كان من الجلود يصلح نعالاً وخفافًا عمل منه، ثم يجمع ذلك كلّه إلى خزائن، فكان ذلك دأبه لا ينفل عنه، ويوجّه في كل مديدة بخيل إلى ناحية البصرة، فتأخذ من وجدت فتصير بهم إليه فيستعبدهم، فزادت بلاده وعظمت هيبته في صدور الناس.

قال الشريف أبو الحسين: وقد كان وَاقَع بني ضبّة عند طرده لهم عن قرب بلده، فأصاب منهم وأصابوا منه، ولم يتباعدوا عنه بعيدًا، فلما شخص مع العبّاس بن عمرو منهم من شخص ـ في وقت مسيره لقتاله ـ ازداد بذلك حنقًا عليهم، فواقعهم وقائع مشهورة بالشدّة والعظم، ثم ظفر بهم فأخذ منهم خلقًا، وبنى لهم حبسًا عظيمًا وجمعهم فيه وسدّه عليهم، ومنعهم الطعام والشراب فصاحوا وضجّوا فلم يغثهم، فمكثوا على ذلك شهرًا ثم فتح عليهم، فوجد الأكثر منهم موتى، ووجد نفرًا يسيرًا قد بقوا على حال الموتى، وقد تغذوا بلحوم الموتى، فخصاهم وخلاّهم فمات أكثرهم.

ذكر مقتل أبي سعيد الجنابي

كان مقتله في سنة إحدى وثلاثمائة بعد أن استولى على سائر بلاد البحرين، وكان سبب مقتله أنّه لما هزم جيش العباس بن عمرو كما تقدم، واستولى على عسكره، أخذ من عسكره خادمًا له صقلبيًا، فاستخدمه وجعله على طعامه وشرابه، فمكث كذلك مدة طويلة لا يرى أبا سعيد فيها مصليًا لله عزّ وجلّ صلاة واحدة، ولا يصوم في شهر رمضان ولا في غيره يومًا واحدًا، فأضمر الخادم لذلك قتله، فدخل معه الحمّام يومًا ـ وكان الحمّام في داره، فأخذ الخادم معه خنجرًا ماضيًا ـ ولم يكن معه في الحمّام غيره، فلما تمكّن منه أضجعه فذبحه، ثم خرج فقال: السيد يستدعي فلانًا لبعض بني سنبر فأحضر فقال: ادخل فدخل، فبادره فقبض عليه وذبحه، ولم يزل يستدعي من رؤساء القرامطة واحدًا واحدًا حتى قتل جماعة من الرؤساء والوجوه،

(١) الغرارة: وعاء من الخيش ونحوه يوضع فيه القمح ونحوه، وهو أكبر من الجوالق، جمع غرائر.

إلى أن استدعى بعضهم فنظر عند دخوله إلى باب البيت الأوّل دمًا جاريًا، فاستراب بذلك وخرج مبادرًا فلم يدركه الخادم وأعلم الناس، وعمد الخادم إلى الباب فأغلقه وكان وثيقًا، فاجتمع الناس ونقبوا نقوبًا إلى أن وصلوا إليه، فأخذه ابنه سعيد فأمر بشدّه بالحبال، ثم قرض لحمه بالمقاريض حتى مات رحمه الله تعالى.

وخلَف أبو سعيد من الأولاد: أبا القاسم سعيدًا، وأبا طاهر سليمان، وأبا منصور أحمد، وأبا العباس إبراهيم، والعبّاس محمد، وأبا يعقوب يوسف. وكان أبو سعيد قد جمع رؤساء دولته وبني زرقان، وكان أحدهم زوج ابنته، وبني سنبر، وكان متزوجًا إليهم، وهم أخوال أولاده وبهم قامت دولته وقوي أمره، فأوصى إليهم إن حدث به موت أن يكون القيّم بأمرهم ابنه سعيدًا إلى أن يكبر أبو طاهر، وكان سعيد أكبر من أبي طاهر سنًا، فإذا كبر أبو طاهر كان المدبّر لهم، فلما قتل جرى الأمر على ما وصّاهم به، وكان قد أخبرهم أنّ الفتوح يكون لأبي طاهر، فجلس سعيد يدبّر الأمر بعد مقتل أبيه إلى سنة خمس وثلاثمائة، ثم سلم الأمر لأخيه أبي طاهر، فدبّره وعمل أشياء موّه بها على عقول أصحابه فقبلوها وعظموا أمره، وكان من أخباره ما نذكره إن شاء الله تعالى، وكانت مدة تغلُّب أبي سعيد على البحرين وما والاها نحوًا من ستة عشر سنة.

ذكر أخبار أبي القاسم الصناديقي ببلاد اليمن

وفي سنة ست وثمانين ومائتين استولى أبو القاسم النجّار المعروف بالصناديقي على اليمن، وكان ابن أبي الفوارس داعي عبدان قد أنفذه داعيًا إلى اليمن، وكان هذا الصناديقي من موضع يعرف بالنَّرْس[1]، وكان يعمل فيه الثياب النرسيّة، وقيل إنه كان يعمل في الكتّان، فلما صار إلى اليمن أجابه رجل من الجند يعرف بابن الفضل، فقوي أمره على إقامة الدعوة الخبيثة، فدخل فيها خلق كثير، فخلعهم من الإسلام، وأظهر العظائم، وقتل الأطفال وسبى النساء، وتسمّى برب العزّة وكان يكاتب بذلك، وأظهر شتم النبيّ ﷺ وسائر الأنبياء، واتخذ دارًا سمّاها دار الصفوة، وكان يأمر الناس بجمع نسائهم من أزواجهم وبناتهم وإخوانهم، ويأمرهم بالاختلاط بهن ليلًا ووطئهنّ،

(١) النرس: بفتح أوله، وسكون ثانيه، وآخره سين مهملة: قرية كان ينزلها الضحاك ببوارسب ببابل، والنرس: نهر حفره نرس بن بهرام بن بهرام بنواحي الكوفة فأخذه من الفرات عليه عدة قرى قد نسب إليه قوم والثياب النرسية منه... (معجم البلدان).

ويحتفظ بمن تحيل منهن في تلك الليلة وبمن تلد من بعد ذلك، ويتخذهم لنفسه خولا[١] ويسمّيهم أولاد الصفوة، وعظمت فتنته باليمن، وأجلى أكثر أهله عنه وأجلى السلطان، وقاتل القاسم بن أحمد بن يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم الحسني الهادي وقلعه عن عمله بصَعْدة[٢]، وألجأه إلى أن هرّب عياله إلى الرسّ[٣] حذرًا منه لقوّته عليه، ثم إنّ الله عزّ وجل رزقه الظفر به فهزمه، وكان ذلك بلطف من ألطاف الله تبارك وتعالى، وهو أن ألقى على عسكره وقد بايته بردًا وثلجًا، قتل به أكثر أصحابه في ليلة واحدة، وقل ما يعرف مثل هذا من البرد والثلج في ذلك البلد، ولما طغى وبغى قتله الله بالأكلة[٤] وأنزل بالبلدان التي غلب عليها بثرًا قاتلاً، كان يخرج على كتف الرجل منهم بثرة فيموت في سرعة، فسمّي ذلك البثر حبّة القرمطيّ، وأخرب الله تعالى أكثر تلك البلاد التي ملكها، وأفنى أهلها بموت ذريع، واعتصم ابنه بعده بالجبال والقلاع، ولم يزل بها مقيمًا يكاتب أهل ملّته، ويُعنِون كتبه، من ابن رب العزّة، ثم أهلكه الله عزّ وجل وبقيت منهم بقيّة، فاستأمنوا إلى القاسم بن أحمد الهادي، ولم يبق للنجّار بقيّة ولا لمن كان على مذهبه.

ولنرجع إلى أخبار زَكْرُويَه بن مَهْرُويَه وخبر من أرسله إلى الشام.

ذكر ظهور القرامطة بالشام وما كان من أمرهم وحروبهم

قد قدّمنا من أخبار زكرويه بن مهرويه واختفائه وحرص أصحاب عبدان على قتله، وأنّه لما طال عليه الأمر أرسل ابنه الحسن إلى الشام وذلك في سنة ثمان وثمانين ومائتين.

قال الشريف أبو الحسين محمد بن علي الحسيني رحمه الله: ولما أرسل

(١) الخول: عطية الله من النعم والعبيد والإماء وغيرهم من الأتباع والحشم... (للواحد والجمع والذكر والأنثى).

(٢) صعدة: بالفتح ثم السكون: مخلاف باليمن بينه وبين صنعاء ستون فرسخًا... وقيل: صعدة مدينة عامرة آهلة يقصدها التجار من كل بلد... وصعدة: ماء جوف العلمين، علمي بني سلول قريب من مخمّر... (معجم البلدان).

(٣) الرسّ: بفتح أوله والتشديد: ماء لبني منقذ بن أعياء من بني أسد... والرس: وادي أذربيجان.

(٤) الأكلة: الحكّة.

زكرويه بن مهرويه ابنه إلى الشام أرسل معه رجلاً من القرامطة من أهل نهر ملحانا[1]، يقال له الحسن بن أحمد ويكنى بأبي الحسين، وأمره أن يقصد بني كلب وينتسب لهم إلى محمد بن إسماعيل بن جعفر، ويدعوهم إلى الإمام من ولده، فاستجاب له فخذ من بني العليص بن ضمضم بن عدي بن جناب بن كلب بن وبرة ومواليهم وانضاف إليه طائفة من بني الأصبع من كلب، ويسمّى هؤلاء بالفاطميين وبايعوه، وكان الخبيث لما رجع إلى الطالقان يكتب إلى زَكْرُوَيه يستأذنه في القدوم عليه، فيجيب بالتوقف، فخرج نحو العراق، فلما وصل إلى السواد وجد زكرويه مختفيًا، فلم يزل حتى توصل إلى المكان الذي هو فيه، فلم يُظهر له لومًا على قدومه وبعث إليه بخبر من استجاب له بالشام، فقال: أنا أخرج حتى أظهر فيهم هناك، فوجّه إليه: نِعْم ما رأيت، فضمّ إليه ابن أخته عيسى بن مهرويه، ويسمّى بالمدثّر لقبًا وبعبد الله اسمًا، وغلامًا من بني مهرويه فتلقّب بالمطوَّق وكان سيّافًا، وأنفذهم إلى الشام، وكتب إلى ابنه الحسن يعرّفه أنّه ابن الحجّة، ويأمره له بالسمع والطاعة، فسار حتى نزل في بني كلب، فلقيه الحسن بن زكرويه وسُرّ به، وجمع له الجمع وقال: هذا صاحب الإمام فامتثلوا أمره، وسرُّوا به وقالوا له: مرنا بأمرك وبما أحببت، فقال لهم: استعدوا للحرب فقد أظلّكم النصر، ففعلوا ذلك، واتصلت أخبارهم بشبل الديلمي مولى المعتضد، وذلك في سنة تسع وثمانين ومائتين. فقصدهم فقتلوه وقتلوا جماعة من أصحابه، وكانت الوقعة بالرصافة من غربي الفرات، ودخلوا الرصافة وأحرقوا مسجدها ونهبوها، وأصعدوا نحو الشام، واعترضوا الناس بالقتل والتحريق ونهب القرى، إلى أن وردوا أطراف دمشق، وكان هارون بن خمارويه بن أحمد بن طولون ردّ أمر دمشق إلى طُغْج بن جُفْ الفرغاني، فلقيتهم عساكره فانهزمت ولم تثبت، وقتل كثير منهم وأخذوا منهم ما قدروا عليه.

قال: ولما هَزَم طغج نزل على دمشق وقاتل أهل البلد، وكان يحضر الحرب على ناقة ويقول لأصحابه: لا تسيروا من مصافّكم حتى تنبعث بين أيديكم، فإذا سارت فاحملوا فإنه لا تُردّ لكم دابّة إذ كانت مأمورة، فسُمّي بذلك صاحب الناقة، وحصر طغج بدمشق سبعة أشهر، فكتب طغج إلى مصر بخبر من قتل من أصحابه، وأنه محصور وقد فني أكثر الناس وخرب البلد، فأنفذوا إليه بدرًا الكبير غلام ابن طولون ـ وهو المعروف بالحمّامي ـ فسار حتى قرب من دمشق وخرج إليه طغج واجتمعوا على محاربة القرامطة، والتقوا واقتتلوا بقرب دمشق، فأصاب رئيس القرامطة

(١) ملحان: (في معجم ياقوت): بالكسر ثم السكون، وحاء مهملة، وآخره نون: هو مخلاف باليمن.. وملحان أيضًا: جبل في ديار بني سليم بالحجاز.

ـ ابن القدّاح ـ سهم فقتله، ويقال أصابه الزراقون بمزراق[١] فيه نفط فاحترق، وحمى أصحابه فقاتلوا عسكر بدر الحمّامي وطغج حتى انحازوا عنهم وانصرفت القرامطة وكان صاحب الناقة هذا المقتول قد ضرب دنانير ودراهم، وكتب على السكّة على أحد الوجهين: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الإسراء: ٨١]، وعلى الوجه الآخر: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [الصافات: ٣٥]، ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣]. قال: فلما انصرفت القرامطة عن دمشق بعد قتل الطاغية بايعوا:

الحسن بن زكرويه بن مهرويه

فسمّى نفسه أحمد وتكنى بأبي العباس وهو صاحب الشامة.

قال ابن الأثير: ولما بايعه القرامطة دعا الناس فأجابه كثير من أهل البوادي وغيرهم، فاشتدت شوكته وأظهر شامة في وجهه، وزعم أنها آيته.

قال الشريف أبو الحسين وسياقه أتمّ: ولما بايعوه ثار حتى افتتح عدّة مدن من الشام، وظهر على جند حمص، وقتل خلقًا كثيرًا من جند المصريين، وتسمّى بأمير المؤمنين على المنابر وفي كتبه، وذلك في سنة تسع وثمانين ومائتين وبعض سنة تسعين ومائتين، ثم سار بمن معه إلى نحو الرقّة[٢]، فخرج إليهم مولى الخليفة المكتفي بالله وكان عليها، فواقعهم فهزموه، وقتلوه واستباحوا عسكره ورجعوا يريدون دمشق، وجعلوا ينهبون جميع ما يمرّون به من القرى، ويقتلون ويسبون ويخربون، فلما قربوا من دمشق أخرج إليهم طغج جيشًا كثيفًا أمّر عليه غلامه بشيرًا، فهزم القرامطةُ الجيش وقُتل بشير في خلق من أصحابه، فلما اتصل بالمكتفي قتل غلامه الذي كان على الرقّة وخبر قتل بشير ندب أبا الأعزّ السُّلَمي، وضمّ إليه عشرة آلاف من الجند والموالي والأعراب، وخلع عليه لثلاث عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الآخر سنة تسعين ومائتين وأنفذه، فسار حتى نزل حلب ثم خرج فنزل وادي بطنان[٣]، فتفرّق الناس ودخل قوم منهم الماء يتبرّدون فيه وذلك في القيظ، ووافاهم

(١) المزراق: الرمح القصير.

(٢) الرقة: بفتح أوله وثانيه وتشديده: هي مدينة مشهورة على الفرات، بينها وبين حران ثلاثة أيام، معدودة في بلاد الجزيرة لأنها من جانب الفرات الشرقي. . . (معجم ياقوت).

(٣) بطنان: بالضم ثم السكون، ونونان بينهما ألف؛ وبطنان الأودية: المواضع التي يستريض فيها الماء، ماء السيل فيكرم بناتها واحدتها بطن. . . وبطنان: هو اسم واد بين منبج وحلب. . . (معجم البلدان).

القرامطة يقدمهم المطوّق، فكان كل إنسان يحذر على نفسه وينجو بها، وركب أبو الأعزّ فرسه وصاح بالناس، فسار إليه جماعة لقي بها أوائل القوم، فلم يلبث إلا اليسير حتى انهزم، وركبت القرامطة أكتاف الناس يقتلون وينهبون حتى حجز الليل بينهم، وقد أتوا على عامّة العسكر وسلم منهم قليل، ولحق أبو الأعزّ في جُميعيّة معه بحلب، ثم تلاحق به قوم حتى حصل في نحو ألف رجل، ووافت القرامطة فنازلوا أهل حلب فحاربهم أبو الأعزّ، فلم يقدروا منه على شيء فانصرفوا، وجمع الحسين بن زكرويه أصحابه، وكان قد اتصل به خلق كثير من اللصوص ومن بني كلب، فسار حتى نزل أطراف حمص فخطب له على منابرها، ثم نهض إليها فأعطاه أهلها الطاعة، وفتحوا له البلد فدخلها، ثم سار إلى حماة ومَعَرَّة النُّعمَان وغيرهما فقتل الرجال والنساء والأطفال، ثم رجع إلى بعلبك فقتل عامّة أهلها، ثم صار إلى سَلَمْيَة فحاربه أهلها وامتنعوا منه، فأعطاهم الأمان ففتحوا له، فبدأ بمن كان فيها من بني هاشم، وكان بها جماعة كثيرة، فقتلهم أجمعين، ثم كرّ على أهلها فأفناهم أجمعين وخرّبها، وخرج عنها وما بها عين تطرف، وكان مع ذلك لا يمرّ بقرية فيدع فيها أحدًا، حتى أخرب البلاد وسبى الذراري وقتل الأنفس من المسلمين وغيرهم، ولم يقم له أحد.

قال الشريف: ووردت كتب التجّار وسائر الناس من دمشق وغيرها بصورة الأمر وغلظه، وأنّ طغج قد فنيت رجاله وبقي في عدّة يسيرة، وأنّ القرامطة تقصد دمشق في أوقات فلا يقاتلهم إلا العامّة وقد أشرف الناس على الهلكة وكثر الضجيج بمدينة السلام، واجتمعت العامّة إلى يوسف بن يعقوب[١] القاضي وسألوه إنهاء أخبار الناس إلى الخليفة، فوعدهم بذلك، ووردت كتب المصريين على المكتفي بالله يعرّفونه ما قتل من عسكرهم الذي خرج إلى الشام، وأن القرامطة أفنتهم وأنّهم قد أخربوا الشام، فأمر المكتفي الجيش بالاستعداد وإخراج المضارب إلى باب الشماسيّة[٢]، وخرج إلى مضربه في القوّاد والجند، ورحل لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر رمضان سنة تسعين ومائتين، وسلك طريق الموصل ومضى نحو الرقّة بالجيوش حتى نزلها وانبثت جيوشه

(١) هو يوسف بن يعقوب القاضي أبو محمد الأزدي ابن عم إسماعيل القاضي ولي قضاء البصرة وواسط ثم ولي قضاء الجانب الشرقي وولد سنة ٢٠٨ وسمع في صغره من مسلم بن إبراهيم وسليمان بن حرب وطبقتهما وصنف السنن وكان حافظًا دينًا عفيفًا مهيبًا... وكانت وفاته سنة ٢٩٧هـ... (شذرات الذهب لابن العماد ٢: ٢٧٢).

(٢) الشماسية: بفتح أوله، وتشديد ثانيه، ثم سين مهملة: هي مجاورة لدار الروم التي في أعلى مدينة بغداد، وإليها ينسب باب الشماسية... (معجم البلدان).

من حلب وحمص، وقلّد محمد بن سليمان حرب الحسين بن زكرويه، واختار له جيشًا كثيفًا، وكان محمد بن سليمان صاحب ديوان العطاء وعارض الجيش، فسار نحو القرامطة بجيشه.

ذكر الحرب بين محمد بن سليمان وبين القرامطة وانهزام القرامطة والظفر بالحسن بن زكرويه صاحب الشام وأصحابه وقتلهم

قال الشريف أبو الحسين رحمه الله تعالى: ولما دخلت سنة إحدى وتسعين ومائتين كتب القاسم بن عبيد الله وهو وزير المكتفي بالله إلى محمد بن سليمان الكاتب يأمره بمناهضة القرامطة، فسار إليهم والتقى الجمعان يوم الثلاثاء لست خلون من المحرم من هذه السنة، بموضع بينه وبين حماة اثنا عشر ميلاً، فاقتتلوا قتالاً شديدًا حتى حجز الليل بينهم، وقتل عامّة رجالهم، وورد كتاب محمد بن سليمان الكاتب إلى القاسم بن عبيد الله الوزير، يخبره بكيفيّة المصاف والقتال ومن كان في الميمنة والميسرة والقلب والجناحين من قوّاد عسكره، وأن القرامطة اجتمعوا ستّة كراديس، وأن ميسرتهم كان فيها ألف وخمسمائة فارس، وكمنوا خلفها أربعمائة فارس، وفي القلب ألف فارس وأربعمائة فارس، وفي ميمنتهم ألف فارس وأربعمائة فارس، وكمنوا خلفها مائتي فارس، وذكر كيف كانت حملاتهم وقتالهم، وكيف كانت هزيمتهم، في كلام مطوّل تركناه اختصارًا لطوله، إلا أنّ ملخّصه أنّ القرامطة قتلوا قتلًا ذريعًا، وذكر أن الكردوس الذي كان في ميسرة القرامطة قصده الحسين بن حمدان، وكان في جناح ميمنة عسكر الخليفة، واقتتلوا أشدّ قتال حتى تكسّرت الرماح وتقطّعت السيوف فصرع من القرامطة ستمائة في أول دفعة، وأخذ أصحاب الحسين منهم خمسمائة فرس وأربعمائة طوق فضّة، وأن القرامطة ولّوا مدبرين فاتبعهم الحسين بن حمدان، فرجعوا عليه فلم يزل يحمل حملة بعد حملة ـ وهم في خلال ذلك يصرعون منهم الجماعة بعد الجماعة ـ حتى أفناهم الله تعالى، فلم يفلت منهم إلا أقل من مائتي رجل. قال: وحمل الكردوس الذي كان في ميمنتهم على القاسم بن سهل ويُمْن الخادم، فاستقبلوهم بالرماح فكسروها في صدورهم وعانق بعضهم بعضًا، فقتلوا من الكفرة جماعة كبيرة. قال: وأخذ بنو شيبان منهم ثلاثمائة فرس ومائة طوق فضّة، وأخذ أصحاب خليفة بن المبارك منهم مثل ذلك، وذكر في كتابه أنه حمل هو عليهم في القلب، فما زال أصحابه يقتلون القرامطة ـ فرسانهم ورجّالتهم ـ أكثر من

خمسة أميال، وذكر في كتابه أن الحسن بن زكرويه لم يشهد هذا المصاف وأنّه يشخص إليه إلى سلمية. قال الشريف رحمه الله: وكان الحسن بن زكرويه ـ لما أحسّ بقرب الجيوش ـ عرض أصحابه، وأخرج الأقوياء منهم عن الضعفة والسواد، وأنفذ الجيش وتخلّف هو في السواد والضعفة، فلما انهزم أصحابه ارتاع لذلك ورحل لوقته وسار خوفًا من الطلب، وتلاحق به من أفلت من أصحابه، فخاطبهم بأنّهم أتوا من قبل أنفسهم وذنوبهم وأنّهم لم يصدقوا الله، وحرّضهم على المعاودة إلى الحرب فلم يجبه منهم أحد إلى ذلك، واعتلّوا بفناء الرجال وكثرة الجراح فيهم، فلما أيس منهم قال لهم: قد كاتبني خلق من أهل بغداد بالبيعة لي، ودعاتي بها ينتظرون أمري، وقد خلت من السلطان الآن، وأنا شاخص نحوها لأظهر بها، ومستخلف عليكم أبا الحسين القاسم بن أحمد صاحبي، وكتبي ترد عليه بما يعمل به فاسمعوا له وأطيعوا أمره فضمنوا له ذلك، وشخص معه قريبه عيسى ابن أُخت مهرويه المسمّى بالمدثّر وصاحبه المطوّق وغلام له روميّ، وأخذ دليلاً يرشدهم إلى الطريق وساروا يريدون سواد الكوفة، وسلك البرّ وتجنّب المدن والقرى، حتى إذا صار قريبًا من الدالية[1] نفد زاده، فأمر الدليل فمال بهم إليها، ونزل بالقرب منها خلف رابية، ووجّه بعض من كان معه لابتياع ما يصلحه، فلما دخلها أنكر زيّه بعض أهلها وساءله عن أمره فورى وتلجلج[2]، فاستراب به وقبض عليه وأتى به واليها، وكان يعرف بأبي خُبْزَة يخلف أحمد بن كَشْمَرْد صاحب الحرب بطريق الفرات، قال: والدالية قرية من عمل الفرات، قال: فسأله أبو خبزة عن خبره ورهب عليه، فعرّفه أن القرمطي، الذي خرج أمير المؤمنين المكتفي بالله في طلبه، خلف رابية أشار إليها، فسار أبو خبزة إلى ذلك الموضع ومعه جماعة بالسلاح حتى أشرف عليهم، فأخذهم وشدّهم وثاقًا وتوجه بهم إلى صاحبه ابن كُشمرد، فسار بهم إلى المكتفي وهو يومئذ بالرقّة، فأمر أن يشهّروا بها ففُعل بهم ذلك، وألبس الحسن بن زكرويه درّاعة ديباج وبرنس من حرير وهو على بختيّ[3]، والمدثّر والمطوّق على جملين عليهما درّاعتا ديباج وبرانس حرير، وهم بين يديه، وذلك في يوم الأربعاء لأربع بقين من المحرم سنة إحدى وتسعين ومائتين.

قال: وقدم محمد بن سليمان الكاتب الرقّة والجيوش معه، بعد أن تتبّعوا ما

---

(١) الدالية: مدينة على شاطىء الفرات في غربيه بين عانة والرحبة صغيرة.

(٢) تلجلج: تردد في كلامه ولم يبن.

(٣) البخت: الإبل الخراسانية، واحدها: بختيّ.

بقي من القرامطة فأسروا وقتلوا، فخلف المكتفي بالله عساكره مع محمد بن سليمان بالرقّة، وشخص في خاصّته وغلمانه وتبعه وزيره القاسم بن عبيد الله إلى بغداد، وحمل القرمطي وأصحابه معه ومن أُسر في الوقعة، وذلك في أول يوم من صفر سنة إحدى وتسعين ومائتين، فلما صار إلى بغداد عمل له دميانه غلام يا زمان كرسيًّا سمكه ذراعان ونصف، ركّبه على فيل وأركبه عليه ودخل المكتفي بالله وهو بين يديه مع أصحابه الأسرى، عليهم دراريع الديباج والبرانس والمطوّق في وسط الأسرى على جمل، وهو غلام حدث قد جعل في فيه خشبة مخروطة قد شدّت إلى قفاه كاللجام، وذلك أنّهم في وقت دخولهم الرقّة أكثر الناس الدعاء عليهم، فكان هو يشتم الناس الذين يدعون عليهم ويبصق عليهم، وكان دخولهم كذلك لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول من هذه السنة.

قال: فلما وصل المكتفي إلى داره حبسهم ووكل بهم، ووصل محمد بن سليمان بعد ذلك على طريق الفرات في الجيش، وقد تلقّط بقايا القرامطة من كل وجه، فنزل بباب الأنبار في ليلة الخميس لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأوّل من السنة، فأمر المكتفي القوّاد وأصحاب الشرط بتلقّيه والدخول معه، فدخل محمد بن سليمان في زي حسن ومعه بين يديه نيّف وسبعون أسيرًا، وخلع الخليفة على محمد بن سليمان وطوّقه بطوق من ذهب، وسوّره بسوار من ذهب، وخلع على جميع القوّاد وطوّقوا وسوّروا، وحبس الأسرى وكان المكتفي بالله وقت دخوله أمر أن تبنى له دكّة[١] في المصلّى العتيق من الجانب الشرقي، مربّعة ذرعها عشرون ذراعًا في مثلها وارتفاعها عشرة أذرع يصعد إليها بدرج، فلما كان يوم الاثنين لأربع بقين من شهر ربيع الأول أمر المكتفي القوّاد وجميع الغلمان وصاحب جيشه محمد بن سليمان وصاحب شرطته أن يحضروا هذه الدكّة، فحضروها وصعد الوجوه ووقف الباقون على دوابّهم، وخرج التجّار والعامّة للنظر وحملوا الأسرى كلّهم مع خلق كثير منهم كانوا بالكوفة وحملوا إلى بغداد وغيرهم ممّن حمل ممّن كان على مذهبهم، فأحضر جميعهم على الجمال وقتلوا جميعًا وعدّتهم ثلاثمائة وستون وقيل ثلاثمائة ونيّف وعشرون، وقدم الحسن بن زكرويه وعيسى ابن أُخت مهرويه، وهما زميلان، على بغل في عماريّة، قد أرسل عليهما أغشية، فأُصعدا إلى الدكّة وأُقعدا، وقدم أربعة وثلاثون إنسانًا من الأسرى من وجوه القرامطة، ممّن عرف بالنكاية والعداوة للإسلام

(١) الدكة: بناء يسطح أعلاه للجلوس عليه.

والكلب على سفك الدماء واستباحة النساء وقتل الأطفال، وكان كل واحد منهم يبطح على وجهه فتقطع يده اليمنى ويرمي بها إلى أسفل ليراها الناس، ثم تقطع رجله اليسرى، ثم يده اليسرى، ثم رجله اليمنى ويرمي بها إلى أسفل ثم تضرب عنقه ويرمي به إلى أسفل، فلما فرغ منهم قدّم المدثر ففعل به مثل ذلك ثم كوي ليعذب ثم ضربت عنقه، ثم قدم الحسن بن زكرويه فضرب مائتي سوط ثم قطعت يداه ورجلاه وكوي وضربت عنقه، ورفع رأسه على خشبة، وحملت الرؤوس فصلبت على الجسر، وصلب بدن الحسن فمكث مصلوبًا نحوًا من سنة، ثم سقط عليه حائط ودفنت أجساد الأسرى عند الدكة، وهدمت بعد أيام.

قال الشريف: ومن كتب اللعين الحسن بن زكرويه إلى بعض عمّاله:

بسم الله الرحمٰن الرحيم، من عبد الله المهدي المنصور الناصر لدين الله، القائم بأمر الله، الداعي إلى كتاب الله، الذابّ عن حريم الله، المختار من ولد رسول الله، أمير المؤمنين وإمام المسلمين، ومذلّ المنافقين، وقاصم المعتدين، ومبيد الملحدين، وقاتل القاسطين، ومهلك المفسدين، وسراج المنتصرين، ومشتت المخالفين، والقيم بسنة المرسلين، وولد خير الوصيين صلّى الله عليه وعلى آله الطيّبين وسلّم - كتاب إلى جعفر بن حميد الكردي، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، وأسأله أن يصلّي على محمد جدّي رسول؛ أما بعد: فقد أنهى إلينا ما حدث قبلك من أخبار أعداء الله الكفرة، وما فعلوه بناحيتك من الظلم والعبث والفساد في الأرض فأعظمنا ذلك، ورأينا أن ننفذ إلى هناك من جيوشنا من ينتقم الله به، من أعدائنا الظالمين الذين يسعون في الأرض فسادًا فأنفذنا جماعة من المؤمنين إلى مدينة حمص ونحن في أثرهم، وقد أوعزنا إليهم في المصير إلى ناحيتك، لطلب أعداء الله حيث كانوا ونحن نرجو أن يجزينا الله فيهم على أحسن عوائده عندنا في أمثالهم، فينبغي أن يكون قلبك وقلوب من اتبعك من أوليائنا، وتثق بالله وبنصره الذي لم يزل يعوّدنا في كل من مرق[1] من الطاعة وانحرف عن الإيمان، وتبادر إلينا بأخبار الناحية وما يحدث فيها، ولا تخف عنّا شيئًا من أمرها.

سبحانك اللهم وتحيّتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين، وصلّى الله على جدي رسوله وعلى أهل بيته وسلّم كثيرًا.

---

(١) مرق من الدين: خرج.

وكان عمّاله يكاتبونه بمثل هذا الصدر. قال ابن الأثير: وكان قد نجا من أعيان القرامطة رجل من بني العليص يسمى إسماعيل بن النعمان في جماعة معه، فكاتبه المكتفي بالله وبذل له الأمان، فحضر في نيّف وستين نفسًا، فأحسن الخليفة إليهم وسيّرهم إلى رحبة مالك بن طوق مع القاسم بن سيما، فأقاموا معه مدّة وعزموا على إنشاء فتنة بالرحبة، وكان قد انضم إليهم جماعة كثيرة، فشعر بهم القاسم فقتلهم فارتدع من كان قد بقي من موالي بني العليص، وذلُّوا ولزموا السماوة[١] حتى جاءهم كتاب من زكرويه بن مهرويه، يذكر لهم أن ممّا أوحي إليه أن صاحب الشامة وأخاه يقتلان، وأن إمامه، الذي هو حي، يظهر بعدهما ويظفر.

ذكر خبر إرسال زكرويه بن مهرويه محمد بن عبد الله إلى الشام وما كان من أمره إلى أن قتل

كان الحسن بن زكرويه قد خلف القاسم بن أحمد المكنى بأبي الحسين خليفة على من بسَلَمية من أصحابه كما قدّمنا، فقدم سواد[٢] الكوفة إلى زكرويه فأخبره بخبر القوم، الذين استخلفه عليهم ابنه الحسن أنهم اضطربوا عليه، وأنه خافهم وتركهم وانصرف، فلامه زكرويه على قدومه لومًا كثيرًا، وقال له: ألا كاتبتني قبل انصرافك إليّ، وجده على ما به تحت خوف شديد من طلب السلطان من وجه وطلب أصحاب عبدان الذي كان قد تسبّب في قتله من وجه آخر ثم إنّ زكرويه أعرض عن القاسم وأنفذ رجلًا من أصحابه، كان يعلم الصبيان بالزابوقة[٣] يقال له محمد بن عبد الله بن سعيد المكنى أبا غانم في سنة ثلاث وتسعين ومائتين فتسمّى نصرًا، وأمره أن يتوجّه إلى أحياء كلب ويدعوهم، فدار أحياء كلب ودعاهم فلم يقبله إلا رجل من بني زياد يعرف بمقدام بن الكيّال، ثم استجاب له طوائف من الأصبعيين الذين يعرفون بالفواطم، وقوم من بني العليص وصعاليك من بني كلب، فسار بهم نحو الشام، وعامل المكتفي بالله يومئذ على دمشق والأردن أحمد بن كَيْغَلَغ، وهم بنواحي مصر على حرب إبراهيم الخليجي، وكان قد خالف كما قدّمنا ذكر ذلك،

(١) السماوة: بفتح أوله، وبعد الألف واو: بادية السماوة: التي هي بين الكوفة والشام قفرى.. وقيل: السماوة ماءة لكلب... (معجم البلدان).

(٢) سواد المدينة: ما حولها من القرى والريف.

(٣) زابوقة البيت: زاويته وناحيته.

فاغتم محمد بن عبد الله بن سعيد غيبته فصار إلى مدينتي بُصْرَى وأذرعات[١] فحارب أهلها ثم أمّنهم فلما استسلموا قتل مقاتلتهم وسبى ذراريهم وأخذ جميع أموالهم، وسار نحو دمشق فخرج إليه صالح بن الفضل خليفة ابن كيغلغ فيمن معه، فأثخنوا فيهم وظفروا عليهم ثم غرّوهم ببذل الأمان، فتقلوا صالحًا وعسكره وقصدوا دخول دمشق فدفعهم عنها أهلها فانصرفوا إلى طبريّة، ولحق بهم جماعة من الجند ممّن سلم بدمشق، فواقعهم يوسف بن إبراهيم، عامل ابن كيغلغ على الأردن، فهزموه، وبذلوا له الأمان ثم غدروا به فقتلوه ونهبوا طبريّة وقتلوا وسبوا النساء، فأنفذ المكتفي الحسين بن حمدان في طلبهم مع وجوه من القوّاد، فدخل دمشق وهم بطبريّة، فلما علموا بذلك عطفوا نحو السماوة، وأتبعهم الحسين بن حمدان في البريّة، فأقبلا ينتقلون من ماء إلى ماء يغورون ما يرتحلون عنه من الماء، فلم يزالوا على ذلك حتى وردوا الماءين المعروفين بالدِمْعَانة[٢] والحالّة، فانقطع عنهم لعدم الماء فمال نحو رحبة مالك بن طوق، وأسرى عدو الله حتى وافى هيت وهم غازون وذلك لتسع بقين من شعبان سنة ثلاث وتسعين ومائتين، طلوع الشمس، فنهب ربض هيت والسفن التي في الفرات وقتل نحو مائتي إنسان، وأقام هناك يومين والقوم متحصّنون، ثم رحل بما أخذه وبمائتي كرّ[٣] حنطة إلى نحو الماءين وبقيّة أصحابه هناك، فلما اتصل الخبر بالمكتفي أرسل إلى هيت محمد بن إسحاق بن كنداجيق ومعه جماعة من القوّاد في جيش كثيف، ثم أتبعه بمؤنس الخادم، فنهض محمد بن إسحاق نحوهم فوجدهم قد غوّروا المياه، فأنفذ إليه من بغداد بالروايا والقرب والمزاد، وكتب إلى الحسين بن حمدان بالنفوذ إليهم من الرحبة، فلما أحسُّوا بذلك ائتمروا بصاحبهم نصر، فوثب عليه رجل من أصحابه يقال له الذيب بن القائم فقتله، وشخص إلى بغداد متقرّبًا بذلك ومستأمنًا، فأُسنيت له الجائزة وكُف عن طلب قومه بقتل محمد هذا، فمكث أيامًا ببغداد وهرب، ثم إن طلائع محمد بن كنداجيق ظفرت برأس محمد المقتول هذا، فحمل إلى بغداد.

---

(١) أذرعات: بالفتح، ثم السكون، وكسر الراء، وعين مهملة، وألف وتاء: بلد في أطراف الشام، يجاور أرض البلقاء وعمان، ينسب إليها الخمر.

(٢) الدمعانة: بكسر أوله وسكون ثانيه، والعين مهملة، وبعد الألف نون: ماء لبني بحر من بني زهير بن جناب الكلبيين بالشام. . . (معجم البلدان).

(٣) الكر: مكيال لأهل العراق؛ أو ستون قفيزًا، أو أربعون إردبًا.

قال: ثم إن قومًا من بني كلاب أنكروا ما فعله الذيب من قتل محمد، ورضيه آخرون فتحزّبوا أحزابًا، فاقتتلوا قتالاً شديدًا حتى كثرت القتلى بينهم ثم افترقوا، فصارت الفرقة التي رضيت قتله إلى ناحية عين التمر، وتخلف من كره قتله على الماء الذي كانوا ينزلون عليه، واتصل الخبر بزكرويه بن مهرويه فردّ القاسم إليهم.

ذكر إرسال زكرويه بن مهرويه القاسم بن أحمد ودخوله الكوفة وما كان من أمره

قال: ولما اتّصل الخبر بزكرويه كان القاسم بن أحمد عنده، فردّه إليهم لمعرفتهم به، فلما ورد عليهم جمعهم ووعظهم، وقال: أنا رسول وليّكم وهو عاتب عليكم فيما أقدم عليه الذيب بن القائم، وأنّكم قد ارتددتم عن الدين، فاعتذروا وحلفا ما كان ذلك بمحبّتهم، وذكروا ما جرى بينهم وبين أهلهم من الخلف والقتل والبعد بهذا السبب، فقال لهم: قد جئتكم الآن بما لم يأتكم به أحد تقدّمني، وليّكم يقول لكم: قد حضر أمركم وقرب ظهوركم، وقد بايع له من أهل الكوفة أربعون ألفًا ومن أهل سوادها أكثر، وموعدكم اليوم الذي ذكره الله، يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى، فأجمعوا أمركم وسيروا إلى الكوفة، فإنه لا دافع لكم عنها، ومنجز وعدي الذي جاءتكم به رسلي، فسرُّوا بذلك سرورًا كثيرًا وارتحلوا نحو الكوفة، فلما وردوا إلى القُطْقُطَانَة[1]، وهي قرية خراب في البرّ، بينها وبين الكوفة ستة وثلاثون ميلاً، وذلك يوم الأربعاء قبل يوم عرفة بيوم من سنة ثلاث وتسعين ومائتين، خلَفوا بها الخدم والأموال ثم أمرهم أن يلحقوا به عين الرحبة[2] على ستة أميال من القادسية، ثم شاور الوجوه من أصحابه في أي وقت يأتي الكوفة؟ فقال قائل ليلاً فلا يتحرك أحد إلا قتلناه، ويخرج إلينا وإليها في قلة فنأخذه ونقتله، وقال آخر: نمهل إلى أن ندخلها عشاء في يوم العيد، والجند سكارى والبلد خال، فنقصد باب إسحاق وهو غافل فنأخذه ونقف على بابه، فلا يأتينا أحد إلا قتلناه، فإنهم لا يأتونا إلا نفر بعد نفر، وكانت شحنة الكوفة يومئذ سبعة آلاف رجل، إلا أن المقيم بالكوفة يومئذ أربعة آلاف

---

(١) القطقطانة: بالضم ثم السكون ثم قاف أخرى مضمومة، وطاء أخرى، وبعد الألف نون، وهاء: موضع قرب الكوفة جهة البرية بالطف به كان سجن النعمان بن المنذر.

(٢) الرحبة: ناحية بين البادية والشام قريبة من وادي القرى.. وعين الرهبة هي من القادسية على ثلاثة أيام.. والرحبة: قرية بحذاء القادسية على مرحلة من الكوفة على يسار الحجاج إذا أرادوا مكة... (معجم البلدان لياقوت).

من الدميانية والمصريين وغيرهم، والناس فيها أحياء والبلد على غاية الاجتماع والحسن وكثرة الناس، وقال آخرون: نسير ليلتنا ثم نكمن في النجف في شعابه فنريح الخيل والإبل وننام، ونركب عمود الصبح فنشنّها غارة على أهل المصلّى، وقد نزل الجند للصلاة وركب غلمانهم الدوابّ، ونضع السيف وجل أهل البلد هناك، فقال اللعين: هذا هو الرأي، فركبوا وساروا حتى حصلوا في بعض المواضع فناموا، فلم يوقظهم إلا مسّ الشمس يوم العيد، لطفًا من الله تعالى بالناس؛ قال: وقد كان أحد ما شغلهم أنهم اجتازوا بقوم من اليهود يدفنون ميتًا لهم بالنُّخَيْلَة[1]، فشغلهم قتلهم فلم يصلوا إلى الكوفة إلا وقد صلّى إسحاق بن عمران بالناس العيد، وانصرف والناس متبدّدون في ظاهر الكوفة ومنهم من قد انصرف، ولإسحاق بن عمران طلائع تتفقد، وكان ذلك لأمور قد أرجف[2] الناس بها في البلد، من فتن تحدث من غير جهة القرامطة، وقيل كانت عدّتهم ثمانمائة فارس وأربعمائة راجل: وهم يقاتلون على طمع وشبهة، فأقبلوا يقدمهم هذا المكنى بأبي الحسين. قال: وكان أحد الألطاف أنّ إسحاق بن عمران قد أحدث مصلّى بالقرب من طرف البلد فصلّى فيه، وكان الرجوع منه إلى البلد سهلًا، فقصدت القرامطة المصلّى العتيق، على ما كانوا يقدرون من اجتماع الناس فيه، فلم يصادفوا فيه أحدًا، فأقبلت خيل منهم من تلك الجهة، فدخلوا الكوفة من يمينها، فوضعوا السيف حتى وصلوا إلى حبسها ففتحوه، وقتلوا كثيرًا من الناس وأخرجوا خلقًا، فارتجت الكوفة وخرج الناس بالسلاح، وتكاثر الناس على من دخل الكوفة من القرامطة، فقذفوهم بالحجارة فقتل منهم جماعة، وأقبل جل القوم نحو الخندق فقتلوا ناسًا، وناوشهم طوائف من الجند تخلفوا بالصحراء وبعض ما كان أنفذ إسحاق بن عمران طليعة، فقتلوا بعضهم وأفلت بعضهم إلى البلد، وكان إسحاق بن عمران قد انصرف في أحسن زي وأجمله، فلما صار قرب داره تفرّق الجيش عنه إلا خواصًا، كان قد عمل لهم سماطًا[3] في داره، فلما سار في بعض الطريق لحقه فارس من بني أسد على فرس له بلقاء، قد طعنت في عنقها ودمها سائل على كتفها إلى الحافر، فشق الجند وزاحم غلمانه وجاوز إسحاق بن عمران، ثم قلب رأس فرسه إليه فوقف له، فقال: جاءتنا أيها الأمير خيل من الأعراب، فقتلت وسلبت

---

(١) النخيلة: تصغير نخلة: موضع قرب الكوفة على سمت الشام... والنخيلة: ماء عن يمين الطريق قرب المغيثة والعقبة على سبعة أميال من جويّ غربي واقصة... (معجم البلدان).

(٢) أرجف الناس: خاضوا في الأخبار السيئة وذكر الفتن.

(٣) السماط: ما يمد ليوضع عليه الطعام في المآدب ونحوها.

وخرجت إلى الصحراء، فلما رددناهم طعنت فرسي، فقلب إسحاق بن عمران فرسه راجعًا، وأمر بإخراج الجند نحو الخندق، وبين يدي إسحاق بن عمران نحو من ستين راجلًا، ومعه غلمانه ونفر يسير من الجند، حتى إذا صار عند قصر عيسى بن موسى ومعه أبو عيسى صالح بن علي بن يحيى الهاشمي يسايره فالتفت إليه، وقال: خذ هؤلاء الرجّالة وامض إلى قنطرة بني عبد الوهاب ـ وهي إحدى قناطر الخندق ـ فاكشفها، فأخذهم ومضى، وتقدّم إلى عبد الله الحسين بن عمر العلوي أن يدور في البلد ويسكّن الناس، فدار وعليه السواد فسكن الناس، وخرج كثير من الناس بالسلاح، وتفرّق من دخل الكوفة من القرامطة لمّا رماهم أهلها، وقتل بعض القصابين رجلًا منهم بساطور، وكان فيمن تفرّق منهم رجل من كلب يعرف بالمُقَلْقل، وهو أحد رجالهم وشجعانهم في جمع معه، فأفضى به الطريق إلى دار عيسى بن علي، فلقيهم أحد الفرسان من الجند يعرف بالورداني، قد ركب لمّا سمع الصيحة، فلم يشك أنّهم من الجند لما رأى من كثرة الجواشن عليهم والدروع، فقال لهم: سيروا يا أصحابنا، فأمسكوا عنه حتى توسّطهم ثم عطفوا عليه بالسيوف فقتلوه، وأخذوا دابّته وساروا نحو الخندق للقاء أصحابهم، فلما صاروا بالصحراء من الكوفة نظر إليهم أبو عيسى، فلم يشك أنّهم من أصحاب السلطان، ثم نظر إليهم وقد لقوا جماعة من العامّة، فأقبلوا يسلبونهم، فتبيّن أمرهم فحمل عليهم فعدلوا عن سلب أولئك، وحمل فارسهم المقلقل ـ وكان رجلًا عظيمًا جسيمًا ـ وفي يده سيف عريض، فالتقى هو وأبو عيسى فطعنه أبو عيسى تحت ثندوته[1] فصرعه، فحذفه المقلقل بالسيف فأصاب جحفلة[2] فرسه فعقره، وأمر أبو عيسى بعض الرجّالة فاحتزّ رأسه ووجّه به إلى إسحاق بن عمران، وقد رفع رأسه، فكان ذلك أحد ما كسرهم؛ قال: واجتمعت الخيل والرجّالة فقاتلهم إسحاق بمن معه ـ وليسوا بالكثيرين ـ قتالاً شديدًا، في يوم صائف شديد الحرّ طويل إلى الزوال، وخرج الناس من العامّة فانصرف القرامطة مكدودين فنزلوا الغدير على ميلين من الكوفة وارتحلوا عشيًا نحو سوادهم، واجتازوا بالقادسية، وقد وصل إليهم رسول إسحاق بن عمران، فحذّرهم أمرهم يعني حذّر أهل القادسيّة، وعرف يومئذ صبر إسحاق بن عمران على حملاتهم وتشجيعه لأصحابه.

قال: وأخرج إسحاق بن عمران مضاربه بظاهر الكوفة، وخرج إليه أصحابه فعسكر، وبات الناس بالكوفة على غاية الجزع والتحارس ونصب الحجارة على

---

(١) الثندوة: ثدي الرجل؛ أو طرف الأنف؛ أو مقدمه.

(٢) الجحفلة بمنزلة الشفة للخيل والبغال والحمير.

الأسطحة؛ قال: ولما وصلت القرامطة إلى عين الرحبة وكانوا قد خلَفوا سوادهم هناك، فرحلوا ثم ساروا بهم فنزلوا عينا بسرّة[١] العُذَيب[٢] تعرف بعين عبد الله، ثم رحلوا فنزلوا قرية تعرف بالصوّان على نهر هِد من سواد الكوفة، ثم مضى أبو الحسين إلى قرية تعرف بالدرنة على نهر زياد من سواد الكوفة، فخرج إليه بها زكرويه وكان من أمره ما نذكره.

ذكر ظهور زكرويه بن مهرويه وقتاله عساكر الخليفة وأخذه الحاج وما كان من أمره إلى أن قتل

كان ظهور زكرويه بن مهرويه في سنة ثلاث وتسعين ومائتين، وذلك أنّه لما وصل القاسم بن أحمد إلى الدرنة خرج زكرويه إليه منها، وكان بها مستترًا كما ذكرنا فيما تقدّم، فقال القاسم للعسكر: هذا صاحبكم وسيّدكم ووليّكم الذي تنتظرونه، فترجّلوا بأجمعهم وألصقوا خدودهم بالأرض، وضرب لزكرويه مضرب عظيم وطافوا به وسرّوا سرورًا عظيمًا، واجتمع إليه أهل دعوته من أهل السواد فعظم جيشه جدًا، وكان إسحاق بن عمران قد كتب إلى العباس بن الحسن وزير المكتفي ـ يخبره خبر القرامطة ومهاجمتهم على الكوفة وما كان من خبرهم، وأثنى على من عنده من الجند وذكر حسن بلائهم، فلما وصل إليه الكتاب قلق له، وشاور بعض أصحابه في لقاء الخليفة المكتفي بالله بذلك، فأشار عليه بتعجيله بذلك، فقال الوزير: كيف ألقاه بهذا مع ما يحتاج إليه من الأموال ولعهدي به، وقد ناظرني منذ يومين في دينار واحد، ذكر أنّه فضل[٣] بقيّة نفقة رفعت إليه، فقال له صاحبه: أيها الوزير إنْ أسعفك وإلا ففي أموال خدمك وأسبابك فضل فوظّفها علينا، وتنفق فيها، فقال: فرّحت، والله ـ عنَى، ثم لبس ثيابه وأتى إلى المكتفي بالله فدخل عليه في غير وقت الدخول فعرّفه الخبر، فقال له المكتفي: كأنّك يا عباس قد قلت: كيف أخبر أمير المؤمنين بمثل هذا وقد ناظرني في دينار فضل نفقة! فقال: قد كان ذاك يا أمير المؤمنين، قال: إنّما جرى ذلك لمثل هذا، فلا تبخل بمال في مثل هذا، وأباحه الأموال والإنفاق في

---

(١) السرّة: مستقر الماء في أقصى الحوض.

(٢) العذيب: ماء بين القادسية والمغيثة، وقيل: هو واد لبني تميم... وقيل: العذيب يخرج من قادسية الكوفة إليه وكانت مسلحة الفرس... والعذيب: ماء قرب الفرما من أرض مصر... والعذيب: موضع بالبصرة... (معجم البلدان).

(٣) فضل: زيادة.

الرجال ليّ ونهارًا، فأنفذ الوزير جَنيّ الصفواني ومباركًا القمّي ونحرير العمري ورائقًا وطائفة من الغلمان الحُجرية وجماعة من القوّاد في جيش عظيم، فوصل أوائلهم في اليوم السادس من يوم النحر، فركب إليه إسحاق بن عمران وذكر لهم قوّة من لقي من القرامطة، وأنّه قد مارسهم، وحذّرهم أن يغتروا بهم، وقال لهم: سيروا إلى القادسيّة فإنّ بينكم وبينها مرحلة، وإذا صرتم بها فأريحوا واستريحوا وتجمّعوا، ثم سيروا إليهم وطاولوهم ونازلوهم فإنّ الظفر يرجى بذلك فيهم عندي، ولا ترموا بأنفسكم عليهم فإنّهم صبر غير أنكال، فقال له بشر الأفشيني: إن رأيناهم كفيناك القول يا أبا يعقوب، إنما نخشى أن يهربوا، فدعا لهم بالنصر ورحلوا نحو القادسيّة، فباتوا بها ليلة ورحلوا في آخرها إلى الصِوَّان، وبين الموضعين نحو العشرة أميال، ورحلوا بالأثقال والفهود والبزاة وهم على غير تعبئة مستخفّين بهم، فأسرعوا السير ووصلوا وقد تعب ظهرهم وقلّ نشاطهم وقد عمد القرامطة فضربوا بيوتهم إلى جانب جرف عظيم لنهر هناك وأثقالهم مما يلي البيوت، والرجّالة في أيديهم السيوف، وقتالهم من وجه واحد صفًا واحدًا قدّام البيوت بقدر نصف غلوة، والفرسان جلس خلف الرجّالة، فلما تراءى الفريقان ركب الفرسان وافترقوا فصاروا جناحين للرجّالة، وحملوا على الناس فصدقوهم الحملة فانكفأوا راجعين، وتلاقى الرجّالة من الفريقين، فأتت رجّالة العسكر على رجّالة القرامطة وألجأوهم إلى البيوت، وأقبلت الفرسان فنظروا إلى الرجّالة ينهبون بيوتهم، فترحّلوا وحمّلوا خيلهم الأمتعة، وكانت القرامطة في مجنبات الناس لما رأوا من صدق القتال، فلما رأوا الناس قد حمّلوا الدواب والجمازات[1] وتشاغلوا حملوا على الجمازات والبغال بالرماح، فأقبلت لا يردّها شيء عن الناس تخبطهم، فانهزم الناس ووُضع السيف فيهم، وقتل الأكثر وتبع الأقل نحو القادسيّة وفيهم مبارك القمّي، فأقاموا ثلاثًا يجمعون السلب والأسرى، وجمع زكرويه الآلة والمتاع والأثاث والجمازات، فقيل إنّه أخذ ثلاثمائة جمل وخمسمائة بغل ممّا كان للسلطان سوى ما أُخذ للقواد، وقيل إنّه قتل ألفًا وخمسمائة رجل، فقوي أصحابه جدًا، ودخل الكوفة فلول الجيش عراة.

ورحل زكرويه يريد الحاج وبعث دعاته إلى السواد، فلم يلحق به فيما قيل إلا النساء والصبيان، قال: ولما وقف الخليفة على صورة الأمر عظم عليه وعلى الناس وخافوا على الحجّاج، فأنفذ المكتفي بالله محمد بن إسحاق بن كنداج لحفظ الحاج

(١) الجمّازة: مركب سريع يتخذه الناس في المدن (شبه العجلة التي تجرها الخيل) والجماز من الدواب: السريع العدو الوثاب.

وطلب زكرويه، وضمّ إليه خلقًا عظيمًا وجماعة من القوّاد ونحو ألفي رجل من بني شيبان واليمن وغيرهم، وكان زكرويه قد نزل على عين الزبيديّة[١]، ثم نزل على أربعة أميال من واقصة، فوافت القافلة لست أو سبع خلت من المحرم من سنة أربع وتسعين ومائتين، فأنذرهم أهل المنزل بالقرامطة فلم ينزلوا وطووا، فنجّاهم الله عزّ وجلّ، وكان معهم من أصحاب السلطان الحسن بن موسى وسما الإبراهيمي، فلما وافى زكرويه واقصة[٢] تعرّف الخبر فعرف أنّهم قد حذّروهم، فقتل جماعة من أهل المنزل ونهب وأحرق الحشيش وتحصّن الباقون منه، ورحل فلقيته الخراسانية من الحجّاج على الأرض البسيطة التي تخرج منها حجارة النار، يوم الأحد لإحدى عشرة ليلة خلت من المحرم، وليس معهم أحد من أصحاب السلطان، فرشقوا القرامطة بالنشّاب وقد أحاطوا بهم فانحازوا عنهم، ثم تقدّم إلى الحاج جماعة منهم فسألوهم: هل فيكم سلطان، فإنّا لا نريدكم؟ فقالوا لهم: لا، إنما نحن قوم حجّاج، فقال لهم زكرويه: امضوا، فرحلوا وأمهلهم حتى ساروا ثم قصدهم، يبعج[٣] الجمال بالرماح حتى كسر بعضها بعضًا واختلطت، ووضع السيف فقتل خلقًا عظيمًا واستولى على الأموال.

وقدم محمد بن إسحاق بن كنداج الكوفة ثم رحل إلى القادسية فلما وقف على خبر مسيرهم نحو واقصة أنفذ عَلاَّن بن كُشْمَرْد في خيل جريدة، حتى لقي فلّ الخراسانيّة فأشاروا عليه أن يلحق الحاج فإنّ القافلة الثانية تنزل العقبة الليلة أو من غد، فحُثّ حتى تسبق إليها فتجتمع أنت ومن فيها على قتال الكفرة، الله الله في الناس أدرِكْهم، فرحل راجعًا نحو القادسية وقال: لا أغرّر برجال السلطان للقتل، فلقي بعد ذلك من المكتفي شرًّا؛ وورد زكرويه العقبة يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من المحرم وفي القافلة مبارك القمّي وأحمد بن نصر الديلمي وأحمد بن علي الهمذاني، وقد كانت كتب المكتفي اتصلت إلى أُمراء القافلة الثانية والثالثة مع رسله، يأمرهم أن يتجنّبوا الطريق ويرجعوا إلى المدينة، ويأخذوا على طريق البصرة أو غيرِها فلم يفعلوا ذلك، ولما التقوا اقتتلوا قتالاً شديدًا فكانت الغلبة لأصحاب السلطان حتى لم يشكُّوا في ذلك، ثم خرج اللعين زكرويه إلى آخر القافلة وقد رأى خللاً هناك، فعمل في الجمال كما عمل في جمال الخراسانية، وقتل سائر الناس إلا يسيرًا استعبدهم أو شريدًا، ثم

---

(١) الزبيدية: اسم بركة بين المغيثة والعذيب وبها قصر ومسجد.

(٢) واقصة: بكسر القاف والصاد مهملة: موضعان: واقصة منزل بطريق مكة بعد القرعاء نحو مكة وقبل العقبة... وواقصة أيضًا: ماء لبني كعب.. وواقصة: بأرض اليمامة.

(٣) بعج البطن: شقه، فبرزت حشاؤه.

أنفذ خيلاً فلحقت من أفلت من أوائل القوم حتى ردّوهم إليه، فقتلهم وأخذ النساء وجميع ما في القافلة، وقتل مباركًا القمّي ومظفّرًا ابنه وأسر أبا العشائر، فقطع يديه ورجليه وضرب عنقه، وأطلق من النساء ما لا حاجة له فيها، ووقع بعض الجرحى بين القتلى حتى تخلّصوا ليلاً، ومات كثير من الناس جوعًا وعطشًا، وورد من قدّم من الناس يخبرون أن نساء القرامطة كنّ يطفن بين القتلى فيقلن: عزيز علينا، من يرد ماءً نسقيه، فإن كلّمهنّ جريح مطروح أجهزن عليه، قال: ويقال إنّ جميع القتلى كانوا نحوًا من عشرين ألفًا، وأخذ من الأموال ما لا يحصى كثرة.

قال: ولما اتصل خبر القافلتين بمدينة السلام جاء الناس من ذلك ما شغلهم، وتقدّم السلطان بإخراج المال وإزاحة العلل، وأخرج العباس بن الحسن ومحمد بن داود الجرّاح الكاتب المتولي دواوين الخراج والضياع بالمسير إلى الكوفة لإنقاذ الجيش منها، وحمل معه أموالاً عظيمة، وقال: كلّما قرب نفاد ما معك كاتبني لأمدّك بالأموال، وخرج إليها يوم الثلاثاء لإحدى عشرة ليلة بقيت من المحرم، وقدّم خزانة سلاح جعلها بالكوفة فما زالت بقاياها هناك إلى أن أخذها الهَجَريّ. قال: ثم رحل زكرويه يريد القافلة. الثالثة فلم يدع ماءً في طريقه إلا طرح فيه جيف الموتى، ونزل زُبَالة فقتل من بها من التجار، ونهب الحصن وبث الطلائع خوفًا من لحوق عسكر السلطان به، فلما أبطأت القافلة عليه فنزل الشُّقُوق[١] ثم نزل في رمل يقال له الهَبِير[٢] والطليح، وأقام ينتظر القافلة وفيها من القوّاد نُفَيْس المُوَلّدي، وعلى ساقتها صالح الأسود ومعه الشَّمْسَة، وكان المعتضد جعل فيها جوهرًا نفيسًا ومعه الخزانة، وكان في القافلة من الوجوه إبراهيم بن أبي الأشعث، ومعه كاتبه المنذر بن إبراهيم وميمون بن إبراهيم الكاتب وكان إليه ديوان الخراج، والفرات بن أحمد بن محمد بن الفرات، والحسن بن إسماعيل قرابة العبّاس بن الحسن، وعلي بن العبّاس النّهيكي وغيرهم من الرؤساء، وخلق من مياسير التجّار وفيها من المتاجر والرقيق ما يخرج عن الوصف، وفيها جماعة من الأشراف منهم أبو عبد الله أحمد بن موسى بن جعفر وجماعة من أهله، فأصاب بعضهم جراحات وأسر بقيّتهم، فعرفهم بعض المولّدين من وجوه عسكره فأخبره بهم، فخلّى لأبي عبد الله أحمد بن موسى وأهله الطريق، ومكّنهم من جمال تحمّلوا عليها، وكان أحمد بن موسى أحد من دخل بغداد وخبّر السلطان بأمرهم

(١) شقوق: منزل بطريق مكة بعد واقصة من الكوفة وبعده تلقاء مكة بطان وقبر العبادي وهو لبني سلامة من بني أسد. والشقوق أيضًا: من مياه ضبة بأرض اليمامة.

(٢) الهبير: بفتح أوله وكسر ثانيه: رمل زرود في طريق مكة... (معجم البلدان).

وجلالة حالهم؛ وأقاموا بفَيْد وقد اتّصل بهم أنّهم ينتظرون مددًا من السلطان ففعل ابن كشمرد ما فعل من رجوعه إلى القادسيّة ولم ينجدهم، فلمّا طال مقامهم نفذ ما في المنزل وغلا السعر جدًا، وجلوا عن الأجفر والخزيميّة ثم الثعلبية ثم الهَبير، فلم يستتم نزولهم حتى ناهضهم زكرويه فقاتلهم يومهم كلّه، ثم باتوا على السواء، ثم باكرهم فقاتلهم فبينما هم كذلك إذ أقبلت قافلة العُمرة، وكان المعتمرون يتخلّفون للعمرة بعد خروج الحاج إذا دخل المحرّم، وينفردون قافلة واحدة وانقطع ذلك من تلك السنة، فاجتمع الناس وقاتلوهم يومهم، ونفذ الماء وعطشوا ولا ماء لهم هناك، وباتوا وزكرويه مستظهر عليهم، ثم عاودوهم القتال حتى ملك القافلة، فقتل الناس وأخذ ما فيها من حريم ومال وغير ذلك، وأفلت ناس قليل قتل أكثرهم العطش، ثم سار مصعدًا نحو فيد فتحصّن من أهلها، فطاولهم فصبروا عليه ونزل منهم ثمانية عشر رجلاً بالحبال من رأس الحصن، فقاتلوا رجّالتهم قتالاً شديدًا وقد أسندوا ظهورهم بسور الحصن، ورمى أهل الحصن بالحجارة؛ قال: سمعت داود بن عتّاب الفيدي ـ وكان نبيلاً صدوقًا ـ قال: نزلنا إليهم نحو أربعين رجلاً متزرين بالسراويلات، وقد كان لحقهم ـ لا أدري ـ عطش قال أو جوع، قال: فطردناهم فمالوا إلى حصن يقرب منّا، قد كان بيننا وبين أهله عداوة قديمة، فأخذوا منهم الأمان ونزلوا ليفتحوا لهم، فقال بعضنا لبعض: إن ظفروا به أخذوا منه ما يحتاجون إليه، وعادوا إليكم، قال: فطرحنا أنفسنا عليهم وأحسّ بذلك أهل الحصن فقويت قلوبهم، وخرجوا فكشفناهم، وتبعهم جماعة منا فسلبوا منهم جمالاً، وكان ذلك سبب صلاحنا مع أصحاب الحصن.

قال الشريف: ولم يبق دار بالكوفة وبغداد والعراق إلا وفيها مصيبة وعَبرة سائلة وضجيج وعويل، حتى قيل إنّ المكتفي اعتزل النساء همّا وغمّا، قال: وخفي أمر زكرويه، لا يُعلم أين توجه، وقد كان أخذ ناحية مطلع الشمس، فتقدّم المكتفي يتتبّع أحواله وإشحان البلدانَ ـ التي يخاف مصيره إليها ـ بالرجال، وأنفذ وصيف ابن صوارتكين ولُجيْم بن الهيثم والقاسم بن سيما في جيش عظيم بالميرة والزاد والمال والجمال، لاستقبال الناس وإزاحة عللهم، وتقدّم يطلب زكرويه حيث كان، إلى أن وردت كتب أهل فيد بخبره، فكوتب عند ذلك إسحاق بن كنداج بأن يلزم القادسيّة ونواحي الكوفة بجيشه، وكوتب لُجَيْم بالمسير إلى خَفَّان[1] ومعارضة زكرويه حيث

(١) خفان: بفتح أوله وتشديد ثانيه، وآخره نون: موضع قرب الكوفة يسلكه الحاج أحيانًا، وهو مأسدة، قيل هو فوق القادسية.

كان، وأن ينفذ الطلائع والأعراب ويُرغّبوا في تتبّع حاله حتى يعرف، فجاءت الأخبار بما غلب على ظنّهم، أنه لم يخط ناحية البصرة وأنه يقصد الاجتماع مع أبي سعيد الجنَابي وهو المقدّم ذكره، فاجتمع القوّاد وتشاوروا واستقبلوا طريقًا يقال له الطريق الشامي، ويقال له طريق الطَفْ وهو بين الكوفة والبصرة، وعملوا على المقام هناك ليكونوا بين الكوفة وواسط والبصرة، فساروا مستدبري القبلة مستقبلي البصرة يرتحلون من ماء إلى آخر، حتى نزلوا يوم السبت لثمان بقين من شهر ربيع الأول سنة أربع وتسعين ومائتين ركيا[١] فيه ماء بقرية خراب يقال لها صُمَاخ، كان يسكنها على قديم الدهر قوم من ربيعة يقال لهم بنو عنزة، وبين هذا الموضع وبين البصرة ثلاثة أيام، فلقيهم قوم من الأعراب فخبّروهم أن القرامطة بالثَنِيّ، وهو موضع من ذي قار الذي كانت فيه وقعة العرب مع العجم في أيام كسرى، وهو واد كثير الماء العذب وبينه وبين صُماخ[٢] عشرة أميال، فبات الجيش بصماخ وتراءت الطلائع في عشي يومئذ، ورحل زكرويه من غد وهو طامع بالظفر، فالتقوا بقرية خراب يقال لها إرمَ، بينها وبين الثَنِيّ ثلاثة أميال، وذلك يوم الأحد لسبع بقين من شهر ربيع الأول، فاقتتلوا قتالاً شديدًا صبر فيه الفريقان جميعًا، ثم انهزم زكرويه فقتل الجيش أكثر من معه، وأسر خلق كثير منهم وأفلت صعاليك من العرب على الخيل مجرّدين، ووصل إلى زكرويه - وهو في القبّة - في أوائل السواد، فظنّا أنّه في الخيل التي انهزمت، فقذف رجل بنار فوقعت في قُبّته فخرج من ظهرها فألقى نفسه من مؤخّرها ولحقه بعض الرجّالة - وهو لا يعرفه - فضربه على رأسه ضربة أثخنته فسقط إلى الأرض فأدركه صاحب لِلُجَيْم كان يعرفه فأخذه وصار به إليه، فأخذه لجيم وأركب الذي جاءه به نجيبًا فارهًا[٣]، وقال له: طِرْ - إن أمكنك - حتى تأتي بغداد، وعرّف العبّاس بن الحسن الوزير أنّك رسولي إليه، واشرح له ما شاهدت وسلّم إليه الخاتم، فسار حتى دخل بغداد وأعلمه بالخبر.

قال: ومضى لجيم إلى وصيف والقاسم بن سيما فعرّفهما خبر زكرويه واجتمعوا جميعًا وكتبوا كتاب الفتح، ونهب الجيش عسكر القرامطة وأخذت زوج زكرويه واسمها مؤمنة وأخذ خليفته وجماعة من خاصّته وأقربائه وكاتبه، وانصرف العسكر نحو

---

(١) الركية: البئر التي لم تطو.

(٢) الصّماخ: ماء على منزل واحد من واسط لقاصد مكة.. والمياه التي بين جبلي طيىء والجبال التي بينهما وبين تيماء منها صماخ.

(٣) الفاره: الذي خف ونشط؛ أو هو الذي حذق ومهر.

الكوفة فمات زكرويه بخَفَّان من جراحات أصابته، فصُبّر وكُفّن وحمل على جمل إلى بغداد، وأُدخلت جثّته وزوجته وحرم أصحابه وأولادهم والأسرى ورؤوس من قتل بين يديه وخلفه ونساؤه في الجوالقات.

قال ابن الأثير: وانهزم جماعة من أصحابه إلى الشام، فأوقع بهم أصحاب الحسين بن حمدان فقتلوا عن آخرهم، وأخذ الأعراب رجلين من أصحاب زكرويه يعرف أحدهما بالحدّاد والآخر بالمنتقم وهو أخو امرأة زكرويه، كانا قد توجّها إليهم يدعوانهم إلى الخروج إلى صاحبهم، فسيّروهما إلى بغداد، وتتبّع الخليفة القرامطة بالعراق فقتل بعضهم وحبس بعضهم، وبات هذه الطائفة منهم بالعراق مدّة.

ذكر أخبار من ظهر من القرامطة بعد مقتل زكرويه بن مهرويه

قال الشريف أبو الحسين: ولمّا قتل زكرويه سكن أمر القرامطة وانقطعت حركاتهم وذكر دعوتهم، فلما دخلت سنة خمس وتسعين ومائتين خرج رجل من السواد من الزُّطّ يعرف بأبي حاتم، فقصد أصحاب البُوراني خاصة، وكان هذا البوراني داعيًا وأصحابه يعرفون بالبورانيّة، فلما ظهر أبو حاتم حرّم عليهم الثوم والكرّاث والفجل، وحرّم عليهم إراقة الدم من جميع الحيوان، وأمرهم بأشياء لا يقبلها إلا الأحمق السخيف من ترك الشرائع، وهذه الطائفة من القرامطة تعرف بالبقليّة.

وأقام أبو حاتم هذا نحو سنة ثم زال، ثم اختلفوا بعده وكانوا أهل قرى بسواد الكوفة، فقالت طائفة منهم زكرويه بن مهرويه حيّ، وإنّما شبّه على الناس به، وقالت فرقة منهم الحجة لله محمد بن إسماعيل.

ثم خرج رجل من بني عجل قرمطي يقال له:

محمد بن قطبة

فاجتمع له نحو من مائة رجل، فمضى بهم إلى نحو الجَامِدَة من واسط، فنهب وأفسد فخرج إليهم أمير الناحية فقتلهم وأسرهم.

ذكر أخبار
أبي طاهر سليمان بن أبي سعيد الحسن بن بهرام الجنابي

قد قدّمنا أخبار أبيه أبي سعيد وحرويه وما استولى عليه، وذكرنا خبر مقتله وولاية ابنه سعيد، وأنّه سلّم الأمر إلى أخيه أبي طاهر سليمان، هذا في سنة خمس

وثلاثمائة، وقد قيل بل عجز سعيد عن الأمر فغلبه عليه أخوه أبو طاهر سليمان. قال: وكان شهمًا شجاعًا، وكان الخليفة المقتدر بالله قد كتب إلى أبي سعيد كتابًا ليّنًا في معنى من عنده من أسرى المسلمين، وناظره وأقام الدليل على فساد مذهبه، فلما وصلت الرسل إلى البصرة بلغهم موته، فكتبوا بذلك إلى الخليفة فأمرهم بالمسير إلى ابنه، فأتوا أبا طاهر بالكتاب فأكرم الرسل وأطلق الأسرى وأجاب عن الكتاب، ثم تحرّك أبو طاهر بعد ذلك في سنة عشر وثلاثمائة، وعمل على أخذ البصرة فعمل سلاليم عراضًا، يصعد على كل مرقاة اثنان بزارفين ـ إذا احتيج إلى نصبها وتخلع إذا أريد حملها، ورحل بهذه السلالم المزرقنة يريد البصرة، فلما قرب منها أمهل إلى أن جنّ الليل، وأمر بإخراج الأسنّة وقد كانت وضعت في رمل كيلا تصدأ فركّبت على الرماح، وفرّق الجنن[1] على أصحابه، وحشيت الغرائر[2] بالرمل وحمّلت على الجمال وحمّلت أشياء من حديد قد أُعدّت لما يحتاج إليه، ثم سار بأصحابه إلى السور قبل الفجر، فوضعوا السلالم وصعد عليها قوم من جلداء أصحابه، وتقدّم إليهم بقتل من يتكلم من الموكّلين بالأبواب، ودفع للآخرين ما أعدّه لكسر الأقفال، وقد كان التواني وقع في أرزاق الموكّلين على الأبواب، فتفرّقوا للمعاش إلا بقيّة من المشايخ القدماء فإنّ أرزاقهم كانت جارية عليهم، فصادفوا بعضهم هناك تلك الليلة فتسوّروا ونزلوا ووضعوا السيف عليهم، وجاء الآخرون فكسروا الأقفال ودخل القرامطة، فأوّل ما عملوا أن طرحوا الرمل المحمول معهم في الأبواب نحو ذراع، ليمنعوا غلقها إلا بتعب، وساروا ونذر بهم قوم فبادروا سُبُكًا المُفْلِحي وهو يومئذ الأمير فأعلموه، فركب وقد طلع الفجر ومعه بعض غلمانه فتلقوه وقتلوه، وفزع الناس وركبت الخيل فقتل من تسرّع منهم، وكانت العامّة قد منعها السلطان أن تحمل سلاحًا، فاجتمعوا بغير سلاح ومعهم الآجر، وحضر سُبُك واجتمعت الجند ووقت الحرب، فأصابت القرامطة جراحات والقتل في العامّة كثير، واستمرّ ذلك إلى آخر النهار واختلاط الظلام، ثم خرج القرامطة وقد قتلوا من الناس مقتلة عظيمة إلى خارج البلد فباتوا خارج الدرب، وخرج الناس بعيالاتهم فركبوا السفن، وباكر أبو طاهر البلد فنزل دار عبد السلام الهاشمي، وتفرّق أصحابه في البلد يقتلون من وجدوا وينهبون ما يجدون في المنازل، ويُحمل ذلك إلى موضع قد أمر بجمعه فيه.

---

(١) الجنان: الترس.

(٢) الغرائر: جمع الغرارة، وهي وعاء من الخيش ونحوه يوضع فيه القمح ونحوه، وهو أكبر من الجوالق.

وحكى ابن الأثير في تاريخه الكامل: أن دخولهم البصرة كان في شهر ربيع الآخر سنة إحدى عشرة وثلاثمائة، وأنّه وصل إليها في ألف وسبعمائة رجل، وأقام بها سبعة عشر يومًا يحمل منها ما يقدر عليه من الأموال والأمتعة والنساء والصبيان، وعاد إلى بلده.

قال الشريف: وتراجع الناس فاشتغلوا بدفن من قتل، ولم يرُدّ كثير منهم حريمه خوفًا من عود القرامطة، قال: ولما اتصل خبر هذه الحادثة بالسلطان أنفذ ابن نُفَيْس في عِدة وعُدة فسكن الناس، ووَلّي البلد فشحن السور بالرجّالة، وتحرّز الناس وأعدوا السلاح، قال: وكان أبو الهيجاء عبد الله بن حمدان قد قلّد أعمال الكوفة وقصر ابن هبيرة والسواد وطريق مكة، فجرى بينه وبين البوراني وقائع عظيمة حتى ردّهم عن عمله بشجاعته وإقدامه، فعمرت البلاد وأمن الناس وصلحت الطرق واستقام عزّ السلطان، فوقف القرمطي من ذلك على ما هاله، وكانت جواسيس أبي طاهر لا تنقطع عن العراق في صور مختلفة، واتّصل به أنّ أبا الهيجاء يهوّن أمره ويتمنّى أن ينتدب لحربه، فخاف ذلك ولم يأمنه.

ذكر أخذ أبي طاهر الحاج وأسره ابن حمدان وما كان من أمره في إطلاقه

كانت هذه الحادثة في سنة ثنتي عشرة وثلاثمائة، وذلك أن أبا طاهر بن أبي سعيد الجنَابي القُرمطي أنفذ رجلًا من جواسيسه إلى مكة في سنة إحدى عشرة وثلاثمائة، وقد خرجت قوافل الحاج مع أبي الهيجاء بن حمدان في تلك السنة، فكان الجاسوس يقوم على المحجّة فيقول: يا معشر الناس ادعوا على القرمطي عدوّ الله وعدوّ الإسلام، ويسأل عن أمير الحاج وفي كم هو وكم أرزاقهم، ويسأل عمّن خرج من التجّار وما معهم من الأموال، فكان ذلك دأبه حتى قضى الحج، ثم خرج في أوّل النفر فأسرع إلى سواد باهلة، ثم إلى اليمامة وصار إلى الأحساء في أيام يسيرة، فأخبر سليمان القُرمطي بصورة الأمر، فوجّه سليمان من يثلّ[1] الآبار بينه وبين لُبْنَة[2] وبعض آبار لُبْنه ويسوّي حياضها، وورد بعض الأعراب إلى أبي الهيجاء ـ وهو بعيد ينتظر رجوع الحاج وذلك في آخر ذي الحجة من السنة ـ فأخبره أنّ آبار

(١) ثلّ البئر: أخرج ترابها.

(٢) لبنى (كما في معجم البلدان لياقوت): واد لعمرو بن كلاب كثير النخل، وليس لبني كلاب بشيء من بلادها نخل غيره.

لبنه قد ثلَت فاستراب بذلك، وجاء بعض الأعراب بجِلَّة[1] فيها قطعة من تمر هجَر فتيقّن أمر القرامطة، فشغل ذلك قلبه، وجاءه ما لم يقدره ولا ظنّه فاضطرب من ذلك اضطرابًا شديدًا، وورد حاتم الخراساني بقافلة الحاج من مكة ثاني ذلك اليوم، ومعه قافلة عظيمة، فزاد ذلك في شغل قلب أبي الهيجاء لخوفه عليه، ولم يظهر ذلك لحاتم ولا لغيره ثم ارتحل فلم يعترض عليه، فلما صار حاتم بالثعلبيّة أُنهي إليه شيء من أخبار القرامطة وأنّهم بلُبنه، وكان القرمطي رحل من بلده في ستمائة فارس وألف راجل، وسار حاتم فاجتاز بالهبير ليلاً فلم ينزله، وسار حتى نزل الشقوق، وأغذّ السير وسلّمه الله ومن معه، ونزلت بفيد قافلة أخرى من غد رحيل حاتم من الخراسانيّة، ثم ساروا عنها حتى إذا كانوا بالهبير ظهر لهم أبو طاهر سليمان القرمطي، فقتل بعضهم وأفلت البعض حتى وردوا الكوفة، فاشتد خوف الناس بالكوفة على الحاج واضطربوا، إلا أن نفوسهم قويّة بمقام أبي الهيجاء بفيد، وكان أبو الهيجاء قد أنفذ رجلاً طائيًا يعرف له أخبار القرامطة، يقال له مسبع بن العيدروس من بني سِنْبِس ـ وكان خبيرًا بالبرّ، وتقدّم إليه أن يسرع إليه بالخبر ويعدل عن الطريق، ومعه جماعة قد أزاح عللهم في الرزق والمحمل، فساروا حتى قربوا من لُبنه فنزل إليهم فارسان، فركبا خيولهم وتلقّوهما فتطاردوا، وقصّرا في الركض وهبطا واديًا خلفهما وخرجا منه، ولحقتهم الخيل فساروا على أرض جدب، فدفع عليهم نحو من سبعين فارسًا، فلم ينته حتى طعنت فيهم وضربت، فرجع القوم على خيل مطرودة وخيول القرامطة مستريحة، فبالغوا في دفعهم بكل جهد فلم تك إلا ساعة حتى قتلوا جميعًا، وأسروا مسبعًا دليل القوم فحملوه إلى لبنه، فسأله القرمطي وقال: إن صدقتني أطلقتك، فلما أخبره أمر بحفظه، قال: ولم يمض لأبي الهيجاء يومان بعد إرسال الطليعة حتى وردت قوافل الحاج وأصحاب السلطان معها، وفيها من الوجوه أحمد بن بدر، عم السيدة أم المقتدر بالله، وشفيع الخادم، وفلفل الأسود صاحب خزانة السلطان، وإسحاق بن عبد الملك الهاشمي صاحب الموسم وغيرهم، فأعلمهم أبو الهيجا الخبر فأجالوا الرأي، فقال لهم: قد أنفذت رجالاً أثق بهم طليعة، وأخذت عليهم ألا يرجعوا حتى يشربوا من لبنه والصواب التوقف عن الرحيل لننظر ما يأتون به، فعملوا على ذلك وأقاموا بفيد ستة أيام، ونزلت القافلة الوسطى فيد وكثر الناس وغلت الأسعار، ولم يقدروا على حشيش للعلف ولا خبز، فضجّ الناس وأجمعوا على الرحيل فرحلوا عن فيد يوم الأحد، وخلّف أبو الهيجاء

(١) الجلة: قفة كبيرة للتمر.

ابن أخيه علي بن الحسين بن حمدان بفَيْد، في خيل ينتظرون الحاج الذي مع قافلة الشَّمْسَة؛ قال: وكان الحاج قبل ذلك يسيرون قافلة بعد قافلة لكثرتهم، ومن أراد أن يسير بعد الحاج سار، ومن أراد أن يتخلّف ليعتمر في الحرم تخلّف، وكان الأمر يحملهم على ذلك فيسيرون قافلة بعد قافلة؛ قال: ثم وردت قافلة الشَمسَة فَيْد، فجاءهم بعض التجار بخبر ما اتصل بأبي الهيجاء، وكان في القافلة أبو عيسى صالح ابن علي الهاشمي، وجماعة من العبّاسيين، وأبو محمد بن الحسن بن الحسين العلوي وعمر بن يحيى العلوي وغيرهما من الطالبيين وتجار الكوفة، فتجلّت حقيقة الأخبار من أمر القرامطة، فاجتمعوا في مضرب أبو عيسى وتشاوروا، فاجتمع رأيهم على المقام بفَيْد[١] إلى أن ترتحل القافلة، ثم ينظروا لأنفسهم في عرب يخرجون معهم إلى الكوفة، فأقام الناس بفَيْد يومهم ثم رحلوا بكرة، فلما جاوزوا المنزل افتقد علي بن الحسين بن حمدان من تخلّف من القافلة، فسأل عنهم فأخبر بتخلّفهم فرجع إلى فَيْد ومعه بعض أصحابه فاجتمع بهم، وسألهم عن تخلّفهم فقالوا بأجمعهم لا تحبّ سلوك هذه الطرق، ودافعوا عن الأخبار بسبب تخلّفهم، وقالوا له: أنت وعمّك بريّان منّا، قال: اكتبوا إلَي خطوطكم بذلك، ففعلوا، وانصرف فسار بالناس فلما وصل إلى عمّه أبي الهيجاء عرّفه ذلك، فلامه عليه وقال: وددت أنّ جميع من ترى كان معهم، قال: ولمّا سارت القافلة مع علي بن الحسين بن حمدان أحضر هؤلاء الذين تخلّفوا بفَيْد ابن نزار وابن توبة تاجرين من أهلها، فعرّفوهم حاجتهم إلى من يسلك بهم إلى الكوفة على غير طريق الحاج، فجمعوا لهم جماعة من سنْبِس[٢] وتوصلوا بهم إلى بني زبيد من الطائيين، ثم أخذوا ينزلون على العرب يقاتلون من قاتلهم، ويصلون من استرفدهم ويبرّون ويخلعون، فسلّمهم الله حتى وردوا الكوفة، وذلك بعد شدائد عظيمة وقتال في مواضع، ولم يسلم من الحاج غيرهم والقافلة الأولى التي كانت مع حاتم.

قال: ولمّا وصل علي بن الحسين بن حمدان إلى عمّه أبي الهيجاء اجتمعت القوافل، وكثر الناس، وتجلّى لهم خبر القرامطة وصحّ، فسار أبو الهيجاء بالناس إلى

---

(١) فيد: بالفتح ثم السكون، ودال مهملة: منزل بطريق مكة. . وفيد: بليدة في نصف طريق مكة من الكوفة عامرة إلى الآن يودع الحاج فيها أزوادهم وما يثقل من أمتعتهم عند أهلها، فإذا رجعوا أخذوا أزوادهم ووهبوا لمن أودعوها شيئًا من ذلك. . . (معجم البلدان).

(٢) بنو سنبس، ويقال لهم: سنبس باسم أبيهم: بطن من طيىء، من القحطانية. . . (نهاية الأرب للقلقشندي).

الخزيميّة ثم إلى الثعلبيّة، ثم ساروا يريدون البِطان[١]، واجتمع الناس من أصحاب السلطان والرؤساء فتشاوروا، فلم يدع الأمير أبو الهيجاء الاستغاثة بالقومي قول: ارجعوا ودعوني ألقى القرامطة في أصحابي، فإن أصبتُ فمعكم من تسيرون معه، وإلا فامضوا إلى وادي القرى أو المدين أو غير ذلك، وإن ظفرتُ وجّهتُ إليكم فعدتم وقد زال المحذور، ولم يزل يردّد عليهم هذا القول من الأجفر[٢] إلى الثعلبيّة، فمنهم من أجاب ومنهم من أبى ذلك وقال: لا نفترق، وكان أحمد بن بدر عم السيّدة ممن أبى ذلك وصمّم على الملازمة، فعمل ابن حمدان بما أرادوه دون رأيه، وبات الناس على أميال بقيت من البطان والأحمال على ظهور الجمال، وذلك ليلة الأحد لأيام خلت من صفر، فلما يضاء لهم الفجر ارتحلوا، وقدّم أبو الهيجاء ستمائة راجل من الأولياء، كان السلطان أبعدهم لكثرة شغبهم ببغداد فكانوا بين يدي القوافل، وقارب بين القُطُر ودخل بعض الناس في بعض، وتقدّم نزار بن محمد الضبيّ فكان في أوّل القافلة في أصحابه خلف الرجّالة، وسار أبو الهيجاء في التغالبة والعجم في ميمنة القافلة، وألزم الساقة وميسرة القافلة جماعة من الأولياء مع بعض الأمراء، واحتاط بكل ما أمكن، وسار فلما أضحى النهار أقبلت عليهم خيل القرامطة، والقافلة في نهاية العظم جدًا، فكان أوّل من لقيهم رجّالة أبي الهيجاء، فحملت القرامطة عليهم فخالطوهم فقتلوا جميعًا إلا نحوًا من عشرين رجلًا، وحمل نزار في جيشه فضارب بعض خيل القرامطة بالسيوف ساعة، فلحقته ضربة فهوى إلى الأرض واعتنق فرسه، ومضى نحو المشرق وتبعه بقيّة أصحابه، فاستقاموا حتى وصلوا إلى زُبالة[٣] وساروا إلى الكوفة، فلما سمع الأمير أبو الهيجاء الصوت وعرف الخبر وكان في آخر القافلة أسرع في خيله نحو أوّل القافلة، فوجد الأمر قد فاته بقتل من كان أمامها، وقويت القرامطة على حربه ووجد الحاج قد أخذوا يمنة ويسرة، فحمل على القرامطة فاستقبلوه فقُتل جماعة من أهل بيته صبروا معه، وانهزم وضرب على رأسه ضربة لم تضره إلا أنه قد نزف منها، وأخذ أسيرًا ونزل أبو طاهر القرمطي على غلوتين من القافلة، ورجّالته نحو من ستمائة على المطي فأنفذهم وفرسانًا من فرسانه فأحاطوا

---

(١) البطان: بكسر أوله: منزل بطريق الكوفة بعد الشقوق من جهة مكة دون الثعلبية. . . (معجم البلدان).

(٢) الأجفر: بضم الفاء: موضع بين فيد والخزيمية، بين وبين فيد ٣٦ فرسخًا نحو مكة. وقال الزمخشري: الأجفر ماء لبني يربوع، انتزعته منهم بنو جذيمة.

(٣) زبالة: بضم أوله: منزل معروف بطريق مكة من الكوفة، وهي قرية عامرة بها أسواق بين واقصة والثعلبية. . . (معجم البلدان).

بالقافلة، ومنعوا الناس من الهرب، وكان قد هرب خلق منهم في وقت القتال، فتلف كثير منهم في الطريق عطشًا وأخذ بعضهم الأعراب فسلبوهم، وسلم قوم منهم إلى زُبالة وساروا إلى الكوفة، وأتى بأبي الهيجاء إلى سليمان فلما نظر إليه تضاحك، وقال: قد جئناك عبد الله ولم نكلّفك قصدنا، فتلطّف له أبو الهيجاء بفضل عقله ودهائه وسعة حيلته وقوّة نفسه، وألان له القول حتى أنس به، فاستأمنه على نفسه فأمّنه فخلّص بذلك ناسًا كثيرًا، وعمل في سلامة كثير من الحاج عملاً كثيرًا، ثم أمر القرمطي بتمييز الحاج وإخراجهم من القوافل، وعزل الجمّالين والصنّاع ناحية فظّنوا أنّه إنما أخرجهم للقتل فارتاعوا لذلك، وكانوا قد عطشوا عطشًا شديدًا، فلما جنّهم الليل ضجر الموكّلون منهم، فأخذوا ما معهم وخلّوهم، فورد من ورد منهم الكوفة بشرّ حال متورّمي الأقدام في صور الموتى، ورحل أبو طاهر من الغد بعد أن أخذ من أبي الهيجاء وحده نحوًا من عشرين ألف دينار من الأموال التي لا تحصى كثرة، وقدم كثير من الناس بخبر أبي الهيجاء، وأنّه راكب مع القرامطة يدور معهم ويسأل في خلاصة أسرى كانوا معه، منهم أحمد بن بدر عم السيدة وفلفل الأسود وأحمد بن كشمرد ونحرير الخادم صاحب الشمسة وبدر الطائي وأخوه وغيرهم.

قال: وزادت غلبة أبي طاهر لأصحابه فتنة، وعظّموا أمره وسلب عقولهم حتى قالا فيه أقوالاً مختلفة بحسب جهلهم، قالَ: ولمّا مضى لأبي الهيجاء شهور وهو عندهم أخذ يحتال في الخلاص، فمرّة يعرض به ومرّة يفصح به حتى أنس القرمطي بذلك وأجابه إليه، فسأله في ابن كشمرد وقال: وهو ضعيف لكبره وعلّته، وهذا الخادم الأسود ممّن لا يضر السلطان فقده ولا ينفعه إطلاقه، وكلّمه في أحمد بن بدر فامتنع عليه، فضمن له عشرين ألف دينار وبزاةً وفهودًا وعبدانًا وثيابًا، فاستحلفه وضمنه، وتخلّص منه ناس كثير من الحاج، وأطلقه، وصار إلى بغداد فتباشر الناس بذلك وابتهجوا به.

ذكر دخول أبي طاهر القرمطي الكوفة ورجوعه

كان أبو طاهر قد كتب إلى الخليفة المقتدر بالله ـ بعد إطلاق أبي الهيجاء بن حمدان ـ يطلب منه البصرة والأهواز، فلم يجبه إلى ذلك، فسار من هجر في سنة ثنتي عشرة وثلاثمائة يريد الحاج عند توجههم إلى الحجاز، وكان جعفر بن ورقاء الشيباني يتقلّد أعمال الكوفة وطريق مكة، فسار مع الحاج خوفًا عليهم من أبي طاهر، ومعه ألف رجل من بني شيبان، وسار مع الحجاج من أصحاب السلطان ثمل صاحب

البحر وغيره في ستة آلاف رجل، فلقي أبو طاهر الجيش فانهزموا منه، وردّت القافلة الأولى هم وعسكر الخليفة بعد أن انحدروا من العقبة، وتبعهم أبو طاهر إلى باب الكوفة وبها يومئذ جنيّ الصفواني، كان الخليفة قد أنفذه في جيش عظيم إلى الكوفة، وبها أيضًا ثمل في جيش عظيم، وأقبل أبو طاهر حتى نزل بظاهر الكوفة في يوم الأحد لثلاث عشرة ليلة خلت من ذي القعدة، وأقبل جنيّ إلى خندق الكوفة في عشية هذا اليوم، وأهل البلد والعامّة منتشرون على الخندق، وجعفر بن ورقاء في بني شيبان نازل على القنطرة التي على الخندق مما يلي دور بني العبّاس، وثمل على القنطرة التي تليها، وجنيّ مما يلي ذلك من ناحية يمنة الكوفة، فناوشه الناس، وخرج أبو محمد الحسن بن يحيى بن عمر العلوي فطارد بعض فرسانه، وانكفأ أبو طاهر راجعًا، وبات الناس على تلك الحال وقد قوي الطمع فيه، فلما كان الليل ورد كتاب السلطان يخاطب أبا محمد بن ورقاء في تدبير الجيش، فعمل على لقاء جنيّ الخادم ليعرّفه ذلك، فأشير عليه ألاّ يفعل فأبى ذلك، ثم ركب يعرّف جنيًّا ما كتب به إليه، فأنف جنيّ أن يكون تابعًا وأسرّ ذلك في نفسه، وباكرهم القرمطي بالقتال بعد أن أضحى النهار، فدخلت الرجّالة وراء الفرسان بجيش خرس عن الكلام صمت وحركات خفيّة، والبارقة فيهم ظاهرة في ضوء الشمس، وهم يزفون[١] عسكرهم زفًا، حتى إذا وصلوا إلى عسكر السلطان مالوا على جيش ابن ورقاء وهو في ميسرة الناس، فلما تمهّل بنو شيبان حتى انهزموا راجعين، فعبروا القنطرة التي على الخندق إلى جانب الكوفة وتبعوهم، فصاروا من وراء جنيّ وثمل فوضعوا السيف في الناس، وجنيَ جالس قبل ذلك على كرسي حديد يبيّن أنه لا يقاتل وكأنه يريد قتاله بعد الناس فأسروه، وقاتله ثمل وقاومه وهو منهزم على محاملة ومدافعة، إلى أن تخلّص وسلم جعفر بن ورقاء وكثير من أصحابه، وقتل كثير من العامّة وغيرهم في الطرقات، ووصل أبو طاهر إلى البلد فرفع السيف ونهب منازل الناس، وأقام بالكوفة ستة أيام بظاهرها[٢] يدخل البلد نهارًا ويقيم بجامعها إلى الليل، ثم يخرج فيبيت بعسكره، وحمل منها ما قدر على حمله، ودخل المنهزمون بغداد ولم يحجّوا في هذه السنة، وخاف أهل بغداد وانتقل الناس إلى الجانب الشرقيّ.

قال: ورحل أبو طاهر عن الكوفة في يوم الاثنين لعشر بقين من ذي القعدة، وقُتل يوم دخوله أبو موسى العبّاسي صاحب صلاة الكوفة ورحل مؤنس المظفر من

(١) زف العسكر: حمله على الإسراع. (٢) ظاهر البلد: ما يشرف منه.

بغداد بجيش السلطان عند اتصال الأخبار ببغداد، فسار منها حتى دخل الكوفة، فكان وصوله إليها بعد رحيل القرامطة عنها، فأقام بها ثلاثة أيام ثم رحل عنها، ثم عاد القرمطي في سنة خمس عشرة.

ذكر دخول أبي طاهر القرمطي إلى العراق وقتل يوسف بن أبي الساج

قال: وفي سنة خمس عشرة وثلاثمائة سار أبو طاهر من هَجَر إلى الكوفة، وكان المقتدر بالله قد استعمل يوسف بن أبي الساج على حرب القرامطة، فاستصعب ابن أبي الساج المسير إلى بلد القرامطة، وثقل مسيره في أرض قفر لكثرة من معه من العساكر، فاحتال على أبي طاهر وكتب إليه وأطمعه في بغداد، وأظهر له المواطأة والتزم بمعاضدته فغرّه بذلك، حتى رحل بعيال وحشم واتباع وصبية، وجيشه على أقوى عدّة تمكّنه، وأقبل يريد الكوفة وعمّيت أخباره عن أهلها، إنما هي أراجيف، ورحل يوسف بن أبي الساج بجيشه من واسط يريد الكوفة، فسبقه أبو طاهر إليها ودخلها في يوم الخميس لسبع خلون من شوّال من هذه السنة، وأخذ ما يحتاج إليه ونزل عسكره خارج الكوفة ما بين الحيرة إلى ناحية الخورنق[1]، وأقبلت جيوش ابن أبي الساجّ تسيل من كل وجه على غير تعبئة، وأقبل هو في جيشه ورجاله حتى نزل في غربيّ الفرات، وعقد عليه جسرًا محاذيًا لأبي طاهر، وعبر إليه مستهينًا بأمره مستحقرًا له لا يرى أنه يقوم به، وذلك في يوم الجمعة، فأرسل إلى أبي طاهر يدعوه إلى طاعة الخليفة المقتدر بالله أو الحرب في يوم الأحد، فقال: لا طاعة إلا لله والحرب غدًا، فلما كان في يوم السبت لتسع خلون من شوّال سنة خمس عشرة التقوا واقتتلا قتالاً شديدًا عامّة النهار، وكثير من عسكر ابن أبي الساج لم يستتم نزوله، وهو جيش يضيق عنه موضعه ولا يملك تدبيره، وقد تفرّق عنه عسكره تفرّقًا منتشرًا في فراسخ كثيرة، وركبوا مِنْ نهب القرى وأذى الناس وإظهار الفجور ما تمنى كثير من الناس هلاكهم. قال الشريف أبو الحسين: ولمّا لقيه بظهر الكوفة ما بين الحيرة والخورنق والنهرين من الفرات اتفق له تلول وأنهار وموضع يضيق عن جيشه ولا يتمكن معه الإشراف عليه، فقدّم بين يديه رجّالة بالرماح والتراس مع قائد يعرف بابن الزرنيخي، فأقبل القرمطي نحوه في أربعة آلاف فقاومته

(١) الخورنق: قرية على نصف فرسخ من بلخ.

الرجّالة طويلاً، ثم دخلتها الخيل وتعطفت عليها واضطرب الناس، فوضع فيهم السيف؛ قال الشريف: وأخبرني بعض الجند قال: كنت والله قبل الهزيمة أريد أن أضرب دابّتي بالسوط فلا يمكنني ذلك لضيق الموضع، ووصل كثير من عسكر القرمطي إلى ابن أبي الساج في مصافه على أتمّ عدّة، فلما التقوا اقتتلوا كأعظم قتال شوهد، وكثرت القتلى والجراح في القرامطة جدًا، وقتل رجّالة ابن أبي الساج، وخلص إليه فانهزم الناس وقتلوا قتلاً ذريعًا، حتى صاروا في بساط واحد نحو فرسخين أو أرجح، فلما كان عند غروب الشمس انهزم أصحاب ابن أبي الساج بعد صبر عظيم، وأسر هو وجماعة كثيرة من أصحابه، وذلك في وقت المغرب من يوم السبت، فوكل به أبو طاهر طبيبًا يعالج جراحه، واحتوى القرامطة على عسكر ابن أبي الساج، ولم تكن فيهم قوّة على جمع ما فيه لضعفهم وقَتْل من قتل منهم، فمكث أهل السواد من الأكرة وغيرهم ينهبون القتلى نحو أربعين يومًا، ووصل المنهزمون إلى بغداد بأسوأ حال، فخاف الخاص والعام ببغداد من القرامطة، وكان أبو طاهر القرمطي يظن أن مؤنسًا المظفّر لا يتأخّر عن حربه، وكان على وجل منه، فلمّا لم يخرج إليه اشتد طمعه وظن أنه لا يلقاه أحد ولا يقاومه، وأنّ ما كان قد خدع به من أنّ ببغداد من يظاهره على أمره، وينتظر وصوله إليه من الرؤساء ـ حق، فخرج يريد بغداد، فلما قرب من نواحي الأنبار وقصر ابن هبيرة ونزل بسواده وكل بهم جندًا ليست بالكثير، وركب في جيشه فوافى الأنبار واحتال إلى أن عبر الفرات وصار من الجانب الغربي، وتوجّه بين الفرات ودجلة يريد مدينة السلام، وعف الناس ذلك فكثر اضطرابهم وجزعهم، فبرز مؤنس المظفّر الخادم من بغداد للمسير إلى الكوفة، فبلغه أنّ القرامطة قد ساروا إلى عين التمر، فأرسل من بغداد خمسمائة سمارية فيها المقاتلة لتمنع من عبور الفرات، وسيّر جماعة من الجيش لحفظ الأنبار، وقصد القرامطة الأنبار فقطع أهلها الجسور، فنزلوا غرب الفرات وأنفذ أبو طاهر أصحابه إلى الحديثة، فأتوه بسفن فعبر فيها ثلاثمائة من القرامطة، فقاتلوا عسكر الخليفة وقتلوا منهم جماعة واستولوا على الأنبار؛ قال: ولما ورد الخبر بذلك إلى بغداد خرج نصر الحاجب في عسكر جرّار، ولحق بمؤنس المظفّر فاجتمعا في نيّف وأربعين ألفًا سوى الغلمان ومن يريد النهب، وكان في العسكر أبو الهيجاء بن حمدان وإخوته وأصحابهم، فلما أشرف القرامطة على عسكر الخليفة هرب منه خلق كثير إلى بغداد من غير قتال؛ قال ابن الأثير: كان عسكر القرامطة ألف فارس وسبعمائة فارس وثمانمائة راجل؛ قال: وقيل كانوا ألفين وسبعمائة فارس.

قال الشريف: وسار مؤنس المظفّر حتى نازل القرامطة على قنطرة نهر زُبارا[١]، على نحو ثلاثة فراسخ من بغداد، وشحن الموضع بالجيش، وأشار أبو الهيجاء بن حمدان بقطع القنطرة خوفًا من عبور القرمطي، وإن اتفق أدنى جولة مع امتلاء صدور الجيش من القرامطة فلا يملك البلد لشدة اضطرابه وكثرة أهله، ففعل مؤنس ذلك وقطعها وقاتل عليها نفر من القرامطة قتالاً شديدًا، لا يمنعهم كثرة النشّاب ولا غيره، وشحن مؤنس الفرات ما بين بغداد إلى الأنبار بسماريّات، فيها رماة ناشبة تمنع أحدًا من القرامطة من شرب الماء إلا بجهد، فضلاً عن تمكنٍ من العبور، وكان أحد من نصب لذلك إسحاق بن إبراهيم بن ورقاء، وكان شيخًا ذا دين وبصيرة ونيّة في الخير، فأقام على حصاره لأبي طاهر وكان لا يقدر على مذهب لا إلى وجهه ولا إلى جوانبه، ومتى دنا من الماء أخذته السهام؛ قال الشريف: فحدثني من حضر يومئذ وقد ورد كتاب المقتدر بالله، يأمر مؤنسًا بمعاجلته القتال ويذكر ما لزم من الأموال إلى وقت وصوله، فكتب مؤنس كتابًا ظاهرًا ـ جواب كتاب الخليفة ـ يمليه على كاتبه والناس يسمعون، يقول: إن في مقامنا، أطال الله بقاء مولانا نفقة المال، وفي لقائنا نفقة الرجال، ونحن اخترنا نفقة المال على نفقة الرجال، قال: ثم أنفذ المظفر مؤنس رسولاً إلى القرمطي يقول: ويلك! تظن أنني كمن لقيك، أبرز لك رجالي والله ما يسرّني أن أظفر بك بقتل رجل مسلم من أصحابي، ولكنّني أطاولك وأمنعك مأكولاً ومشروبًا حتى آخذك أخذًا بيدي إن شاء الله؛ قال: وأنفذ المظفّر حاجبه يلبق في ستة آلاف مقاتل إلى القرامطة، الذين بقصر ابن هبيرة مع سواده، ليوقعوا بهم ويخلّصوا يوسف بن أبي الساج، فعلم أبو طاهر بذلك فاضطرب واجتهد في عبور الفرات فعجز. ثم اتفق له طوف حطب فعبر عليه في نفر يسير، وصار إلى سواده الذي خلَفه، وجاءه يلبق فواقعه أبو طاهر في نفر يسير، فكرّ يلبق راجعًا منهزمًا وسلَم السواد وذلك بعد قتال شديد.

ونظر أبو طاهر إلى ابن أبي الساج ـ وقد خرج من الخيمة، ينظر ويرجو الخلاص، وقد ناداه أصحابه: أبشر بالفرج، فلما تمّت الهزيمة أحضره أبو طاهر وقتله وقتل من معه من الأسرى، وقصد القرامطة مدينة هيت[٢] وكان المقتدر قد سيّر إليها

---

(١) زمارا: يكتفي ياقوت بالقول في معجمه: زمارا: موضع أظنه من نواحي الكوفة، ذكر في قتال القرامطة أيام المقتدر.

(٢) هيت: بالكسر، وآخره تاء مثناة: هي بلدة على الفرات من نواحي بغداد فوق الأنبار ذات نخل كثير وخيرات واسعة.

سعيد محمد بن حمدان وهارون بن غريب، فسبقوا القرامطة إليها وقاتلوهم عند السور، فقتل من القرامطة جماعة فعادوا عنها، فرجع مؤنس إلى بغداد وسار أبو طاهر إلى الدالية من طريق الفرات، فقتل من أهلها جماعة ثم سار إلى الرَّحْبة فدخلها في ثامن عشر المحرم سنة ست عشرة وثلاثمائة، بعد أن حاربه أهلها فظفر بهم ووضع السيف فيهم، فراسله أهل قرقيسيا[1] يطلبون الأمان فأمّنهم على ألا يظهر أحد منهم بالنهار، فأجابوا إلى ذلك، وخافه الأعراب وهربوا من بين يديه، فقرّر عليهم أتاوة عن كل رأس دينار يحملونه إلى هجر، ثم صعد من الرحبة إلى الرقّة فدخل أصحابه إلى نصيبين، وقتلوا بها ثلاثين رجلاً وقتل من القرامطة جماعة، وقاتلوا ثلاثة أيام ثم انصرفوا في آخر ربيع الأوّل، وساروا إلى سنجار ونهبوا فطلب أهل سنجار الأمان فأمنهم، ثم عاد إلى الرحبة، ووصل مؤنس إلى الرقة بعد انصراف القرامطة عنها، فاحتال مؤنس في إرسال زواريق فيها فاكهة قد جعل فيها سمومًا قاتلة، فكانت القرامطة يلقونها فيأخذونها، فمات كثير منهم وضعفت أبدان بعضهم، وجهدوا وكثر فيهم الذَّرب[2] فكرّوا راجعين وهم قليلو الظهر مرضى، فلما بلغوا هيت قاتلهم أهلها من وراء السور، فقتلوا منهم رئيسًا كبيرًا وانصرفوا عنهم مفلولين.

ثم رحل أبو طاهر فدخل قصر ابن هبيرة فنهب وقتل، ثم دخل الكوفة على حال ضعف وعلل وجراحات، وأصحابه على ظهور حُمُر أهل السواد، وكان دخوله إليها يوم الجمعة لثلاث ليال خلت من شهر رمضان سنة ست عشرة وثلاثمائة، فأقام بها إلى مستهل ذي الحجة من السنة، ولم يقتل في البلد ولا نهب، وساس أهل الكوفة أمرهم مع القرامطة، ورحل أبو طاهر عن الكوفة في ذي الحجة سنة ست عشرة وثلاثمائة.

ذكر أخبار من ظهر من القرامطة بسواد العراق في أثناء وقائع أبي طاهر الجنابي

قال ابن الأثير والشريف أبو الحسين ـ وقد لخّصت من روايتيهما ما أورده، ودخل خبر بعضهم في خبر بعض ـ ولمّا كان من أمر أبي طاهر في سنة ست عشرة

(١) قرقيسياء: بلد على نهر الخابور قرب رحبة مالك بن طوق على ستة فراسخ وعندها مصب الخابور في الفرات، فهي في مثلث بين الخابور والفرات... (معجم البلدان).

(٢) الذرب، بتسكين الراء: ورم يكون في عنق الإنسان أو الدابة مثل الحصاة؛ أو هو داء يكون في الكبد بطيء البرء. والذرب: بفتح الراء: داء يعرض للمعدة فلا تهضم الطعام ويفسد فيها ولا تمسكه.

وثلاثمائة ما قدّمناه، اجتمع بالسواد ممن يعتقد مذهب القرامطة وكان يكتمه خوفًا فظهروا واجتمع منهم بسواط واسط أكثر من عشرة آلاف، وولُوا عليهم رجلًا يسمّى حُريث بن مسعود، فخرج إليه الأمير بواسط فنام عسكره في بعض المواضع، فكبسه القرامطة فقتلوا منهم خلقًا، واستولوا على سائر ما حواه العسكر من السلاح وغيره فقوي أمرهم؛ واجتمعت طائفة أخرى بعين التمر في جمع كثير، فولوا عليهم رجلًا يسمّى عيسى بن موسى، وكانوا يدعون إلى المهدي، فسار عيسى بن موسى إلى الكوفة ونزل بظاهرها، وجبى الخراج وصرف العمال عن السواد وكان والي الكوفة قد هرب منها قبل دخولهم، ووجّهوا إلى جميع السواد من يطالبهم بالرحيل إليهم، فخرج إليهم من بين راغب وراهب، ففرّقوا العمّال في الطساسيج[1]، وولّوا المعاون لقوم من وجوه عشائرهم، وولوا ابن أبي البوادي الكوفي خراج الكوفة، ونصبوا بعض بني ربيعة واليًا لحربها، وأقاموا في البلد أيامًا وراحوا إلى الجمعة بأجمعهم، وأقاموا أبا العيث بن عبدة خطيبًا، وأحدثوا في الأذان ما لم يكن فيه، فركب إليهم أبو علي عمر بن يحيى العلوي وعيسى بن موسى نازل على شط الفرات في بعض الأيّام، فأظهروا الاستطالة على أبي علي بن يحيى وأنقصوا رتبته، وأقيم وحجب أوقاتًا طويلة، فخرج أبو علي إلى السلطان وذكر له صورة أمر القوم، وقرّر في نفسه أخذهم، فأنفذ السلطان معه صافي النصري في جيش وضمن أبو علي معاونته، وكان هؤلاء قد خرجوا من الكوفة وخلَفوا واليهم عليها وصاحب خراجهم، وقصدوا موضعًا يعرف بالجامع وما يليه فنهبوا واستباحوا، ووثب أهل الكوفة بعد خروجهم على منْ خلَفوه عندهم، فقتلوا منهم جماعة وأخرجوا من بقي، واتصل الخبر بالقرامطة فانكفأوا راجعين يريدون الكوفة ليقاتلوا أهلها، فاجتمع الناس وحملوا السلاح وحفظوا البلد وطافوا به ليلًا ونهارًا مدة أيام، وجاءت القرامطة فنزلوا على الكوفة ولم يكن لهم فيها مطمع فساروا إلى سُورا، وقدم أبو علي العلوي وصافي النصري من بغداد، فواقعوهم على نهر بقرب اجهاباذ يعرف بنهر المجوس، فلم يكن بينهم كبير قتال حتى هزمهم الله تعالى، فقتل منهم ما لا يحصى وغرق منهم قوم وهرب الباقون، وتفرقوا وأسر عيسى بن موسى وخلق كثير معه وأعمى كان من دعاتهم كان يقول الشعر يعرف بأبي الحسن الخصيبي، ودار أبو علي في السواد فتلقّط منهم قومًا، فسكن البلد وتفرّق ذلك الجمع ولم يبق لهم بقيّة قائمة، وحملت الأسرى والرؤوس إلى بغداد فقتل

---

(١) الطساسيج: جمع الطسوج: هو أخص وأقل من الكورة والرستاق والأستان، كأنه جزء من أجزاء الكورة. وهي لفظة فارسية أصلها تسو. . . (معجم ياقوت: المقدمة).

الأسرى بباب الكناسة وصلبوا هناك، وحبس عيسى بن موسى ثم تخلّص بغفلة السلطان وحدوث ما حدث من اضطراب الجيش وكثرة الفتن في آخر أيام المقتدر، وأقام ببغداد يدعو ويتوصل إلى ناس استغرّهم، ويعمل كتبًا يجمع فيها ما يأخذه من كتب يشتريها من الورّاقين، يمخرق فيها بذكر أمور ينسخها ويوهم أنّ له بذلك علمًا، ورتّب كتبًا ينسبها إلى عبدان الداعي، ليوهم أنّ عبدان كان أحد العلماء بكل فلسفة وغيرها، وأنه يعلم ما يكون قبل كونه، ومخرق بجهده على جهّال فصاروا له أتباعًا، وأفسد فسادًا عظيمًا، قال الشريف: وادعى خلافته من مخرق بعده إلى الآن.

وحكى ابن الأثير في تاريخه الكامل: أن الخليفة المقتدر بالله أرسل إلى حُريث بن مسعود، هارون بن غريب وإلى عيسى بن موسى صافي النصري، فأوقعوا بهم وانهزمت القرامطة وقتل أكثرهم وأسروا وأخذت أعلامهم وكانت بيضاء وعليها مكتوب ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝﴾ [القصص: ٥] فدخلت بغداد منكوسة، واضمحل أمر القرامطة بالسواد.

نعود إلى أخبار أبي طاهر.

ذكر مسير أبي طاهر إلى مكة شرّفها الله ونهبها وأخذ الحجر الأسود وإعادته وما كان من أخباره في خلال ذلك

وفي سنة سبع عشرة وثلاثمائة حجّ بالناس منصور الديلمي، وسلموا في مسيرهم حتى أتوا مكة، فوافاهم أبو طاهر القرمطي بمكة يوم التروية، وهو يوم الاثنين لثمان خلون من ذي الحجة، فنهب هو وأصحابه أموال الحجّاج وقتلوهم حتى في المسجد الحرام والبيت، وقلعوا الحجر الأسود وأنفذوه إلى هجر، وأخذوا كسوة الكعبة وباب البيت، وطلع رجل منهم ليقلع الميزاب فسقط فمات، وخرج أمير مكة ابن مجلب في جماعة من الأشراف إلى أبي طاهر، وسألوه في أموالهم فلم يشفَعهم فقاتلوه فقتلهم جميعًا وطرح القتلى في بئر زمزم، ودفن الناس في المسجد الحرام حيث قتلوا من غير غسل ولا كفن ولا صلاة على أحد منهم، ونهب دور أهل مكة، قال الشريف أبو الحسين: ولما نهب القرامطة مكة ورجع أبو طاهر إلى بلده لحقه كدّ شديد عند خروجه من مكة، وحاصرته هذيل فأشرف على الهلكة إلى أن عدل به دليل من الطريق المعروف إلى غيره، فوصل إلى بلده بعد ذلك في المحرم سنة ثماني

عشرة وثلاثمائة، فأقام به ثم سار إلى الكوفة فدخلها في شهر رمضان سنة تسع عشرة وثلاثمائة، فاشتروا منها أمتعة وأسروا خلقًا من السواد، وعاثوا ورجعوا بعد خمسين يومًا إلى بلدهم، فأقاموا به.

وأنفذ أبو طاهر سريّة إلى جنَّابة وسِينِيز[١] ومهْرُوبان[٢] في البحر، فيها وجوه أصحابه في نحو أربعين مركبًا، فوافت ساحل سِينِيز فصعدوا من المراكب، فحملوا على أهلها حملة واحدة فانكشف الناس عنهم، فوضعوا فيهم السيف فما لقوا أحدًا إلا قتلوه من رجل وامرأة، فما نجا إلا من لحق بالجبال وسبوا النساء، فترك الناس الديار وخرجوا يريدون الهرب، فنادى أبو بكر الطرازي في الناس: لا يهرب أحد، فإنّا نقاتل من ورد إلينا، وضرب بالبوق ووجّه من حبس الناس عن سلوك الطرقات وردّهم إلى البلد، وجمع الناس بالمسجد الجامع ورغّبهم في الجهاد وأسعفهم بماله، ورغبت المتطوّعة في الاجتماع فقويت قلوب الناس، وأنفذ أبو بكر سريّة من وقته من خاصة غلمانه في نحو ثلاثمائة رجل في البحر، ووجّه سريّة أخرى في البر، وأنفذ إلى مهروبان يخبر أنّه على لقاء العدوّ، وسألهم الإنجاد في المراكب لمعاونة أهل جنّابة على قتال القرامطة، فساروا والتقى الفريقان في البرّ والبحر من أهل جنَابة وسينيز، ووافت قوارب مهروبان فأشعلوا النيران في القوارب، فأحرقوا بعضها وتخلّص منهم نحو عشرين قاربًا، وانتشبت الحرب فقتل الله منهم خلقًا كثيرًا، وأسر جماعة ولحق بعضهم بالجبال، وورد على أبي بكر الطرازي من أخبره بذلك، فجمع الناس وغدا نحو الجبال، وأرسل فارسًا إلى من بسينيز من أصحابه أن يلحقوا به، وأنفذ إلى جنّابة ألاّ يتخلّف عنه من فيه حراك، لتكون الوقعة بهم من كل وجه، فوافوا المنهزمين من القرامطة في بعض كهوف الجبال، وذلك في يوم الأربعاء فلمّا رأوا الناس قد أقبلوا نحوهم كسروا جفون سيوفهم، وحملوا عليهم فثبتوا لهم، ولم تزل الحرب قائمة بينهم يوم الأربعاء والخميس إلى نصف النهار، ثم نادى أبو بكر الطرازي: من جاء برأس فله خمسون درهمًا، فتنادى الناس بالشهادة وجدّوا ونشطوا، وقتلا خلقًا كثيرًا وأخذوا جميع من بقي أسرى، وحملوا مشهّرين والناس يكثرون حمد الله عزّ وجلّ والثناء عليه، ولم يفلت منهم أحد.

---

(١) سينيز: بكسر أوله، وسكون ثانيه ثم نون مكسورة، وياء أخرى ثم زاي: بلد على ساحل بحر فارس أقرب إلى البصرة من سيراف وتقرب من جنابة.

(٢) مهروبان: الواو ساكنة ثم باء موحدة وآخره نون، في موضعين: أحدهما على ساحل البحر بين عبادان وسيراف بليدة صغيرة... وقيل: مهروبان: ناحية مشتملة على عدة قرى بهمذان... (معجم البلدان لياقوت).

وكتب الناس محضرًا أنفذوه إلى بغداد، وحملت الأسرى والرؤوس معه، قال الشريف: ونسخة المحضر:

بسم الله الرحمٰن الرحيم ـ حضر من وقّع بخطّه وشهادته آخر هذا الكتاب المحضر، وقد حضر عندهم ثلاثة من القرامطة ـ لعنهم الله ـ ذكر أحدهم أنه يقال له ـ سيّار بن عمر بن سيّار، والآخر ذكر أنّه يقال له ـ علي بن محمد بن عمر، والآخر ذكر أنه يعرف بأحمد بن غالب بن جعفر الأحساوي، فذكروا أنّهم متى نفذ رسولهم إلى صاحبهم سليمان بن الحسن القرمطي ردّ الحجر والشَّمْسة وكسوة البيت وأطلق الأسارى الذين في قبضته، وهادن السلطان وارتدع عن السعي بالفساد والقطع على الحاج، ولم يحفزهم ولم يعترض عليهم، ويقول هؤلاء النفر من جملة الأسرى الذين في يد محمد بن علي الطرازي ـ وهم الذين ظفّر الله بهم ـ فمتى ما وفى سليمان بن الحسن القرمطي بما بذلوه عنه أفرج السلطان عنهم وردّهم إليه، وذلك في يوم الجمعة لعشر خلون من جُمادى الآخرة سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة، وأسفل ذلك خطوط أهل البلد بالشهادة.

وأحضر سيّار بن عمر بن سيّار وعلي بن محمد بن عمر المعروف بأبي الهذيل بن المهلّب وأحمد العيّار، وهم من جملة الأسرى في الوقعتين بسينيز وجنَابة، فعُرض عليهم رؤوس أصحابهم ممّن قتل من القرامطة، ليُعرفوا بأسمائهم وأنسابهم فذكروا نحو المائة رأس، ومن الأسرى نحوهم، وحملوا إلى بغداد فحبسوا وأجرى عليهم، ويقال إنّه قد كان فيهم من إخوة سليمان بن الحسن من كُتم أمره.

وحدّثني ابن حمدان أنّهم كانوا بعد خلاصهم ومصيرهم إلى أبي طاهر يتحدثون: أن كثيرًا من الكبراء وغيرهم كانوا يرسلون إليهم ما يتقرّبون به إلى قلوبهم، وذكروا أنهم كانوا يكثرون الخشوع وذكر النبيّ ﷺ وتعظيمه وإقامة الصلاة؛ قال: ويضحكون من فعلهم هذا وخديعتهم الناس، قال: ويضحك أبو طاهر وإخوته مما يتحدثون به، قال: وكان سبب تخلّص هؤلاء الأسرى أن أبا بكر بن ياقوت كتب في المهادنة، وجرى بينهم خطوب في المراسلة إلى أن وافقهم أن يردّوا الحجر الأسود ويخلوا الأسرى ولا يعرضوا للحاج، فجرى الأمر على ذلك.

قال الشريف: وفي سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة دخل القرمطي الكوفة، واستقبل لؤلؤًا الأمير خارجًا بالحاج في ذي القعدة، فرجع بهم لؤلؤ إلى الكوفة وتفرّقوا فيها، بعد أن واقعته الخراسانية فلم يقدر على مقاومتهم وامتنعوا منه، إلا أن الناس تسرّبوا وافترقوا، فظفر بمن ظفر منهم فلم يكثر القتل وأخذ ما وجد، وأشار

بعض أهل الكوفة على بعض أصحابه في هذه السنة ـ عند نزولهم بالكوفة ـ أن يسار في الحاج بغير ما يجري فيهم، فقال الرجل: الذي من أصحاب القرمطي: والله ما ندري ما عند سيّدنا أبي طاهر، من تمزيق هؤلاء الذين من شرق الأرض وغربها، واتخاذهم ومن وراءهم أعداء، وما يفوز بأكثر أموالهم إلا الأعراب والشرّاد من الناس، قال الكوفي: فلو أنه حين يظفر بهم دعاهم أن يؤدي كل رجل دينارًا وأطلقهم وأمّنهم لم يكره أحد منهم ذلك وخفَّ عليهم وسهل، وحجّ الناس من كل بلد لأنَّهم ظماء إلى ذلك جدًا، ولم يبق ملك إلا كاتبه وهاداه واحتاج إليه في حفظ أهل بلده وخاصّته، فجبى في كل سنة ما لا يصير إلى سلطان مثله من الخراج، واستولى على الأرض انقاد له الناس، وإن منع من ذلك السلطان اكتسب المذمَّة، وصار عند الناس هو المانع من الحج، فاستصوب رأيه وفرجج عنه، لأن أصحاب أبي طاهر كان قد ظهر منهم اضطراب عليه وقلّت طاعتهم له، قال: حتى لقد سمعت بعضهم وقد لحقه فارس من العرفاء يركض ويدور في الكوفة ويقول: ارجع إلى العسكر فإنّ السيّد يأمرك بذلك، فذكر أُمّه بقبيح من الشتيمة بعد أن كانوا يعبدونه، قال: ولما سمع رئيس القرامطة كلام الكوفي وما أشار به من أمر الحاج وما جرى من الكلام في ذلك دخل إلى أبي طاهر فعرّفه ما جرى، فبادر من وقته ونادى في الناس بالأمان، وأحضر الخراسانيّة وقرّر معهم أنهم يحجّون ويؤدون إليه المال في كل سنة، ويكونون آمنين على أنفسهم وأموالهم فلم يأمنوا له، فسلّم سياسة أمرهم إلى أبي علي عمر بن يحيى العلوي، واستقرّ للقرامطة ضريبة ورسم على سفر الحاج.

قال الشريف: ولمّا كان في سنة خمس وعشرين وثلاثمائة كبس أبو طاهر الكوفة عشية، وفيها شفيع اللؤلؤي أمير، فهرب من مجلسه والناس عنده، ورمى بنفسه من سطحه واستتر عند امرأة ضعيفة، وظهر الجند من الطرقات فقاوموا من لحقهم من جيشه، وامتنع أكثرهم منه وخرجوا سالمين إلا نفرًا منهم أصيبوا، ووجّه أبو طاهر إلى شفيع اللؤلؤي فأمّنه وأحضره، فحضر إليه وقدّم إليه طعامًا يأكله، وطلبت مائدة يأكل عليها، فقيل ما يحضر إلا مائدة نهبت من داره، فقال أبو طاهر: قبيح أن يراها فافرشوها بالرقاق لكي لا يعرفها، ففعلوا ذلك وقدّمت إليه، وكان يحمل إلى أبي طاهر صحفة صحفة مما يقدّم إليه، فينظر إليها أولاً وينفذها إليه وكان ذلك لدناءته ومهانته، وتفرّق أصحابه عنه وقلّت طاعتهم له فاحتاج إلى المداراة، فوجّه إلى شفيع من يخاطبه في أن يمضي إلى السلطان، ويعرّفه أنّهم صعاليك لا بدّ لهم من أموال، وأنّه إن أعطاهم مالاً لم يفسدوا عليه شيئًا وخدموه فيما يلتمسه، وإن أبى ذلك لم

يجدوا بُدًا من أن يأكلوا بأسيافهم وسيّره أبو طاهر ووصله، وخرج شفيع إلى السلطان فقدم إلى القرمطي أبو بكر بن مقاتل من قبل السلطان يناظره، ففتّ في عضده وملأ صدره من السلطان وأتباعه، فزاده ذلك انكسارًا وذلة وسار عن الكوفة.

وفي سنة ست وعشرين وثلاثمائة فسدت رجال القرامطة وقتل بعضهم بعضًا، وسبب ذلك أنه كان منهم رجل يقال له ابن سَنْبَر، وهو من خواص أبي سعيد الجنَّابي المطلعين على سرّه، وكان له عدوّ من القرامطة اسمه أبو حفص الشريك، فعمد ابن سنبر إلى رجل من أصفهان، وقال له: إذا ملّكتك أمر القرامطة تقتل عدوّي، فأجابه إلى ذلك وعاهده عليه، فأطلعه على أسرار أبي سعيد وعلامات كان يذكرها في صاحبهم الذي يدعو إليه، فحضر إليه أولاد أبي سعيد فذكر لهم العلامات، فقال أبو طاهر: هذا هو الذي ندعو إليه، فأطاعوه ودانوا له حتى كان يأمر الرجل منهم بقتل أخيه فيقتله، وكان إذا كره رجل منهم يقول إنه مريض ـ يعني قد شك في دينه ويأمر بقتله، وبلغ أبو طاهر أنّ الأصفهاني يريد قتله لينفرد بالأمر، فقال لإخوته: قد أخطأنا في هذا الرجل وسأكشف حاله، فقال له: إنّ لنا مريضًا فانظر إليه ليبرأ، وأضجعا والدتهم وغطوها بإزار، فلما رآها قال: إنّ هذا المريض لا يبرأ فاقتلوه، فقالوا: كذبت، هذه والدتنا ثم قتلوه، وذلك بعد أن أفنى أكثر أكابرهم بالقتل.

ذكر وفاة أبي طاهر بن أبي سعيد الجنابي وأخيه وقيام أخويهما بعده

قال: وفي سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة هلك أبو طاهر سليمان بن أبي سعيد وأخوه أبو منصور بجدري أصابهما، وملك التدبير بعده أخواه أبو القاسم سعيد وهو أكبرهم، وأبو العبّاس، وكانا يتّفقان معه على تدبير الأمر، وكان لهما أخ آخر لا يختلط بهم لاشتغاله بالشرب واللهو، قال: وشركهما في تدبير الأمر ابن سنبر.

ذكر إعادة القرامطة الحجر الأسود إلى الكعبة شرّفها الله تعالى

قال: وفي سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة أراد القرامطة أن يستميلوا أهل الإسلام، فحملوا الحجر الأسود وأتوا به الكوفة، فنصبوه في المسجد الجامع على الأسطوانة السابعة في القبلة ممّا يلي صحن المسجد حتى يراه الناس ثم حملوه إلى مكة شرّفها الله تعالى، وقالوا: أخذناه بأمر ورددناه بأمر.

قال ابن الأثير: وكان بجكم الرايقي قد بذل لهم فيه خمسين ألف دينار، فلم يردّوه وردّوه الآن بغير شيء، وذلك في ذي القعدة من السنة، فكان مكثه عندهم اثنتين وعشرين سنة إلا أيامًا، وحكى ابن الأثير في سبب ردّه: أنّ عبيد الله المنعوت بالمهدي القائم ببلاد المغرب والمستولي عليها كتب إلى القرمطي ينكر فعله ويلومه ويلعنه، ويقول أخفقت علينا سعينا وأشهرت دولتنا بالكفر والإلحاد بما فعلت، ومتى لم ترد على أهل مكة ما أخذته وتعيد الحجر الأسود إلى مكانه وتعيد كسوة الكعبة فأنا بريء منك في الدنيا والآخرة. فلما وصل هذا الكتاب أعيد الحجر إلى مكة شرّفها الله تعالى.

ذكر ملك القرامطة دمشق وسيرهم إلى الديار المصرية ومحاصرة من بها ورجوعهم عنها

قال الشريف أبو الحسين رحمه الله تعالى: وفي سنة ستين وثلاثمائة سار الحسن بن أحمد بن أبي سعيد الجنّابي، وهو الذي انتهى إليه أمر القرامطة، من بلده إلى الكوفة، وعزم على قصد الشام وسبب ذلك أنّه كان قد تقرّر للقرامطة في الدولة الإخشيديّة من مال دمشق في كل سنة ثلاثمائة ألف دينار، فلما ملك المعز لدين الله العُبيدي الديار المصرية، واستولى جعفر بن فلاح على الشام، علموا أن ذلك يفوّتهم، فسار الحسن بن أحمد إلى الكوفة، وراسل بختيار الديلمي أحد ملوك الدولة البويهية، في طلب السلاح والمساعدة، فأنفذ إليه خزانة سلاح من بغداد وسبب له على أبي تغلب بن ناصر الدولة بن حمدان بأربعمائة ألف درهم، فرحل الحسن من الكوفة حتى أتى الرحبة وعليها أبو تغلب بن حمدان، فحمل إليه المال المسبّب له به عليه وحمل إليه العلوفة، وأرسل إليه يقول: هذا شيء كنت أردت أن أسير أنا فيه بنفسي، وأنت تقوم مقامي فيه، وأنا مقيم في هذا الموضع إلى أن يرد عليّ خبرك، فإن احتجت إلى مسيري سرت إليك، ونادى في عسكره: من أراد المسير من الجند الإخشيدية وغيرهم إلى الشام مع الحسن بن أحمد فلا اعتراض عليه، فقد أذنّا له في المسير والعسكران واحد، فخرج إلى عسكر القرمطي جماعة من عسكر أبي تغلب، وكان فيه كثير من الإخشيدية الذين كانوا بمصر وفلسطين، صاروا إليه لما انهزموا من المغاربة عند ملكهم الديار المصريّة بعد الدولة الإخشيدية؛ قال: وسبب مظاهرة[1] ابن حمدان

(١) المظاهرة: المعاونة.

للقرمطي أنه كان قد وقع بينه وبين جعفر بن فلاح مراسلات، أغلظ جعفر فيها على أبي تغلب وتهدّده بالمسير إليه، فلما أرسل ابن جعفر إلى الحسن بن أحمد هذه الرسالة ومكّن الجند من المسير معه سرّه ذلك وزاد قوّة، وسار عن الرَّحبة وقرب من أرض دمشق ووصل إلى ضياع المرْج فظفرت خيله برجل مغربي يقال له علي بن مولاة، فقتلوه وقتلوا معه جماعة من المغاربة فوقعت الذلّة على المغاربة، وكان ظالم بن موهوب العُقَيلي على مقدّمة القرامطة في جمع من بني عقيل وبني كلاب، فلقي المغاربة في صحراء المِزَّة[١] وأقبل شبل بن معروف العقيلي معينًا لظالم، ولم يزل القتال بينهم إلى أن أقبل الحسن بن أحمد القرمطي فقوي العقيليون، وتشمّرت المغاربة ولم يزل القتال إلى العصر، ثم حمل ظالم ومن معه فانهزمت المغاربة وأخذهم السيف وتفرّقوا، وقتل جعفر بن فلاح ولم يعرف، واشتغلت العرب بنهب العسكر، وكانت هذه الوقعة في يوم الخميس لست خلون من ذي القعدة سنة ستين وثلاثمائة، فلما كان بعد الوقعة عثر بجعفر بن فلاح من عرفه وهو مقتول مطروح على الطريق، فاشتهر خبره في الناس، ثم نزل الحسن بن أحمد بعد الوقعة على ظاهر المزَّة فجبى مالاً من البلد وسار يريد الرملة[٢]، وكان جوهر القائد قد أنفذ من مصر رجلاً من المغاربة يقال له سعادة بن حيّان ذكر أنه في أحد عشر ألفًا، فلما بلغ ابن حيّان أنّ ابن فلاح قد قتل وجاءه بعد ذلك قوم من المنهزمين فأخبروه بخبر الواقعة، تحيّر وتقطّعت به الأسباب، فلم تكن له جهة غير الدخول إلى يافا، ولم يكن له بها عُدّة ولا دار، فلما دخل إليها جاءه الحسن بن أحمد فنزل عليها، واجتمعت إليه عرب الشام فنازلها وناصبها بالقتال، حتى اشتدّ الحصار وقلّ ما بها جدًا، وكان يدخل إليها شيء سرًا فجعل عليها حرسًا، فمن وجد معه شيء من الطعام يريد الدخول به إلى يافا ضربت عنقه، فلما طال بهم الأمر أكلوا دوابّهم وجميع ما عندهم من الحيوان، ثم هلك أكثرهم من الجوع، وكان الحسن بن أحمد قد سار عن يافا نحو مصر، وخلّف على حصارها أبا المُنجّي وظالمًا العقيلي ونزل على مصر يوم الجمعة مستهلّ شهر ربيع الأول سنة إحدى وستين وثلاثمائة، فقاتل المغاربة على الخندق الذي لمدينتهم، وقتل كثيرًا منهم خارج الخندق وحاصرهم شهورًا، ثم رحل عنها إلى

(١) المزة: بالكسر ثم التشديد: هي قرية كبيرة غناء في وسط بساتين دمشق، بينها وبين دمشق نصف فرسخ... (معجم ياقوت).

(٢) الرملة: مدينة عظيمة بفلسطين... وكانت رباطًا للمسلمين... والرملة أيضًا: محلة خربت نحو شاطىء دجلة مقابل الكرخ ببغداد، والرملة أيضًا: محلة بسرخس... (معجم البلدان).

الأحساء ولم يعلم الناس ما كان السبب في ذلك، فلما تيقّنت المغاربة أنه قد رحل إلى بلده أنفذ جوهر القائد ابن أخته نحو يافا، وبلغ من عليها يحاصرها أن الحسن بن أحمد رحل عن مصر، وأنّ إبراهيم ابن أخت جوهر خارج يريد يافا، فسار القوم عنها وتوجّهوا نحو دمشق، فنزلوا بعسكرهم على ظاهرها، فجرى بين ظالم وأبي المنجّي كلام وخلاف ذكر أنّه بسبب أخذ الخراج، وكان كلٌ واحد منهما يريد أخذه للنفقة في رجاله، وكان أبو المنجيّ كبيرًا عند القرمطي يستخلفه على تدبير أحواله.

قال: ولما رحل القوم عن يافا إلى دمشق جاءها إبراهيم ابن أخت جوهر القائد، فأخرج من كان بها وسار بهم إلى مصر، ورجع الحسن بن أحمد فنزل الرملة، ولقيه أبو المنجّي وظالم فذكر أبو المنجّي للحسن بن أحمد ما جرى من ظالم وما تكلّم به، فقبض عليه ولم يزل محبوسًا حتى ضمنه شبل بن معروف فخلّى سبيله، فهرب إلى شط الفرات إلى حصن كان له في منزل بني زياد، ثم إنّ الحسن بن أحمد طرح مراكب في البحر وجعل فيها رجالاً مقاتلة، وجمع كل من قدر عليه من العرب وغيرهم وتأهّب للمسير إلى مصر، وكان جوهر يكتب إلى المعز لدين الله إلى القيروان بما جرى على عسكره، من القتل والحصار والقتل، أن الحسن بن أحمد يقاتلهم على خندق عسكرهم، وقد أشرف على أخذ مصر فقلق من ذلك قلقًا شديدًا، وجمع من يقدر عليه وسار إلى مصر، وهو يظن أنها تؤخذ قبل أن يصل إليها، فدخلها في يوم الثلاثاء لخمس خلون من شهر رمضان سنة اثنتين وستين وثلاثمائة وكان شديد الخوف من الحسن بن أحمد، فلما نزل مصر عزم على أن يكتب إلى الحسن بن أحمد كتابًا يعرّفه فيه أنّ المذهب واحد، وأنهم منهم استمدوا، وأنهم ساداتهم في هذا الأمر، وبهم وصلوا إلى هذه المرتبة وترهَب عليه، وكان غرض المعز لدين الله العبيدي في ذلك أن يعلم من جواب القرمطي ما في نفسه، وهل خافه لما وافى مصر أم لا؟ قال: والحسن بن أحمد يعرف أنّ المذهب واحد، لأنّه يعلم الظاهر من مذهبهم والباطن، لأن الجميع اتفقوا على تعطيل الخالق وإباحة الأنفس والأموال وبطلان النبوّة، فهم متّفقون على المذهب، وإذا تمكّن بعضهم من بعض يرى قتله ولا يبقي عليه.

قال الشريف: وكان عنوان الكتاب:

من عبد الله ووليّه وخيرته وصفيّه معدّ أبي تميم بن إسماعيل المعزّ لدين الله أمير المؤمنين، وسلالة خير النبيّين ونجل عليّ أفضل الوصيّين إلى الحسن بن أحمد، ونسخة الكتاب:

بسم الله الرحمٰن الرحيم - رسوم النطقاء ومذاهب الأئمة والأنبياء ومسالك الرسل والأوصياء، السالف والآنف منا صلوات الله علينا وعلى آبائنا، أولي الأيدي والأبصار في متقدّم الدهور والأكوار وسالف الأزمان والأعصار عند قيامهم بأحكام الله، وانتصابهم لأمر الله، بالابتداء بالإعذار والانتهاء بالإنذار، قبل إنفاذ الأقدار في أهل الشقاق والإصرار، لتكون الحجّة على من خالف وعصى، والعقوبة على من بان[1] وغوى، حسبما قال الله جلّ وعزّ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤] وقوله سبحانه: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف: ١٠٨] ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ﴾ [البقرة: ١٣٧]، أما بعد أيها الناس: فإنّا نحمد الله بجميع محامده ونمجّده بأحسن مماجدة، حمدًا دائمًا أبدًا ومجدًا عاليًا سرمدًا، على سبوغ نعمائه وحسن بلائه، ونبتغي إليه الوسيلة بالتوفيق والمعونة، على طاعته والتسديد في نصرته، ونستكفيه ممايلة الهوى والزيغ عن قصد الهدى، ونستزيد منه إتمام الصلوات وإفاضة البركات وطيب التحيات، على أوليائه الماضين وخلفائه التالين، منا ومن آبائنا الراشدين المهديين المنتخبين، الذين قضوا بالحقّ وكانوا به يعدلون.

أيها الناس ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ﴾ [الأنعام: ١٠٤] ليتذكّر من تذكر وينذر من أبصر واعتبر. أيها الناس: إن الله جلّ وعزّ إذا أراد أمرًا قضاه، وإذا قضاه أمضاه، وكان من قضائه فينا قبل التكوين أن خلقنا أشباحًا، وأبرز أرواحنا بالقدرة مالكين، وبالقوّة قادرين، حين لا سماء مبنيّة، ولا أرض مدحيّة، ولا شمس تضيء، ولا قمر يسري، ولا كوكب يجري، ولا ليل يجنُّ، ولا أفق يكنّ، ولا لسان ينطق ولا جناح يخفق، ولا ليل، ولا نهار، ولا فلك دوّار، ولا كوكب سيّار، فنحن أوّل الفكرة، وآخر العمل بقدر ومقدور، وأمر في القدم مبرور، فعندما تكامل الأمر وصحّ العزم أنشأ الله جلّ وعز المنشآت فأبدأ الأمّهات من هيولانا، فطبعنا أنوارًا وظلمة وحركة، وسكونًا، فكان من حكمه السابق في عمله ما ترون من فلك دوّار، وكوكب سيّار، وليل ونهار، وما في الآفاق من آثار معجزات، وأقدار باهرات، وما في الأقطار من الآثار، وما في النفوس من الأجناس والصور والأنواع، من كثيف ولطيف، وموجود ومعدوم وظاهر وباطن، ومحسوس وملموس،

(١) بان: فارق وهجر. وبان منه وعنه: بعد وانفصل.

ودانٍ وشاسع، وهابط وطالع. كل ذلك لنا ومن أجلنا، دلالة علينا وإشارة إلينا، يهدي الله ما كان له لب سجيح[1]، ورأي صحيح، قد سبقت له منّا الحسنى، فدان بالمعني، ثم إنه جلّ وعلا أبرز من مكنون العلم ومخزون الحكم آدم وحوّاء أبوين ذكرًا وأُنثى، سببًا لإنشاء البشرية، ودلالة لإظهار القدرة القويّة الكونيّة، وزوّج بينهما فتوالدا الأولاد، وتكاثرت الأعداد، ونحن ننقل في الأصلاب الزكيّة والأرحام الطاهرة المرضية، كلّما ضمنّا من صلب ورحم أظهر منّا قدرة وعلمًا وهلم جرًا إلى آخر الجد الأول والأب الأفضل سيد المرسلين وإمام النبيين أحمد ومحمد صلوات الله عليه وعلى آله في كل نادٍ ومشهد، فحسن آلاؤه وبان غناؤه، وأباد المشركين وقصم الظالمين، وأظهر الحق واستعمل الصدق، وبان بالأحديّة ودان بالصمديّة، فعندها سقطت الأصنام وانعقد الإسلام، وظهر الإيمان وبطل السحر والقربان، وارتفع الكفر والطغيان، وخمدت بيوت النيران وهربت عبدة الأوثان، وأتى بالقرآن شاهدًا بالحق والبرهان فيه خير ما كان وما يكون إلى يوم الوقت المعلوم، مبينًا عن كتب تقدّمت في صحف قد نزلت، تبيانًا لكل شيء وهدى ورحمة ونورًا وسراجًا منيرًا، وكل ذلك دلالات لنا ومقدّمات بين أيدينا، وأسباب لإظهار أمرنا، هدايات وآيات وشهادات، وسعادات قدسيات إلاهيات أوّليات كائنات، منشآت مبديات معيدات وما من ناطقٍ نطق ولا نبيّ بعث ولا وصيّ ظهر إلا قد أشار إلينا، ولوّح بنا ودلّ علينا في كتابه وخطابه، ومنار أعلامه ومرموز كلامه، ما هو موجود غير معدوم وظاهر وباطن، يعلمه من سمع الندا أو شاهد ورأي، من الملأ الأعلى، فمن أغفل منكم أو نسي أو ضلّ أو غوى فلينظر في الكتب الأولى والصحف المنزَلة، وليتأمل آي القرآن وما فيه من البيان، وليسأل أهل الذكر إن كان لا يعلم، فقد أمر الله عزّ وجل ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

قال: وهذا الكتاب طويل جدًا لا طائل فيه، قطعناه ههنا وسنذكر جملة من هذا الكتاب في أخبار المعز لدين الله غير ما في هذا الموضع، على ما نقف عليه إن شاء الله تعالى في موضعه.

قال: والجواب من الحسن بن أحمد القرمطي الأعصم:

وصل إلينا كتابك الذي كثر تفصيله وقلّ تحصيله، ونحن سائرون على أثره والسلام.

---

(١) السجيح: اللين السهل.

وسار الحسن بن أحمد بعد ذلك إلى مصر، فنزل بعسكره عين شمس، وناشب المغاربة القتال، وانبثت سراياه في أرض مصر وبعث عمّالاً إلى الصعيد تجبي الأموال، وضيّق على المغاربة وداومهم القتال على خندق مدينتهم، يعني الشريف بمدينتهم القاهرة المعزيّة، قال: فذكر أنه هزمهم حتى عبر الخندق فامتنعوا منه بالسور، وعظم ذلك على المعز لدين الله وتحيّر في أمره، ولم يجسر أن يخرج بعسكره خارج الخندق، قال: وكان ابن الجرّاح الطائي في جمع عظيم مع الحسن بن أحمد القرمطي، وكان قوة لعسكره ومنعة ومقدّمة، فنظر القوم فإذا ليس لهم بالحسن بن أحمد طاقة، ففكّروا في أمره فلم يجدوا لهم حيلة غير فلّ عسكره، وعلموا أنّه لا يقدر على فلّه إلا بابن الجراح، وأنّ ذلك لا يتمّ إلا ببذل ما يطلبه من المال، فراسلوا ابن الجرّاح وبذلوا له مائة ألف دينار، على أن يفلّ لهم عسكر القرمطي فأجابهم إلى ذلك، ثم إنهم فكروا في أمر المال فاستعظموه، فعملوا دنانير من النحاس وطلوها بالذهب وجعلوها في أكياس، وجعلوا على رأس كل كيس منها دنانير يسيرة من الذهب تغطي ما تحتها وشدّوها وحملت لابن الجراح بعد أن استوثقوا منه، وعاهدوه ألا يغدر بهم إذا وصل إليه المال، فلما وصل إليه المال عمل على فلّ عسكره، وتقدم إلى كبراء أصحابه بأن يتبعوه إذا تواقف العسكران، وقامت الحرب فلما اشتدّ القتال ولّي ابن الجرّاح منهزمًا، واتّبعه أصحابه في جمع كثير، فلما نظر إليه القرمطي قد انهزم بعد الاستظهار تحيّر ولزمه أن يقاتل هو ومن معه فاجتهد في القتال حتى تخلص، ولم تكن لهم بهم طاقة وكانوا قد بادروه من كل جانب، فخشي على نفسه وانهزم واتّبعوه قومه ودخل المغاربة معسكره، فظفروا بأتباع وباعة نحو من ألف وخمسمائة رجل، فأخذوهم أسرى وانتهبوا العسكر وضربوا أعناقهم، وذلك في شهر رمضان سنة ثلاث وستين وثلاثمائة، ثم جرّدوا خلف الحسن بن أحمد، أبا محمود إبراهيم بن جعفر في عشرة آلاف رجل من المغاربة، فسار خلفه وتباطأ في السير خوفًا من أن يعطف عليه، وسار الحسن فنزل أذرعات وأنفذ أبا المنجّي في طائفة كثيرة من الجند إلى دمشق، وكان ابنه قبل ذلك واليًا عليها، ثم سار القرمطي في البريّة إلى بلده وفي نيّته العود، وكانت المغاربة، لمّا سمعوا بقصّة ظالم، وقبض القرمطيّ عليه لما جرى بينه وبين أبي المنَجّي ما ذكرناه، وهربه إلى حصنه، راسلوه ليأتي القرمطيّ من خلفه، فسار يريد بعلبك فلقيه الخبر بهزيمة القرمطي ونزول أبي المنجّي على دمشق، فسار ظالم نحو دمشق ونزل أبو محمود أذرعات، وذُكر أنه كان بينه وبين ظالم مراسلة واتّفقا على أبي المنجّي، وبلغ أبو المنجّي مسير ظالم إليه وكان في شرذمة يسيرة، وأبو المنجّي بدمشق في نحو ألفي رجل، وكان قد ورد إليه الخبر في أنّ ظالمًا يصبح

من غد في عقبة دُمَّر[١]، وكان الجند قبل ذلك قد طلبوا منه الرزق، فقال: ما معي مال، فلما ورد إليه خبر ظالم أعطى الجند على السُّرُج دينارين لكل رجل، ثم إنّ ظالمًا أصبح من غد ذلك اليوم في عقبة دُمَّر، فخرج أبو المنجّي وابنه بمن معهما إلى الميدان للقتال، فذكر أنّ ظالمَ أنفذ إلى أبي المنجّي رسولاً يقول له: إنما جئت مستأمنًا إليكم، وقد كان الجند حقدوا على أبي المنجّي من جهة الرزق، فلما صار ظالم في عقبة دُمَّر مشرفًا على دمشق ذهب قوم من الجند نحو العقبة، فاستأمنوا إلى ظالم وتبعهم قوم بعد قوم، فقوي طمع ظالم بهم فانحدر من العقبة، ثم سار بمن معه حتى قرب من أبي المنجّي فأحاط به فلم يقدر على الهرب فأخذ هو وابنه من بعد أن وقعت فيه ضربة، وانقلب عسكره إلى ظالم، وملك ظالم البلد، وذلك في يوم السبت لعشر خلون من شهر رمضان سنة ثلاث وستين وثلاثمائة.

فلما تمكّن ظالم ونزل البلد أوثق أبا المنجّي وابنه ثم حبسهما، وقبض على جماعة من أصحابه فأخذ أموالهم، ثم قدم أبو محمود بعد ذلك دمشق في يوم الثلاثاء لثمان بقين من شهر رمضان، فلقيه ظالم وتقرّب إليه بأبي المنجّي وابنه، فعمل لكل واحد منهما قفصًا من خشب وحملهما إلى مصر فحبسا، وكان بعد ذلك بين ظالم وأبي محمود وأخبار دمشق ما ليس ذكره في هذا الموضع من غرضنا، فلنرجع إلى أخبار القرامطة.

ذكر عود القرامطة إلى الشام ووفاة الحسن بن أحمد

قال: وفي سنة خمس وستين وثلاثمائة كاتب هفتكين التركي وهو بالشام القرامطة، وقد جرى بينه وبين المغاربة حروب ووقائع واستنصر بهم، فكاتبوه بأنّهم سائرون إلى الشام، فوافوا دمشق في هذه السنة، وكان الذي وافى منهم إسحاق وكسرى وجعفر، فنزلوا ظاهر دمشق نحو الشماسيّة[٢]، ووافى معهم كثير من العجم ممّن كان من أصحاب هفتكين، فلقي هفتكين القرامطة وحمل إليهم الأموال وأكرمهم وفرح بهم وأمن، فأقاموا على دمشق أيامًا ثم رحلوا متوجّهين إلى الرملة، وكان بها أبو محمود إبراهيم بن جعفر فتحصّن منهم بيافا، ونزلت القرامطة الرملة ونصبوا القتال على يافا، حتى كلّ الفريقان من القتال وصار بعضهم يحدّث بعضًا، وأقامت القرامطة بالرملة يجبون المال، فندب العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله ـ وكان قد ولّي الأمر بعد وفاة أبيه ـ جوهر القائد إلى الخروج إلى الشام في سنة خمس وستين، وحمل إليه

---

(١) دمّر: عقبة دمر مشرفة على غوطة دمشق.. وهي من جهة الشمال في طريق بعلبك.

(٢) الشماسية: هي مجاورة لدار الروم التي في أعلى مدينة بغداد وإليها ينسب باب الشماسية.

خزائن السلاح والأموال، فسار يريد الشام في عساكر لم تخرج المغاربة من مصر بمثلها، وتواترت الأخبار إلى هفتكين بمسيره، وهو على عكّا وكان قد ملك صيدا، فنزل عكّا وسار فنزل طبريّة، وفارق القرامطة الرملة ونزلها جوهر، وسار إسحاق وكسرى القرمطيّان إلى الأحساء، وبقي جعفر لم يسر معهم وانضمّ إلى هفتكين بطبريّة، وسار جوهر في طلبهما فسارا إلى دمشق وتبعهم جوهر حتى نزل بالشماسيّة بظاهر دمشق، والمناوشة تقع بينهم تارة والموادعة أخرى، فلم يزل الأمر كذلك إلى جُمادى الأولى سنة ست وستين وثلاثمائة، فوردت الأخبار وقويت بقرب الحسن بن أحمد القرمطي من دمشق، وجاء من بشّر ابن عمّه جعفر بذلك، فسار إليه وصحّ ذلك عند جوهر، فنزل دمشق وسار نحو طبريّة وجدّ في السير، وكان قد هلك من عسكره خلق كثير، فخاف أن يدركه الحسن بن أحمد القرمطي فأسرع المسير من طبريّة، وخرج الحسن بن أحمد من البريّة يريد طبريّة فوجده قد سار عنها، فأنفذ خلفه سريّة فلحقته فرجع عليها أصحاب جوهر، فقتلوا جماعة من العرب وسار جوهر حتى نزل ظاهر الرملة، وأتاه الخبر عن الحسن فدخل جوهر زيتون الرمل وتحصّن به، وسار هفتكين من دمشق في أثر الحسن بن أحمد فلحقه، وتوفي الحسن بن أحمد بالرملة، وتولّى أمر القرامطة بعده ابن عمّه جعفر، واجتمع هو وهفتكين على قتال جوهر، فقاتلوه بقيّة سنة ست وستين وثلاثمائة، ثم رجع جعفر إلى بلده، وكان بين هفتكين وجوهر من الحصار ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخبار ملوك مصر.

ذكر استيلاء القرامطة على الكوفة وخروجهم عنها

قال ابن الأثير رحمه الله تعالى: وفي سنة خمس وسبعين وثلاثمائة ورد إسحاق وجعفر الهَجريّان ـ وهما من القرامطة الذين تلقّبوا بالسادة ـ فملكا الكوفة، قال: وكان للقرامطة من الهيبة ما إن عضد الدولة وبختيار أقطعاهم الكثير من الإقطاعات، وكان نائبهم ببغداد وهو أبو بكر بن شاهويه يحْكم حكم الوزراء، فقبض عليه صمصام الدولة بن بويه، فلما جاء القرامطة إلى الكوفة كتب صمصام الدولة إلى إسحاق وجعفر بالملاطفة ويسألهما عن سبب حركتهما، فذكرا أن السبب في ذلك ما وقع منه من القبض على صاحبهما، وبثّا أصحابهما في جباية الأموال، ووصل الحسن بن المنذر ـ وهو من أكابر القرامطة ـ إلى الجامِعيْن[1]، فأرسل صمصام الدولة العساكر

(١) الجامعين: هو حلة بني مزيد التي بأرض بابل على الفرات بين بغداد والكوفة، وهي الآن مدينة كبيرة آهلة.. وقد أخرجت خلقًا كثيرًا من أهل العلم والأدب ينسبون الحلي... (معجم البلدان لياقوت).

والعرب فقاتلوه وأسروه وجماعة من القوّاد وانهزم من معه، ثم جهّز القرامطة جيشًا آخر في عدد كثير فهزمته عساكر صمصام الدولة، وقتل مقدّم القرامطة، وكانت هذه الوقعة بالجامعين، فلما بلغ المنهزمون الكوفة رحل القرامطة عنها، وتبعتهم العساكر إلى القادسية وأخذ أمر القرامطة في الانتقاض، ولم يكن لهم بعد ذلك بالعراق والشام وقعة بلغنا خبرها.

ذكر ظفر الأصغر بالقرامطة

قال ابن الأثير: وفي سنة ثمان وسبعين وثلاثمائة جمع إنسان يعرف بالأصفر من بني المنتفق[١] جمعًا كثيرًا، وكان بينه وبين جمع من القرامطة وقعة، قتل فيها مقدّم القرامطة وانهزم أصحابه وقتل منهم وأسر خلق كثير، وسار الأصفر إلى الأحساء فتحصّن القرامطة منه، فعدل إلى القطيف[٢] فأخذ ما كان فيها من عبيدهم وأثقالهم ومواشيهم، وسار بذلك إلى البصرة وانتقض أمر القرامطة وضعفوا، وكان مدة ظهور مذهبهم إلى هذا التاريخ مائة سنة، ومنذ ظهر أمرهم واستولوا على البلاد وتجهّزت العساكر لقتالهم خمسًا وتسعين سنة، وكانت فتنتهم قد عمّت أكثر البلاد والعباد؛ ولم أقف لهم بعد واقعة الأصفر على واقعة أخرى فأذكرها.

وقد ذكرنا من أخبارهم ما فيه كفاية، فلنذكر أخبار الخوارج ببلاد الموصل.

ذكر أخبار الخوارج ببلاد الموصل

مساور ومن بعده

كان خروج مساور بن عبد الحميد بن مُساوِر البجلي بالبوازيج[٣] من بلاد الموصل في شهر رجب من شهور سنة اثنتين وخمسين ومائتين في خلافة المعتز بالله، وكان سبب خروجه أنّ شرطة الموصل كان يتولاّها رجل اسمه حسين بن بكير لبني

---

(١) بنو المنتفق: بطن من عامر بن صعصعة، من العدنانية. اشتهروا باسم أبيهم فقيل لهم: المنتفق... (نهاية الأرب للقلقشندي).

(٢) القطيف: بفتح أوله، وكسر ثانيه: هي مدينة بالبحرين.. وقيل: القطيف قرية لجذيمة عبد القيس.

(٣) البوازيج: بعد الزاي ياء ساكنة، وجيم: بلد قرب تكريت على فم الزاب الأسفل حيث يصب في دجلة.

عمران أمراء الموصل، فأخذ ابنًا لمساور هذا اسمه حوثرة فحبسه بالحديثة[١]، وكان حوثرة جميلًا فكان متولّي الشرطة يخرجه من الحبس ليلًا ويحضره عنده، ويردّه إلى الحبس نهارًا، فكتب حوثرة إلى أبيه ـ وهو بالبوازيج ـ يقول: أنا بالنهار محبوس وبالليل عروس، فغضب لذلك وقلق وخرج وتابعه جماعة، وقصد الحديثة فاختفى حسين بن بكير، فأخرج ابنه من الحبس وكثر جمعه من الأعراب والأكراد، فسار إلى الموصل ونزل بالجانب الشرقي، وكان الوالي عليها عقبة بن محمد بن جعفر بن محمد بن الأشعث بن أهبان الخزاعي، وأهبان يقال إنه مكلّم الذئب وله صحبة، فوافقه من الجانب الغربي وعبر دجلة رجلان من أهل الموصل إلى مساور، فقاتلا مساورًا فقتلا عاد مساور وكره القتال، وكان حوثرة ابنه معه فكان يقول: [من الرجز]

أنا الغلام البجلي الشاري أخرجني جوركم من داري

ذكر قتل مساور بندارا الطبري متولي طريق خراسان

قال: ولمّا فارق مساور الموصل بلغ بُنْدارا الطبريّ وهو بالدسكرة أنّه يريد كرخ جُدان، وكان بُندار الطبري يلي طريق خراسان هو ومظفَر بن سيسل، فقال بندار ذلك لمظفّر فقال مظفّر: قد أمسينا وغدًا عيد، فإذا قضينا العيد سرنا إليه، فسار بندار ليلًا طمعًا في أن يكون الظفر له، حتى أشرف على عسكر مساور، فأشار عليه بعض أصحابه أن يبيّتهم فأبى، وقال: حتى أراهم ويروني، فأحسّ به الخوارج فركبوا واقتتلوا، وكان مع بندار ثلاثمائة فارس ومع مساور سبعمائة، فاشتدّ القتال بينهم وحمل الخوارج حملة، اقتطعوا من أصحاب بندار أكثر من مائة فصبروا لهم وقاتلوهم حتى قتلوا جميعًا، فانهزم بُندار وأصحابه وجعل أصحاب مساور يقتطعونهم قطعة بعد قطعة فقتلوهم، وأمعن بندار في الهرب فطلبوه حتى أدركوه فقتلوه ونصبوا رأسه، ونجا من أصحابه نحو خمسين رجلًا، وقيل مائة، وأتى الخبر إلى المظفَر فرحل نحو بغداد، وسار مساور نحو حُلوان فقاتله أهلها، فقتل منهم أربعمائة إنسان، وقتلوا من أصحابه جماعة وقتل مساور عدّة من أصحاب خراسان كانوا بحلوان، فأعانوا أهلها على مساور، ثم انصرف عن حلوان، فقال مساور في ذلك: [من المتقارب]

فجعتُ العراق ببُندارها وحزت البلاد بأقطارها

وحُلوان صبّحتها غارةً فقتّلتُ أغرار غرّارها

وعقبة بالموصل أجحرتُه وطوّقه الذل بي كارها[٢]

---

(١) الحديثة: حديثة الموصل: هي بليدة كانت على دجلة بالجانب الشرقي قرب الزاب الأعلى... (معجم البلدان).

(٢) أجحرته: أي جعله محصورًا كأنّه في جحر.

قال: وكان قتل بُندار في سنة ثلاث وخمسين ومائتين، ثم لقي مساور عسكرًا للخليفة، ومقدّمهم خَطَرمش بناحية جلولاء[(١)] في ذي الحجة من السنة، فهزمهم مساور واستولى على أكثر بلاد الموصل فقوي أمره وكثرت أتباعه.

فجمع له الحسن بن أيوب بن أحمد بن عمر بن الخطاب التغلبي ـ وكان خليفة أبيه على الموصل ـ عسكرًا كثيرًا منهم حمدان بن حمدون جدّ الأمراء الحمدانيّة وغيره، وسار إليه وعبر إليه نهر الزاب، فتأخر مساور عن موضعه ونزل بموضع يقال له وادي الذئاب، وهو واد عميق، فسار الحسن في طلبه فالتقوا واقتتلوا قتالاً شديدًا، فانهزم عسكر الموصل وكثر القتل فيهم، وسقط كثير منهم في الوادي فهلك فيه أكثر من القتلى، وذلك في جُمادى الأولى سنة أربع وخمسين ومائتين، ونجا الحسن فوصل إلى حزّة من أعمال إربل[(٢)]، وهرب محمد بن علي بن السيّد، فظنّ الخوارج أنه الحسن فتبعوه فقتلوه، وكان فارسًا شجاعًا، واشتدّ أمر مساور وعظم شأنه وخافه الناس.

ذكر استيلاء مساور على الموصل وخروجه منها

قال: ولما انهزم عسكر الموصل من مساور قوي أمره وكثرت أتباعه، فسار من موضعه وقصد الموصل فنزل بظاهرها عند الدير الأعلى[(٣)]، فاستتر أمير البلد عبد الله بن سليمان لضعفه عن مقاتلته ولم يدافعه أهل الموصل، فوجه مساور جمعًا إلى دار عبد الله أمير البلد فأحرقها، ودخل الموصل بغير حرب فلم يتعرّض لأحد، وحضرت الجمعة فدخل المسجد الجامع، وحضر الناس فصعد مساور المنبر، وجعل على درج المنبر من أصحابه من يحرسه بالسيوف وكذلك في الصلاة، ولما خطب قال في خطبته: (اللهم أصلحنا وأصلح ولاتنا) ولما دخل في الصلاة جعل إبهاميْه في أذنيه وكبّر ست تكبيرات ثم قرأ بعد ذلك.

---

(١) جلولاء: بالمد: طسوج من طساسيج السواد في طريق خراسان، بينها وبين خانقين سبعة فراسخ، وهو نهر عظيم يمتد إلى بعقوبا ويجري بين منازل أهل بعقوبا ويحمل السفن إلى باجسرا... (معجم ياقوت).

(٢) إربل: قلعة حصينة ومدينة كبيرة في فضاء من الأرض واسع بسيط، ولقلعته خندق عميق... وهي على تل عال من التراب... (معجم البلدان).

(٣) الدير الأعلى: بالموصل في أعلاها على جبل مطل على دجلة، يضرب به المثل في رقة الهواء وحسن المستشرف.

ثم فارق البلد ولم يقدر على المقام به لكثرة أهله، وسار إلى الحديثة وكان قد اتخذها دار هجرته، وكان دخوله الموصل في سنة خمس وخمسين ومائتين، ثم كان بينه وبين عسكر الخليفة في هذه السنة وقعة فانهزم عسكر الخليفة.

ذكر اختلاف الخوارج على مساور انتصار على من خالفه وقتاله عساكر الخليفة

وفي سنة ست وخمسين ومائتين خالف إنسان من الخوارج اسمه عُبيدة من بني زهير، على مساور، وسبب ذلك أنه خالفه في توبة المخطىء، فقال مساور: تُقبل توبته، وقال عُبيدة: لا قبل، فجمع عبيدة جمعًا كثيرًا وسار إلى مساور، وتقدّم إليه مساور من الحديثة، فالتقوا بنواحي جُهينة[1] في جُمادى الأولى سنة سبع وخمسين، واقتتلوا أشد قتال فترجّل عبيدة ومعه جماعة من أصحابه وعرقبوا دوابّهم فقتل عُبيدة وانهزم جمعه، فقتل أكثرهم واستولى مساور على كثير من العراق، ومنع الأموال عن الخليفة فضاقت على الجند أرزاقهم فاضطرهم ذلك إلى أن سار إليه موسى بن بغا وبايكباك وغيرهما في عسكر عظيم، وذلك في سنة ست وخمسين، فوصلوا إلى السنّ وأقاموا به، ثم عادوا بسبب خلع المهتدي، فلما ولّي المعتمد على الله الخلافة سيّر مُفلحًا في عسكر كبير لقتال مساور، فسار فلما قارب الحديثة فارقها مساور، وقصد جبليْن يقال لأحدهما زيني والآخر عامر وهما بالقرب من الحديثة، فتبعه مفلح فعطف عليه مساور وهو في أربعة آلاف فارس، وكان مساور قد انصرف من حرب عُبيدة وقد جرح كثير من أصحابه، فلحقوا مفلحًا بجبل زيني فلم يصل إلى ما يريد، فصعد مساور رأس الجبل فاحتمى به، ونزل مفلح في أصل الجبل، وجرى بينهما وقعات كثيرة، ثم أصبحوا يومًا فطلبوا مساورًا فلم يجدوه، وكان قد نزل من غير الوجه الذي نزل به مفلح، لمّا أيس من الظفر لضعف أصحابه من الجراح، فلمّا لم يره مفلح سار إلى الموصل وسار منها إلى ديار ربيعة، سنجار ونصيبين والخابور، فنظر في أمرها ثم سار فأتى الموصل، فأحسن السيرة في أهلها ورجع عنها وقد تأهّب للقاء مساور، فلمّا قارب الحديثة فارقها مساور وتبعه مفلح، فكان مساور يرتحل عن المنزل فينزله مفلح، فلمّا طال الأمر على مفلح وتوغّل في الجبال والشعاب والمضايق عاد عنه فتبعه مساور يقفو أثره ويأخذ من ينقطع عن ساقة العسكر، فرجع إليه طائفة من

---

(١) جهينة: قرية كبيرة من نواحي الموصل على دجلة، وهي أول منزل لمن يريد بغداد من الموصل، وعندها مرج يقال له مرج جهينة. . . (معجم ياقوت).

العسكر فقاتلوه، ثم عادوا ولحقوا مفلحًا، ووصل مفلح الحديثة فأقام بها أيامًا، وانحدر في أول رمضان إلى سامرّا، فاستولى حينئذ مساور على البلاد، وقوي أمره واشتدت شوكته.

وفي سنة سبع وخمسين ومائتين خرج على مساور خارجيّ آخر اسمه طَوْق من بني زُهير، فاجتمع إليه أربعة آلاف فصار بهم إلى أذْرَمَة[١]، فحاربه أهلها فدخلها بالسيف، وأخذ جارية بكرًا فافتضّها في المسجد، فجمع الحسن بن أيوب بن أحمد العدوي جمعًا كثيرًا فحاربه وقتله، وأنفذ رأسه إلى سامرّا، واستمر مساور بتلك النواحي إلى أن مات في سنة ثلاث وستين.

ذكر وفاة مساور وخبر من قام بعده إلى أن قام هارون البجلي

وفي سنة ثلاث وستين ومائتين توفّي مساور الشاري، وكان قد رحل من البوازيج يريد لقاء سكر قد سار إليه من قبل الخليفة، فكتب أصحابه إلى محمد بن خرّزاد وهو بشهرزور[٢] ليولّوه أمرهم، فامتنع وكان كثير العبادة فبايعوا أيوب بن حيّان الوارقي البجلي، فأرسل إليهم محمد بن خرّزاد يذكر أنّه نظر في أمره فلم يسعه إهمال الأمر، لأنّ مساورًا عهد إليه به، فقالوا له: قد بايعنا هذا الرجل ولا نغدر به، فسار إليهم فيمن بايعه فقاتلهم، فقتل أيوب بن حيّان فبايعوا بعده محمد بن عبد الله بن يحيى الوارقي المعروف بالغلام فقتل أيضًا فبايع أصحابه هارون بن عبد الله البجلي، فكثر أتباعه وعاد عنه ابن خرّزاد، واستولى هارون على بلد الموصل وجبى خراجه.

ذكر محاربة محمد بن خرّزاد هارون بن عبد الله ما كان من خبر خرّزاد ومقتله واستقلال هارون بالأمر بمفرده

وفي سنة سبع وستين ومائتين كانت الحرب بين محمد بن خرّزاد وهارون بن عبد الله، وذلك أن محمدًا جمع أصحابه وسار لحرب هارون، فنزل واسط وهي قرية من قرى الموصل، وكان يركب البقر لئلا يفرّ من القتال، ويلبس الصوف الغليظ

---

(١) أذرمة: كانت في أيام ياقوت، على حد قوله: من أعمال الموصل من كورة تعرف بين النهرين.

(٢) شهرزور: مدينات وقرى فيها مدينة كبيرة، وهي قصبتها... (معجم البلدان).

ويرقع ثيابه، وكان كثير العبادة والنسك ويجلس على الأرض ليس بينه وبينها حائل، فلما نزل واسط خرج إليه وجوه أهل الموصل، وكان هارون بمُعْلَثَايا[١] يجمع لحرب محمد، فلما سمع بنزول محمد عند الموصل سار إليه، ورحل ابن خرّزاد نحوه، فالتقوا بالقرب من قرية شمرخ واقتتلوا قتالاً شديدًا، كان فيه مبارزة وحملات كثيرة، فانهزم هارون وقتل من أصحابه نحو مائتي رجل، منهم جماعة من الفرسان المشهورين، ومضى هارون منهزمًا فعبر دجلة إلى الغرب قاصدًا بني تغلب فنصروه واجتمعوا إليه، ورجع محمد بن خرّزاد من حيث أقبل وعاد هارون إلى الحديثة فاجتمع إليه خلق كثير، فكاتب أصحاب ابن خرّزاد واستمالهم، فأتاه منهم خلق كثير، ولم يبق مع ابن خرّزاد إلا عشيرته من الشمردليّة، وهم أهل شهرزور، وإنما فارقه أصحابه لأنَّه كان خشن العيش، وهو ببلد شهرزور كثير الأعداء من الأكراد وغيرهم، وكان هارون ببلد الوصل قد صلح حاله وحال أصحابه، فمال إليه أصحاب ابن خرّزاد وقصدوه لهذا السبب، وأوقع ابن خرّزاد بالأكراد الجلاليّة بنواحي شهرزور وغيرهم، فقتل وتفرّد هارون بالأمر وقوي، وكثر أتباعه وغلبوا على القرى والرساتيق، وجعلوا على دجلة من يأخذ الزكاة من الأموال المنحدرة والمصعدة، وبثُّوا نوّابهم في الرساتيق يأخذون الأعشار من الغلاّت.

وفي سنة اثنتين وسبعين ومائتين دخل هارون الموصل، وصلّى الجمعة بالناس وكان معه حمدان بن حمدون.

ذكر خروج محمد بن عبادة على هارون وكلاهما خارجي

وفي سنة ثمان وسبعين ومائتين خرج محمد بن عُبادة ويعرف بأبي جورة ـ وهو من بني زهير على هارون، وكان محمد هذا في أوّل أمره من الفقراء الصعاليك، وكان هو وأبناؤه يلتقطون الكمأة[٢] ويبيعونها إلى غير ذلك من الأعمال، ثم إنه جمع جماعة وحكم، فاجتمع إليه أهل تلك النواحي والأعراب وقوي أمره، وأخذ عشر الغلات وقبض الزكاة، وسار إلى مُعْلَثَايا فقاطعه أهلها على خمسمائة دينار، وجبى تلك الأعمال وبنى عند سنجار حصنًا، وحمل إليه الميرة والأمتعة، وجعل فيه ابنه أبا هلال

---

(١) معلثايا: بالفتح ثم السكون، وبالثاء المثلثة، وياء: بليد قرب جزيرة ابن عمر من نواحي الموصل.

(٢) الكمأة: واحدتها: الكمء، وهو فطر من الفصيلة الكميئة، وهي أرضية تنتفخ حاملات أبواغها: فتجنى وتؤكل مطبوخة، ويختلف حجمها بحسب الأنواع.

ومعه مائة وخمسون رجلًا من وجوه بني زهير وغيرهم، ووصل الخبر إلى هارون فاجتمع رأيه ورأى وجوه أصحابه على قصد الحصن أولاً، فإذا فرغوا منه ساروا إلى محمد بن عُبادة، فجمع أصحابه به فبلغوا ألف فارس ومائتي فارس ومائة راجل، فأحدق بالحصن وحصره، ومحمد بن عُبادة في قَبْراثَا[1] لم يعلم بذلك، وجدّ هارون في قتال أهل الحصن، ونصب عليهم السلاليم وملكه، فلما رأى من معه من نبي تغلب تغلبه على الحصن أعطوا من فيه من بني زهير الأمان، بغير أمر هارون فشقّ ذلك عليه، إلا أنه قتل أبا هلال بن محمد ونفرًا معه قبل الأمان، ثم ساروا إلى محمد فوافوه وهو في أربعة آلاف رجل، فاقتتلوا فانهزم هارون ومن معه، ووقف بعض أصحابه ونادى رجالاً بأسمائهم فاجتمعوا نحو أربعين رجلًا، وحملوا على ميمنة محمد فانهزمت، وعادت الحرب فانهزم محمد وأصحابه، ووضعوا فيهم السيف فقتل منهم ألفان وأربعمائة رجل وحجز بينهم الليل وجمع هارون مالهم فقسّمه بين أصحابه، وانهزم محمد إلى آمد فأخذه صاحبها أحمد بن عيسى ابن الشيخ بعد حرب وأسره، وحمله إلى المعتضد بالله فسلخ جلده كالشاة.

ذكر انهزام هارون من عسكر الموصل

كان المعتضد بالله قد سار إلى ماردين في سنة إحدى وسبعين، وخلَف بالموصل نصر القشُوري يجبي الأموال ويعين العمّال على جبايتها فخرج عامل مُعْلَثَايا إليها ومعه جماعة من أصحاب نصر، فوقع عليهم طائفة من الخوارج فاقتتلوا إلى أن أدركهم الليل ففرّق بينهم، وقتل من الخوارج إنسان اسمه جعفر، وهو من أعيان أصحاب هارون، فعظم عليه ذلك وأمر أصحابه أن يفسدوا في البلاد، فكتب نصر القشوري إلى هارون يتهدّده بقرب الخليفة، وأنّه إن همّ به أهلكه وأصحابه، فلا يغتر بمن سار إلى حربه فعاد عنه بمكره وخديعته، فأجابه هارون بجواب غليظ، من جملته وإنّا وإياك كما قيل:

فلا توعدونا باللقاء وأبرزوا ... إلينا سوادًا نلقهُ بسواد

فبعث نصر جواب هارون إلى المعتضد بالله فجدّ في قصده، وولّى الحسن بن عليّ كورة الموصل وأمره بقصد الخوارج، وأمر كافة مقدّمي الولايات والأعمال بطاعته، فجمعهم وسار إلى أعمال الموصل وخندق على نفسه، وأقام إلى أن رفع الناس غلاّتهم، ثم سار إلى الخوارج وعبر نهر الزاب إليهم، فالتقوا واقتتلوا قتالاً

(١) قبراثا: قرية من نواحي بقعاء الموصل.

شديدًا فانكشف الخوارج عنه، ليفرّقوا جمعيته ثم يعطفوا عليه، فأمر الحسن أصحابه بلزوم مواقفهم ففعلوا، ورجع هارون وأصحابه وحملوا سبع عشرة حملة، فانكشفت ميمنة الحسن وثبت هو، فحمل عليه الخوارج حملة رجل واحد وهو ثابت، وضرب على رأسه عدّة ضربات فلم تؤثر فيه، فلما رأى أصحابه ثباته رجعوا إليه وقاتلوا وصبروا، فانهزم هارون ومن معه وقتل خلق كثير، وكانت هذه الوقعة في سنة اثنتين وثمانين ومائتين، فتحيّر هارون في أمره فقصد البريّة، ونزل عند بني تغلب ثم عاد إلى ملعثايا، ورجع إلى البريّة ثم رجع إلى دجلة، وتكرّر ما بين ذلك، فلما رأى أصحابه قوّة دولة الخليفة المعتضد بالله راسلوا الخليفة في طلب الأمان، فأمّنهم فأتاه ثلاثمائة وستون رجلًا، وبقي مع هارون بعضهم، وهو يجول في البلاد إلى أن قتل.

ذكر مقتل هارون

وفي سنة ثلاث وثمانين ومائتين سار المعتضد بالله إلى الموصل، ووصل إلى تكريت وأقام بها، وأحضر الحسين بن حمدان وبعثه في طلب هارون في جماعة من الفرسان والرجّالة، فانتخب الحسين ثلاثمائة رجل فسار بهم، ومعه وصيف فقال له الحسين: مره يا أمير المؤمنين بطاعتي، فأمره بذلك، فسار بهم الحسين حتى انتهى إلى مخاضة في دجلة، فقال الحسين لوصيف ولمن معه ليقفوا هناك، وقال: ليس لهارون طريق ـ إن هرب ـ غيرها، فلا تبرحوا من هذا الموضع حتى يمرّ بكم فتمنعوه من العبور وأكون أنا من خلفه، ومضى الحسين في طلب هارون فلقيه، واقتتلوا وقتل من الفريقين عدّة قتلى، ثم انهزم هارون، وأقام وصيف على المخاضة ثلاثة أيام، فقال له أصحابه: قد طال مقامك ولسنا نأمن أن يأخذ حسين هارون، فيكون الفتح له دوننا، والصواب أن تمضي في آثارهم فأطاعهم ومضى، ولما فارق المخاضة جاء هارون فعبرها، وجاء الحسين في أثره إلى الموضع فلم ير وصيفًا وأصحابه في الموضع الذي تركهم فيه، فعبر في أثر هارون وانتهى إلى حيّ من أحياء العرب، فسأل عنه فكتموه أمره فهدّدهم فأعلموه أنّه اجتاز بهم، فتبعه حتى أدركه بعد أيام وهارون في نحو مائة رجل، فناشده فأبى الحسين إلا قتاله، وحاربه وألقى نفسه عليه وأسره، وجاء به إلى المعتضد بالله إلى بغداد فوصلها لثمان بقين من شهر ربيع الأول، وأدخل هارون على فيل، وأرادوا أن يلبسوه ديباجًا مشهّرًا فامتنع، وقال: هذا لا يحلّ فألبسوه كارهًا، ولما صلب نادى بأعلى صوته لا حكم إلا لله ولو كره المشركون، وكان هارون صُفْريًا، وكانت مدة خروج هذه الطائفة، منذ خرج مساور إلى أن أسر هارون ثلاثين سنة، منها أيام مساور عشر سنين، ومدة خروج هارون عشرون سنة، والله تعالى أعلم.

الباب التاسع

من القسم الخامس من الفن الخامس

في أخبار من استقلّ بالملك والممالك بالبلاد الشرقية والشمالية في خلال الدولة العباسية وهم ملوك خراسان وما وراء النهر والجبال وطبرستان وغزنة والغور وبلاد السند والهند والدولة السامانية والدولة الصّفارية والغزنوية والغورية والدولة الديلمية الختلية

ذكر أخبار الدولة السامانية وقيامها بما وراء النهر ونسب ملوكها وابتداء أمرهم

كان أوّل من نبغ منهم وظهر اسمه وولّي من قبل الخلافة نصر بن أحمد بن أسد بن سامان خداه بن جثمان بن طمغاث بن نوشرد بن بهرام جوبين بن بهرام خُشنُنْش، وكان بهرام خُشنُنْش من الريّ فجعله كسرى هرمز مرزبان أذربيجان[1]، وكانت ولاية نصر بن أحمد ما وراء النهر في سنة إحدى وستين ومائتين من قبل الخليفة المعتمد على الله العبّاسي؛ وكان المأمون، لمّا ولّي خراسان في خلافة أبيه الرشيد، اصطنع أولاد أسد بن سامان، وهم نوح وأحمد ويحيى وإلياس، فقدّمهم ورفعهم واستعملهم، فلمّا أفضت الخلافة إلى المأمون ورجع إلى العراق استخلف غسّان بن عبّاد، فاستعمل غسان نوح بن أسد على سمرقند، وأحمد بن أسد على فرغانة، ويحيى على الشاش[2] وأشروسنة[3]، وإلياس على هراة وذلك في سنة أربع ومائتين، ثم أقرّهم طاهر بن الحسين على هذه الأعمال لما ولّي خراسان، ثم توفي

---

(١) أذربيجان: بالفتح ثم السكون، وفتح الراء، وكسر الباء الموحدة، وياء ساكنة، وجيم: حدّ أذربيجان من برذعة مشرقًا إلى أرزنجان مغربًا، ويتصل حدها من جهة الشمال ببلاد الديلم، والجيل، والطرم. . . . ومن مشهور مدائنها: تبريز، وهي اليوم قصبتها وأكبر مدنها. . . (معجم البلدان).

(٢) الشاش: بالشين المعجمة: بالريّ قرية يقال لها شاش، النسبة إليها قليلة. . والشاش: قرية بما وراء النهر ثم ما وراء نهر سيحون متاخمة لبلاد الترك. . . (معجم ياقوت).

(٣) أشروسنة: بالضم ثم السكون، وضم الراء، وواو ساكنة، وسين مهملة مفتوحة، ونون، وهاء: بلدة كبيرة بما رواء النهر من بلاد الهياطلة بين سيحون وسمرقند.

نوح بن أسد فأقرّ طاهر أخويه يحيى وأحمد على عمله، وكان أحمد بن أسد عفيفًا عن المطاعم الدنيّة حسن السيرة، لا يقبل الرشا، ففيه يقول الشاعر:

ثوى ثلاثين حولاً في ولايته فجاع يوم ثوى في قبره حشمه

وقيل إن هذا الشعر إنما قيل في ابنه نصر.

وأمّا إلياس فإنه أقام بهراة إلى أن مات، فأقرّ عبد الله بن طاهر ابنه أبا إسحاق محمد بن إلياس على عمله بهراة. وكان لأحمد بن أسد سبعة بنين وهم: نصر وأبو يوسف يعقوب أبو زكريا يحيى وأبو الأشعث أسد وإسماعيل وإسحاق وأبو غانم حُميد، فلما توفي أحمد بن أسد استخلف ابنه نصرًا على أعماله بسمرقند، فبقي عاملاً عليها إلى آخر الأيام الطاهريّة وبعدها إلى أن مضى لسبيله، وكان إسماعيل بن أحمد يخدم أخاه نصرًا، فولاه بخارى[1] في سنة إحدى وستين ومائتين، فهذا ابتداء أمرهم على سبيل الاختصار.

وهذه الولاية هي أوّل ولاية كانت لملوك هذه الدولة ولأهل هذا البيت من قبل الخليفة، ففي هذه السنة كان ابتداء دولتهم، وأوّل من استقلّ منهم بالولاية نصر هذا في هذا التاريخ، وكان قبل ذلك يلي الأعمال من قبل عمّال خراسان، قال: ثم وقع خلاف بين نصر وأخيه إسماعيل مرة بعد أخرى حتى أفضى ذلك إلى الحرب بينهما، فتحاربا في سنة خمس وسبعين ومائتين، فظفر إسماعيل بأخيه نصر فلما جيء به إليه ترجّل إسماعيل له، وقبّل يده وردّه إلى موضعه بسمرقند، وتصرّف في النيابة عنه ببخارى وصلح ما بينهما، وكان إسماعيل خيّرًا يحب أهل العلم والدين ويكرمهم، وببركتهم دام الملك في عقبه من بعده.

حكي عن أبي إبراهيم إسماعيل بن أحمد هذا قال: كنتُ بسمرقند فجلست للمظالم وجلس أخي إسحاق إلى جانبي، فدخل أبو عبد الله محمد بن نصر[2] الفقيه الشافعي فقمت له إجلالاً لعلمه دينه، فلما خرج عاتبني أخي وقال: أنت أمير خراسان

---

(١) بخارى: بالضم: من أعظم مدن ما وراء النهر وأجلها، يعبر إليها من آمل الشط، وبينها وبين جيحون يومان من هذا الوجه، وكانت قاعدة ملك السامانية.

(٢) هو محمد بن نصر المروزي الإمام أبو عبد الله أحد الأعلام، كان رأسًا في الفقه، رأسًا في الحديث، رأسًا في العبادة، عدلاً خيرًا... وكان يقع على أذنه الذباب وهو في الصلاة فيسيل الدم ولا يذبه كان ينتصب كأنه خشبة.. وقيل: كان ابن نصر أعلم الناس بالاختلاف. وصنف كتبًا... ولم يكن للشافعية في وقته مثله... (شذرات الذهب ٢:٢١٦).

يدخل عليك رجل من رعيّتك فتقوم له فتذهب السياسة بهذا!! قال إسماعيل فبتّ في تلك الليلة فرأيت النبيّ ﷺ، وكأني واقف أنا وأخي إسحاق، فأقبل النبيّ ﷺ وأخذ بعضدي وقال لي: يا إسماعيل ثبت ملكك وملك بنيك بإجلالك محمد بن نصر، ثم التفت إلى إسحاق وقال: ذهب ملكك وملك بنيك باستخفافك بمحمد بن نصر.

ذكر وفاة نصر وقيام أخيه إسماعيل

وفي سنة تسع وسبعين ومائتين توفي نصر بن أحمد، وكانت مدة استقلاله بالأمر ثماني عشرة سنة تقريبًا، وكان دينًا عاقلاً حسن الشعر، ولما مات قام مقامه في أعماله بما وراء النهر أخوه إسماعيل بن أحمد.

وفي سنة ثمانين ومائتين غزا إسماعيل بلاد الترك، وافتتح مدينة مِلكهم وأسر أباه وامرأته خاتون ونحوًا من عشرة آلاف، وقتل منهم خلقًا وأصاب من الدواب ما لا يعلم عدده، وأصاب الفارس من الغنيمة ألف درهم.

ذكر ملك إسماعيل خراسان

وفي سنة سبع وثمانين ومائتين ملك خراسان من عمرو بن الليث الصفَّار، وسبب ذلك أن عمرًا كان قد أرسل إلى الخليفة المعتضد بالله يطلب منه أن يوليه ما وراء النهر، فوجّه إليه الخلع واللواء بذلك، وكان هو إذ ذاك بنيسابور، فوجّه لمحاربة إسماعيل محمد بن بشير ـ وكان صاحبه وخليفته ـ وعشرة من قوّاده، فتوجّهوا إلى آمل فعبر إليهم إسماعيل نهر جيحون[1]، والتقوا فهزمهم وقتل محمد بن بشير في نحو ستة آلاف رجل، وبلغ المنهزمون إلى عمرو بنيسابور، وعاد إسماعيل إلى بخارى، فتجهّز عمرو لقصده وسار من نيسابور نحو بلخ، فراسله إسماعيل يستعطفه ويقول: إن ولايتك قد اتّسعت ولك دنيا عريضة، وأنه ليس بيدي إلا ما وراء النهر، وأنا في ثغر فاقنع بما في يدك واتركني، فأبى عمرو إلا قتاله، فذكر أصحاب عمرو له شدّة العبور إلى نهر بلخ، فقال: لو شئت أن أسكره ببدر الأموال لفعلت، وسار إسماعيل نحوه وعبر النهر إلى الجانب الغربي، ونزل عمرو بلخ وأخذ إسماعيل عليه النواحي لكثرة جيوشه، فبقي

(١) جيحون: يجيء جيحون من موضع يقال له ريوساران، وهو جبل يتصل بناحية السند والهند وكابل.. وقال الإصطخري: فأما جيحون فإن عموده نهر يعرف بجرياب يخرج من بلاد وخّاب من حدود بذخشان وينظم إليه أنهار في حدود الختل ووخش فيصير من تلك الأنهار هذا النهر العظيم... (معجم البلدان).

عمرو كالمحاصر فطلب المحاجزة[١] فأبى إسماعيل، والتقوا واقتتلوا فلم يكن بينهم كبير قتال حتى ولّى عمرو هاربًا، ومرّ بأجمة في طريقه فقيل له إنَّها أقرب الطرق فقصدها في نفر يسير وقال لعامة من معه: اسلكوا الطريق الواضح، ودخل الأجمة فوحل به فرسه ومضى من معه، فجاء أصحاب إسماعيل فأخذوه أسيرًا، فسيّره إسماعيل إلى سمرقند، فلما وصل الخبر إلى المعتضد ذمّ عمرًا ومدح إسماعيل، قال: ثم خيّره إسماعيل بين المقام عنده أو إنفاذه إلى المعتضد فاختار التوجّه إلى الخليفة فسيّره إليه، كانت هذه الوقعة في شهر ربيع الأول من السنة.

وأرسل الخليفة المعتضد بالله إلى إسماعيل الخلع، وولاه ما كان بيد عمرو وخلع على نائبه بالحضرة وهو المعروف بالمرزباني، فاستولى إسماعيل على خراسان وصارت بيده.

ذكر ملكه طبرستان

وفي سنة سبع وثمانين أيضًا ملك إسماعيل طبرستان من محمد بن زيد العلوي، وسبب ذلك أنه سار لقصد خراسان، ظنًا منه أن إسماعيل لا يتجاوز ما وراء النهر، فبعث إليه ينهاه عن التعرض إليها وترك له جرجان فامتنع من ذلك، فندب إسماعيل لقتاله محمد بن هارون فالتقوا واقتتلوا على باب جرجان، فانجلت الحرب عن انهزام العلوي بعد أن جرح عدّة جراحات وأسر ابنه زيد بن محمد، وحمل إلى إسماعيل فأكرمه وأحسن نزله، وسار محمد بن هارون إلى طبرستان وملكها، وتولاَّها من قبل إسماعيل.

ثم استولى محمد بن هارون على الريّ في شهر رجب سنة تسع وثمانين بعد أن خلع طاعة إسماعيل، وكان أهل الريّ قد كاتبوه في تسليمها إليه، فسار إليهم فحاربه واليها وهو اكرتمش التركي، فقتله محمد وقتل ابنيه وأخاه كيغلغ وهو من قواد الخليفة.

ذكر القبض على محمد بن هارون ووفاته

وفي سنة تسعين ومائتين أنفذ المكتفي بالله عهدًا إلى إسماعيل بولاية الريّ، فسار إليها ففارقها ابن هارون إلى قزوين ثم عاد إلى طبرستان[٢]، واستعمل، إسماعيل

(١) يقال: تحاجز القوم: إذا تزايلوا وانفصل بعضهم عن بعض.

(٢) طبرستان: بفتح أوله وثانيه، وكسر الراء: هي بلدان واسعة كثيرة يشملها هذا الاسم.. فمن أعيان بلدانها دهستان وجرجان واستراباذ وآمل... (معجم البلدان).

على جرجان بارس التركي الكبير، وألزمه إحضار محمد بن هارون، فكاتبه بارس وضمن له إصلاح أمره، فقصد بخارى فلما بلغها قيد وحمل على جمل، وحبس فمات بعد شهرين محبوسًا؛ وكان ابتداء أمر محمد بن هارون أنّه كان خياطًا، ثم جمع جمعًا من أهل الفساد وقطع الطريق في مفازة سرخس مدّة، ثم استأمن إلى رافع بن هَرْثمة وبقي معه إلى أن انهزم من عمرو الصفّار فاستأمن إلى إسماعيل الساماني فسيّره إسماعيل لقتال العلوي كما قدّمناه ثم خرج عليه كما ذكرنا.

وفي سنة إحدى وتسعين ومائتين خرجت الترك في خلق كثير لا يحصون كثرة، وكان عسكرهم سبعمائة قبّة تركية، ولا تكون القبّة التركية إلا لرؤسائهم، فوجّه إليهم إسماعيل جيشًا عظيمًا وتبعهم خلق من المطَوّعة فوصلوا إلى الترك وهم غادون، فكبسهم المسلمون في الصبح فقتلوا منهم خلقًا كثيرًا وانهزم الباقون أقبح هزيمة.

ذكر وفاة إسماعيل وولاية ابنه أحمد

كانت وفاته في منتصف صفر سنة خمس وتسعين ومائتين، ولُقِّب بعد موته بالماضي، وكان رحمه الله تعالى عاقلاً عادلاً حسن السيرة في رعيّته حليمًا.

حكي عنه أنه كان لولده أحمد مؤدب يؤدّبه، فمرّ به الأمير إسماعيل فسمع المؤدب يسبّه، ويقول: لا بارك الله فيك ولا فيمن ولدك، فدخل عليه وقال: يا هذا نحن لم نذنب ذنبًا فتسبّنا، فهل ترى أن تعفينا من سبّك، وتخص المذنب بذمّك وشتمك؟ فارتاع المؤدب وخرج إسماعيل عنه، وأمر له بصلة جزاء لخوفه منه. وجرى بين يديه ذكر الأنساب والأحساب فقال لبعض جلسائه: كن عصاميًا ولا تكن عظاميًا. ومن مكارمه وآدابه أنه لما ولّي بعد أخيه نصر واستقل بالأمر استمرّ يكاتب أصحابه وأصدقاءه بما كان يكاتبهم به أوّلاً، فقيل له في ذلك فقال: يجب علينا إذا زادنا الله رفعة ألا ننقص إخواننا، بل نزيدهم رفعة وعلاء وجاهًا ليزدادوا لنا خلوصًا وشكرًا؛ وكانت مدة ولايته منذ أفضى الأمر إليه بعد وفاة أخيه ست عشرة سنة.

ولما مات ولّي بعده ابنه:

أبو نصر أحمد بن إسماعيل

قال: ولما استوثق له الأمر ببخارى قصد بالخروج إلى الريّ فأشار عليه إبراهيم بن زيدويه بقصد سمرقند، والقبض على عمّه إسحاق بن أحمد لئلا يخرج عليه، فاستدعى عمّه إلى بخارى فحضر إليه واعتقله بها، ولم يزل إلى سنة ثمان

وتسعين فأطلقه وأعاده إلى سمرقند وفرغانة، قال: ولما قبض على عمّه عبر إلى خراسان، فلما ورد نيسابور هرب بارس الكبير من جرجان إلى بغداد خوفًا منه، وكان لخوفه منه أسباب منها: أن الأمير إسماعيل كان قد استعمل ابنه أحمد على جرجان ـ لما أخذها من محمد بن زيد ـ ثم عزله عنها، واستعمل عليها بارس الكبير، فاجتمع عند بارس أموال عظيمة من خراج الريّ وطبرستان وجرجان، فحملها إلى إسماعيل فلما سارت عنه بلغه وفاة إسماعيل فردّها وأخذها، فلمّا قاربه أحمد خافه فكتب إلى المكتفي بالله يستأذنه في المصير إليه، فأذن له فسار إلى بغداد في أربعة آلاف فارس، فوصل إليها بعد وفاة المكتفي وولاية المقتدر، فأعجب المقتدر فسيّره إلى بني حمدان بعسكره وولاه ديار ربيعة، فخافه أصحاب الخليفة أن يتقدّم عليهم، فدسُّوا عليه غلامًا له فسمّه فمات بالموصل، واستولى غلامه على أمواله وتزوّج بامرأته.

ذكر استيلاء أحمد بن إسماعيل على سجستان

وفي شهر رجب سنة ثمان وتسعين ومائتين استولى على سجستان[١]، وذلك أنه لما استتب ملكه واستقرت قواعده سار في سنة سبع وتسعين ومائتين إلى الريّ، وكان مسكنه ببخارى ثم سار إلى هراة، فسيّر منها جيشًا في المحرّم سنة ثمان وتسعين إلى سجستان وعدّة من قوّاده، واستعمل عليهم الحسين بن علي المرورّوذي، وكان بسجستان المُعَدَّل بن علي بن الليث الصفار، وهو صاحبها، فسيّر المُعدَّل أخاه أبا علي محمد إلى بُسْت ليجبي أموالها، فسار الأمير أحمد إليه ببُست وحاربه، وأخذه أسيرًا وعاد به إلى هراة، وتوجّه الحسين إلى سجستان وحصر المُعدَّل، فلما بلغه أن أخاه أُسر، صالح الحسينَ واستأمن له، واستولى الحسين على سجستان، واستعمل عليها الأمير أحمد أبا صالح منصور بن إسحاق ـ وهو ابن عمه ـ وعاد الحسين ومعه المعدّل إلى بخارى، قال: ولما استولى على سجستان سار سُبُكرى من فارس إليها على طريق المفازة، فسيّر إليه أحمد جيشًا فأخذوه أسيرًا واستولى على عسكره، وكتب الأمير أحمد بذلك إلى المقتدر بالله فشكره، وأمره أن يحمل السُبُكرى ومحمد بن علي بن الليث إلى بغداد، فسيّرهما فأُدخلا مشهورَيْن على فيلَيْن، وأعاد المقتدر رسل أحمد بالتحف والهدايا.

---

(١) سجستان: بكسر أوله وثانيه، وسين أخرى مهملة، وتاء مثناة من فوق، وآخره نون: هي ناحية كبيرة وولاية واسعة.

ثم خالف أهل سجستان على الأمير أحمد

في سنة ثلاثمائة، وسبب ذلك أن محمد بن هرمز المعروف بالمولى الصَّنْدليّ كان خارجيّ المذهب، وأقام ببخارى وهو من أهل سجستان وكان شيخًا كبيرًا، فجاء يومًا إلى الحسين بن علي العارض يطلب رزقه، فقال له: إن الأصلح لمثلك من الشيوخ أن يلزم رباطًا[١]، يعبد الله فيه حتى يوافيه أجله، فغاظه ذلك وانصرف إلى سجستان، فاستمال جماعة من الخوارج، وكان رئيسهم محمد بن العبّاس المعروف بابن الحفّار، ودعا لعمرو بن يعقوب بن محمد بن عمرو بن الليث الصفّار، فقبضوا على منصور بن إسحاق وحبسوه وخطبوا لعمرو وسلّموا إليه سجستان، فلما بلغ الخبر الأمير أحمد سيّر الجيوش مع الحسين بن علي فحصرها تسعة أشهر، فصعد يومًا محمد بن هرمز الصَّنْدلي إلى السور، وقال: ما حاجتكم إلى أذى شيخ كبير لا يصلح إلا للزوم رباط؟ ثم مات الصندليّ فاستأمن عمرو بن يعقوب الصفار وابن الحفّار إلى الحسين، وأطلقوا منصور بن إسحاق، وكان الحسين يكرم ابن الحفّار ويقرّبه، فواطأ ابن الحفّار جماعة على الفتك بالحسين، فبلغ الحسين ذلك فقبض عليه وأخذه معه إلى بخارى، واستعمل الأمير أحمد على سجستان سيمْجُور الدَّواتِي، فتوجّه إلى سجستان واستصحب معه عمرو بن يعقوب وابن الحفّار، فتوفي ابن الحفّار.

ذكر مقتل الأمير أحمد وولاية ابنه نصر

وفي سنة إحدى وثلاثمائة خرج الأمير أحمد إلى الصيد، وكان له أسد يُربط على باب مبيته في كل ليلة، فلما كان في ليلة قتله أغفل الغلمان إحضار الأسد، فدخل إليه نفر من غلمانه فذبحوه على سريره وذلك في ليلة الخميس لسبع بقين من جُمادى الآخرة، فحمل إلى بخارى فدفن بها وقُتل بعض أولئك الغلمان، ولُقّب بعد موته بالشهيد وكانت مدة ولايته ست سنين وأربعة أشهر وأيامًا.

ووليّ بعده ابنه:

أبو الحسن نصر بن أحمد

وهو الرابع من الملوك السامانية. قال: ولما قتل والده كان عمره ثمانين سنين، فبايعه أصحاب والده وكان القائم ببيعته أحمد بن محمد بن الليث متولّي بُخارى،

---

(١) الرباط: ملجأ الفقراء من الصوفية.

فحمله على عاتقه فقال: أتريدون أن تقتلوني كما فعلتم بأبي، قالوا: لا وإنما نريد أن نضعك في موضع أبيك أميرًا، فسكن روعه، وبايعوا له ولقّب بالسعيد، فاستصغره الناس وظنّوا أن أمره لا ينتظم مع وجود عم أبيه ـ الأمير إسحاق، وقوّته وكونه شيخ السامانيّة وصاحب سمرقند، وميل الناس بما وراء النهر إليه وإلى أولاده، فكان الأمر بخلاف ما ظنّه الناس، وطالت مدّته ونافت على ثلاثين سنة.

قال: وتولّى تدبير دولته أبو عبد الله محمد بن أحمد الجيهاني، فأمضى الأُمور وضبط المملكة، واتّفق هو وحشم نصر بن أحمد على تدبير الأمر فأحكموه بالحضرة، وإنّما طمع أصحاب الأطراف في البلاد، وكان ممن خرج عن طاعته أهل سجستان، فانصرف عنها سيمجُور الدواتي فولاّها المقتدر بالله بدرًا الكبير.

ذكر خروج إسحاق بن أحمد وابنه إلياس

قال: ولما توفي الأمير أحمد وولّي ابنه نصر خالف عليه عم أبيه الأمير إسحاق بن أحمد ـ وكان يلي سمرقند ـ وخالف ابنه إلياس، وقوي أمرهما، فسارا نحو بخارى فسار إليهم حمُّويه بن علي في عسكر كثيف، والتقوا واقتتلوا قتالاً شديدًا فانهزم إسحاق إلى سمرقند، وذلك في شهر رمضان سنة إحدى وثلاثمائة، ثم عاد وجمع مرّة ثانية والتقوا فانهزم إسحاق ثانيًا، وتبعه حمُّويه إلى سمرقند فملكها قهرًا، واختفى إسحاق فشدّد عليه الطلب وضيّق عليه، فاستأمن إلى حمُّويه فأمّنه وحمله إلى بُخارى، فأقام بها إلى أن مات. وأمّا ابنه إلياس فسار إلى فرغانة فكان بها إلى أن خرج في سنة ست عشرة.

ذكر مخالفة منصور بن إسحاق

وفي سنة اثنتين وثلاثمائة خالف منصور بن إسحاق بن أحمد، على الأمير نصر بن أحمد، ووافقه على ذلك الحسين بن علي المَرْورُوذِي ومحمد بن حيْد، وكان سبب ذلك أن الحسين لمّا فتح سجستان في الدفعة الأُولى في أيام الأمير أحمد بن إسماعيل طمع أن يتولاّها، فولاّها منصور بن إسحاق، ثم افتتحها ثانيًا وظن أنه يتولاّها، فوليها سيْمجُور على ما قدّمناه، فاستوحش لذلك ونفر خاطره، وتحدّث مع منصور بن إسحاق في الموافقة والتعاضد بعد موت الأمير أحمد، على أن تكون إمارة خراسان لمنصور ويكون الحسين خليفته، فلمّا قتل الأمير أحمد كان منصور بنيسابور والحسين بهراة، فأظهر الحسين العصيان وسار إلى منصور بنيسابور، يحثه على ما اتّفقا عليه فوافقه منصور، وأظهر الخلاف وخطب لمنصور بنيسابور،

فتوجّه إليهما حمّويه بن علي من بُخارى في عسكر كثيف، فاتّفق وفاة منصور، فقيل سمّه الحسين، فلمّا قاربه حمّويه سار الحسين عن نيسابور إلى هراة وأقام بها، وكان محمد بن حيد يلي بُخارى مدة طويلة، ويسير منها إلى نيسابور في شغل يقوم به، فوردها ثم عاد منها بغير أمر، فكُتب إليه من بُخارى بالإنكار فخاف على نفسه، فعدل عن الطريق إلى الحسين بهراة فقوي به، وسار إلى نيسابور واستولى عليها، واستخلف بهراة أخاه منصور بن علي، فسُيّر إليه من بُخارى أحمد بن سهل لقتاله، فابتدأ أحمد بهراة فحصرها وأخذها، واستأمن إليه منصور بن علي، ثم سار أحمد بن سهل منها إلى نيسابور، وكان وصوله إليها في شهر ربيع الأوّل سنة ست وثلاثمائة، فنازل الحسين إلى أن انهزم أصحابه، فأسره ابنُ سهل وأقام بنيسابور، وكان ابن حيد بمرو فلمّا بلغه استيلاء أحمد بن سهل على نيسابور، وأسره للحسين بن علي سار إليه، فقبض عليه ابنُ سهل وأخذ ماله وسواده وسيّره والحسين إلى بُخارى فحبس الحسين بن علي ببُخارى إلى أن خلّصه أبو عبد الله الجيهاني، وسيّر ابن حيد إلى خوارزم[1] فمات بها، ثم اد الحسين بن علي بعد خلاصه إلى خدمة الأمير نصر بن أحمد. قال: ولما ظفر أحمد بن سهل بالحسين أقام بنيسابور واستولى عليها، وخالف على الأمير نصر وقطع خطبته، وسار من نيسابور إلى جرجان وبها قراتكين، فحاربه واستولى عليها وأخرجه عنها، ثم عاد إلى خراسان واستولى على مرو وبنى عليها سورًا وتحصّن بها، فأرسل الأمير نصر الجيوش مع حمّويه بن علي من بُخارى، فوافى مرو الروذ وأقام بنواحيها فلم يخرج إلهي أحمد بن سهل، فلمّا رأى حمّويه أنه لا يخرج إليه وأنه تحصّن بمرو شرع في إعمال الحيلة، وأمر جماعة من أصحابه بمكاتبة أحمد سرًا وإظهار الميل إليه، ودعوه إلى الخروج إليهم ليسلّموا حمّويه إليه، فأجابهم إلى ذلك وخرج إليه فالتقوا على مرحلة من مرو الروذ[2]، في شهر رجب سنة سبع وثلاثمائة، فانهزم أصحاب أحمد وحارب هو حتى عجزت دابته فنزل عنها، واستأسر فأُخذ أسيرًا وأنفذه حمّويه إلى بُخارى فمات بها في ذي الحجة من السنة في الحبس.

---

(١) خوارزم: أوله بين الضمة والفتحة، والألف مسترقة مختلسة ليست بألف صحيحة: خوارزم ليس اسمًا للمدينة وإنما هو اسم للناحية بجملتها، فأما القصبة العظمى فقد يقال لها اليوم الجرجانية. . . (معجم البلدان).

(٢) مرو الروذ: هي مدينة قريبة من مرو الشاهجان بينهما خمسة أيام، وهي على نهر عظيم فلهذا سميت بذلك، وهي صغيرة بالنسبة إلى مرو الأخرى. . . (معجم ياقوت).

ذكر خروج إلياس بن إسحاق بن أسد ثانيًا

قد ذكرنا أنه لما انهزم مع أبيه بفرغانة، فلما كان في سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة استعان بمحمد بن الحسين بن مت، وجمع طائفة من الترك فاجتمع معه ثلاثون ألف عنان، فقصد سمرقند، فسيّر إليه الأمير السعيد أبا عمرو محمد بن أسد في ألفين وخمسمائة رجل، فكمنوا خارج سمرقند في يوم ورود إلياس إليها، فاشتغل هو ومن معه بالنزول فخرج عليهم الكمين من بين الشجر، ووضعوا فيهم السيف فانهزم إلياس وأصحابه، فوصل إلياس إلى فرغانة ووصل ابن مت إلى طراز، فقبض عليه دهقان[1] الناحية وقتله وأنفذ رأسه إلى بُخارى، ثم عاد إلياس فخرج مرّة ثالثة، وأعانه أبو الفضل بن أبي يوسف صاحب الشاش، فسيّر إليه السعيد، محمد بن اليسع فحاربهم، فانهزم إلياس إلى كاشغر[2] وأسر أبو الفضل وحُمل إلى بُخارى فمات بها، وصار إلياس إلى دهقان كاشغر طغانتكين واستقرّ بها.

ثم ولّي محمد بن المظفّر فرغانة فرجع إلياس بن إسحاق إليها، فحاربه فهزمه مرة أُخرى فعاد إلى كاشغر، فكاتبه محمد بن المظفّر واستماله ولطف به فحضر إلى بُخارى، فأكرمه السعيد وصاهره فأقام عنده.

ذكر استيلاء السعيد على الريّ

وفي سنة أربع عشرة وثلاثمائة كتب المقتدر بالله إلى الأمير السعيد بولاية الريّ، وأمره أن يقصدها ويأخذها من غلام يوسف بن أبي الساج فسار إليها واستولى عليها وأخرج فاتك عنها في جُمادى الآخرة، وأقام بها شهرين، وولّى عليها سيمجور الدواني وعاد إلى بُخارى، ثم استعمل عليها محمد بن صعلوك فوصل إليها وأقام بها إلى أوائل شعبان من السنة، فمرض فكاتب الحسن الداعي وما كان في القدوم عليه ليسلّم الريّ لهما، فقدما وتسلّما الريّ، وسار عنها وبلغ الدامغان.

---

(١) الدهقان: رئيس القرية، أو هو رئيس الإقليم.

(٢) كاشغر: هي مدينة وقرى ورساتيق يسافر إليها من سمرقند وتلك النواحي، وهي في وسط بلاد الترك وأهلها مسلمون. . . (معجم البلدان).

ذكر مخالفة جعفر بن أبي جعفر بن أبي داود وعوده

كان جعفر مقيمًا بالخُتَّل[1] واليًا عليها للسامانيّة، فبدت منه أُمور نسب فيها للتقصير، فكوتب أبو علي أحمد بن محمد بن المظفّر بقصده، فسار إليه وحاربه وقبض عليه وحمله إلى بُخارى، فحبس بها إلى أن خالف أبو زكريا على الأمير السعيد فأخرجه وصحبه، ثم استأذنه في العود إلى ولاية الختّل فأذن له، فسار إليها وتمسّك بطاعة الأمير السعيد، وذلك في سنة ثماني عشرة وثلاثمائة.

ذكر خروج أبي زكريا وأخويه ببخارى

وفي سنة ثماني عشرة وثلاثمائة خرج أبو زكريا يحيى وأبو صالح منصور وأبو إسحاق إبراهيم ـ أولاد أحمد بن إسماعيل الساماني، على أخيهم السعيد نصر بن أحمد، وكان سبب ذلك أن أخاهم كان قد حبسهم في القهنْدُز[2] ببخارى، ووكل بهم من يحفظهم فتخلّصوا منه، وسبب خلاصهم أن رجلاً يعرف بأبي بكر الخبّاز الأصفهاني كان يقول ـ إذا جرى ذكر السعيد نصر ـ: إن له مني يومًا طويل البلاء والعناء، فكان الناس يضحكون منه، فخرج السعيد إلى نيسابور واستخلف على بخارى أبا العباس الكَوْسج، وكانت وظيفة إخوته تحمل إليهم من عند هذا الخبّاز وهم في السجن، فسعى لهم مع جماعة من أهل العسكر فأجابوه إلى ذلك، فأعلمهم بما فعل، فلما سار السعيد عن بُخارى تواعد هؤلاء للاجتماع بباب القهندز في يوم جمعة، وكان الرسم ألاّ يفتح باب القهندز في يوم الجمعة إلا بعد العصر، فلما كان يوم الخميس دخل أبو بكر الخبّاز إلى القهندز وبات فيه، وجاء من الغد إلى الباب وأظهر الزهد للبوّاب، وسأله أن يفتح له لئلا تفوته صلاة الجمعة أعطاه خمسة دنانير، فلما فتح الباب صاح الخبّاز بمن واعدهم، فوثبوا بالبوّاب وقبضوا عليه وخرج إخوة السعيد وجميع من في الحبس من الديلم والعلويين والعيّارين، واجتمعوا إليهم من كان قد وافقهم من العسكر، ورئيسهم شيروين الجيلي وغيره من القوّاد، فعظمت شوكتهم ونهبوا خزائن السعيد ودوره واختص يحيى بن أحمد بأبي بكر الخبّاز وقرّبه وقدّمه

---

(١) الختل: بضم أوله، وتشديد ثانيه وفتحه: كورة واسعة كثيرة المدن، منهم من ينسبها إلى بلخ وذاك خطأ لأنها خلف جيحون وإضافتها إلى هيطل، وهو ما وراء النهر، أوجب، وهي أجل من صغانيان، وأوسع خطة وأكبر مدنًا وأكثر خيرًا. . . (معجم البلدان).

(٢) القهندز: هو في الأصل اسم الحصن أو القلعة في وسط المدينة. . وهو تعريب كهندز معناه القلعة العتيقة.

وجعله من قوّاده، وبلغ السعيد هذا الخبر فسار من نيسابور إلى بُخارى، فوكل يحيى بالنهر أبا بكر الخبّاز ليمنع السعيد من عبوره، فظفر السعيد به وأخذه أسيرًا، وعبر النهر إلى بخارى وبالغ في تعذيب الخبّاز، ثم أحرقه في التنّور الذي كان يخبز فيه، وسار يحيى من بُخارى إلى سمرقند ثم خرج منها، وبقي يكرر الدخول إلى البلاد والسعيد في طلبه، واستمرت هذه الفتنة ثائرة إلى سنة عشرين وثلاثمائة، فأنفذ السعيد الأمان إلى أخيه يحيى فجاء إليه هو وأخوه منصور، وزالت الفتنة وسكن الشر، وأما إبراهيم فإنه هرب إلى بغداد ثم إلى الموصل.

ذكر ولاية محمد بن المظفر خراسان

وفي سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة استعمل الأمير نصر بن أحمد، أبا بكر محمد بن المظفّر بن محتاج على جيوش خراسان، ورد إليه تدبير الأمور بنواحيها جميعًا، وكان سبب تقدّم محمد عنده أنه كان يومًا بين يدي السعيد ـ وهو يحادثه في بعض مهماته ـ فلسعته عقرب في إحدى رجليه عدّة دفعات، ولم يتحرّك ولا ظهر عليه أثر ذلك، فلما فرِغ من حديثه وعاد إلى منزلة نزع خفّه وقتل العقرب، فاتصل الخبر بالأمير السعيد فأُعجب به، وقال له: ما عجبت إلا من فراغ بالك لتدبير ما قلته لك! فهلاً قمت وأزلتها!! فقال: ما كنت لأقطع حديث الأمير بسبب عقرب، وإذا لم أصبر بين يديك على لسعة عقرب، فكيف أصبر ـ عند البعد منك ـ على حدّ سيوف أعداء دولتك، إذا دفعتهم عن مملكتك؟ فعظم محلّه عنده وأعطاه مائتي ألف درهم، ثم استعمله على خراسان فأقام واليًا عليها إلى سنة سبع وعشرين وثلاثمائة، فاستقدمه واستعمل ابنه أبا علي أحمد بن محمد، وكان سبب ذلك أن أبا بكر مرض مرضًا شديدًا فعزله واستعمل ابنه في شهر رمضان، فأقام بها ثلاثة أشهر وهو يتجهّز ويستعد، وسار في المحرم سنة ثمان وعشرين إلى جرجان فاستولى عليها وأخذها من ماكان بن كالي، لأن ماكان كان قد خلع طاعة السعيد بعد أن حاصرها أبو عليّ بقية السنة، واستخلف إبراهيم بن سيمجور الدواتي، ثم استولى أبو علي على الريّ في سنة تسع وعشرين، ثم استولى على بلد الجبل زَنْكان وأبْهَر وقزوين وقُمّ وكَرج[1] وهمذان ونهاوند والدِّينَور إلى حدود حلوان، وذلك في سنة ثلاثين، ورتّب فيها العمال وجبى أموالها، ورحل إلى جرجان في سنة إحدى وثلاثين في جُمادى الآخرة، فأتاه الخبر بوفاة السعيد فسار إلى خراسان.

(١) كرج: بفتح أوله وثانيه، وآخره جيم: هي مدينة بين همذان وأصبهان في نصف الطريق، وإلى همذان أقرب، ويضاف إليها كورة. . . (معجم البلدان).

ذكر وفاة الأمير السعيد نصر بن أحمد وشيء من سيرته

كانت وفاته في شهر رجب سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة، وكانت علّته السل فأقام به ثلاثة عشر شهرًا، ولم يكن قد بقي من مشايخ دولتهم أحد، وكانت ولايته ثلاثين سنة وثلاثة وثلاثين يومًا، وعمره ثمانيًا وثلاثين سنة.

وكان عالمًا ذا حلم وكرم وعقل، ومن مكارمه ولين جانبه أن بعض الخدم سرق جوهرًا نفيسًا، وباعه على بعض التجّار بثلاثة عشر ألف درهم، فحضر التاجر عند السعيد وأعلمه أنّه اشترى جوهرًا نفيسًا لا يصلح إلا للسلطان، وأحضر الجوهر فحين رآه السعيد عرفه، فسأل عن ثمنه ومن أين اشتراه، فذكر الخادم والثمن فأربحه ألفي درهم، ثم سأله التاجر في دم الخادم فقال: لا بدّ من أدبه، وأما دمه فهو لك، فأحضره وأدّبه ثم أنفذه إلى التاجر، وقال: كنّا وهبنا لك دمه، وقد أنفذناه إليك. وحكي عنه أنّه لما خرج عليه أخوه أبو زكريا ونهبت خزائنه وأمواله، فلما عاد السعيد إلى ملكه قيل له عن جماعة انتهبوا أمواله فلم يتعرض إليهم؛ وأخبر أن بعض السوقة اشترى منها سكينًا نفيسًا بمائتي درهم، فأرسل إليه وأعطاه الثمن فأبى أن يبيع السكين إلا بألف درهم، فقال السعيد: ألا تَعجبون من هذا الرجل! أرى عنده ما لي فلم أعاتبه وأعطيه حقّه فيشتط في الطلب! ثم أمر بإرضائه.

ولما طال مرضه أقبل على الصلاة والعبادة، وبنى له بيتًا وسمّاه ببيت العبادة، فكان يلبس ثيابًا نظافًا ويمشي إليه حافيًا ويصلّي ويدعو ويتضرّع، ولما مات دفن عند قبر والده رحمهما الله.

ووُلّي بعده الأمير:

نوح بن نصر بن أحمد بن إسماعيل بن أحمد وهو الخامس من الملوك السامانية

قال: بويع له بعد وفاة أبيه في شهر رجب سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة ولقب الأمير الحميد، وفوّض أمر تدبير دولته وملكه إلى أبي الفضل محمد بن أحمد الحاكم، وصدر عن رأيه، ولما هرب منه أبو الفضل بن أحمد بن حمُّويه - وهو من أكابر أصحاب أبيه - فأمّنه وأعاده وأحسن إليه، وولاه سمرقند.

وفي سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة خالف عبد الله بن أشكام على الأمير نوح، وامتنع بخوارزم، فسار نوح من بخارى إلى مرو بسببه وسيّر إليه جيشًا وجعل عليهم إبراهيم بن بارس، فمات إبراهيم في الطريق، وكاتب ابن اشكام ملك الترك واحتمى به وكان لملك الترك ولد عند نوح في اعتقاله ببخارى، فراسل نوح أباه في إطلاقه ليقبض على ابن اشكام، فأجاب ملك الترك إلى ذلك، فلما علم ابن اشكام بذلك عاد إلى الطاعة، وفارق خوارزم فعفا عنه نوح وأكرمه.

ذكر مخالفة أبي علي بن محتاج على الأمير الحميد

وفي سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة خالف أبو علي بن محتاج على الأمير الحميد نوح، وسبب ذلك أنه كان قد جهّزه للمسير إلى الريّ فأنفذ إليه عارضًا يستعرض العسكر، فأسقط العارض جماعة منهم وأساء على أبي عليّ، فنفرت قلوب الجند وساروا وهم كذلك، وانضاف إلى ذلك أن نوحًا أنفذ معه من يتولّى أعمال الديوان، وجعل إليه الحل والعقد والإطلاق، بعد أن كان جميع ذلك أيام السعيد لأبي عليّ، فازداد قلبه نفورًا لذلك، ثم عزله عن خراسان واستعمل عليها إبراهيم بن سيمجور، ثم إن المتولّي أساء إلى الجند في أرزاقهم فنفروا وشكا بعضهم إلى بعض، وهم إذ ذاك بهمذان، فاتفق رأيهم على مكاتبة الأمير إبراهيم بن أحمد، عمّ الأمير نوح، وكان كما قدّمناه في خدمة الأمير ناصر الدولة بن حمدان بالموصل، فأظهروا أبا عليّ على ذلك فنهاهم عنه، فتواعدوه بالقبض عليه إن خالفهم، فأجابهم إلى ما طلبوه وكاتبوا إبراهيم، فحضر إليهم في شهر رمضان في تسعين فارسًا وساروا في شوّال في خدمته إلى الريّ، فلما وصلوا إليها اطلع أبو عليّ أن أخاه الفضل كتب إلى الأمير نوح بخبره، فقبض عليه وعلى المتولّي الذي أساء إلى الجند، وسار إلى نيسابور واستخلف نوّابه على الجبل والريّ، واتصل الخبر بالأمير نوح فسار من بُخارى إلى مرو، وكان الجند قد ضجروا من محمد بن أحمد الحاكم، مدبّر دولة نوح، لسوء سيرته فيهم، فقالوا لنوح: إنّ الحاكم قد أفسد عليك الأمور بخراسان، وأحوج أبا عليّ بن محتاج إلى العصيان، وطلبوا تسليمه إليهم وإلاّ ساروا إلى عمّه إبراهيم، فسلّمه إليهم فقتلوه في جُمادى الآخرة سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة.

ولما وصل أبو عليّ إلى نيسابور كان بها إبراهيم بن سيمجور ومنصور بن قراتكين وغيرهما من القوّاد، واستمالهم فمالوا إليه وصاروا معه، ودخل نيسابور في

سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة، ثم ظهر له من منصور بن قراتكين ما كرهه فقبض عليه، ثم سار أبو عليّ وإبراهيم من نيسابور في شهر ربيع الأوّل من السنة إلى مرو، وبها الأمير نوح، فهرب الفضل أخو أبي عليّ من محبسه إلى قوهستان[1]، ولمّا قارب أبو عليّ مرو انحاز إليه كثير من عسكر نوح، فسار نوح إلى بُخارى واستولى أبو عليّ على مرو في جُمادى الأولى سنة خمس وثلاثين، وأتاه أكثر أجناد نوح فسار نحو بُخارى، وعبر النهر ففارقها نوح وسار إلى سمرقند، ودخلها أبو عليّ في جُمادى الآخرة سنة خمس وثلاثين وخطب فيها لإبراهيم وبايع له، ثم إنّ أبا عليّ اطلع على أنّ إبراهيم أضمر له شرًا، فسار إلى تركستان وبقي إبراهيم ببُخارى، وفي خلال ذلك أطلق أبو عليّ، منصور بن قراتكين، فسار إلى الأمير نوح، ثم إنّ إبراهيم وافق جماعة في السرّ على أن يخلع نفسه من الأمر، ويردّه إلى ابن أخيه الأمير نوح، ويكون هو صاحب جيشه، ويتفق معه على قصد أبي عليّ، ودعا إلى ذلك فأجابوه وخرجوا إلى أبي عليّ، وقد تفرّق عنه أصحابه، فركب إليهم وردّهم أقبح ردّ، ثم فارق إبراهيم ومن معه بخارى وخرجوا إلى سمرقند إلى خدمة الأمير نوح، وأظهروا الندم على ما كان منهم فقرّبهم وقبلهم وعذرهم، وعاد إلى بُخارى في شهر رمضان، ثم قتل الأمير نوح في تلك الأيام طغان الحاجب، وسمل عمّه إبراهيم وأخويه أبا جعفر محمدًا وأحمد، وعادت الجيوش والعساكر اجتمعت عليه. أما الفضل بن محمد أخو أبي عليّ فإنّه لما هرب من أخيه لحق بقوهستان وجمع جمعًا كثيرًا وسار نحو نيسابور، وبها محمد بن عبد الرزّاق من قبل أبي عليّ، فخرج إلى الفضل وتحاربا فانهزم الفضل ومعه فارس واحد، فلحق ببُخارى فأكرمه الأمير نوح وأحسن إليه وأقام في خدمته.

ذكر استعمال منصور بن قراتكين على خراسان

قال: ولما عاد الأمير نوح إلى بُخارى كان أبو عليّ بالصغانيان، وبمرو أبو أحمد محمد بن علي القزويني، فرأى الأمير نوح أن يجعل منصور بن قراتكين على جيوش خراسان، فولاّه وسيّره إلى مرو، وبها أبو أحمد وقد غوّر المناهل ما بين آمل ومرو، ووافق أبا عليّ ثم تخلّى عنه، فسار منصور جريدة في ألفي فارس، فلم يشعر

---

(١) قوهستان: بضم أوله، ثم السكون، ثم كسر الهاء، وسين مهملة، وتاء مثناة من فوق، وآخره نون: مدينة بكرمان قرب جيرفت بينها وبين جبال البلوص والقفص وفيها نخل كثير.. وبها قهندز أي قلعة.

به إلا وقد نزل بكُشْماهِن[١]، على خمسة فراسخ من مرو، فاستقبله أبو أحمد القزويني بالطاعة، فأكرمه وسيّره إلى بُخارى بماله وأصحابه، فأكرمه الأمير نوح وأحسن إليه، ثم ذكر له ذنوبه وقتله.

ثم كانت بعد ذلك حروب بين عسكر الأمير نوح وأبي عليّ، استمرت إلى جُمادى الآخرة سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة، فراسل بعد ذلك في الصلح؛ وسيّر أبو عليّ ابنه عبد الله رهينة فوصل إلى بُخارى، فأمر الأمير نوح باستقباله وأكرمه وأحسن إليه، وخلع عليه قلنسوة وجعله في ندمائه، فزال الخلف، واستمرّ أبو عليّ بالصغانيان إلى سنة أربعين.

ذكر عود أبي علي إلى خراسان

وفي سنة أربعين أعيد إلى قيادة الجيوش بخراسان، وذلك بعد وفاة منصور بن قراتكين، فأرسل إليه الأمير نوح الخلع واللواء، وأمره بالمسير إلى نيسابور وأقطعه الريّ، فسار عن الصغانيان واستخلف مكانه ابنه أبا منصور، ثم خالف على الأمير نوح في سنة اثنتين وأربعين فعزله، فكتب إلى ركن الدولة بن بُويه في المصير إليه، فأذن له في ذلك فسار إليه فأكرمه ركن الدولة، فسأله أن يكتب له عهدًا من جهة الخليفة بولاية خراسان، فأرسل ركن الدولة إلى أخيه معز الدولة في ذلك، فسيّر له عهدًا بما طلب وسيّر له نجدة، فسار أبو عليّ إلى خراسان واستولى على نيسابور، وخطب بها ـ وفيما استولى عليه من خراسان ـ للمطيع، ولم يُخطب له بها قبل ذلك.

ذكر وفاة الأمير الحميد نوح بن نصر وولاية ابنه عبد الملك

كانت وفاته في شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة، وكانت مدة ملكه إحدى عشرة سنة وثمانية أشهر، وكان رحمه الله تعالى حسن السيرة كريم الأخلاق، ولما مات ملك بعده ولده.

---

(١) في معجم ياقوت: كشمهين: بالضم ثم السكون، وفتح الميم، وياء ساكنة، وهاء مفتوحة، ونون: قرية كانت عظيمة من قرى مرو على طرف البرية.

ذكر ولاية عبد الملك بن نوح بن نصر بن أحمد بن إسماعيل ابن أحمد وهو السادس من الملوك السامانية

كانت ولاية عبد الملك بما وراء النهر وخراسان بعد وفاة أبيه الأمير نوح بن نصر، وذلك في شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وأربعين.

قال: ولما استقرّ حاله في الملك وثبت أمره ابتدأ بإرسال بكر بن مالك من بُخارى إلى خراسان، وولاّه قيادة جيوشها، وأمره بإخراج أبي عليّ بن محتاج منها وندب معه العساكر، فسار إلى نيسابور فلمّا قاربها تفرّق عن أبي عليّ أصحابه وعساكره، وبقي معه من أصحابه نحو من مائتي رجل، سوى من كان عنده نجدة من الديلم، فاضطر إلى الهرب فسار نحو ركن الدولة، فأنزله معه في الريّ واستولى ابن مالك على خراسان، وأقام بنيسابور، وكان بين عساكره وبين بني بُويه حروب، ثم حصل بينهما الصلح والاتفاق، ودامت أيام عبد الملك إلى سنة خمسين وثلاثمائة، فركب في يوم الخميس حادي عشر شوّال منها فسقط الفرس من تحته، فوقع إلى الأرض فمات، وكانت مدة ملكه سبع سنين وستةَ أشهر تقريبًا، ولما مات، ولّي بعده أخوه.

ذكر ولاية منصور بن نوح بن نصر بن أحمد وهو السابع من الملوك السامانية

كانت ولايته بعد وفاة أخيه عبد الملك لإحدى عشرة ليلة خلت من شوّال سنة خمسين وثلاثمائة، وخالف عليه في سنة إحدى وخمسين الفتكين، وهو من أكابر القوّاد، وكان قد طلبه الأمير منصور فامتنع من الحضور، فأرسل إليه جيشًا فهزمهم الفتكين، وأسر وجوه القوّاد وأظهر العصيان والمخالفة.

ذكر الصلح بين الأمير منصور وبين بني بويه

وفي سنة إحدى وستين وثلاثمائة تمّ الصلح بين الأمير منصور بن نوح وبين ركن الدولة وعضد الدولة بني بويه، على أن يحمل ركن الدولة وعضد الدولة إليه في كل سنة مائة ألف وخمسين ألف دينار، وتزوج الأمير منصور بابنة عضد الدولة، وحمل إليه من الهدايا والتحف ما لم يُر مثله، وكتب بينهم كتاب صلح شهد فيه أعيان خراسان وفارس والعراق، وكان الذي سعى في الصلح وقرّره محمد بن إبراهيم بن سيمجور صاحب جيوش خراسان من جهة الأمير منصور.

ذكر وفاة الأمير منصور

كانت وفاته ببُخارى في منتصف شوّال سنة ست وستين وثلاثمائة، وكانت مدة ملكه ست عشرة سنة وأربعة أيام، ولما مات ولّي بعده ابنه.

ذكر ولاية المنصور
أبي القاسم نوح بن منصور بن نوح بن نصر بن أحمد بن إسماعيل بن أحمد، وهو الثامن من الملوك السامانية

ملك ما وراء النهر وخراسان بعد وفاة أبيه في منتصف شوّال سنة ست وستين وثلاثمائة ولقب بالمنصور، واستوزر أبا الحسن العُتْبي فقام في حفظ الدولة المقام المرضي، وعزل محمد بن إبراهيم بن سيمجور عن قيادة جيوش خراسان لأنّه كان قد استوطنها، وبقي لا يطيع إلا فيما يختار فعزله في سنة سبعين، واستعمل عوضه حسام الدولة أبا العبّاس تاش، ثم قتل الوزير في سنة اثنتين وسبعين، وسبب قتله أن أبا الحسن بن سيمجور وضع عليه جماعة من المماليك فقتلوه، فكتب الأمير المنصور نوح إلى حسام الدولة تاش يستدعيه إلى بُخارى لتدبير الدولة، فسار عن نيسابور إليها وقتل من ظفر به من قتلة الوزير.

وفي سنة اثنتين وسبعين سار محمد بن سيمجور نحو خراسان عند خلوّها من حسام الدولة، وكاتب فايقًا وطلب موافقته على الاستيلاء على خراسان، فوافقه واجتمعا بنيسابور، واتصل الخبر بحسام الدولة فسار عن بُخارى إلى مرو في جمع كبير، وتردّدت الرسائل بينهم فاصطلحوا: على أن تكون نيسابور وقيادة الجيوش لأبي العبّاس حسام الدولة تاش، وتكون بلخ لفايق، وهراة لأبي عليّ بن أبي الحسن بن سيمجور، وتفرّقوا على ذلك وقصد كل منهم عمله.

ولمّا عاد أبو العبّاس إلى نيسابور وترك بخارى استوزر الأمير نوح، عبد الله بن عزير وكان ضدًا لأبي الحسين العتبي، فلما ولّي الوزارة ابتدأ بعزل حسام الدولة عن خراسان، وأعاد ابن سيمجور إليها، فكتب القوّاد بخراسان يسألونه أن يقرّ حسام الدولة عليها فلم يجبهم فكتب حسام الدولة إلى فخر الدولة بن بويه يستمدّه، فأمدّه بالأموال والعساكر، وكانت بينهم حروب انتصر فيها حسام الدولة، واستولى على خراسان وأقام بنيسابور، وانهزم ابن سيمجور ثم تراجع أصحاب ابن سيمجور إليه، وجاءته الأمداد من بُخارى وعاد لقتال حسام الدولة، والتقوا واقتتلوا نهارًا كاملاً انتصر

فيه ابن سيمجور، وانهزم حسام الدولة وأصحابه وأقام بجرجان، ولم يصل إلى خراسان إلى أن مات في سنة سبع وسبعين وثلاثمائة، وأقام ابن سيمجور بخراسان إلى أن توفي فجأة وهو يجامع بعض خطاياه.

وفي سنة اثنتين وثمانين وثلاثمائة سار بُغْراخَان إيلك ملك الترك بعساكره إلى بُخارى، فسيّر إليه الأمير نوح جيشًا كثيفًا فهزمهم بُغْراخَان، فعادوا إلى بُخارى وهو في آثارهم، فخرج نوح بنفسه وسائر عساكره ولقيه، فاقتتلوا قتالاً شديدًا كانت الهزيمة على بُغْراخان، فعاد إلى بلاَسَاغُون[1] وهي كرسي ملكه.

ذكر ملك الترك بُخارى
وشيء من أخبارهم وخروج الأمير نوح منها وعوده إليها

وفي سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة ملك شهاب الدولة هارون بن سليمان إيلك المعروف ببغراخان التركي مدينة بُخارى، وكان له كَاشْغَر وبلاَساغُون وخُتَن[2] وطَراز[3] وغير ذلك إلى حدود الصين، وله عساكر جمّة وهم مسلمون، وكان سبب إسلامهم أن جدّهم الأول شبق قراخَاقَان رأى في منامه كأنّ رجلًا نزل من السماء، فقال له بالتركية ما معناه: اسلم تسلم في الدنيا والآخرة، فأسلم في منامه، وأصبح فأظهر إسلامه، فلما مات قام مقامه ابنه موسى بن شبق، ثم انتهى ملك هذه الطائفة من الترك إلى بُغْراخان، وكنّا قصدنا أن نفرد هذه الدولة الخانيّة بترجمة، ونذكر من ملك منهم وما استولوا عليه من البلاد وغير ذلك، فلم نظفر بمؤرخ ذكر أخبارهم سياقة ولا متفرّقة، إذا جُمعت انتظمت على سياقة، فلذلك دمجنا أخبارهم في أثناء الدول بحسب وقائعهم مع الملوك، وما أظن أخبارهم اتّسقت لمؤرخ لأن أخبار الملوك والدول إنما يعتني بجمعها كتّاب الإنشاء والفضلاء من الناس، وهؤلاء كانوا أتراكًا لا كتّاب لهم ولا اعتناء بشيء من ذلك، فلذلك انقطعت أخبارهم.

---

(١) بلاساغون: السين مهملة، والغين معجمة: بلد عظيم في ثغور الترك وراء نهر سيحون قريب من كاشغر؛ ينسب إليه جماعة... (معجم البلدان).

(٢) ختن: بضم أوله وفتح ثانيه، وآخره نون: بلد وولاية دون كل شغر ووراء يوزكند، وهي معدودة من بلاد تركستان، وهي في واد بين جبال في وسط بلاد الترك... (معجم البلدان).

(٣) طراز: بلد قريب من أسبيجاب من ثغور الترك وهو قريب من طراربند، وقد نسب إليه قوم من العلماء... وطراز أيضًا: محلة بأصبهان نسب إليها أيضًا... (معجم ياقوت).

ولنرجع إلى سبب مُلك بُغراخان بُخارى. كان سبب ذلك أن أبا الحسن بن سيمجور عامل خراسان ـ لمّا مات ـ ولّى ابنه أبو علي بعده وكاتب الأمير الرضي نوحًا أن يقرّه على ما كان بيد أبيه، فأجيب إلى ذلك، وحُملت إليه الخلع وهو لا يشك أنّها له، فلما بلغ الرسول طريق هراة عدل إليها وبها فايق، فأوصل إليه العهد بولاية خراسان والخلع إليه، فعلم أبو عليّ أنّهم مكروا به، وأنّ هذا دليل سوء يريدونه به، فلبس فايق الخلع وسار عن هراة نحو أبي عليّ، فبلغه الخبر فسار جريدة في نخبة أصحابه، وطوى المنازل حتى سبق خبره، وأوقع بفايق بين هراة وبوشنج[١]، فانهزم فايق وأصحابه إلى مرو الروذ، وكتب أبو عليّ إلى الأمير نوح يجدّد طلب ولاية خراسان، فأجابه إلى ذلك وجمع له ولاية خراسان جميعها بعد أن كانت هراة لفايق، وعاد أبو علي إلى نيسابور ظافرًا وجبى أموال خراسان، فكتب إليه نوح يستتر له عن بعضها ليصرفه في أرزاق الجند، فاعتذر إليه ولم يفعل وخاف عاقبة المنع فكتب إلى بُغراخان يدعوه إلى قصد بُخارى، واستقرّ الأمر بينهما على أن يكون لبغراخان ما وراء النهر جميعه، ولأبي عليّ خراسان، فطمع بغراخان في البلاد وتجدّدت حركته إليها.

وأما فايق فإنّه أقام بمرو الروذ حتى اجتمع إليه أصحابه، وسار نحو بُخارى من غير إذن، فارتاب الأمير نوح به وسيّر الجيوش وأمرهم بمنعه، فقاتلوه وهزموه فعاد وقصد ترمذ[٢]، وكاتب بغراخان أيضًا يطمعه في البلاد، فسار نحو بُخارى واستولى على بلاد السامانيّة شيئًا بعد شيء، فسيّر إليه نوح جيشًا واستعمل عليهم قائدًا كبيرًا من قوّاده اسمه انج، فهزمهم بغراخان وأسرانج وجماعة من القوّاد، فلما ظفر بهم قوي طمعه في البلاد، وضعف نوح وأصحابه وكاتب أبا عليّ بن سيمجور يستنصره، ويأمره بالقدوم إليه بالعساكر فلم يجبه إلى ذلك ولا لبّى دعوته، وطمع في الاستيلاء على خراسان، وسار بغراخان نحو بُخارى فلقيه فايق واختص به وصار في جملة أصحابه، ونازلوا بخارى فاختفى الأمير نوح وملكها بغراخان ونزلها، وخرج نوح منها مستخفيًا فعبر النهر إلى آمل الشط، وأقام بها ولحق به أصحابه، وتابع نوح كتبه ورسله إلى أبي عليّ يستنجده ويخضع له، فلم يصغ إلى ذلك؛ وأما فايق فإنّه استأذن بغراخان في قصد بلخ والاستيلاء عليها فأمره بذلك، فسار نحوها واستولى عليها.

(١) بوشنج: بفتح الشين، وسكون النون، وجيم: بليدة نزهة خصيبة في واد مشجر من نواحي هراة، بينهما عشرة فراسخ... (معجم ياقوت).

(٢) ترمذ: بالفتح ثم السكون، وضم الميم، والدال مهملة: موضع في بلاد بني أسد أقطعه النبيّ ﷺ حصين بن نضلة الأسدي... (معجم البلدان).

ذكر عود نوح إلى بُخارى ووفاة بُغراخان وقيام إيليك الخان

قال: ولما نزل بغراخان ببُخارى استوخمها فمرض واشتدّ مرضه، فانتقل نحو بلاد الترك، ولمّا فارق بُخارى ثار أهلها بساقة عسكره، فقتلوا منهم وغنموا أموالهم، ووافقهم الأتراك الغزيّة على الفتك والنهب لعسكر بُغراخان، وبادر الأمير نوح بالعود إلى بُخارى فيمن معه من أصحابه، فدخلها وعاد إلى دار ملكه وتباشر أهلها به، ومات بُغراخان وعاد أصحابه إلى بلادهم، وكان بُغراخان ديِّنًا خيرًا عادلاً حسن السيرة محبًا للعلماء وأهل الدين مكرمًا لهم، وكان يحب أن يكتب عنه مولى رسول الله ﷺ، وولّي بعده أمر الترك ايليك الخان شمس الدولة أبو نصر أحمد بن علي.

ذكر ما كان من أخبار أبي عليّ بن سيمجور وفايق واستعمال محمود بن سبكتكين على خراسان

قال: ولما عاد الأمير نوح إلى بُخارى أسقط في يد أبي عليّ بن سيمجور، وندم على ما فرط منه من ترك إعانته عند الحاجة إليه؛ وأما فايق فإنه لمّا استقرّ الأمير نوح ببُخارى حدّث نفسه بالمسير إليه والحكم في دولته، فسار عن بلخ إلى بُخارى فسيّر الأمير نوح الجيوش لردّه، فالتقوا واقتتلوا فانهزم فايق وأصحابه، ولحق بأبي عليّ بن سيمجور ففرح به وقوي جنانه، واتّفقا على مكاشفة الأمير نوح وإظهار العصيان، فكتب الأمير نوح إلى سبكتكين وهو يومئذ بغزنة[١]، يعرّفه الحال ويأمره بالمصير إليه لينجده وولاّه خراسان وكان سبكتكين في هذه الفتن مشغولاً بالغزو غير ملتفت إلى ما هم فيه، فلما أتاه الكتاب سار نحو جريدة، واجتمع به وقرّرا ما يفعلانه واتّفقا عليه، وعاد سبكتكين فجمع عسكره وحشد وسار عن غزنة، ومعه ولده محمود نحو خراسان، وسار نوح من بُخارى واجتمعا وقصدا أبا عليّ وفايقا، وقد جمعا عساكرهما أيضًا واستنصرا بفخر الدولة بن بويه، فسيّر إليهما عسكرًا كثيرًا، والتقوا بنواحي هراة واقتتلوا، فانحاز دارا بن قابوس بن وشْمكِير من عسكر أبي عليّ إلى عسكر نوح ومعه أصحابه، فانهزم أصحاب أبي عليّ وركبهم أصحاب سبكتكين يقتلون

(١) غزنة: بفتح أوله، وسكون ثانيه ثم نون: هي مدينة عظيمة وولاية واسعة في طرف خراسان، وهي الحد بين خراسان والهند في طريق فيه خيرات واسعة إلا أن البرد فيها شديد جدًا... (معجم البلدان).

ويأسرون ويغنمون، وعاد أبو عليّ وفايق إلى خراسان وأقام الأمير نوح وسبكتكين بظاهر هراة، حتى أراحوا واستراحوا وساروا نحو نيسابور، فسار أبو عليّ وفايق نحو جرجان، واستولى نوح على نيسابور واستعمل عليها وعلى جيوش خراسان محمود بن سبكتكين، ولقّبه سيف الدولة ولقّب أباه ناصر الدولة، وعاد نوح إلى بُخارى وسبكتكين إلى هراة وذلك في سنة أربع وثمانين وثلاثمائة.

وفي سنة خمس وثمانين في شهر ربيع الأول سار أبو عليّ وفايق عن جرجان إلى نيسابور، فكتب محمود إلى أبيه بذلك وبرز إلى ظاهر نيسابور، وأقام ينتظر المدد فأعجلاه فصبر لهما، فقاتلاه وهو في قلّة من الرجال فانهزم عنهما نحو أبيه، وغنما منه شيئًا كثيرًا ورجع أبو عليّ إلى نيسابور، وكتب إلى الأمير نوح يستميله ويستقيل من عثرته، وكاتب سبكتكين بمثل ذلك وأحال فيما جرى على فايق، فلم يجيباه إلى ما أراد، وجمع سبكتكين العساكر وسار نحو أبي عليّ فالتقوا بطوس في جُمادى الآخرة واقتتلوا عامّة يومهم، وأتاهم محمود بن سبكتكين في عسكر ضخم من ورائهم، فانهزموا وقتل منهم خلق كثير، ونجا أبو عليّ وفايق إلى آمل الشط، فراسلا الأمير نوح يستعطفانه، فأجاب أبا عليّ إلى ما طلب وقبل عذره، إن فارق فايقًا ونزل بالجرجانية، ففعل ذلك فحذّره فايق وخوّفه مكرهم ومكيدتهم فلم يرجع إلى قوله، وفارقه وسار إلى الجرجانيّة ونزل بقرية بقرب خوارزم تسمى هزاراسب[١]، فأرسل إليه أبو عبد الله خُوارزم شاه من أقام له ضيافة، ووعده أنه يقصده ليجتمع به فسكن إلى ذلك فلما كان الليل أرسل إليه خوارزم شاه جمعًا من عسكره، فأحاطوا به وأخذوه أسيرًا في شهر رمضان سنة خمس وثمانين وثلاثمائة، فاعتقله في بعض دوره، وطلب أصحابه فأسر أعيانهم وتفرّق الباقون.

وأما فايق فإنه سار إلى إيليك الخان فأكرمه وعظّمه ووعده أن يعيده إلى قاعدته، وكتب إلى نوح يشفع فيه ويطلب منه أن يوليه سمرقند، فأجابه إلى ذلك وأقام بها؛ وأما ما كان من أبي عليّ بن سيمجور فإنه لمّا أسره خوارزم شاه بلغ خبره إلى مأمون بن محمد والي الجرجانية، فقلق لذلك وعبر إلى كاث[٢] وهي مدينة

---

(١) هزارأسب: معناه بالفارسية ألف فرس: وهي قلعة حصينة ومدينة جيدة، الماء محيط بها كالجزيرة وليس إليها طريق واحد على ممر قد صنع من نواحي خوارزم بينها ثلاثة أيام. . . (معجم ياقوت).

(٢) كاث: ومعنى الكاث بلغة أهل خوارزم الحائط في الصحراء من غير أن يحيط به شيء، بلدة شرقي جيحون كبيرة من نواحي خوارزم.

خوارزم شاه فحصرها وفتحها عنوة، وأحضر أبا عليّ وفكّ قيده وعاد به إلى الجرجانية، واستخلف مأمون بعض أصحابه على بلد خوارزم شاه، وصارت من ملة ما بيده، وقتل خوارزم شاه بين يدي أبي عليّ بن سيمجور، وكتب مأمون إلى الأمير نوح وهو يشفع في أبي عليّ ويسأل الصفح عنه، فأجابه إلى ذلك وأمر أبو علي بالمسير إلى بُخارى، فسار إليها فيمن بقي معه من أهله وأصحابه، فلمّا بلغها لقيه الأمراء والعساكر ودخل على الأمير نوح فأمر بالقبض عليه وعلى من معه، واعتقله فمات في حبسه في سنة سبع وثمانين وثلاثمائة.

ذكر وفاة الأمير نوح بن منصور

كانت وفاته في شهر رجب سنة سبع وثمانين وثلاثمائة، فكان مدة ملكه عشرين سنة وثمانية أشهر، فاختلّ بموته ملك آل ساسان وضعف أمرهم ضعفًا ظاهرًا، وطمع فيهم أصحاب الأطراف، وزال ملكهم بعد ذلك بمدّة يسيرة على ما نذكره إن شاء الله تعالى، فكأنّه المعنى بقول القائل:

وما كان قبيسٌ هلكهُ هلك واحد ولكنّهُ بنيان قوم تهدّما

ذكر ولاية أبي الحارث منصور بن نوح بن منصور ابن نوح بن نصر بن أحمد بن إسماعيل بن أحمد وهو التاسع من الملوك السامانية

ملك ما وراء النهر وخراسان بعد وفاة أبيه في شهر رجب سنة سبع وثمانين وثلاثمائة، وبايعه الأُمراء والقوّاد وسائر الناس، وفرّق فيهم بقايا الأموال فاتّفقوا على طاعته، وقام بأمر دولته وتدبيرها بكتُوزُون، ولما بلغ خبر وفاة أبيه إلى إيليك الخان سار إلى سمرقند وانضم إليه فايق والخاصة فسيّره جريدة إلى بُخارى، فلما سمع الأمير منصور بمسيره تحيّر في أمره وأعجله عن أن يتجهّز، فسار عن بُخارى وقطع النهر، ودخل فايق بُخارى وأظهر أنّه قصد القيام بخدمة الأمير منصور، رعاية لحق أسلافه عليه إذ هو مولاهم، وأرسل إليه مشايخ بُخارى في العودة إلى بلده وملكه، وأعطاه من نفسه ما يطمئن إليه من العهود والمواثيق، فعاد إليها ودخلها وولّى فايق أمره، وحكمه في دولته، وولى بكتوزون أمر الجيش بخراسان، وكان محمود بن سبكتكين حينئذ مشغولاً بمحاربة أخيه إسماعيل، فسار بكتوزون إلى خراسان ووليها واستقرت قواعده بها.

ذكر القبض على الأمير منصور بن نوح وسمله

وفي سنة تسع وثمانين وثلاثمائة اجتمع بكتوزون وفايق وتشاكيا ما هما فيه من قلة إنصاف الأمير لهما، فقبضا عليه وأمر بكتوزون من سمل عينيه، فكانت مدة ولايته سنة واحدة وسبعة أشهر.

ذكر ولاية عبد الملك بن نوح بن منصور

قال: ولما قبضا على الأمير منصور وسملاه أقاما أخاه عبد الملك في الملك مقامه وهو صبيّ صغير، فأرسل محمود بن سبكتكين إلى فايق وبكتوزون يلومهما ويقبّح فعلهما، وقويت نفسه على لقائهما، وطمع في الملك والاستقلال به، وسار لقتالهم فسارا نحوه ومعهما عبد الملك، والتقوا واقتتلوا أشدّ قتال فانهزم السامانيّة، ولحق عبد الملك وفايق ببُخارى، وقصد بكتوزون نيسابور فاتبعته جيوش محمود حتى لحق بجرجان، وسار محمود إلى هراة فعاد بكتوزون إلى نيسابور وملكها، فقصده محمود فهرب إلى بُخارى بعد أن نهب مرو، واستقرّ ملك محمود بن سبكتكين بخراسان وخرجت عن ملك آل سامان.

ذكر انقراض الدولة السامانية

كان انقراضها في سنة تسع وثمانين وثلاثمائة على يد محمود بن سبكتكين بخراسان وإيليك الخان بما وراء النهر. فأما محمود فإنه ملك خراسان كما ذكرناه، وأما إيليك الخان وهو شمس الدولة أبو نصر أحمد بن علي فإن عبد الملك ـ لما انهزم من محمود ـ بقي بيده ما وراء النهر، فقد بُخارى واجتمع بها هو وفايق وبكتوزون وغيرهما من الأُمراء والأكابر، فقويت نفوسهم وشرعوا في جمع العساكر، وعزموا على العود إلى خراسان، فاتفقت وفاة فايق في شعبان من السنة، فلما مات ضعفت نفوسهم ووهت قوّتهم، فإنه كان هو المشار إليه من بينهم، وكان خصيًا من موالي الأمير نوح بن نصر. قال: ولمّا اتصل الخبر بإيليك الخان سار في جميع الأتراك إلى بُخارى، وأظهر لعبد الملك المودّة والموالاة والحميّة له، فظنّوا صدقه فلم يحترسوا منه، وخرج إليه بكتوزون وغيره من الأُمراء والقوّاد، فلمّا حضروا عنده قبض عليهم، وسار حتى دخل بُخارى في يوم الثلاثاء عاشر ذي القعدة، فلم يدر عبد الملك ما يصنع لقلّة من معه فاختفى، ونزل إيليك الخان في دار الإمارة وبثّ العيون على عبد الملك، وشدّد في طلبه فظفر به فأودعه بايكند فمات بها، وهو آخر الملوك

السامانيّة، وانقرضت دولتهم على يده وحبس معه أخاه أبا الحارث منصور بن نوح، الذي كان في الملك قبله، وأخويه أبا إبراهيم إسماعيل وأبا يعقوب، وأعمامه أبا زكريا وأبا سليمان وغيرهم من آل سامان، وأفرد كل واحد منهم في حجرة، وكانت دولتهم قد انتشرت من حدود حلوان إلى بلاد الترك بما وراء النهر، وكانت من أحسن الدول سيرة وعدلاً، وعدّة من ملك منهم عشرة ملوك وهم: نصر بن أحمد بن أسد بن سامان، ثم أخوه إسماعيل بن أحمد، ثم ابنه أحمد بن إسماعيل، ثم ابنه نصر بن أحمد، ثم ابنه نوح بن نصر، ثم ابنه عبد الملك بن نوح، ثم أخوه منصور بن نوح، ثم ابنه نوح بن منصور، ثم ابنه منصور بن نوح، ثم أخوه عبد الملك بن نوح. ومدّة ملكهم منذ ولّي نصر بن أحمد بن أسد وإلى أن قبض على عبد الملك مائة سنة وتسع وعشرون سنة تقريبًا، ولم يقم لهم بعد ذلك دولة، وإنما ظهر إسماعيل بن نوح ولم يستقم له أمر ولا قامت له دولة، فلذلك لم نجعله في جملة ملوكهم، لأنه كان كالخارجي، ونحن الآن نذكر ظهوره وما كان من أمره.

ذكر ظهور إسماعيل بن نوح وما اتفق له بخراسان

وفي سنة تسعين وثلاثمائة خرج أبو إبراهيم إسماعيل بن نوح من محبسه، وكان السبب في ظهوره أنه كان له جارية تأتيه لخدمته ثم تنصرف، فجاءته في بعض الأيام على عادتها فلبس ما كان عليها، وخرج فظنّه الموكّلون به الجارية، ولما خرج استخفى عند عجوز من أهل بُخارى، إلى أن سكن الطلب عنه، فسار من بُخارى إلى خوارزم وتلقب المستنصر، واجتمع إليه بقايا القوّاد السامانية والجند فكثرت جموعه، فبعث قائدًا من قوّاده إلى بُخارى، فقاتل من بها من أصحاب إيليك الخان وهزمهم وتبعهم إلى حدود سمرقند، فاجتمع المنهزمون وعسكر سمرقند وقاتلوه فهزمهم أيضًا عسكر المستنصر، وغنموا أثقالهم فصلحت أحوالهم وعادوا إلى بُخارى، فاستبشر أهلها بعود السامانية، فجمع إيليك الخان الترك وقصد بُخارى، فانحاز من بها من السامانيّة وعبروا النهر إلى آمل الشط، فضاقت عليهم فساروا هم والمستنصر نحو أبيورد[١]، فملكوها وجبوا أموالها، وساروا نحو نيسابور وبها منصور بن سبكتكين نائبًا عن أخيه محمود، فاقتتلوا فانهزم ابن سبكتكين وملك المستنصر نيسابور وكثر جمعه، فاتصل الخبر بيمين الدولة محمود فجدّ في السير إليها فسار المستنصر عنها

---

(١) أبيورد: بفتح أوله وكسر ثانيه وياء ساكنة وفتح الواو وسكون الراء ودال مهملة: مدينة بخراسان بين سرخس ونسا، وبئة، رديئة الماء، يكثر فيها خروج العرق.

إلى أسفرايين(١)، فلما أزعجه الطلب سار إلى شمس المعالي قابوس بن وشمكير ملتجئًا إليه، فأكرمه وحمل إليه كثيرًا وأشار عليه بقصد الريّ، إذ كانت ليس لها مني ذبّ عنها، لاشتغال أصحابها باختلافهم، ووعده أن ينجده بعسكر مع أولاده، فسار نحو الريّ ونازلها فضعف من بها عن مقاومته، إلا أنهم حفظوا البلد، وبذلوا الأموال لأصحابه ليردّوه عنها، فردّوه وحسّنوا له العود إلى خراسان فسار نحو الدامغان، وعاد عنه عسكر قابوس، ووصل المستنصر إلى نيسابور في شوّال سنة إحدى وتسعين فجبى أموالها، فأرسل إليه يمين الدولة جيشًا فانهزم وسار نحو أبِيوَرْد، وقصد جرجان فردّه شمس المعالي عنها، فقصد سرخْس وجبى أموالها وسكنها، فسار إليه نصر بن سبكتكين من نيسابور، والتقوا واقتتلوا فانهزم الساماني، وأسر جماعة من أعيان عسكره وحملوا إلى غزنة، وذلك في شهر ربيع الأول سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة، ثم سار الساماني تائهًا حتى وافى الأتراك الغُزيّة، ولهم ميل إلى آل سامان فاجتمعوا معه، وسار إيليك الخانَ وذلك في شوّال سنة ثلاث وتسعين، فلقيهم بنواحي سمرقند فهزموه، واستولوا على أمواله وسواده وأسروا جماعة من قوّاده وعادوا، وأجمع أصحاب المستنصر على إطلاق الأسرى تقرّبًا إلى إيليك الخان، فشعر بذلك فاختار من أصحابه جماعة يثق بهم، وسار بهم فعبر النهر إلى آمل الشط فلم يقبله مكان، فعاد وعبر النهر إلى بُخارى واقتتل هو وواليها الذي هو من قبل إيليك الخان، فانهزم المستنصر إلى دبوسيّة(٢) وجمع بها جمعًا، ثم عاودهم وهزمهم فاجتمع عليه جماعة من فتيان سمرقند وصاروا في جملة أصحابه، فجمع إيليك الخان الأتراك وسار إليه والتقوا بنواحي سمرقند، فانهزم إيليك الخان وذلك في شعبان سنة أربع تسعين وثلاثمائة، ثم عاد إيليك الخان إلى بلاد الترك فجمع وحشد وعاد إلى المستنصر، فوافق عوده تراجع الغزيّة الذين كانوا مع الساماني إلى أوطانهم، فاقتتلوا بنواحي أشروسنة فانهزم الساماني وأكثر أصحاب إيليك الخان القتل في أصحابه، وعبر النهر إلى الجوزجان فنهب أموالها، وسار يريد مرو فسيّر إليه يمين الدولة العساكر، ففارق مكانه وسار وهم في أثره، فأتى بسطام فأزعجه قابوس عنها فضاقت به المذاهب، فعبر ما وراء النهر وقد ضجر أصحابه منه وسئموا من السهر والتعب والخوف، ففارقه كثير منهم إلى بعض أصحاب إيليك الخان وأعلموهم بمكانه، فلم يشعر إلا وقد

(١) أسفرايين: بليدة حصينة من نواحي نيسابور على منتصف الطريق من جرجان. . . (معجم البلدان).

(٢) دبوسية: بليدة من أعمال الصغد من ما وراء النهر، منها أبو زيد الدبوسي. . . (معجم البلدان).

أحاطت به الخيل من كل جانب، فطاردهم ساعة وانهزم ونزل بحلّة للعرب، وكانوا في طاعة يمين الدولة محمود بن سبكتكين، فأمهلوه حتى أظلم الليل ووثبوا عليه فأخذوه وقتلوه، وكان ذلك خاتمة أمره وآخر ما اتّفق لآل سامان، ولم يقم منهم بعده أحد، والله أعلم.

ذكر أخبار الدولة الصفّارية وابتداء أمرها

أوّل من قام منهم يعقوب بن الليث الصفّار، وكان يعقوب هذا وأخوه عمرو يعملان الصُّفْر[١] بسجستان ويظهران الزهد والتقشف، وكان في أيّامهما رجل من أهل سِجِسْتان اسمه صالح بن النضر الكناني قد تغلّب على سِجِسْتان في سنة سبع وثلاثين ومائتين في خلافة المتوكّل على الله، فصحبه يعقوب وقاتل معه وجعله صالح مقام الخليفة عنه، فاستنقذ طاهر بن عبد الله بن طاهر ـ أمير خراسان ـ سجستان من يده، ثم هلك صالح بعد ذلك فقام مقامه بأمر المتطوّعة رجل اسمه درهم بن الحسن، فغلب على سجستان وكان غير ضابط لعسكره وكان يعقوب هو قائد العسكر، فلمّا رأى أصحاب درهم ضعفه وعجزه اجتمعوا على يعقوب بن الليث، وملّكوه أمرهم لما رأوه من تدبيره وحسن سياسته وقيامه بأمرهم، فلمّا تبيّن ذلك لدرهم لم ينازعه في الأمر، وسلّمه إليه واعتزل عنه فاستبدّ يعقوب بالأمر؛ وقيل بل احتال صاحب خراسان على درهم حتى قبض عليه، وحمله إلى بغداد فحبس بها ثم أطلق وخدم الخليفة ببغداد، واستقلّ يعقوب بعده بالأمر وعظم شأنه وتولّى أمر المتطوّعة، وقام بمحاربة الشراة[٢] فظفر بهم وأكثر القتل فيهم حتى كاد يفنيهم، وخرّب قراهم، وأطاعه أصحابه طاعة لم يطيعوا أحدًا قبله، فاشتدت شوكته فغلب على سِجِسْتَان وأظهر التمسك بطاعة الخليفة، وكاتبه وصدر عن أمره وأظهر أنه أمره بقتال الشراة، وملك يعقوب سجستان وضبط الطريق، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر فكثر أتباعه.

ذكر ملك يعقوب هراة وبوشنج

قال: ولما كثر أتباعه خرج عن حدّ طلب الشراة، فصار يتناول أصحاب أمير خراسان، وسار من سجستان إلى هراة من أعمال خراسان في سنة ثلاث وخمسين

---

(١) الصّفر: النحاس الأصفر. (٢) الشراة: فرقة من الخوارج.

ومائتين، وأمير خراسان يومذاك محمد بن طاهر بن عبد الله، وعامله على هراة محمد بن أوس الأنباري فخرج منها لمحاربته، فالتقوا واقتتلوا قتالاً شديدًا فانهزم ابن أوس وملك يعقوب هراة وبُوشَنْج وصارت المدينتان في يده، فعظم أمره وهابه أمير خراسان وغيره من أصحاب الأطراف، وذلك في خلافة المعتز بالله.

ذكر استيلائه على كرمان

وفي سنة خمس وخمسين ومائتين استولى يعقوب بن الليث على كِرْمان[١]، وسبب ذلك أن عليّ بن الحسين بن سبل كان على فارس، فتباطأ بحمل الخراج منها وكتب إلى المعتز بالله يطلب منه كرمان، ويذكر عجز الطاهريّة عنها، فكتب إليه بولايتها وكتب إلى يعقوب أيضًا بولايتها، وقصد بذلك إغراء كل واحد منهما بالآخر فتسقط عنه مؤونة الهالك منهما وينفرد بالآخر، وكان كل منهما يظهر الطاعة للخليفة وهو في باطن أمره على معصيته، والمعتز يعلم بذلك منهما، فأرسل عليّ بن الحسين، طَوْق بن المُغْلِّسِ إلى كرمان، وسار يعقوب إليها فسبقه طوق واستولى عليها، وأقبل يعقوب حتى بقي بينه وبين عسكر كرمان مرحلة، فأقام بها شهرين لا يتقدّم إلى طوق، ولا طوق يخرج إليه، فلمّا طال ذلك عليه أظهر الارتحال إلى سجستان ورجع مرحلتين، وبلغ طوقًا ارتحاله فظنّ أنه قد بدا له في حربه، فوضع آلة الحرب وقعد للشرب واللهو، واتصل ذلك بيعقوب فكرّ راجعًا وطوى المرحلتين في مرحلة واحدة، فلم يشعر طوق إلا بغبرة العسكر قد طلعت، فقال: ما هذا؟ فقيل غبرة المواشي، فلم يكن بأسرع من موافاة يعقوب فأحاط به وبأصحابه، فذهب أصحابه يريدون المناهضة والدفع عن أنفسهم، فقال يعقوب لأصحابه: أفرجوا لهم، فأفرجوا لهم فمروا هاربين وتركوا أموالهم وأثقالهم، وأسر يعقوب طوقًا، وكان عليّ بن الحسين قد سيّر مع طوق قيودًا في صناديق، ليقيّد بها من يأخذه من أصحاب يعقوب، وفي صناديق أطوقة وأساور يعطيها لأصحاب البلاء من أصحابه، فلمّا غنم يعقوب عسكرهم رأى ذلك فقال يا طوق: ما هذا؟ فأخبره، فأعطى يعقوب الأطوقة والأساور لأصحابه، وقيّد بالقيود والأغلال أصحاب عليّ، ولما أخرج يد طوق ليجعل الغلّ فيها رآها يعقوب وعليها عصابة[٢]، فسأله عنها فقال: أصابتني حرارة

---

(١) كرمان: بالفتح ثم السكون، وآخره نون: ناحية كبيرة معمورة ذات بلاد وقرى ومدن واسعة بين فارس ومكران وسجستان وخراسان.

(٢) العصابة: العمامة؛ أو هي ما يشد به من منديل أو خرقة.

ففصدتها، فأمر يعقوب بنزع خف نفسه فتساقط منه كسر يابسة، فقال: يا طوق هذا خفّي لم أنزعه من رجلي منذ شهرين، وخبزي فيه منه آكل، وأنت جالس في الشرب، ثم دخل كرمان وملكها مع سِجِسْتان.

ذكر ملكه فارس

قال: ولما بلغ علي بن الحسين صاحب فارس ما فعله يعقوب بطَوْق أيقن بمجيئه إليه وكان بشيراز، فجمع جيشه وصار إلى مضيق خارج شيراز، من أحد جانبيه جبل لا يسلك، ومن الآخر نهر لا يُخاض على رأس المضيق، وهو مضيق لا يسلكه إلا واحد بعد واحد وقال: إن يعقوب لا يقدر على الجواز إلينا، وأقبل يعقوب حتى دنا من ذلك المضيق ونزل على ميل منه، وسار وحده ومعه رجل آخر فنظر إلى المضيق والعسكر فسبّه أصحاب عليّ وهو ساكت، ثم رجع إلى أصحابه، فلما كان الغد سار حتى صار إلى طريق المضيق مما يلي كرمان، وأمر أصحابه بالنزول وحطّ الأثقال ففعلوا وركبوا دوابّهم وأخذ يعقوب كلبًا كان قد ألفه فألقاه في الماء، فجعل يسبح إلى جانب أصحاب عليّ، وكان عليّ وأصحابه قد ركبوا لينظروا إلى فعله ويضحكون منه، فألقى يعقوب نفسه وأصحابه في الماء على خيولهم وبأيديهم الرماح، وجعلوا يسيرون خلف الكلب، فلما رأى عليّ يعقوب وقد قطع عامّة النهر تحيّر في أمره، وانتقض عليه ما كان قد دبّره، وخرج أصحاب يعقوب فلما صار أوائلهم في البرّ هرب أصحاب عليّ إلى مدينة شيراز، فسقط عليّ بن الحسين عن فرسه فأخذ أسيرًا، وأتى به إلى يعقوب فقيّده واحتوى على ما كان في عسكره، ثم رحل من موضعه ودخل شيراز ليلاً فلم يتحرّك أحد، فلمّا أصبح انتهب أصحابه دار عليّ ودور أصحابه، وأخذ ما في بيوت الأموال وجبى الخراج، ورجع إلى سجستان. وقيل إنه كان بينه وبين عليّ حرب بعد عبور النهر، وذلك أن عليًا كان قد جمع عنده جمعًا كثيرًا من الموالي والأكراد وغيرهم، بلغت عدّتهم خمسة عشر ألفًا من فارس وراجل، وعبأ أصحابه وأقبل يعقوب وعبر النهر فلما صاروا في أرض واحدة حمل يعقوب وعسكره حملة رجل واحد، وتابع الحملات حملة بعد أخرى فانهزم أصحاب عليّ، وتبعهم وهو يصيح بهم فلا يرجعون، وقتل الرجّالة قتلاً ذريعًا، وأقبل المنهزمون إلى باب شيراز وقت العصر، فازدحموا إلى الأبواب وتفرّقوا في نواحي فارس، وبلغ بعضهم إلى الأهواز فأمر يعقوب بالكف عنهم، وكانت القتلى منهم خمسة آلاف؛ قيل وأصاب عليّ بن الحسين ثلاث جراحات ثم أُخذ أسيرًا.

ودخل يعقوب مدينة شِيراز وطاف بها، ونادى بالأمان فاطمأن الناس، وعذّب عليّ بن الحسين بأنواع العذاب، وأخذ من أمواله ألف بدرة(١) وقيل أربعمائة، وأخذ من السلاح والأقمشة وغير ذلك ما لا يُحدّ، وكتب إلى الخليفة المعتز بالله بطاعته، وأهدى له هدية جليلة: منها عشرة بزاة بيض وباز أبلق(٢) صيني ومائة منّ(٣) من المسك وغير ذلك من الطرائف، وعاد إلى سجستان ومعه عليّ وطوق، فلما فارق بلاد فارس أرسل الخليفة عماله إليها.

ذكر قصد يعقوب فارس وملكه بلخ وغيرها

وفي سنة سبع وخمسين ومائتين سار يعقوب إلى بلاد فارس، فأرسل إليه المعتمد على الله ينكر ذلك، وكتب إليه الموفق أخو المعتمد بولاية بلْخ وطُخَارِسْتَان وسِجِسْتَان والسِّنْد فقبل ذلك، وعاد وسار إلى بلخ وطخارستان، فلما وصل نزل بظاهرها وخرّب نوشَاد؛ وهي أبنية كان قد بناها داود بن العبّاس خارج بلخ، ثم سار إلى كَابُل واستولى عليها وقبض على رُتْبيل(٤)، وأرسل رسولاً إلى الخليفة بهديّة جليلة المقدار، وفيها أصنام أخذها من كابُل(٥) وتلك البلاد، وسار إلى بُسْت فأقام بها سنة، وسبب إقامته أنه أراد الرحيل فرأى قوّاده قد حمل بعض أثقاله، فغضب وقال: ترحلون قبلي!! ثم أقام سنة، وسار إلى بوشنج وقبض على الحسين بن طاهر بن الحسين، فأنفذ إليه محمد بن طاهر بن عبد الله يسأله في إطلاقه فلم يجب سؤاله.

ذكر ملكه نيسابور

وفي شوال سنة تسع وخمسين ومائتين دخل يعقوب نيسابور، وكان سبب مسيره إليها أن عبد الله السِّجْزي كان ينازع يعقوب سجستان فلما قوي أمر يعقوب هرب منه إلى محمد بن طاهر، وطلبه يعقوب منه فلم يفعل، فسار نحوه إلى نيسابور فلما قرب منها وأراد دخولها وجّه إليه محمد بن طاهر يستأذنه في تلقّيه، فلم يأذن له فبعث

---

(١) البدرة: كيس فيه مقدار من المال يتعامل به، ويقدم في العطايا، ويختلف باختلاف العهود.

(٢) الأبلق: الذي فيه سواد وبياض.

(٣) المنّ: معيار قديم كان يكال به أو يوزن، وقدره إذ ذاك رطلان بغداديان، والرطل عندهم اثنتا عشرة أوقية بأواقيهم.

(٤) كل ملك لهم يسمى رتبيل.

(٥) كابل: بضم الباء الموحدة، ولام: اسم يشمل الناحية ومدينتها العظمى أو هند... (معجم البلدان).

بعمومته وأهل بيته فتلقوه، ودخل نيسابور وأرسل إلى الخليفة يذكر تفريط محمد بن طاهر في عمله، وأن أهل خراسان سألوه المصير إليهم، ويذكر غلبة العلويين على طبرستان وبالغ في هذا المعنى، فأنكر عليه ذلك وأمره بالاقتصار على ما أسند إليه، وألا يسلك معه مسلك المخالفين. وقيل بل كان سبب ذلك أنه كتب إلى محمد يعلمه أنه على قصد طبرستان، ليمضي ما أمره به الخليفة في الحسن بن زيد العلوي المتغلّب عليها، وأنه لا يتعرض إلى شيء من عمله ولا إلى شيء من أسبابه، وكان بعض خاصّة محمد وأهله لمّا رأوا إدبار أمره مالوا إلى يعقوب، وكاتبوه واستدعوه وهوّنوا على محمد أمر يعقوب، وأعلموه أنه لا خوف عليه منه وثبّطوه عن التحرّز منه، فركن محمد إلى قولهم حتى قرب يعقوب من نيسابور، فوجّه إليه قائدًا من قوّاده يطيّب قلبه، وأمره بمنعه عن الانتزاح من نيسابور إن أراد ذلك، ثم وصل يعقوب إلى نيسابور في رابع شوّال، وأرسل أخاه عمرو بن الليث إلى محمد بن طاهر فأحضره عنده، فقبض عليه وقيّده وعنّفه على إهماله أمر عمله وعجزه عن حفظه، ثم قبض على جميع أهله، وكانوا نحوًا من مائة وستين رجلًا، وحملهم إلى سجستان واستولى على خراسان، ورتّب نوّابه في الأعمال، وكانت ولاية محمد بن طاهر خراسان إحدى عشرة سنة وشهرين وعشرة أيام.

ذكر دخوله طبرستان

وفي سنة ستين ومائتين سار يعقوب إلى طبرستان وملكها، وسبب ذلك أنه لمّا دخل نيسابور هرب منه عبد الله السِّجْزِي إلى الحسن بن زيد بسارية[1]، فأرسل يعقوب إلى الحسن يسأله أن يبعثه إليه ويرجع عنه، فإنّه إنما جاء لذلك لا لحربه فلم يسلّمه الحسن، فحاربه يعقوب فانهزم الحسن ودخل بلاد الديلم ودخل يعقوب سارية وآمُل، وجبى من أهلها خراج سنة، ثم سار في طلب الحسن بن زيد فصار إلى بعض جبال طبرِسْتان، فتتابعت عليه الأمطار نحوًا من أربعين يومًا فلم يتخلّص إلا بمشقّة شديدة، وهلك عامّة ما معه من الظهر، ثم أراد الدخول خلف الحسن فوقف على الطريق الذي يريد يسلكه، وأمر أصحابه بالتوقّف عن المسير، ثم تقدّم وحده فتأمّل الطريق ورجع إليهم، فأمرهم بالانصراف وقال: إن لم يكن طريق غير هذا فلا طريق إليه، وكان نساء تلك الناحية قلن للرجال: دعوه يدخل فإنه إن دخل كفيناكم أمره

---

(١) سارية: بعد الألف راء ثم ياء مثناة من تحت مفتوحة: هي مدينة بطبرستان.. وبها منزل العامل في أيام الطاهرية، وكان العامل قبل ذلك بآمل... (معجم ياقوت).

وعلينا أسره لكم، فلمّا خرج من طبرستان عرض رجاله ففقد منهم أربعين ألفًا، وذهب أكثر ما معه من الخيل والإبل والأثقال.

وكتب إلى الخليفة بما فعله من هزيمة الحسن، وسار إلى الريّ في طلب عبد الله السجزي، فإنه كان قد سار إليها بعد هزيمة الحسن فلما قاربها يعقوب كتب إلى واليها الصلابي، يخيّره بين تسليم عبد الله إليه ويرحل عنه وبين المحاربة، فسلّمه إليه فانصرف يعقوب عنه وقتل عبد الله السجزي.

ذكر عود يعقوب إلى بلاد فارس والحرب بينه وبين محمد بن واصل

كان سبب ذلك أن محمد بن واصل كان قد تغلّب على فارس وقتل الحارث بن سيما، فأضاف المعتمد على الله فارس والأهواز البصرة والبحرين واليمامة إلى موسى بن بُغا مع ما كان إليه، فوجّه موسى، عبد الرحمٰن بن مُفلح إلى الأهواز، وولاه إيّاها مع فارس وأضاف إليه طاشتمُر، فقاتله محمد بن واصل برام هُرْمُز[1]، فانهزم عبد الرحمٰن وأُخذ أسيرًا وقتل طاشتمر، وغنم ما كان في عسكرهما، فأرسل الخليفة إلى محمد بن واصل في إطلاق عبد الرحمٰن، فلم يفعل وقتله وأظهر أنه مات، وسار ابن واصل من هذه الوقعة - وقد أظهر أنه يريد واسط - لحرب موسى بن بُغا، فلما رأى موسى شدّة الأمر استعفى من ولاية فارس؛ فلما بلغ ذلك يعقوب - وكان بسجستان، تجدّد طمعه في ملك بلاد فارس، وأخذ ما غنمه ابن واصل من الخزائن والسلاح من عبد الرحمٰن بن مفلح وطاشتمر، فسار يعقوب حتى نزل البيضا من أرض فارس، فبلغ ابن واصل خبره وهو بالأهواز، فعاد منها لا يلوي على شيء، وأرسل خاله أبا بلال مرداسًا إلى يعقوب فوصل إليه وضمن له طاعة محمد بن واصل، فأرسل يعقوب إلى محمد كتبًا ورسلاً في المعنى فحبسهم ابن واصل، وسار يطلب يعقوب والرسل معه، وهو يريد بذلك أن يخفي خبر مسيره، وأن يصل بغتة فينال منه غرضه ويوقع به، فسار في يوم شديد الحرّ في أرض صعبة المسلك، وهو يظن أن خبره قد خفي عن يعقوب، فلما كان وقت الظهر تعبت دوابّهم، فمات من أصحاب ابن واصل أكثر الرجّالة جوعًا وعطشًا وتعبًا، وبلغ خبرهم يعقوب فجمع

---

(١) رامهرمز: (كما في معجم ياقوت): من بين مدن خوزستان تجمع النخل والجوز والأترنج، وليس ذلك يجتمع بغيرها من مدن خوزستان.

أصحابه وأعلمهم الخبر، وقال لأبي بلال: إنّ ابن واصل قد غدر بنا وحسبنا الله ونعم الوكيل، وسار يعقوب إليه فلما قاربه ضعفت نفوس أصحاب ابن واصل عن مقاومته، فلما صار بينهما رميه سهم انهزم أصحاب ابن واصل من غير قتال، وتبعهم أصحاب يعقوب وأخذوا منهم جميع ما غنموه من عسكر عبد الرحمٰن، واستولى يعقوب على بلاد فارس ورتّب بها أصحابه وأصلح أحوالها، ومضى ابن واصل منهزمًا وأخذ أمواله من قلعته، وكانت أربعين ألف ألف درهم، وأوقع يعقوب بأهل زم[1] لأنهم أعانوا ابن واصل، وحدّث نفسه أنه يستولي على الأهواز وغيرها.

ذكر الحرب بين الموفق ويعقوب

وفي سنة اثنتين وستين ومائتين في المحرم سار يعقوب من فارس إلى الأهواز، فلما بلغ المعتمد على الله إقباله، أرسل إليه إسماعيل بن إسحاق وبُغْراج، وأطلق من كان في حبسه من أصحاب يعقوب، وكان قد حبسهم لما أخذ يعقوب، محمد بن طاهر، وجاءت رسالة يعقوب إلى الخليفة فجلس أبو أحمد الموفّق وأحضر التجّار، وأخبرهم بتولية يعقوب طبرستان وخراسان وجرجان والريّ وفارس والشرطة ببغداد، وذلك بمحضر من درهم حاجب يعقوب؛ وكان قد أرسله يطلب هذه الولاية، فأعاده لموفّق إلى يعقوب ومعه عمر بن سيما بما أضاف إليه من الولايات، فعادت رسل يعقوب تقول: إنه لا يرضيه ذلك دون أن يصير إلى باب المعتمد، وارتحل يعقوب وسار إليه أبو الساج وصار معه، فأكرمه. وأحسن إليه ووصله، وسار يعقوب إلى واسط فدخلها لست بقين من جُمادى الآخرة سنة اثنتين وستين ومائتين، وارتحل المعتمد على الله من بغداد إلى الزعفرانيّة[2] وقدّم أخاه الموفّق أمامه، وسار يعقوب من وسط إلى دير العاقول بالعساكر لمحاربته، فجعل الموفّق على ميمنته موسى بن بغا وعلى ميسرته مسرورًا البلخي وقام هو في القلب، والتقوا واقتتلوا فحملت ميسرة يعقوب على ميمنة الموفّق فهزمتها، وقتل جماعة من القوّاد ثم تراجع المنهزمون، وكشف الموفّق رأسه وقال: أنا الغلام الهاشمي، وحمل وحمل معه سائر العسكر فثبت عسكر يعقوب، وتحاربوا حربًا شديدًا فقتل من أصحاب يعقوب جماعة، منهم

---

(١) زمّ: بفتح أوله وتشديد ثانيه: بليدة على طريق جيحون من ترمذ وآمل؛ نسب إليها نفر من أهل العلم... (معجم البلدان).

(٢) الزعفرانية: عدة مواضع تسمى بهذا الاسم، منها الزعفرانية قرية على مرحلة من همذان.. والزعفرانية: قرية قرب بغداد تحت كلواذى... (معجم البلدان).

حسن الدرهميّ وأصاب يعقوب ثلاثة أسهم، ولم تزل الحرب قائمة إلى وقت العصر فانهزم أصحاب يعقوب، وثبت هو في خاصّة أصحابه ثم مضوا وفارقوا موضع الحرب، وتبعهم أصحاب الموفّق وغنموا ما في عسكره، وكان فيه الدوابّ والبغال أكثر من عشرة آلاف، ومن الأموال ما لا يحصى كثرة، ومن جرب المسك عدّة كثيرة، وخلص محمد بن طاهر وكان مثقلاً بالحديد، فخلع عليه الموفّق وولاّه الشرطة ببغداد، وسار يعقوب من موضع الهزيمة إلى خوزستان ونزل جنديسابور، فراسله العلوي فقال لكاتبه اكتب إليه: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ...﴾ إلى آخرها وسيّر الكتاب إليه، وكانت هذه الوقعة لإحدى عشرة ليلة خلت من شهر رجب، وكتب المعتمد إلى محمد بن واصل بولاية فارس فعاد إليها.

ذكر استيلاء يعقوب على الأهواز وغيرها

وفي سنة ثلاث وستين ومائتين أقبل يعقوب من فارس، فلمّا بلغ النُّوبنْدجان[١] انصرف أحمد بن الليث عن تُسْتر، فبلغ يعقوب جُنْديُسابور ونزلها، فارتحل عن تلك الناحية من كان بها من عسكر الخليفة، ووجّه يعقوب إلى الأهواز رجلاً من أصحابه يقال له الخِضْر بن العنبر، فلمّا قاربها خرج عنها علي بن أبان ومن معه من الزنج ونزل بها السِّدْرة، ودخل الخضر الأهواز وجعل أصحابه وأصحاب علي بن أبان يغير بعضهم على بعض وينال بعضهم من بعض، إلى أن استعدّ علي بن أبان وسار إلى الأهواز، فأوقع بالخضر ومن معه من أصحاب يعقوب وقعة عظيمة، قتل فيها من أصحاب الخضر خلقًا كثيرًا وهرب الخضر ومن معه، وأقام عليّ بالأهواز يستخرج ما كان فيها، ورجع إلى نهر السِّدْرة وسيّر طائفة إلى دوْرق[٢] فأوقعوا بمن كان هناك من أصحاب يعقوب، فأنفذ يعقوب إلى الخضر مددًا، وأمره بالكف عن قتال الزنج والاقتصار على المقام بالأهواز، فلم يُجب علي بن أبان إلى ذلك دون نقل طعام كان هناك، فأجابه يعقوب إلى ما طلب ونقل الطعام، وترك العلف بالأهواز وكف بعضهم عن بعض.

---

(١) النوبندجان: بالضم ثم السكون، وباء موحدة مفتوحة، ونون ساكنة، ودال مفتوحة، وجيم، وآخره نون: مدينة من أرض فارس من كورة سابور قريبة من شعب بوان الموصوف بالحسن والنزاهة، وبينها وبين أرجان ستة وعشرون فرسخًا... (معجم البلدان).

(٢) دورق: بفتح أوله وسكون ثانيه، وراء بعدها قاف: بلد بخوزستان، وهو قصبة كورة سرّق يقال لها دورق الفرس... (معجم ياقوت).

ذكر وفاة يعقوب بن الليث وولاية أخيه عمرو

كانت وفاته في تاسع عشر شوّال سنة خمس وستين ومائتين بجنديسابور من كور الأهواز، وكانت علّته القولنج[١] فأمره الأطباء بالاحتقان بالداء، فامتنع واختار الموت على ذلك، وكان المعتمد على الله قد أنفذ إليه رسولاً وكتابًا يستميله ويسترضيه، وقلده أعمال فارس، فوصل الرسول ويعقوب مريض فجلس له، وجعل عنده سيفًا ورغيفًا من الخبز الخشكار[٢] وبصلًا، وأحضر الرسول وسمع رسالته وقال له: قل للخليفة إنّني عليل، فإن مت فقد استرحتُ منك واسترحتَ مني، وإن عوفيت فليس بيني وبينك إلا هذا السيف حتى آخذ بثأري أو تكسرني وتعقرني فأعود إلى هذا الخبز والبصل وأعاد الرسول، فلم يلبث يعقوب أن مات.

وكان الحسن بن زيد العلوي ـ صاحب طبرستان ـ يسمّي يعقوب السندان لثباته، وكان يعقوب قد افتتح الرُخج[٣] وقتل ملكها البتبر وكان هذا الملك يُحمل على سرير من ذهب يحمله اثنا عشر رجلًا، وابتنى بيتًا على جبل عال سمّاه مكة، وكان يدّعي الإلهيّة فقتله يعقوب، وافتتح الخلجية وزابُل وغير ذلك، وكان عاقلاً حازمًا وكان يقول: كل من عاشرته أربعين يومًا فلا تعرف أخلاقه لا تعرفها في أربعين سنة.

ذكر ولاية عمرو بن الليث

كانت ولايته بعد وفاة أخيه يعقوب في تاسع شوّال سنة خمس وستين ومائتين، ولمّا ولّي كتب إلى الخليفة بطاعته، فولا الموفّق خراسان وأصفهان وسجستان والسند وكرمان والشرطة ببغداد وأشهد عليه بذلك وسيّر إليه العهد والخلع، فاستخلف عمرو بن الليث، عبيد الله بن عبد الله بن طاهر على الشرطة ببغداد وسامرّا في صفر سنة ست وستين، وخلع عليه الموفّق أيضًا، ولم يزل عمرو في هذه الولايات إلى أن عزله المعتمد في شهور سنة إحدى وسبعين ومائتين، وأدخل عليه حاج خراسان وأعلمهم أنه عزل عمرو بن الليث عمّا كان قلّده، ولعنه بحضرتهم وأعلمهم أنه قد قلّد خراسان لمحمد بن طاهر، وأمر يلعن عمرو على المنابر فلعن.

---

(١) القولنج: مرض معوي مؤلم يصعب معه خروج البراز والريح، وسببه التهاب القولون.

(٢) الخشكار: الخبز الأسمر غير النقي. . . (فارسي).

(٣) الرخّج: بتشديد ثانيه، وآخره جيم: كورة ومدينة من نواحي كابل.

وسار صاعد بن مخْلَد إلى فارس لحرب الصفّاريّة، واستخلف محمدُ بن طاهر على خراسان رافع بن هرثمة، ثم كانت الحرب بين عمرو بن الليث وعسكر الخليفة وعليهم أحمد بن عبد العزيز بن أبي دُلَف، ودامت الحرب بينهم من أوّل النهار إلى الظهر، فانهزم عمرو وأصحابه وكانوا خمسة عشر ألفًا، وجرح الدرهميّ مقدّم جيش عمرو، وقتل مائة رجل من جماتهم وأسر ثلاثة آلاف أسير وغنموا معسكر عمرو، وكان الذي غنموه من الدوابّ والبقر والحُمُر ثلاثين ألف رأس، وما سوى ذلك فلا يدخل تحت الإصحاء، وذلك في عاشر شهر ربيع الأوّل سنة إحدى وسبعين ومائتين.

وفي سنة أربع وسبعين سار الموفّق إلى فارس لحرب عمرو بن الليث في شهر ربيع الأوّل، فبلغ عمرو الخبر فسيّر عبّاس بن إسحاق في جمع كثير من العسكر إلى سِيراف، وأنفذ ابنه محمد بن عمرو إلى أرّجان[1]، وسيّر أبا طلحة شَرْكَب صاحب جيشه على مقدّمته، فاستأمن أبو طلحة إلى الموفّق، وسمع عمرو ذلك فتوقف عن قصد الموفّق، ثم عزم أبو طلحة على العود إلى عمرو فبلغ الموفّق خبره، فقبض عليه بقرب شيراز وجعل ماله لابنه المعتضد، وسار يطلب عمرًا فعاد عمرو إلى كرمان ثم إلى سجستان على المفازة فتوفي ابنه بالمفازة، وعاد الموفّق.

ذكر أسر عمرو بن الليث
وقتله وانقراض الدولة الصفارية

وفي سنة سبع وثمانين ومائتين في شهر ربيع الأوّل منها كانت الحرب بين عمرو بن الليث وإسماعيل بن أحمد الساماني، صاحب ما وراء النهر، فأجلت الحرب عن هزيمة أصحاب عمرو وأسره كما قدّمناه مبيّنًا في أخبار الدولة السامانية، وخيّره إسماعيل في المقام عنده أو إرساله إلى الخليفة المعتضد بالله، فاختار أن يتوجّه إلى المعتضد فسيّره إليه، فوصل إلى بغداد في سنة ثمان وثمانين، فلما وصل أدخل بغداد على جمل، ثم حبس إلى أن قتل في سنة تسع وثمانين ومائتين.

(١) أرجان: قال الإصطخري: مدينة كبيرة كثيرة الخير، بها نخيل كثيرة وزيتون وفواكه الجروم والصرود، وهي برية بحرية، سهلية جبلية، ماؤها يسيح بينها وبين البحر مرحلة، وبينها وبين شيراز ستون فرسخًا. . . (معجم البلدان).

ذكر أخباره وشيء من سيرته

كان عمرو أعور شديد الشره عظيم السياسة، قد منع قوّاده وأصحابه أن يضرب أحد منهم غلامه إلا بأمره، وكان يشتري المماليك الصغار ويربّيهم ويهبهم إلى القوّاد، ويجري عليهم الجرايات السنيّة ليطالعوه بأخبار القوّاد، فلا ينكتم عنه شيء من أمرهم ولا يعلمون من ينقل إليه الأخبار، وكان كثير المصادرات لعمّاله وخواصه.

حكي عنه أنّ محمد بن بشير أكبر حجّابه ـ وكان يخلفه في جلائل الأمور والحروب المعضلة ـ فدخل عليه يومًا، فأخذ يعدّد عليه ذنوبه فحلف محمد بن بشير بالله وبالطلاق أنه لا يملك غير خمسين بدرة، وهو يحملها إلى الخزانة ولا يجعل له ذنبًا لم يعلمه، فقال له عمرو: ما أعقلك من رجل؟ احملها فحملها، ولا شيء أقبح من هذا الفعل، ومع ذلك فقد حكى القاضي عياض بن موسى[١] في كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ عن الإمام أبي القاسم القشيري أنّ عمرًا رؤي في النوم فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي، فقيل: بماذا؟ قال: صعدت ذروة جبل يومًا فأشرفت على جنودي، فأعجبتني كثرتهم فتمنّيت أنّي حضرت رسول الله ﷺ فأعنته ونصرته، فشكر الله لي ذلك وغفر لي.

وانقرضت هذه الدولة بأسر عمرو، وكانت مدتها خمسًا وثلاثين سنة، أيام يعقوب ثلاث عشرة سنة وأيام عمرو اثنتين وعشرين سنة.

ذكر أخبار
أحمد بن عبد الله الخجستاني

وهذه النسبة إلى خُجِسْتَان وهي من جبال هراة من أعمال باذغيس وكان أحمد بن عبد الله هذا من أصحاب محمد بن طاهر، فلما استولى يعقوب بن الليث على نيسابور ضمّ أحمد هذا إلى أخيه عليّ بن الليث وكان بنو شَرْكَب ثلاثة إخوة: إبراهيم

(١) هو عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن موسى بن عياض بن محمد بن موسى بن عياض اليحصبي، السبتي، المالكي، ويعرف بالقاضي عياض (أبو الفضل) محدث، حافظ، مؤخر، ناقد، مفسر، فقيه، أصولي، عالم بالنحو واللغة وكلام العرب وأيامهم وأنسابهم، شاعر، خطيب. أصله من الأندلس، وتجول جده إلى فاس، ثم سكن مدينة سبتة... (معجم المؤلفين ـ كحالة ٨:١٦).

وأبو حفص يعمر وأبو طلحة منصور بنو مسلم، وإبراهيم أسنّهم، وكان قد أبلى بين يدي يعقوب عند مواقعته للحسن بن زيد العلوي بجرجان بلاءً حسنًا، فقدّمه يعقوب فدخل عليه يومًا بنيسابور وكان اليوم شديد البرد، فخلع عليه يعقوب وبرسمّور[1] كان على كتفه، فحسده أحمد الخجستاني وجاء إليه وقال: إنّ يعقوب يريد الغدر بك، لأنّه لا يخلع على أحد من خاص ملبوسه إلا غدر به فقال إبراهيم: فكيف الخلاص؟ فقال: الحيلة أن نهرب جميعًا إلى أخيك يعمر، وكان يحاصر بلخ ومعه خمسة آلاف رجل، فاتّفقا على ذلك وتواعدا للخروج في تلك الليلة، فسبقه إبراهيم إلى الموعد وانتظره ساعة فلم يره، فسار نحو سرخس وذهب الخجستاني إلى يعقوب فأعلمه، فأرسل في أثر إبراهيم فأدركوه بسرخس فقتلوه، ومال يعقوب إلى أحمد، فلما أراد يعقوب العود إلى سجستان استخلف على نيسابور عزيز بن السريّ وولّى أخاه عمرو بن الليث هراة، فاستخلف عمرو وعليها طاهر بن حفص الباذغيسي، وسار يعقوب إلى سجستان في سنة إحدى وستين ومائتين، وأحبّ الخجستاني التخلّف لما كان يحدّث به نفسه، فقال لعلي بن الليث: إن أخويك قد اقتسما خراسان، وليس لك بها ما يقوم بشغلك، وأحبّ أن تردّني إليها لأقوم بأمورك، فاستأذن أخاه يعقوب في ذلك فأذن له، فلمّا حضر أحمد لوداع يعقوب أحسن إليه وخلع عليه، فلما ولّى عنه قال: أشهد أن قفاه قفا غادر مستعصٍ، وهذا آخر عهدنا بطاعته، فلما فارقهم جمع نحو مائة رجل فورد بهم بُست نيسابور، فحارب عاملها وأخرجه عنها وجباها ثم خرج إلى قُوس، فغلب على بِسْطام وقتل بها مقتلة عظيمة وذلك في سنة إحدى وستين وسار إلى نيسابور وبها عزيز بن السري فهرب منها، وأخذ أحمد أثقاله واستولى على نيسابور، ودعا للطاهريّة وذلك في أول سنة اثنتين وستين.

وكتب إلى رافع بن هرمثة يستقدمه فقدم عليه، فجعله قائد جيشه، وكتب إلى يعمر بن شركب ـ وهو يحاصر بلخ ـ يستقدمه ليتّفقا على تلك البلاد، فلم يثق إليه لما تقدّم له مع أخيه إبراهيم، وسار يعمر إلى هراة فحاربه طاهر بن حفص فقتله واستولى على أعماله فسار إليه أحمد وكان بينهما مناوشات، وكان أبو طلحة منصور بن شركب غلامًا من أحسن الغلمان، وكان عبد الله بن لال يميل إليه وهو أحد قوّاد يعمر،

(١) السمّور: حيوان ثديي ليلي من الفصيلة السمّورية من آكلات اللحوم، يتخذ من جلده فرو ثمين، ويقطن شمالي آسية.

فراسل ابن لال، الخجستانيَّ أن يعمل ضيافة ليعمر وأصحابه ويدعوهم إليه وأن يكبسهم أحمد وأنّه يساعده، واشترط عليه أنّه إذا ظفر يسلّم إليه أبا طلحة، فأجابه أحمد إلى ذلك وتواعدا على يوم، وعمل ابن لال ضيافة وحضرها يعمر، فكبسهم أحمد وقبض على يعمر وسيّره إلى نيسابور فقتله، واجتمع لأبي طلحة جماعة من أصحاب أخيه فقتلوا ابن للال، وساروا إلى نيسابور وبها الحسين بن طاهر أخو محمد، وقد وردها من أصفهان طمعًا أن أحمد يخطب لهم، كما كان يظهر من نفسه فلم يفعل، فخطب ابن طاهر بها لأبي طلحة وأقام معه، فسار الخجستاني من هراة في اثني عشر ألف عِنان، فأقام على ثلاث مراحل من نيسابور، ووجّه أخاه العبّاس إليها فخرج إليه أبو طلحة وقاتله، فقُتل العبّاس وانهزم أصحابه فعاد أحمد إلى هراة.

ثم كاتبه أهل نيسابور في الحضور إليهم، فسار إليهم وقدم البلد ليلًا، ففتحوا له الباب ودخلها، وسار عنها أبو طلحة إلى الحسن بن زيد، فأمدّه بالجنود فعاد إلى نيسابور فلم يظفر بشيء، فتوجّه إلى بلخ وذلك في سنة خمس وستين، ثم سار الخجستاني لمحاربة الحسن بن زيد لمساعدته لأبي طلحة، فاستعان الحسن بأهل جرجان فأعانوه، فهزمهم الخجستاني وجبى منهم أربعة آلاف ألف درهم وذلك في شهر رمضان من السنة. وتوفي يعقوب بن الليث في هذه السة وولّى مكانه أخوه عمرو، فوافى الخجستاني نيسابور واقتتلا فهزمه الخجستاني، فرجع إلى هراة وأقام أحمد بنيسابور، ثم سار إلى هراة في سنة سبع وستين فحصر عمرًا ولم يظفر بشيء، ثم كان له حروب مع أبي العبّاس النوفلي وغيره، فظفر بالنوفلي وكان قد جاء لحربه من قبل محمد بن طاهر في خمسة آلاف رجل وقتله، ثم سار إلى أَبِيوَرْد وجبى خراج مرو، ولم يزل كذلك إلى سنة ثمان وستين ومائتين، فقتله غلامه زامجور غيلة وكان قد سكر ونام ثم قتل الغلام، واجتمع أصحاب أحمد الخجستاني وانضمُّوا إلى رافع بن هرثمة.

وكان أحمد هذا كريمًا جوادًا شجاعًا حسن العشرة كثير البرّ لإخوانه الذين صحبوه قبل إمارته، ولم يتغيّر عليهم ما كان يعاملهم به من التواضع والأدب.

ذكر أخبار رافع بن هرثمة

كان رافع بن هرثمة من أصحاب محمد بن طاهر، فلما استولى يعقوب بن الليث على نيسابور وأزال الطاهريّة عنها التحق رافع به، فلما عاد يعقوب إلى سجستان صحبه رافع، وكان طويل اللحية كريه المنظر قليل الطلاقة، فدخل يومًا على يعقوب

فلما خرج من عنده قال: إنّا لا نميل إلى هذا الرجل فليلحق بما شاء من البلاد، فقيل له ذلك ففارقه وعاد إلى منزله بتامين، فأقام إلى أن استقدمه أحمد الخجستاني[1] كما ذكرنا وجعله صاحب جيشه، فلما قتل اجتمع الجيش عليه، وسار من هراة إلى نيسابور وكان أبو طلحة قد وردها من جرجان، فحصره فيها رافع وقطع الميرة عنها، فاشتدّ الغلاء ففارقها أبو طلحة إلى مرو، وخطب رافع لمحمد بن طاهر، ثم قلّد الموفّق محمد بن طاهر أعمال خراسان وكان ببغداد، فاستخلف رافع بن هرثمة على أعمال خراسان، وسار رافع إلى خوارزم في سنة اثنتين وسبعين ومائتين فجبى أموالها، ورجع إلى نيسابور.

وفي سنة خمس وسبعين استولى رافع على جرجان، وأزال عنها محمد بن زيد وسار محمد إلى أسْتراباد فحصره بها رافع نحو سنتين، فغلت الأسعار وعدمت الأقوات وبيع وزن درهم ملح بدرهمين فضة، ففارقها محمد ليلاً في نفر يسير فتبعه رافع إلى أرض الديلم حتى اتصل بحدود قزوين، وعاد إلى الريّ وأقام بها إلى أن توفي المعتمد على الله في سنة تسع وسبعين ومائتين.

وإنما ذكرنا أخبار أحمد ورافع في هذا الموضع لتعلقهما بالدولة الصفارية.

تمّ الجزء الخامس والعشرون،
ويليه ـ إن شاء الله تعالى ـ الجزء السادس والعشرون،
وأوله: ذكر أخبار الدولة الديلمية الجيلية

---

(١) هو أحمد بن عبد الله الخجستاني الخارج بنيسابور، مات سنة ٢٦٤. والخجستاني: نسبة إلى خجستان من أعمال باذغيس... فإن أهلها شراة... (معجم البلدان).

فهرس المحتويات